النار والجليد

الامبراطورية الحمراء:
من المهد إلى اللحد

اعداد
مجموعة من المؤلفين

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع

النار والجليد

● النار والجليد ـ الأمبراطورية الحمراء: من المهد إلى اللحد

● مجموعة من المؤلفين

● الطبعة الأولى أيلول ١٩٩٢

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف ٣١٨٤٢٦ ـ ص. ب ١٤/٥٣٩٢ بيروت ـ لبنان

المحتويات

مقدمة الناشر

النار والجليد ـ الزلزال السوفياتي (البداية والنهاية) ـ صراع البوكر والشطرنج ـ نهاية أمبراطورية ـ آخر أمبراطورية الحمر ـ بداية الثورة الحمراء ونهاية القيصر.

كلها يافطات تصلح كلها أو بعضها كعنوان رئيسي لهذا الكتاب. وإذا كان لابد من الاختيار بالنهاية لعنوان وحيد فلقد تم تفضيل العنوان الأول على ما عداه رغم أن الكل يحمل نفس المعنى والفحوى لقصد هذا الكتاب.

نار استعرت كالهشيم في أكتوبر ١٩١٧ لتدق بالمنجل والمطرقة الحمراء كل أوروبا والعالم ولتبشر بأمبراطورية الشغيلة على أنقاض أمبراطورية القياصرة ولتفرض نفسها فرضاً كقوة رئيسية عسكرياً وأيديولوجياً ولتزاحم على مدى سني الحرب الباردة العالم الغربي وزعامته الولايات المتحدة الأميركية.

وجليد لفّ بصقيعه أرجاء هذه الأمبراطورية ليبرد بالتالي مواقفها الداخلية والخارجية وليفرض عليها عزلة من الستار الحديدي «الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود» وإذا استثنينا بعض الشواهد والمواقف الحاسمة للموقف السوفياتي خلال حقبة الصراع الطويل مع الغرب لوجدنا أن كل المواقف وردات الفعل على متغيرات وحوادث حصلت في العالم وما أكثرها إما اتسمت بالبرودة الشديدة أو بالتجاهل ليكون الرد السوفياتي قد فاتت فاعليته أو جدواه حتى أصبح العالم الشيوعي والمتحالف معه كقطع من

حجارة الشطرنج تسقط الواحدة تلو الأخرى بفعل غياب الحماية والمواجهة.

رحلة في عالم الاتحاد السوفياتي: بيلوغرافية وسياسية وأيديولوجية، وأمبراطورية شاسعة الأطراف والمرامي وهي التي تشكل سدس الكرة الأرضية تهاوت بفعل عوامل داخلية متعددة وخارجية متربصة حتى آن أوان القطاف فكان الزلزال الكبير.

ومواقف وآراء بالذي حدث فضلاً عن حكاية العرب والسوفيات سياسياً وعقائدياً مروراً بالعلاقات المخابراتية لكبير جواسيس السوفيات كيربيشنكو والذي لأول مرة يتكلم ويفشي الكثير من الأسرار في مذكراته.

كل هذا عدا عن دور اليهود في المجتمع السوفياتي قديماً وحديثاً حتى الهجرة إلى أرض الميعاد.. الدور والهدف.

وقبل كل شيء القادة الذين تعاقبوا على السلطة من لينين إلى يلتسين مع أهم المحطات التاريخية والحاسمة في عمر الاتحاد السوفياتي والذي ناهز الأربع وسبعون عاماً.

كتاب أردنا له أن يكون مرجعاً للذي حدث منذ البداية وحتى النهاية علنا نضيف للمكتبة العربية جهداً متواضعاً بتسليط الأضواء للمقدمات والنتائج من وجهة نظر عربية بعد أن احتكرت المؤلفات الأجنبية معظم الذي كُتب عن هذا الحدث ـ الزلزال.

الناشر

المقدمة

أحداث التاريخ الحاسمة تبدأ بمقدمات قد تطول أو تقصر حسب أهمية الحدث وتأثيراته لكن الزلزال هنا ليس عادياً ولا يمكن لكل المقدمات مهما كبر حجمها أن تكون المؤشر الطبيعي للذي جرى وحدث في الاتحاد السوفياتي.

إنه الزلزال بكل ما تحمله الكلمة من معنى ومغزاً. إنه بكل الاختصار للحدث نهاية أمبراطورية عظمت وكبرت وتربعت على عرش الكرة الأرضية منفردة في بعض الأحيان ومشاركة لطرف آخر في زعامة العالم دون منازع في أحيان أخرى.

ولنبدأ هنا من النهاية لنعود مع بداية فصول هذا الكتاب إلى البداية:

حين رفع ميخائيل غورباتشوف الغطاء عن فوهة البركان عام ١٩٨٥، كان يتوقع بالتأكيد أن يكتوي باللظى، ولكنه لم يكن يعرف أن الحمم ستكتسحه وتهد أركان الجبل الذي بدا للكثيرين طوداً شامخاً. لكن سنوات بيريسترويكا العجاف كشفت مدى النخر الذي أصابه من الداخل.

كان غورباتشوف أعلن إثر توليه الزعامة في آذار(مارس) ١٩٨٥ أنه يطمح إلى قيادة بلاده نحو القرن الحادي والعشرين ليصنع منها دولة ديموقراطية ذات اقتصاد سليم على أن يكون لها موقعها بين الأقطاب الكبار، لكنه أضاع البلد وضيع الكرسي الذي كان يوفر لصاحبه سلطات لا حدود لها.

وكان من الواضح أن يد الأقدار لا دخل لها في اختيار غورباتشوف لدور المصلح، إذ أن إشارات انحدار الاتحاد السوفياتي نحو الهاوية الاقتصادية ظهرت قبل مجيئه بسنوات، وأصبح التغيير نفسه قدراً، وحاول أن يبدأ به الزعيم الراحل يوري أندروبوف الذي حكم سنة ونصف السنة وتوسم في أصغر أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي الخلف الذي يمكن أن يقود من بعده البلد بيد صارمة.

لكن الصراع بين القديم والجديد لم يكن حسم بعد فتولى السلطة قسطنطين تشيرنينكو لتزيد في عهده مشاكل البلد حدة. وأدى ذلك إلى وضع ورقة أخرى في يد غورباتشوف ومناصريه من أعضاء القيادة. غير أن الأمين العام الجديد الذي أدرك أنه يقود شاحنة كبيرة على طريق جبلي كان يخشى المنعطفات الحادة فظل يؤكد في بداية حكمه على «العودة إلى اللينينية» والإبقاء على الدولة الموحدة.

وعلى حد تعبير فيتالي تريتياكوف رئيس تحرير «الصحيفة المستقلة». أراد غورباتشوف أن يعالج أمراض بلاده بدواء الديموقراطية والعلنية (غلاسنوست) لكن «المريض مات لأنه لم يتحمل الجرعة على ضآلتها. وخلافاً للصين أراد غورباتشوف أن يبدأ الإصلاح ليس من الاقتصاد بل بإطلاق مبادرة الشارع على أمل تشغيل الآلة المتصدئة ومواجهة التحرك المحتمل من الأجهزة القديمة. وحاول الزعيم السوفياتي الاستعانة بالسياسة الخارجية لدعم الإصلاحيات وتوفير الموارد الهائلة التي كانت تنفق على الأغراض العسكرية والتعاون مع الغرب لتحديث الاقتصاد المتخلف الذي كان أكد أنه أدى إلى انحدار بلاده من دولة عظمى إلى بلد من العالم الثالث يصدر الخامات ويستورد السلع الجاهزة.

لكن الغرب الذي اجتاحته موجة الحب العارم لرئيس «أمبراطورية الشر» لم يكن متسرعاً في مد يد العون لزعيم الحزب الشيوعي ولم يقدم عملياً أي ثمن لسحب القوات السوفياتية من أفغانستان وأوروبا الشرقية وإنهاء حلف وارسو وتوحيد ألمانيا والتخلي عن دعم الأنظمة التي تعتبرها الولايات المتحدة توتاليتارية في العالم الثالث بفضل غورباتشوف ومباركته.

وفي موازاة ذلك كان غورباتشوف يقوم بمناورات صعبة في الداخل ليقلص دور الحزب الشيوعي ونفوذه محاولاً في الوقت ذاته التصدي لعملية هز القارب في صورة تؤدي إلى انقلابه. وإثر أول انتخابات ديموقراطية نسبياً عام ١٩٨٩ تعقدت هذه المهمة بقيام كتلة معارضة في مؤتمر نواب الشعب تزعمها منافسه بوريس يلتسن الذي قاد حملة لإسقاط المادة السادسة من الدستور القاضية بأن الحزب الشيوعي هو «القوة الرائدة» في المجتمع. وحاول غورباتشوف أن يمسك العصا من الوسط ويطلق حرية نسبية للمعارضة التي لم تكن استكملت بعد استقطابها في أحزاب وتنظيمات، وفي الوقت ذاته أراد عدم تأليب المحافظين داخل حزبه بعد أن أفاقوا من هول الصدمة

الأولى أخذوا يستجمعون صفوفهم مجدداً. وفي هذا السياق كان طموحه إلى استحداث منصب الرئاسة الذي أنتخب إليه في مؤتمر نواب الشعب في ربيع ١٩٩٠، ليستمد سلطة شرعية إلى جانب صلاحياته في قيادة الحزب، رغم اعتراضات الكثيرين على جمعه بين المنصبين.

ولكن التأرجح على حافة الهاوية عملية صعبة ولا يوجد فوق الحبل متسع لغير شخص واحد، مما أفقد غورباتشوف رفاق طريقه من اليسار واليمين وتركه عملياً وحيداً وسط الأمواج العاتية التي كان هو شخصياً محركها الأكبر.

ففي المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي صيف ١٩٩٠ دفع تعاظم نفوذ المحافظين المراقبين إلى افتراض هجوم شامل يشن على الأمين العام، ولكن رجل المناورات الحاذق أعطاهم عظمة بتسليمهم قيادة الحزب الشيوعي الروسي واستولى على اللحمة باقصائه يغور ليغاتشوف وسائر قادة الجناح المحافظ عن مواقعهم في المكتب السياسي.

وبدا للكثير آنذاك أن غورباتشوف حسم موقفه وانتقل إلى مواقع الليبراليين وأعلن تأييده لبرنامج «٥٠٠ يوم» الاقتصادي الراديكالي. ولكنه فاجأ الكثيرين بتراجعه بعد يومين فقط عن القرار وذكر ستانيسلاف شاتالين الذي كان من أقرب مستشاري الرئيس أنه أرغم على هذه الخطوة في اجتماع عقد ليل ١٨/١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) وحضره قادة الحزب الشيوعي والقوات المسلحة. وعلى طريقة «اكلمك يا بنتي واسمعك يا جارتي» أخذ المحافظون يشنون هجوماً ضارياً وسافراً على مساعدي غورباتشوف المصنفين في الخانة الليبرالية وعلى رأسهم الكسندر ياكوفليف «عراب» بيريسترويكا ووزير الخارجية ادوار شيفارنادزه الذي قدم استقالته في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠ محذراً من «زحف الديكتاتورية».

ومع تنامي النزعات الانفصالية خصوصاً في جمهوريات البلطيق وجد غورباتشوف نفسه أمام خيارين، فإما أن يرخي الحبل للقوميين ويشده على عنقه أو يسمح للمتشددين باستخدام القوة. ولكنه اختار طريقاً ثالثاً وهو التغاضي عن قمع الحركات الانفصالية في فيلنوس وريغا واحتلال المنشآت الحكومية فيهما من قبل «لجان الإنقاذ» التي اعتبر تحركها البروفة العاملة الأولى لإنقلاب آب (أغسطس)، وكان يعني انقطاع الشعرة التي تربط الرئيس بالليبراليين. ولكي لا يبقى وحيداً اختار

غـورباتشـوف فريقـاً جـديـداً تـوخى أن يكـون من المنفـذين الـطيعـين وجـاء بغينـادي يانايف من الصفوف الخلفية ليجعله نائباً لرئيس الدولة رغم إسقاط ترشيحه في مؤتمر نواب الشعب.

ولكن ضعف مـواقـع الـرئيس والخـوف من تصـاعـد المـد الليـبرالي والمـوجـة الانفصالية دفع المنفذين إلى شق عصا الطاعة على والي نعمتهم واقصائه من السلطة في انقـلاب ما زالت تفـاصيله تثير تسـاؤلات كثيرة. ففي ١٩ آب (أغسـطس) تمرد عـلى رئيس الدولة نـائبه والقـائم بأعـماله ورئيس الـوزراء ووزراء الدفـاع والداخلية والأمن والنائب الأول لرئيس مجلس الدفاع، الذي أعلنوا حال الطوارىء وأنزلوا إلى الشوارع مدرعات خالية من الذخيرة توقفت حائرة عند مقر البرلمان الروسي أمـام متاريس هشـة وضعها بضعة آلاف من المتظاهرين.

وبعد فشـل التمرد لم يجد غورباتشوف حصانـاً أبيض يركبـه ليدخـل العاصمـة التي عاد إليها مصاحباً (أو مخفـوراً؟) برجـال من قيادة روسيـا الاتحاديـة التي لم يصفق نواب برلمـانها للرئيس بل وجهـوا إليه سلسلة من التسـاؤلات المهينة عن «ضلوعـه» في انقلاب آب ٩١.

واضطر الزعيم السوفياتي إلى التخلي عن مـواقعه واحـداً إثر آخـر فاستقـال من الأمانة العامة للحـزب الشيوعي وعـطل أعمال الحـزب الذي حكم البلد ٧٤ عـاماً ثم اقتسم عملياً قيادة القوات المسلحة مع الرئيس الـروسي بوريس يلتسن ورجله القـوي يفغيني شابوشنيكوف الذي عين وزيراً للدفاع وحول الكثير من صلاحيات الرئاسة إلى «مجلس الدولة» الذي أصبح بديلاً عن مؤتمر نواب الشعب الملغى.

وجاءت الضربة القاصمة من مينسك حيث وقع الأقـطاب الكبار رؤسـاء روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا بيانـاً يلغي الاتحاد الســوفياتي ويعلن قيـام أسرة الدولـة المستقلة. وقام غورباتشوف المحصور في الزاوية بمحاولة أخيرة وفاشلة للمقاومة مستنجداً بالغرب الذي قرر أن يكف عن المراهنة عل حصان خاسر.

وباتفاق الأطراف أفهم غورباتشوف علنـاً وعلى رؤوس الاشهـاد في قمة المـا آتا والتي انعقدت في كانون الأول ٩١ أن المؤسسة الرئاسية لم يعد لها وجود. . . فقـرر أن يرحل، عسى أن يدخل المحراب من جديد.

ومهما حصل لاحقاً فإن ميخائيل غورباتشوف ضمن لنفسه موقعاً كمصلح كبير أطلق الزلزال الكبير في القرن العشرين فعقد قراناً محرماً بين الكبريت والبارود وكان الحريق الكبير الذي أعاد الاتحاد السوفياتي (سابقاً) إلى القرون السابقة عصر المقاطعات والإمارات بدل التطور لملاقاة القرن الواحد والعشرون.

ولكن طموحه لكسب التاريخ منوط بنتيجة التطورات المتسارعة والشبه يومية والتي كان هو أول من أفلت لها العنان فيما كان يسمى سابقاً بالاتحاد السوفياتي. فالبدائل حتى الآن لم تخرج عن نطاق الأمنيات والأحلام والتسول من دول العالم التي سارعت لإقامة جسور جوية لتدعم بالبطانيات والخبز والغذاء «العالم» الذي كان لفترة قصيرة جداً أول من اكتشف الفضاء الخارجي فاحتكر ريادة التقدم العلمي كما احتكر القوة العسكرية الأكبر والأضخم في العالم.

طموح الشعوب هو دائماً إلى الأمام إلى التقدم والرخاء والرفاهية لكن الواقع السوفياتي اليوم بكل آلامه وحروبه الأهلية المستعرة والمؤشرات على استمرارها وحتى اتساعها وانتشارها تكاد تكون حقيقة مستقبلة مظلمة للغد السوفياتي. الأجل كل ذلك كانت كل هذه التطورات الدرامية التي عاشها هذا العالم في السنوات الأخيرة. لو سلمنا جدلاً أن كل ما حدث هو محض قرار ذاتي سوفياتي؟

عودة مجدداً إلى البداية:

الاتحاد السوفياتي، هو الاسم الذي أطلق على الامبراطوية الروسية، مثله مثل بقية الأمبراطوريات التي قامت على استعمار شعوب أخرى، ويشير التاريخ بوضوح إلى أن هذه الأمبراطوريات لها دورات زمنية قد تطول أن تقصر ولكنها تنتهي إلى الانهيار الحتمي، وآخر هذه الأمبراطوريات هو الأمبراطورية البريطانية التي كانت توصف بأن الشمس لا تغيب عن أراضيها.

وقد يختلف البعض على بداية انهيار الأمبراطورية البريطانية، إلا أن بداية الانهيار السريع بدأت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وجاءت خاتمته في العالم العربي عندما تم إعلان استقلال مستعمرة عدن واليمن الجنوبي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧.

والأمبراطورية الروسية، مثل غيرها من الأمبراطوريات توسعت عن طريق احتلال الشعوب المجاورة، ففي الشمال احتلت فنلندا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا، كما

احتلت في الجنوب الممالك الإسلامية ومناطق شاسعة من أراضي منغوليا. وعلى اثر الحرب العالمية الأولى، نجحت شعوب عدة في نيل استقلالها، ومنها فنلندا واستونيا وليتوانيا ولاتفيا.

وقام الاتحاد السوفياتي على أنقاض الأمبراطورية الروسية الاستعمارية في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢، وحتى يضمن استمرار احتلاله للدولة الإسلامية في الجنوب قرر عام ١٩٢٤ تقسيم تركستان، ذات الحكم الذاتي، إلى خمس جمهوريات على أن تنضم إلى الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي استغرق ١٢ عاماً، كما تم حل اتحاد القوقاز إلى ثلاث جمهوريات هي: جورجيا وأرمينيا وأذربيجان، وتم ضمها إلى الاتحاد السوفياتي.

ثم عاد الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية إلى التوسع من جديد واحتل أستونيا ولاتفيا وليتوانيا ومولدافيا وكاريليا. وبذلك أصبح عدد الجمهوريات التي تشكل الاتحاد السوفياتي ١٦ جمهورية معظمها تضم شعوباً ليس لها علاقة عرقية أو لغوية بروسيا بل يختلف بعضها عنها في العقيدة كالشعوب الإسلامية في الجنوب. ومن دون الدخول في تفاصيل التاريخ الروسي وحروبه في الشمال أو الجنوب، وخصوصاً حروبه مع الدولة العثمانية وايران واقتطاعه أراض شاسعة من الدول الإسلامية فإن الاتحاد السوفياتي هو في النهاية إحدى الأمبراطوريات الاستعمارية، التي تحتم الدورة التاريخية لمثيلاتها من الأمبراطوريات بالانهيار.

وقد يكون الأمر الشديد الغرابة أن شعوب العالم كانت ترى أمامها دولة سبقت الولايات المتحدة علمياً عندما أطلقت أول قمر اصطناعي في العالم، كذلك عندما أرسلت إلى الفضاء يوري غاغارين في خطوة هي الأولى في العالم، فتيقنت شعوب الكرة الأرضية أن الاتحاد السوفياتي هو الدولة الأولى في التقدم العلمي، إلى جانب امتلاكه أكبر قوة عسكرية، إلا أنه لم يكن يستطيع اتخاذ المزيد من الخطوات للتوسع بسبب خوفه من الردع النووي الذي تملكه الولايات المتحدة، وأحداث كوبا عام ١٩٦٣ ماثلة في الأذهان.

وجاءت المفاجأة الكبرى أن دولة بمثل هذه الإمكانات الهائلة تنهار في أسابيع قلائل وتختفي السلطة المركزية، ويتبين أنه لم يكن يجمع هذه الشعوب سوى عقيدة

ثبت فشلها ولفظتها شعوب الاتحاد السوفياتي وفي مقدمتها الشعب الروسي نفسه صاحب السيطرة الحقيقية داخل الاتحاد السوفياتي.

والانهيار الذي حدث أضخم بكثير مما يتصوره البعض، إذ أن الكومنولث المحدث سيكون أشبه بنظام له أسس دولية متعارف عليها تمكنه من مواجهة المشاكل الاقتصادية التي تعاني منها حالياً الجمهوريات المستقلة.

فهو بكل اختصار العودة إلى الدول ذات السيادة المستقلة تماماً والتي ستتعاطى مع بعضها كما تتعامل مع الآخرين من دول العالم.

فصول هذا الكتاب عديدة ومركزة بحجم الحدث بذاته. نستعرض معاً مراحل نمو هذه الأمبراطورية منذ اللبنة الأولى وقيام الحركة الشيوعية والمراحل التي مرت بها داخلياً وخارجياً والعلاقات مع العرب ومع اليهود السوفيات حتى ظهور غورباتشوف والانقلاب السياسي والأيديولوجي الذي قاده وردة الفعل التي قادت لانقلاب آب ٩١ وبروز زعامة يلتسين «المنقذ والمحرر» حتى نهاية الأمبراطورية وتفككها إلى جمهوريات مستقلة وكأنها ستار زجاجي تفتت برمية حجر.

الفصل الأول

شروق شمس الامبراطورية الروسية

عام ١٤٨٠ كان نقطة البداية في تكوين الأمبراطورية الروسية. ففي هذا العام أعلن إيفان الثالث، أمير دوقية موسكو، التمرد على حكم التتر الذين كانت جحافلهم قد انطلقت من صحراء جوبي، قبل ذلك التاريخ بأكثر من قرنين ونصف القرن، لتجتاح سهول سيبيريا، ثم تنطلق منها عبر الفجوة الواقعة بين جبال الأورال وبحر قزوين، لتغزو الإمارات الروسية التي ظلت، لقرون عديدة تعيش متفرقة متشرذمة داخل المربع الذي يحده شرقاً نهر الدنيبر، وغرباً نهر الفستولا، وشمالاً مستنقعات برييب، وجنوباً جبال الكربات ونهر الدنيستر.

ونجح إيفان الثالث في تحدي سلطة الحكم التتري الذي كان قد اعتراه الوهن، الأمر الذي أغرى إيفان بأن يبدأ ما عرف في التاريخ بعملية «تجميع الأراضي الروسية» أي توحيد الإمارات الروسية المتفرقة، والتي عانت من الحكم التتري لأكثر من قرنين من الزمان. ولم يأت عام ١٤٩٤ إلا وكان قد نجح في ضم إمارة نوفوغورود ومستعمراتها في أعالي الفولغا، وإمارة تيفير، ثم إمارة فيازما التي استرجعها سلمياً من الدولة الليتوانية البولندية.

وواصل فاسيلي الثالث، ومن بعده إيفان الرابع، ما بدأه إيفان الثالث. ولم يمض نصف قرن حتى كان سلطان التتر على الإمارات الروسية قد زال تماماً، وأعلن إيفان الثالث نفسه قيصراً (أمبراطوراً) على كل أجزاء روسيا التي أمكن حتى ذلك الوقت توحيدها تحت سلطان موسكو.

ولم يقف طموح خلفاء إيفان الثالث عند حد توحيد الإمارات الروسية، بل امتد شمالاً وغرباً إلى الإمارات السلافية غير الروسية. فبدأ فاسيلي الثالث يتقدم نحو سمولنسك عام ١٥١٤. ثم في عهد إيفان الرابع بدأ غزو الروس لخانيات التتر في وسط آسيا، فضم خانية قازان الشاسعة، والجزء الأكبر من خانية استراخان.

وابتداء من عام ١٥٨١ أخذ الروس يتجهون شرقاً، فعبروا جبال الأورال حيث استولوا على خانية سيبير (سيبيريا) التترية. وبعد ٦٧ عاماً فقط كانوا قد وصلوا في تقدمهم شرقاً إلى ممر بهرنغ الفاصل بين سيبيريا وألاسكا، فعبروه وأقاموا بألاسكا مستعمرة ظلت تحت سلطانهم إلى أن بيعت إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٧.

وكان الحكم قد آل في عام ١٦١٣ إلى أسرة رومانوف باعتلاء ميخائيل رومانوف عرش موسكو، ومنذ بداية حكم هذه الأسرة حتى نهايته في عام ١٩١٧، ظل الهدف الثابت لقياصرتها هو الوصول إلى «البحار المفتوحة» بشكل عام، وإلى «المياه الدافئة» بنوع خاص. هذا بالإضافة إلى استمرار توسعهم جنوباً بإتمام احتلال الجزء الجنوبي من سيبيريا، والخانيات التترية في وسط آسيا التي تضم ما يعرف حالياً باسم «جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية» وهي جمهوريات كازاخستان، وأزبكستان، وتركمانيا، وطاجيكستان، وقرغيزيا.

وقد اتخذ الاندفاع الروسي نحو البحار المفتوحة اتجاهات ثلاثة: فوصلوا جنوباً إلى بحر أزوف والبحر الأسود، ولكن الأمبراطورية العثمانية، التي كانت تتحكم في مضايق الدردنيل والبوسفور، حالت بينهم وبين الوصول إلى البحر المتوسط. وقد اكتسبت الأمبراطورية الروسية خلال هذه المسيرة أراضي أوكرانيا الجنوبية، وأراضي القوقاز التي تضم حالياً ثلاث جمهوريات سوفييتية هي جمهوريات جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان، مصطدمة خلال ذلك في حروب لم تكد تتوقف خلال ثلاثة قرون مع السلطنة العثمانية. وأما في الشمال فكان اتجاههم نحو بحر البلطيق، وهنا اصطدموا بالسويد التي كانت تسيطر على ولايات البلطيق، والتي أوقعت بالروس سلسلة من الهزائم المنكرة خلال نصف قرن، قبل أن ينتصروا عليها في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٣ - ١٧٢٥) ويستولوا على ولايات البلطيق التي تمثل حالياً ثلاث جمهوريات سوفييتية هي جمهوريات ليتوانيا، واستونيا، ولاتفيا. وأما في الشرق فقد استمرت مسيرتهم عبر سيبيريا، التي أقاموا بها مستوطنات في أحواض الأنهار وحول البحيرات، إلى أن وصلوا إلى شاطىء المحيط الهادي. ولم يصطدموا خلال هذه المسيرة بأية قوة منافسة إلا عندما وصلوا إلى نهر آمور في المنطقة المطلة على بحر اليابان وخليج ترتاري، فقد كانت الأمبراطورية الصينية، قد أخذت تنهض بدورها بعد أن تخلصت

من الحكم التتري ـ في نفس الوقت الذي تخلصت فيه روسيا من ذلك الحكم ـ وكانت الصين تعتبر الجزء من أمبراطورية التتر المنهارة ميراثاً شرعياً لها. واستمر التنازع على هذه المنطقة أكثر من قرنين إلى أن حسم لصالح روسيا بمعاهدة بكين الإضافية عام ١٨٦٠، وكانت العلاقات الروسية الصينية قد أخذت في التحسن، وازدادت بعد ذلك توثقاً بعد نمو قوة اليابان، وظهور أطماعها في الأراضي الصينية، وخاصة في كوريا ومنشوريا المتاخمتين لحدود روسيا.

انحلال وسقوط الأمبراطورية الروسية

منذ أواسط القرن التاسع عشر أخذت التناقضات الخارجية بين مصالح الأمبراطورية الروسية والأمبراطوريات الأخرى تنمو وتتزايد على نحو مطرد. ففي الشرق الأقصى كان ثمة تناقض بين مصالحها ومصالح الأمبراطوريات الغربية التي انقضت على الصين تتقاسمها فيما بينها من ناحية، وبين مصالح روسيا ومطامع الأمبراطورية اليابانية الناهضة من ناحية أخرى. وفي الشرق الأدنى كانت مطامعها في ميراث الأمبراطورية العثمانية المتهاوية تتناقض مع مطامع الأمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، اللتين كانتا تتطلعان إلى الاستيلاء على هذا الميراث. في الغرب كان تعاظم قوة ألمانيا، خاصة بعد توحيدها، وما تتطلع إليه من التوسع شرقاً يمثل تناقضاً آخر، هذا بالإضافة إلى التناقض المزمن بين الأمبراطورية الروسية وأمبراطورية النمسا والمجر في تنازعهما للسيطرة على الدول السلافية في البلقان وشرق أوروبا.

وقد كانت الهزيمة المنكرة نصيب روسيا في كل تحدٍ واجهت به أياً من هذه التناقضات. ففي حرب القرم عام ١٨٥٦ تدخلت بريطانيا وفرنسا إلى جانب تركيا؛ الأمر الذي أوقع بالروس هزيمة قاسية. وفي الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤ أحاقت بروسيا هزيمة أخرى، فطردت من كوريا ومنشوريا، وفقدت ميناء بورت آرثر وهو الميناء «الدافىء» الوحيد للأسطول الروسي في المحيط الهادي ـ وكانت روسيا قد حصلت من الصين على امتياز استخدامه دون باقي الدول الأخرى.

ولم تكن التناقضات الداخلية أقل أثراً، في تفسخ الأمبراطورية، من التناقضات الخارجية. فنظام الحكم الاستبدادي البوليسي، والعلاقات الاجتماعية المتخلفة؛ أدت بدورها إلى تخلف الدولة حضارياً عن ركب التقدم الذي قطعت فيه الدول الامبريالية

الأخرى أشواطاً واسعة، كما أدت من ناحية أخرى إلى اختمار الثورة بين الجماهير المتطلعة إلى أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية أفضل.

وجاءت النهاية مع الحرب العالمية الأولى؛ حيث زادت الهزيمة العسكرية من الاختمار الثوري وأدت إلى تفجر الثورة، وسقوط الحكم القيصري، ونهاية الأمبراطورية التي قام على أطلالها اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، وانتصار ثورة البلاشفة عام ١٩١٧ وإعلان السلطة الشورية حق تقرير المصير لشعوب المستعمرات وأشباهها، لتختار بين الاستقلال والاتحاد الفيدرالي مع الدولة المركزية (جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية) وتفضيل شعوب المستعمرات الاختيار الثاني القائم على الانضمام إلى الاتحاد الفيدرالي الذي تغير اسمه إلى «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والذي تشكل من ١٥ جمهورية» عُرف اختصاراً بالاتحاد السوفياتي. وضم ١٢٦ قومية مختلفة امتدت مساحته الشاسعة إلى أكثر من ٢٢ مليون كيلومتر مربع مشكلاً نصف مساحة القارة الأوروبية و ٤٠٪ من مساحة القارة الآسيوية.

الفصل الثاني

البداية : الحركة الشـيوعية

مقدمـة :

قبـل أن تضع الحـرب العالميـة أوزارها، انـدلعت الثورة في بـطرسبرج عاصمة القياصرة (١٢ آذار ١٩١٧). وانفجرت الفئات الشعبية مطالبة بالمواد الغذائية والفحم والحطب، وتألفت لجنـة تنفيذيـة وحكومـة مؤقتة يـراقبها مجلس ثـوري قوامـه الجنود والعمّال؛ وانتهى الأمر بإزاحة آل رومانوف عن الحكم.

وبعـد فترة سيـطر الاشتراكي كـيرنسكي على الحكـومة المؤقتـة، فاستبـد وأعلن الجمهـورية (١٥ أيلول). ولم يستقم الأمـر له لسببـين: أولهما الصبغـة البـورجـوازيـة الملازمة للحكـومة وثـانيهما مـواصلة الحرب. فـانقلب عليه البـولشفيك بقيـادة لينـين وتروتسكي العائدين بمساعدة ألمانيا من منفاهما بسويسرا.

١٩١٧ : الانقلاب ـ الثورة

وراقت أفكـار لينين لفئـات العمل والجنـود والفلاحـين: «السلطة للسوفيـات، والأرض للفلاحين، والسلم للشعب، والخبز للجياع»، فالتفوا حوله في خلايا شيوعية ومجـالس (سوفيـات). ولمـا كـان الخـامس والعشرون من ت ١ (أكتـوبـر) أو٧ ت ٢ ١٩١٧ حسب التقويم الجديد، انقلبت «اللجنة العسكرية الثورية» و «الحرس الأحمر» بقيادة تروتسكي (رئيس سوفيات بطرسبرج) على الحكومة المؤقتة، مستفيـدة من غياب كيرنسكي. فاستـولى لينين عـلى السلطة، وأقال الحكـومة المؤقتـة، وأعلن قيام «حكم بولشفي سوفياتي».

وتألفت مجالس (سوفيات) عـلى مختلف المستويـات، قوامهـا الجنود والفـلاحون والعـمال البـلاشفـة، وأشرفت عـلى شتى الأمـور. وأخيـراً اجتمـع ممثلون عن هـذه المجالس في بطرسـبرج، وحلّوا محل الـدوما القـديمة. وهكـذا غدت هـذه السوفيات المنتشرة في كـل مكـان وعـلى مختلف المستـويـات ـ من القـريـة الصغـيرة حتى المجلس

الأعلى ـ أداةً لتدعيم النفوذ المركزي بإشراف الحزب البولشفي (أو الحزب الشيوعي الروسي منذ آذار ١٩١٨) بعد أن توزعت خلاياه في كل مكان وكل مؤسسة وكل مجلس فأمسى يمارس رقابة فعلية على كل شيء.

أول جمهورية اشتراكية اتحادية سوڤياتية

وتعيّن على سادة روسيا الجدد أن ينفذوا ما وعدوا به؛ فأصدروا سلسلة من القرارات قضت بمصادرة أراضي النبلاء والأكليروس دون تعويض، وبتركها للفلاحين يستغلونها دون أن يمتلكوها بانتظار سياسة اشتراكية شاملة (٧ و٨ ت ٢ ١٩١٧). فلاءمت هذه الإجراءات طبيعة الطبقات الفقيرة، وأتاحت لأفرادها أن ينفسوا عن أحقادهم المكبوتة وأن يشبعوا نهمهم إلى ملكية الأرض. ورافقتها أعمال شغب؛ من مهاجمة لفئات النبلاء والبورجوازيين والموظفين والمحتكرين، ومن نهب للبيوت والمخازن، فيما كانت الحرب الأهلية بدورها تقضي على ما تبقى من اقتصاديات البلاد، والجوع يهدد ملايين الروس. وتغاضت الدولة عن قصد، واشتهرت عن لينين كلمته: «انهبوا ما قد نهب منكم».

وصدرت قرارات تؤمم المصانع وتضعها تحت رقابة العمّال مباشرة؛ فتعرضت للنهب فالتوقف عن الإنتاج. وأممت المصارف والتجارة والسكك الحديدية، وسقطت الديون. ونشر ستالين، أحد مساعدي لينين، بيانات تقول بالمساواة الاجتماعية والسياسية بين السكان، وباحترام اللغات والتقاليد والمعتقدات المحلية. وانهار النقد فدرجت المقايضة، وهلل الشيوعيون لهذا الانهيار لأنه يضع حداً للاستغلال التجاري ويحرم كل من لا يعمل من تأمين قوته اليومي، وفي ذلك ضربة قاصمة للطبقات البورجوازية وقد كانت تتكل على ما لديها من أموال.

وما إقامة المجالس (السوڤيات) وتوزيعها على مختلف المستويات من جهة، وثورة الكادحين على مستغلّيهم بتشجيع من المسؤولين من جهة ثانية، إلّا تطبيق لمبدأ «دكتاتورية البروليتاريا». وتلك خطوة ضرورية ـ حسب ماركس ـ يستطيع بها البروليتاريون أن ينفسوا عن كل ما لحقهم من ظلامات سابقة؛ فيصبحوا بعدها مهيّأين لتقبل النظام الاشتراكي. ولما نشر الدستور الجديد (١٠ تموز ١٩١٨) إذا به يعلن قيام أول «جمهورية اشتراكية اتحادية سوڤياتية» عاصمتها موسكو، ويكرّس «حرب الطبقات» و«دكتاتورية البروليتاريا»، ويتيح للبروليتاريين اشتراكاً فعلياً في

الحياة السياسية عندما أعطاهم وخدهم حق الانتخاب والترشيح وحرم من هذا الحق أسيادهم السابقين. «فانتهى عهد استغلال الانسان للانسان». غير أن معركة الشيوعيين مع أخصامهم كانت لا تزال في بدايتها؛ ففي الداخل تعرض لينين لمحاولة اغتيال (٣٠ آب ١٩١٨) واضطر للجم الفوضى باعتماد الإرهارب وإطلاق يد التشيكا (أو البوليس السرّي)، وفي الخارج كانت كل البلدان الرأسمالية تساند المنشفيك(*) وجيوشهم البيضاء للقضاء على الثورة.

جيوش القيصر: البيض لمواجهة الحمر (الشيوعيين)

الثورة والثورة المضادة...

مذ قامت ثورة أكتوبر، دخل البلاشفة في مفاوضات صلح منفردة مع ألمانيا، ورضوا مرغمين بصلح بريست ـ ليتوڤسك (٣٠ آذار ١٩١٨). وبموجبه سلخت عن روسيا كل الدول المجاورة لها والخاضعة للقياصرة سابقاً، أي: فنلندا، ليتوانيا، ايستونيا، ليتونيا، بولندا، أوكرانيا بالإضافة إلى القفقاس. وقبل أن تنتهي الحرب بهزيمة ألمانيا بادرت الدول الغربية إلى تنشيط المقاومة ضد الثورة البولشفية وفي يقينها أن روسيا القيصرية تمر بتجربة ليس إلاّ. ومد الحلفاء يد المساعدة إلى المنشفيك واحتضنوا الحكومات التي تأسست في الخارج وساعدوا «الجيوش البيضاء» لمقاومة الثورة. ومكث العالم الخارجي يترقب بفارغ صبر نهاية الحكم السوڤياتي. وزاد في استعداد الثورة البلشفية للغرب أن «الأممية الثالثة» أو الكومينترن قد انعقدت في موسكو (آذار ١٩١٩) بتسهيل من زعماء روسيا الجدد (الأممية الأولى انعقدت في لندن ١٨٦٤، والأممية الثانية انعقدت في باريس ١٨٨٩).

وتقدمت «الجيوش البيضاء» على مختلف الجبهات، وباتت روسيا مهددة بعد أن احتل البريطانيون أرخانجلسك في الشمال، والفرنسيون أوديسًا في الجنوب، واليابانيون ڤلاديڤوستوك في الشرق، والبولنديون مدينة كييف عاصمة أوكرانيا (١٩٢٠). وحيال الخطر المحدق من كل صوب، أظهر تروتسكي في تنظيم المقاومة مقدرة وحماساً فائقين؛ فنظم «الجيش الأحمر» وعدته أكثر من مليون تساندهم فئات الفلاحين وقد استماتوا في الدفاع للإبقاء على ما نالوه من أراضي سيسترجعها أصحابها حتماً في حال

(*) جيوش النبلاء والاقطاع.

فوز المنشفيك، فيما عمدت السلطة إلى سياسة الإرهاب ونشط البوليس السرّي (التشيكا) لتصفية المشبوهين. إلاّ أن عوامل الضعف لدى «الجيوش البيضاء» كانت كثيرة أبرزها أنها تنتمي إلى أربع عشرة جنسية مختلفة، وأن الروس بدورهم منقسمون في ميولهم حول الحلفاء والألمان وحول عودة الملكية المطلقة وإقامة الملكية الدستورية أو الجمهورية؛ مما أعجز خصوم الثورة عن تكوين جبهة متماسكة في وجه البولشفيك. وفيما العالم كله ينتظر انهيار الثورة الروسية في صيف ١٩١٩ ونهاية التجربة البولشفية إذا بالجيوش البيضاء تتراجع منهزمة على عدة جبهات. وفتر حماس الغرب للمنشفيك، وتجلّى الفتور بتصريح لويد جورج علناً عن عدم استطاعته تغذية هذه الحرب باستمرار رغم معارضة وزير حربيته ونستون تشرشل (ت ٢ ١٩١٩). وعقد البولنديون مع موسكو صلح ريغا (١٩٢١). وبه انتهت الحرب الأهلية. وما هي إلا برهة حتى عقدت انجلترا معاهدة تجارية مع موسكو. وفي ١٦ نيسان من العام التالي (١٩٢٢) اعترفت ألمانيا بالاتحاد السوفياتي، وكانت الشيوعية بما توحيه من خطر على الأنظمة الرأسمالية المنتصرة في الحرب هي التي جعلت التقارب بين الاتحاد السوفياتي وألمانيا المهزومة، هذا التقارب الذي شبه آنذاك «برقصة بين أعمى وأعرج».

وتتالت الاعترافات بعد ذلك، فانفك طوق العزلة عن البلاشفة. وبدت هذه الاعترافات بالنسبة للغرب ضرورة لاستمرار الاستقرار في الوضع الدولي بعد أن اقتنع بعجزه عن إسقاط النظام الجديد في روسيا، أما بالنسبة للينين فالمعاهدات «ان هي إلا طريقة لاستعادة القوى». وأهم الاعترافات حصلت عام ١٩٢٤ (من قبل فرنسا وايطاليا وبريطانيا) ثم عام ١٩٢٥ (من قبل اليابان). أما اعتراف الولايات المتحدة فلم يتم إلا أيام روزفلت (١٩٣٣).

وبقي خارج نطاق الدولة الجديدة كل من بولندا الروسية، وفنلندا، ودول البلطيق الثلاثة (استونيا، ليتوانيا، لاتفيا) ثم بيسارابيا التي سلحتها رومانيا، وبعض مناطق الشرق الأقصى وقد احتلها اليابان. وبعبارة أخرى خسرت روسيا ٨٨٧ ألف كم من أراضيها وستة وعشرين مليوناً من سكانها.

«شيوعية الحرب»

لمواجهة الحرب الأهلية وما خلقته من فوضى وأوضاع متردية، تعيّن على لينين تأمين الضرورات الأولية للبلاد، فاتخذ سلسلة من التدابير الحاسمة أطلقت عليها

تسمية «شيوعية الحرب». فعمد إلى التقنين، وفرض العمل الإجباري فعوقب المتخلف عن العمل والفارّ من الجندية. وصودرت بعض الأملاك المنقولة لتأمين حاجات الجنود والمدن والمناطق المهددة بالجوع. وأُلزم المزارعون بتسليم غلالهم للدولة، وأممت المصانع وجُعل عليها مجالس تسهر على الإنتاج، فتحول العمال المشرفون عليها إلى ممثلين عن النقابات العمالية فقط، وفرضت الإقامة الجبرية على العامل إذ لا يسمح له بمغادرة منطقته؛ «فتحولت دكتاتورية البروليتاريا إلى دكتاتورية على البروليتاريا». وما انتهت الحرب الأهلية حتى بات كل شيء بيد الدولة؛ فانصرف لينين إلى ترسيخ الثورة، تلك «القفزة» الضرورية لتطور المجتمع البشري حسب ماركس.

السياسة الاقتصادية الجديدة (١٩٢١ - ١٩٢٢)

لم يستطع لينين الإسراع في إقرار ما وعد به الفلاحين والعمّال، لأن الحرب الأهلية قد أدت إلى انهيار روسيا اقتصادياً. وما أن أعلنت السلطات أن «كل خيرات الأرض ملك للدولة» وحاولت مصادرة الغلال والماشية لتموين المدن والجيش الأحمر حتى امتنع الفلاحون عن التعاون، وبدأوا يتساءلون عن جدوى أخذهم الأرض ما دام الإنتاج سيصادر وما دام العمل الإجباري يحولهم إلى «عبيد للدولة». فاحجموا عن العمل، وأهملوا الزراعة. وحلت بالبلاد مجاعة قضت على خمسة ملايين نسمة (أواخر ١٩٢١). وتدنّى الإنتاج حتى بات شبه مشلول. وظهر لدى الشعب اتجاه لرفض الشيوعية والاكتفاءبالمجالس (السوفيات). ولاحت بوادر تمرد لدى الجيش نفسه خاصة في كرونستادت على بحر البلطيق حيث تعالت الهتافات: «لتحيّ السوفيات دون الشيوعيين».

ساعتئذٍ تعينّ على لينين أن يفاضل بين العقيدة والواقع، فاختار الواقع، بعد أنْ اقتنع برفض الشعب لفكرة الشيوعية ما لم تكن هناك مرحلة انتقالية يستطيع خلالها أن يتقبل أساليب تطبيق الاشتراكية. فلا بد والأمر كذلك من تراجع مؤقت، فتحول عن موقفه الأول ليبدأ ما سمّاه «سياسة اقتصادية جديدة» أو «النيب» .N.E.P (منذ صيف ١٩٢١). «لأن الطرق تتبدل بتبدل الظروف، والعقيدة لا يجب أن تحجب الواقع». وبموجب «النيب» ألغى لينين إجراءات «شيوعية الحرب» القاضية بمصادرة الأملاك، واكتفى بالضرائب العينية. وأعطى الفلاحين حرية بفائض غلالهم واعترف لهم بحق

الإرث. فنشطت التجارة الداخلية، واستعادت المؤسسات الصناعية الصغيرة نشاطها. غير أنه أبقى رقابة الدولة على المصانع الكبرى والتجارة الخارجية والمواصلات خوفاً من عودة الطبقة البورجوازية إلى التسلط على اقتصاد البلاد. وطلب قروضاً من الخارج واستقدم الخبراء الأجانب من بريطانيين وفرنسيين وأميركيين وألمان. فأمسى التنظيم الاقتصادي الجديد مزيجاً من الشيوعية والرأسمالية، عاد معه النشاط إلى مختلف القطاعات، خاصة بعد إصدار الروبل الذهبي في شباط ١٩٢٤ فانتهى عهد المقايضة. لكن فئتين جديدتين من الميسورين ظهرتا: الكولاك (أو المستفيدون) في القرى، والنيبمن (أو المحتكرون) في المدن. أما مَن عارضوا هذه السياسة، أي النيب، من غلاة الشيوعيين فقد كانت التشيكا كفيلة باقناعهم.

قيام الاتحاد السوفياتي (١٩٢٢)

منذ أواخر سنة ١٩٢٢ أعلن قيام «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية»، وقد ضم في البدء جمهوريات: روسيا مع سيبيريا، وروسيا البيضاء (بيلوروسيا)، وأوكرانيا. ثم انضمت سائر الجمهوريات تباعاً (تركمانستان - أوزبكستان - ترانسكوكازيا. . .). وأُقر دستور فدرالي جديد نصّ في مقدمته على السعي لإقامة جمهورية سوفياتية اشتراكية عالمية، وجاء في شكله النهائي كما يلي:

يختار الشعب ممثليه من بين المرشحين الرسميين، ويلتئم المنتخَبون في جمعية عامة لها السلطة العليا وتدعى «السوفيات الأعلى». ولما كانت الجمعية هذه تنعقد دورياً، انبثق عنها مجلس أعلى (بريزيديوم) يضم سبعة وعشرين عضواً وينوب عن السوفيات الأعلى خلال الفترات الفاصلة بين الدورات. ويختار البريزيديوم بدوره «مجلس مفوضي الشعب»، أي ما نسميه نحن مجلس الوزراء.

وقد عزّز الدستور الجديد وضع العمّال بشكل خاص، وساير مختلف القوميات فجعلها على قدم مساواة، غير أنه لم يعط المقترعين حق التصويت السرّي. وأتيح للأمين العام للحزب الشيوعي أن يتولى السلطة الفعلية نظراً لسيطرة الحزب نفسه على مختلف المؤسسات «فتمكن هذا الرجل الفرد أن يمسك بكل الخيوط» وأن يستبد بواسطة البوليس السري. وقد كان ستالين هو الذي يتولى هذا المنصب منذ مرض لينين عام ١٩٢٢.

بين ستالين وتروتسكي

منذ أصيب لينين بالشلل (ربيع ١٩٢٢ ثم توفي في صيف ١٩٢٤) خلفه ستالين في منصب الأمين العام للحزب الشيوعي. وأضحت السلطة في يد ثلاثة: تروتسكي وهو الأبرز وستالين وزينوفييف. وما لبث الصراع أن احتدم بين تروتسكي وستالين «رديفي لينين غير المنسجمين». وانطلق الخلاف من نظرة كليهما إلى «السياسة الاقتصادية الجديدة»؛ فانبرى تروتسكي ينتقد بطء الصناعة الثقيلة وما ينجم عنه من تخلف في سائر القطاعات الصناعية ومن تأخير في تطبيق وتثبيت الاشتراكية، وقام يهاجم الحرية التجارية في الداخل لأنها مهدت الطريق أمام الكولاك والنيبمن. وراح يشدد في كل مواقفه على تشجيع «الثورة الدائمة» وبثها خارج روسيا لتصبح ذات صبغة عالمية.

والتزم ستالين بصرامة وهدوء جانب الدفاع عن «النيب»، لأنها قضت على المجاعة ونشطت الصناعة وحرّكت عجلة الاقتصاد، عدا كونها مرحلة «تنفُّس» ضرورية قبل الانتقال إلى خطوة جديدة. وبفضل مركزه كأمين عام للحزب الشيوعي استطاع ستالين أن يجمع حوله أكثرية النافذين، فتخلّص بمساعدتهم من تروتسكي وأقصاه عن وزارة الحربية عام ١٩٢٥. ولدى انعقاد المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي (١٩٢٧) خذل المؤتمرون تروتسكي، ففقد مناصبه الأخرى في اللجان ونفي إلى التركستان (ألما أتا)، وفي العام التالي طرد خارج الاتحاد السوفياتي فانتهى به الأمر في المكسيك حيث اغتيل عام ١٩٤٠. وأضحى ستالين السيد المطلق، واختفى اسم زينوفييف وسواه من المتنفذين بسهولة وبساطة.

المرحلة الستالينية

كان على ستالين إسكات المعارضة التروتسكية؛ فهو بالرغم من دفاعه عن «النيب» لا يستطيع إنكار صحة آراء تروتسكي، لا سيما أن فئة الكولاك أخذت تثير نقمة الفلاحين ويسار النيبمين يثير امتعاض العمال. وفي مقال شهير نشره في «البرافدا» ودعاه «النيب إلى الجحيم»، أعلن ستالين عن نهج اقتصادي جديد هو «الخطة الخمسية». وكان هدفه منها مزدوجاً: أولاً جعل الاتحاد السوفياتي قوة صناعية ضخمة، وثانياً اعتماد سياسة زراعية اشتراكية. وبهذه العبارات أوضح ستالين أهداف

خطته الخمسية (Piatiletka): «نحن اليوم نحقق أمراً، يمكنه إذا نجح، أن يقلب العالم ويحرر كل الطبقة العاملة. . . ويجب أن نتقدم بشكل تستطيع معه البروليتاريا العالمية أن تقول: هذه هي طليعتنا، وهذا هو وطننا».

لقد أولت الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٨ - ١٩٣٣) الصناعة الثقيلة كل اهتمام؛ فاستقدم الخبراء الأجانب وجلّهم من الأميركيين. مما خلق نواة صناعة ثقيلة جاءت على غرار مثيلتها في الولايات المتحدة، وانتظمت ضمن مجموعات ضخمة (كومبينات). وشجعت المعاهد لإعداد المهندسين والمعاهد الفنية لتهيئة العمال، فارتفعت نسبة الأيدي العاملة إلى ٣٥ بالماية بعد أن كانت ١٧ بالماية قبل الحرب. وفي الخطة الخمسية الثانية تعززت الصناعة الخفيفة بغية رفع مستوى المعيشة وتنشيط المواصلات والتجارة. وكوفىء العمال المتفوقون بإعطائهم أجوراً أعلى. واختفى المبدأ القائل «لكل حسب إنتاجه»، وهذا ما عرف بالستاخانوفية (مشتقة من اسم العامل ستاخانوف الذي فاقت إنتاجيته في استخراج الفحم في مناجم الدونيتز الحد المفروض بخمسة عشر ضعفاً عام ١٩٣٥). وقفزت أرقام إنتاج الفحم والصلب والنفط والكهرباء بسرعة مذهلة، وتعدّت كل الحدود المرسومة لها في الخطة الخمسية. وأعطيت المصانع مزيداً من الاستقلال والحرية، وبات يديرها ثلاثة هم: المدير العام والمدير الفني وممثل عن العمّال.

أما في الحقل الزراعي، فقد قاوم الكولاك الخطة الخمسية الأولى، فاضطهدتهم السلطات. واقتنع الفلاحون طائعين حيناً ومرغمين حيناً بضرورة تجميع ممتلكاتهم ومواشيهم في مجموعات تعاونية هي الكولخوزات، يديرونها بواسطة هيئة منبثقة عنهم. وشجعتهم السلطة بتوزيع الآلات والجرارات عليهم، وأقامت في الأراضي العائدة للدولة أو المهملة مؤسسات تجارب يعمل فيها موظفون اختصاصيون، هي السوفخوزات أو «مصانع القمح» كما دعيت. فأصاب هذا التنظيم الزراعي نجاحاً كبيراً بالرغم من تعرض الإنتاج لنكسة مؤلمة عام ١٩٣٣. واستطاع ستالين بذلك أن يحول الفلاح إلى عامل زراعي وأن يمحو الفارق التقليدي في طبيعتها.

وعند نهاية الخطة الخمسية الثانية، شاءت الظروف الدولية أن يوجّه الاتحاد السوفياتي جهوده نحو الإنتاج الحربي.

المظهر الجديد والتوجيه

مع المرحلة الستالينية دخل الاتحاد السوفياتي طوراً جديداً في حياته. والخطط الخمسية أتت بمثابة تطبيق للإشتراكية على الصعيد الاقتصادي، والدستور الجديد (المعلن عام ١٩٣٦) كان تكريساً للمبادىء الاشتراكية على الصعيد الاجتماعي. فقد ألغيت الطبقية بزوال البورجوازيين والمستفيدين والمحتكرين، ولم يعترف الدستور الجديد بغير طبقة العمال بمعناها الشامل (العامل والفلاح والمثقف). وارتاح الكثيرون لحق الملكية الصغيرة والاقتراع السرّي. ولو شئنا أن نستعرض الأطوار التي مر بها الاتحاد السوفياتي لقلنا بأنه قد عرف أولاً مرحلة «دكتاتورية البروليتاريا» ثم مرحلة التطبيق الاشتراكي ولا يزال فيها؛ والمرحلة الثالثة وهي التي يصبو إليها الشيوعيون ولم يدخلوها بعد هي مرحلة الشيوعية.

وكل ما لحق الاتحاد السوفياتي من تبدلات كان مبدئياً في سبيل الوصول إلى مجتمع تبرز فيه كفاءات الفرد وتختفي ضمنه الفوارق الطبقية؛ فكلا الأمرين ضروري لاختصار الطريق نحو الشيوعية. لذلك نشط التعليم وغدا إجبارياً حتى قضى على الأمية المتفشية. وتقدم العلم بخطى حثيثة فترك منجزات ضخمة. وإنما مقابل ما يعد به النظام الجديد من إمكانية لبروز كفاءة الفرد وسعادته فقد حرمه من حريته في ميادين الفكر والعمل والنقابات والاضرابات والانتقال حتى داخل الاتحاد السوفياتي، بالرغم من كل ما قدمه الشعب السوفياتي من تضحيات. وبعبارة موجزة غدا الفرد مسخراً للدولة ولا ضير أن يضحي به من أجل المصلحة العامة عملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. وعبثاً حاول المسؤولون التقليل من مظهر استبداد الدولة، إلا أن التشيكا أو البوليس السرّي أثناء الحرب الأهلية، ثم منظمة غيبيو «سيف الدولة المضطرم» التي حلت محل التشيكا (منذ ١٩٢٢)، ثم صلاحيات وزارة الداخلية منذ ١٩٣٤ (تاريخ حل الغيبيو)، قد مارست كلها كبتاً للحريات واستبداداً نفّر الشعب منها.

وقد برزت في سياسة الاستبداد مرحلتان قاسيتان، أولاهما خلال عامي ١٩٢٧ و١٩٢٧ أي عند التخلص من المعارضة التروتسكية؛ والثانية عام ١٩٣٨ حيث بدأت عملية «التطهير» التي تلت اغتيال أحد معاوني ستالين (كيروف) في لينينغراد ١٩٣٦ وقد اتهم بها بعض الزعماء الشيوعيين. غير أن بادرة التقرب من الشعب الوحيدة التي تخللت هاتين الفترتين هي نشر دستور ١٩٣٦ الذي عدّل جزئياً بنود دستور ١٩٢٤

وأقر للشعب بحق الاقتراع السرّي وزاد من عدد ممثليه في مختلف السوفيات. فاستفاد من هذا الدستور الاكليروس المضطهد، والكولاك المنفيون إلى سيبيريا إذ سمح لهم بالعودة بعد أن أظهروا طواعية للنظام الجديد.

قبيل الحرب

منذ عام ١٩٣٨ قضت الظروف الدولية بأن تنصب الجهود لتعزيز الإنتاج الحربي؛ فاهتم المارشال ڤوروشيلوف بإعداد وتعزيز الطاقة العسكرية. وقد جاء الدستور الجديد (١٩٣٦) محاولة للتقرب من الشعب واستعداداً لنزاع عسكري محتمل. وحظي الشباب باهتمام خاص، وانتظمت فئاته في هيئات مختلفة (كومسومول). فتضخمت قوة الاتحاد السوفياتي بسرعة، ولما انفجرت الحرب العالمية الثانية تبيّن هتلر مدى خطأه في امتهانه لها. ولم يكن هتلر وحده مخطئاً في التقدير؛ فالعالم الرأسمالي كله قد ظنّ حملات التطهير المتواصلة نذيراً بقرب انهيار الاتحاد السوفياتي. فاخطأت كل التقديرات.

ملاحق الفصل الثاني

قرار حول تغيير اسم الحزب وتعديل برنامجه

يقرر المؤتمر أن حزبنا (حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي البلشفي) سيسمى بعد الآن الحزب الشيوعي الروسي مع إضافة كلمة البلشفي بين هلالين.

ويقرر المؤتمر تعديل برنامج حزبنا، مع تعديل القسم النظري منه أو تكميله بتعريف للامبريالية ولعهد الثورة الاشتراكية العالمية البادىء.

ثم يجب أن يتلخص تعديل القسم السياسي من برنامجنا في إعطاء أدق وأكمل تعريف ممكن عن الطراز الجديد للدولة، عن جمهورية السوفييت، بوصفها شكلاً لديكتاتورية البروليتاريا واستمراراً لمكتسبات الثورة العمالية، هذه المكتسبات التي دشنتها كومونة باريس. ويجب أن يشير البرامج إلى أن حزبنا لن يعدل عن استخدام البرلمانية البرجوازية أيضاً، إذا ما دفعنا مجرى النضال إلى الوراء بعض الوقت نحو هذه المرحلة التاريخية التي تجاوزتها ثورتنا الآن. ولكن الحزب سيناضل في كل حال، وأياً كانت الظروف، في سبيل جمهورية السوفييت، بوصفها طراز الدولة الأعلى من حيث الديموقراطية وبوصفها شكلاً لديكتاتورية البروليتاريا، في سبيل خلع نير المستثمرين وسحق مقاومتهم.

ويعهد المؤتمر إلى لجنة خاصة بصياغة برنامج حزبنا وفقاً للتوجيهات المعروضة وقدر الإمكان دون تأخير، وإقراره بوصفه برنامج حزبنا.

البرافدا ـ العدد ٤٥، ٩ آذار ١٩١٨: لينين ـ المختارات ـ دار التقدم ـ موسكو. مجلد ٢، ج ٢، ص ٢١١

مرسوم بتشكيل حكومة العمال والفلاحين

إن مؤتمر نواب العمال والفلاحين في عامة روسيا يرسم ما يلي:

١ ـ تشكّل حكومة مؤقتة عمالية وفلاحية تسمى مجلس مفوضي الشعب من أجل إدارة البلاد حتى انعقاد الجمعية التأسيسية.

٢ ـ الإشراف على مختلف فروع حياة الدولة وتأمين تطبيق البرنامج الذي أعلنه

المؤتمر، بالوحدة الوثيقة مع المنظمات الجماهيرية للعمال والعاملات والبحارة والجنود والفلاحين والمستخدمين.

٣ ـ السلطة الحكومية تخص هيئة رؤساء هذه اللجان، أي مجلس مفوضي الشعب.

٤ ـ الرقابة على نشاط مفوضي الشعب وحق عزلهم يعودان لمؤتمر سوفييتات نواب العمال والفلاحين والجنود في عامة روسيا وللجنة التنفيذية المركزية.

٥ ـ في الوقت الحاضر، يتشكل مجلس مفوضي الشعب من الأشخاص التالين:

رئيس المجلس ـ فلاديمير اوليانوف (لينين)؛

مفوض الشعب للداخلية ـ أ. وي. ريكوف؛

للزراعة ـ ف. ب. ميليوتين؛

للعمل ـ أ. غ. شليا بنيكوف؛

للحربية والبحرية ـ لجنة قوامها: ف. أ.

أوفسيينكو (انطونوف)، و ن. ف.

كريلينكو، و ب. ي. ديبنكو

للتجارة والصناعة ـ ف. ب. نوغين

للتعليم العام ـ ا. ف. لونا تشارسكي

للمالية ـ ي. ي. سكفورتسوف (ستيبانوف)

للخارجية ـ ل. د. برونشتين (تروتسكي)

للعدلية ـ غ. اي. ابّوكوف (لوموف)

للتموين ـ اي. أ. تيودوروفيتش

للبريد والبرق ـ ن. ب. افيلوف (غليبوف)

الرئيس في شؤون القوميات ـ ي. ف.

جوغا شفيلي (ستالين).

٦ ـ منصب مفوض الشعب لشؤون السكك الحديدية يبقى موقتاً غير مشغول.

٢٦ ت ١ (٨ ت ٢) ١٩١٧ لينين ـ المختارات ـ دار التقدم ـ موسكو. مجلد ٢، جزء ٢، ص ٢٥

النضال الطبقي ينتهي الى نشوء معسكرين

في كل مجتمع تتصادم مطامح البعض مع مطامح البعض الآخر، وأن الحياة الاجتماعية مليئة بالتناقضات، وإن التاريخ يكشف لنا عن النضال الذي يقوم بين الشعوب والمجتمعات، كما يقوم داخل الشعوب والمجتمعات نفسها، وأنه يبين لنا أيضاً مراحل متعاقبة من الثورة والرجعية، من السلم والحروب، من الركود والتقدم السريع أو الانحطاط. إن الماركسية قد رسمت النهج الموجه الذي يتيح اكتشاف وجود القوانين في هذا التعقيد والتشوش الظاهر، ونعني بهذا النهج نظرية النضال الطبقي. فقط دراسة مجمل المطامح لدى جميع أعضاء مجتمع ما، أو عدد من المجتمعات، تسمح بتحديد نتيجة هذه المطامح تحديداً علمياً. هذا مع العلم أن المطامح المتناقضة يولدها تباين الأوضاع وشروط الحياة لدى الطبقات التي ينقسم إليها كل مجتمع. يقول ماركس في «البيان الشيوعي»: «إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا (ثم يضيف انجلس فيما بعد: ما عدا المشاعية الابتدائية) لم يكن سوى تاريخ نضال بني الطبقات. فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد الاقطاعي والمزارع والمعلم والصانع، أي بالاختصار المضطهِدون والمضطهَدون، كانوا في تعارض دائم، وكانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائماً إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره، وإما بانهيار الطبقتين معاً... أما المجتمع البورجوازي الحديث، الذي خرج من أحشاء المجتمع الاقطاعي الهالك، فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات، بل أقام طبقات جديدة محل القديمة، وأوجد ظروفاً جديدة للاضطهاد وأشكالاً جديدة للنضال بدلاً من القديمة. إلا أن الذي يميز عصرنا الحاضر، عصر البرجوازية، هو أنه جعل التناحر الطبقي أكثر بساطة. فإن المجتمع آخذ بالانقسام، أكثر فأكثر، إلى معسكرين فسيحين متعارضين، إلى طبقتين كبيرتين، العداء بينهما مباشر: هما البورجوازية والپروليتاريا.»

لينين ـ المختارات ـ مجلد ، ج ١، ص ٤٢ دار التقدم ـ موسكو

٢٥ أكتوبر (ت ١ ١٩١٧) الساعة العاشرة صباحاً

«إلى مواطني روسيا

أُسقطت الحكومة المؤقتة. وانتقلت سلطة الدولة إلى يد هيئة سوفييت نواب

العمال والجنود في بتروغراد، أي إلى اللجنة الثورية العسكرية التي ترئس پروليتاريا بتروغراد وحامية بتروغراد.

إن القضية التي ناضل الشعب في سبيلها: عرض صلح ديمقراطي على الفور، إلغاء ملكية الملاكين العقاريين للأرض، رقابة العمال على الإنتاج، إنشاء حكومة سوفييتية، إن هذه القضية قد تأمنت.

عاشت ثورة العمال والجنود والفلاحين.»

اللجنة الثورية العسكرية لدى سوفييت نواب العمال والجنود في بتروغراد

دار التقدم ـ موسكو ـ الترجمة العربية، المجلد الثاني، الجزء الأول ص ٦٢١

٢٤ ت ١ ١٩١٧ (٦ ت ٢) رسالة إلى أعضاء اللجنة المركزية، من لينين

أيها الرفاق!

أكتب هذه الأسطر مساء الرابع والعشرين، والوضع حرج ما بعده حرج. وواضح في منتهى الوضوح أن التباطؤ في الانتفاضة هو الآن، حقاً وصدقاً، أشبه بالموت.

إنني أبذل جميع جهودي لكي أقنع الرفاق بأن كل شيء الآن متعلق بشعرة، وبأن القضايا الواردة في جدول الأعمال قضايا لا تحلها الاجتماعات ولا المؤتمرات (حتى وإن كانت مؤتمرات السوفييات)، بل تحلها بوجه الحصر الشعوب، الجمهور، نضال الجماهير المسلحة.

... لا يجوز الانتظار. ينبغي، بأي ثمن كان، اليوم مساءً، اليوم ليلاً اعتقال الحكومة ونزع سلاح طلاب المدارس الحربية (والتغلب عليهم إذا قاوموا)، ... لا يجوز الانتظار!! فمن الممكن خسارة كل شيء!!...

يجب أن تتعبأ جميع المناطق، جميع الأفواج، جميع القوى على الفور وترسل حالاً الوفود إلى اللجنة الثورية العسكرية، إلى لجنة البلاشفة المركزية لكي تطالب بإلحاح: لا يجوز في أي حال من الأحوال إبقاء السلطة في أيدي كيرنسكي وشركاه حتى الخامس والعشرين، بأي شكل كان، يجب حل المسألة اليوم بكل تأكيد، مساءً أو ليلاً.

الحكومة تهتز. فيجب الإجهاز عليها مهما كلّف الأمر.
التباطؤ في العمل أشبه بالموت.»

عن لينين ـ المختارات ـ دار التقدم ـ موسكو المجلد الثاني، الجزء الأول ـ الترجمة العربية ص ٦١٨

٢٥ ـ ٢٦ ت ١ (٧ ـ ٨ ت ٢) ١٩١٧ (بعد نجاح الانقلاب)

«إلى العمال والجنود والفلاحين!

افتتح المؤتمر الثاني لسوفييتات نواب العمال والجنود في عامة روسيا. وفيه تتمثل الأغلبية الكبرى من السوفييتات. كذلك يحضر المؤتمر جملة من المندوبين عن سوفييتات الفلاحين. انتهت صلاحيات اللجنة التنفيذية المركزية التوفيقية. واستناداً إلى إرادة الأغلبية الكبرى من العمال والجنود والفلاحين، واستناداً إلى الانتفاضة المظفرة التي قام بها عمال بتروغراد وحاميتها، يأخذ المؤتمر السلطة في يده.

الحكومة المؤقتة أُسقطت، أغلبية أعضاء الحكومة المؤقتة تم اعتقالهم.

إن السلطة السوفييتية ستعرض الصلح الديمقراطي فوراً على جميع الشعوب، والهدنة فوراً في جميع الجبهات. وستؤمن وضع أراضي الملاكين العقاريين وأراضي الأسرة القيصرية وأراضي الأديرة تحت تصرف لجان الفلاحين دون أي تعويض، وتضمن حقوق الجندي بإشاعة الديمقراطية التامة في الجيش، وتبسط الرقابة العمالية على الإنتاج، وتؤمن عقد الجمعية التأسيسية في حينه، وتُعنى بايصال الحبوب إلى المدن وسلع الضرورة الأولية إلى الأرياف، وتؤمن لجميع الأمم القاطنة في روسيا الحق الفعلي في تقرير مصيرها.

إن المؤتمر يرسم ما يلي: تنتقل السلطة بكاملها في المطارح إلى سوفييتات نواب العمال والفلاحين التي يجب بالذات أن تؤمن النظام الثوري حقاً.

إن كيرنسكي وكاليدين وغيرهما يقومون بمحاولات لسوق العساكر على بتروغراد وبعض الفصائل التي خدعها كيرنسكي وحثّها على الزحف، انتقل إلى جانب الشعب المنتفض.

أيها الجنود أبدوا مقاومة نشيطة بوجه كيرنسكي! كونوا على يقظة!

يا عمال السكك الحديدية، أوقفوا جميع القطارات التي يرسلها كيرنسكي على بتروغراد!

مؤتمر سوفييتات نواب العمال والجنود في عامة روسيا. مندوبو سوفييتات الفلاحين ص ٥ ـ دار التقدم ـ موسكو

بوادر المجاعة

«من لا يشتغل، لا يأكل» ـ كيف العمل لتطبيق هذا المبدأ؟ إنه لواضح وضوح النهار أنه ينبغي لهذا الغرض في بادىء الأمر أن يكون هناك احتكار الدولة للحبوب، أي منع كل تجارة خاصة بالحبوب منعاً مطلقاً، والزام تسليم جميع فوائض الحبوب إلى الدولة، بالأسعار الثابتة، وكذلك منع أي امرىء منعاً مطلقاً من الاحتفاظ بفوائض الحبوب وإخفائها. وينبغي، ثانياً، إجراء حساب صارم لجميع فوائض الحبوب والقيام كما ينبغي وبصورة لا عيب فيها، بنقل الحبوب التي تفيض فيها إلى المناطق التي تنقصها، وخزن الحبوب الضرورية للاستهلاك، والتكييف، والبدر. وينبغي، ثالثاً، القيام بتوزيع الخبز بين جميع مواطني الدولة، تحت مراقبة دولة العمال، دولة البروليتاريا، على أن يكون هذا التوزيع سديداً، عادلاً، لا يمنح الغني أي امتياز أو أية أفضلية.

إن رومانوف وكيرنسكي قد خلّفا للطبقة العاملة بلاداً دمرتها تماماً حربهما اللصوصية، المجرمة البالغة القساوة، بلاداً نهبها الاستعماريون الروس والأجانب ولم يبقوا فيها شيئاً. ولن يكون ثمة خبز يكفي الجميع إلا إذا أخذنا بالحسبان، وبكل صرامة، كل بود من الحبوب (١٦,٣٨٠ كغ)، وإلا إذا وزعنا كل رطل من الخبز حصصاً متساوية تماماً. إن خبز الآلات، أي المحروقات، ينقصنا أيضاً إلى حد كبير جداً: فإن السكك الحديدية والمعامل ستتوقف وستقضي البطالة والمجاعة على الشعب بأسره، إذا لم نوجه جميع جهودنا لكي نعمل، بصرامة لا هوادة فيها، على التوفير في الاستهلاك، لكي نؤمن توزيعاً صائباً.

إن احتكار الدولة للحبوب موجود عندنا بموجب القانون ولكنه يتعرض أبداً، بالفعل، لتخريبات البرجوازية. إن غني الريف، الكولاكي، هذا الأخطبوط الذي نهب منطقته كلها خلال عشرات السنين، يفضل الإثراء عن طريق المضاربة، عن

طريق تقطير الكحول من الحبوب. ففي ذلك فائدة كبرى لجيبه. أما المسؤولية عن المجاعة، فإنه يلقيها على سلطة السوفييت.»

من رسالة من لينين إلى اعمال بتروغراد نشرت في البرافدا بتاريخ ٢٤ أيار ١٩١٨
لينين ـ المختارات ـ مجلد ٢، جزء ٢، ص٣٤٢ و ٣٤٣. دار التقدم ـ موسكو

الفصل الثالث

النظام السياسي للإتحاد السوفياتي

النظام السياسي:

بموجب دستور عام ١٩٧٧، يعتبر الاتحاد السوفييتي رسمياً دولة اتحادية، تتألف من ١٥ جمهورية متساوية، ومندمجة بإرادتها بالاتحاد السوفييتي، على أن لها الحق، مبدئياً، في الانفصال عنه. تضم جمهوريات الاتحاد السوفييتي جمهوريات ذات حكم ذاتي، ومقاطعات ذات حكم ذاتي. كما تضم جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية المكونة من ١٠ مناطق قومية.

السلطة العليا في يدي المشرّع الثنائي: السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي، وهو يتألف من مجلسين: مجلس الاتحاد ويضم ٧٦٧ عضواً منتخباً؛ ومجلس القوميات ويضم ٧٥٠ عضواً (٣٢ من كل جمهورية اتحادية، و ١١ من كل من الجمهوريات العشرين ذات الحكم الذاتي، وواحد من كل من المناطق القومية العشر).

يتمتع المجلسان بحقوق وسلطات متساوية. ينتخب أعضاؤهما بواسطة الاقتراع السري لمدة أربع سنوات. وفي جلسة مشتركة ينتخب المجلسان مجلس السوفييت الأعلى (٣٩ عضواً) كي يقوم بالمهام التشريعية الدائمة بين دورتي المجلسين السنويتين ويعتبر رئيس مجلس السوفييت الأعلى رئيساً للدولة. كذلك يقوم مجلس السوفييت بتعيين مجلس الوزراء الذي يشكل الجهاز التنفيذي والإداري للحكومة، وهو مسؤول أمام مجلس السوفييت.

لكل جمهورية اتحادية دستور ونظام حكم مماثل لدستور الحكم المركزي ونظامه. ولكن السوفييت الأعلى فيها ذو مجلس واحد (أي بدون مجلس قوميات).

- يبنى تنظيم الدولة السوفييتية وعملها وفقاً لمبدأ المركزية الديمقراطية - انتخاب جميع هيئات سلطة الدولة من تحت إلى فوق وخضوعها للمحاسبة من قبل الشعب وإلزامية قرارات الهيئات العليا للهيئات الدنيا.

ـ تعمل الدولة السوفييتية وجميع هيئاتها على أساس الشريعة الاشتراكية، وتضمن حماية النظام الحقوقي ومصالح المجتمع وحقوق المواطنين وحرياتهم.

ـ تطرح أهم مسائل حياة الدولة للمناقشة الشعبية العامة، وكذلك التصويت الشعبي العام (الاستفتاء).

ـ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي هو القوة القائدة والموجهة للمجتمع السوفييتي ونواة نظامه السياسي ومؤسسات الدولة والمنظمات الاجتماعية.

ـ يحدد الحزب الشيوعي المسلح بالتعاليم الماركسية اللينينية الأفق العام لتطور المجتمع وخط السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد السوفييتي.

ـ تعمل جميع المنظمات الحزبية في إطار دستور الاتحاد السوفييتي.

ـ النقابات واتحاد الشبيبة الشيوعي اللينيني لعموم الاتحاد السوفييتي والمنظمات التعاونية وغيرها من المنظمات الاجتماعية، تشترك ـ وفقاً للأهداف المنصوص عليها في أنظمتها الداخلية ـ في إدارة شؤون الدولة والمجتمع وفي حل المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ـ الاتجاه الأساسي لتطوير النظام السياسي للمجتمع السوفييتي هو توسيع دور المواطن باستمرار: اشتراك المواطنين على نطاق متزايد أبداً في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، واستكمال جهاز الدولة، وإنماء نشاط المنظمات الاجتماعية، وتشديد الرقابة الشعبية، وتدعيم الأساس الحقوقي لحياة الدولة والمجتمع، وتوسيع العلنية، وأخذ الرأي العام بعين الاعتبار دائماً».

السياسة الخارجية: تُسيَّر السياسة الخارجية السوفييتية وفق المبادىء الدستورية التالية:

● «يثابر الاتحاد السوفييتي جاهداً على سياسة السلام اللينينية، ويعمل لتدعيم أمن الشعوب وكما يعمل من أجل التعاون الدولي الواسع.

تستهدف سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية تهيئة الظروف الدولية الملائمة لبناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، والذود عن مصالح الدولة السوفييتية وتعزيز مواقع الاشتراكية العالمية، وتأييد نضال الشعوب من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي، والحيلولة دون نشوب الحروب العدوانية، وتحقيق نزع السلاح الكامل والشامل وتطبيق مبدأ التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة.

السلطة السياسية في يدي الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. وهو الحزب الشرعي الوحيد، الذي يتصرف تصرفاً مطلقاً بالشؤون الاقتصادية ويسيطر على الحكومة سيطرة تشمل كافة مستوياتها. أعلى سلطة في الحزب هي مؤتمر الحزب الذي ينعقد مرة كل خمس سنوات. وينتخب المؤتمر اللجنة المركزية التي تراقب عمل الحزب وتوجه سياسة الدولة. وتنتخب مكتباً سياسياً هو أقوى جهاز حزبي وسياسي في البلاد يرسم سياسة الحزب والدولة.

باستثناء جمهورية روسيا الاتحادية، فإن لكل اتحادية حزبها الشيوعي ولجنتها المركزية التي يتزعمها سكرتير أول. إلا أن هذه الأحزاب فروع من الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي، وهي خاضعة لإدارته.

الدســـتور

الدستور الجديد: يحدد دستور الاتحاد السوفييتي الجديد (١٩٧٧) النظام السياسي المتبع في عدة مواد هذه أهمها:

- «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية هو دولة اشتراكية للشعب بأسره، تعبر عن إرادة ومصالح العمال والفلاحين والمثقفين، شغيلة جميع أمم البلد وأقوامه.
- كل السلطة في الاتحاد السوفياتي للشعب.

يمارس الشعب سلطة الدولة عن طريق سوفييتات نواب الشعب التي تشكل الأساس السياسي للاتحاد السوفييتي. وتخضع جميع هيئات الدولة الأخرى للرقابة والمحاسبة من قبل سوفييتات نواب الشعب.

تحظر الدعاية للحرب في الاتحاد السوفياتي.

● تقوم علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول الأخرى على أساس التقيد بمبادىء المساواة في السيادة، والامتناع المتبادل عن استخدام القوة أو التهديد بالقوة، واحترام الحدود، ووحدة أراضي الدول، وتسوية النزاعات سلمياً، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية، وتكافؤ الشعوب وحقها في التصرف بمقدراتها، والتعاون بين الدول، والإخلاص في تنفيذ الالتزامات المتعلقة بمبادىء القانون الدولي المعترف بها لدى الجميع وبأصول هذا القانون، وبالمعاهدات الدولية المعقودة من قبل الاتحاد السوفييتي.

● بوصفه جزءاً من نظام الاشتراكية العالمي يطور الاتحاد السوفييتي ويعزز الأسرة الاشتراكية، والصداقة والتعاون والتعاضد الرفاقي مع البلدان الاشتراكية على أساس مبدأ الأممية الاشتراكية، ويساهم بنشاط في التكامل الاقتصادي والتقسيم الاشتراكي الدولي للعمل».

هيئات السلطة في الاتحاد السوفييتي

١ ـ السوفييت الأعلى:

السوفييت الأعلى هو قمة كل المنظومة ذات الشعب والفروع الكثيرة لسوفييتات نواب الشغيلة وهو الهيئة التمثيلية العليا للشعب السوفييتي، التي تتركز فيها كامل السلطة العليا للدولة. وتلتقي كل أجهزة القيادة العليا للدولة السوفييتية في النهاية في هذه الهيئة العليا. كما أن كافة الهيئات العليا في الاتحاد السوفييتي تعتبر مسؤولة أمامها. وللسوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي وحده حق إصدار القوانين. وهو المعبر عن سيادة الشعب السوفييتي بأسره. ينتخب أعضاء السوفييت الأعلى بالاقتراع الشعبي المباشر والسري لمدة خمس سنوات.

يحق لكل نائب في السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي مناقشة قوانين الدولة السوفييتية وإقرارها وتنفيذها ومراقبة عمل هيئات إدارة الدولة. كما أن السوفييت الأعلى يراقب احترام دستور الاتحاد السوفييتي وانسجام دساتير الجمهوريات المتحدة مع دستور الاتحاد السوفييتي. وبصفته أعلى هيئة لسلطة الدولة في البلاد، فإن السوفييت الأعلى يلعب دوراً فائق الأهمية في تحديد السياسة الخارجية للدولة السوفييتية.

من حيث تركيبه، هو هيئة ذات مجلسين: مجلس الاتحاد ومجلس القوميات. فمجلس الاتحاد ينتخبه مؤتمر السوفييتات للاتحاد السوفييتي من بين ممثلي الجمهوريات المتحدة حسب عدد سكان كل جمهورية. أما مجلس القوميات فيضم ممثلي الجمهوريات المتحدة ذات الحكم الذاتي، وممثلي المقاطعات ذات الحكم الذاتي.

كلا المجلسين ينتخب مباشرة من الشعب. ويمثل مجلس القوميات كافة الشعوب والقوميات في الاتحاد السوفييتي على الوجه التالي: ٣٢ نائباً عن كل جمهورية متحدة،

١١ نائباً عن كل جمهورية ذات حكم ذاتي، ٥ نواب عن كل مقاطعة ذات حكم ذاتي، نائب واحد عن كل دائرة قومية.

كلا المجلسين متساو في الحقوق. وينص دستور الاتحاد على جملة إجراءات ترمي إلى تأمين مساواة المجلسين في عمل السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي وفعالياته، من ضمنها: ابتداء وانتهاء دورتيهما في الوقت نفسه، منح كل من المجلسين حق المبادرة التشريعية ومناقشة كافة المسائل المتعلقة بصلاحية السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي على نحو متساو في جلسات كلا المجلسين وإقرار القوانين والأعمال القانونية الأخرى بالتصويت في كلا المجلسين، ووجود نظام موحد لعمل المجلسين، وانتخاب كل من المجلسين هيئاته القيادية الداخلية وهيئاته المساعدة وإقرار نظام الرئاسة الدورية لرئيسي مجلسي الاتحاد والقوميات ونوابهما في الجلسات المشتركة للمجلسين، ينبغي أن تعقد دورات المجلسين مرتين على الأقل في العام، وعند الضرورة تستطيع هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي أن تدعو إلى عقد دورة طارئة وهي ملزمة بالدعوة لعقد دورة طارئة حتى لو طلبت ذلك جمهورية متحدة واحدة. وتعقد الدورات في قصر الكرملين الكبير.

٢ ـ اللجان الدائمة لمجلسي السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي:

١ ـ لجنتا المقترحات التشريعية.
٢ ـ لجنتا التخطيط والميزانية.
٣ ـ لجنتا الشؤون الخارجية.
٤ ـ لجنتا شؤون الشبيبة.
٥ ـ لجنتا الطعون.
٦ ـ لجان دائمة فرعية: تنظر في تطوير مختلف قطاعات الاقتصاد والثقافة، وتمارس الرقابة على تنفيذ القوانين والقرارات المتعلقة بالاقتصاد وبالبناء الاجتماعي ـ الثقافي، وتضع مشاريع القوانين الجديدة والقرارات والمراسيم المتعلقة بالمسائل التي تقع ضمن ميادينها.

٣ ـ هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي:

تؤمن استمرارية قيادة الدولة في الفترات التي تفصل بين دورات السوفييت الأعلى وتحل المسائل الملحة، وتراقب أعمال الهيئات المسؤولة أمام السوفييت الأعلى.

يجري انتخاب هيئة الرئاسة في الجلسات المشتركة لمجلس الاتحاد ومجلس القوميات، وهي تتكون من ٣٩ نائباً. ويعقد رئيس هيئة الرئاسة اجتماع الهيئة مرة واحدة كلّ شهرين تقريباً.

٤ ـ مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي أو حكومة الاتحاد السوفييتي ـ هو الهيئة التنفيذية والإدارية العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفييتي. يجري تشكيل مجلس الوزراء من قبل السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي في جلسة مشتركة لمجلس الاتحاد ومجلس القوميات، ويضم مجلس الوزراء رؤساء مجالس وزراء الجمهوريات المتحدة بحكم منصبهم.

يقدم مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي استقالته إلى السوفييت الأعلى الجديد في دورته الأولى. مجلس وزراء الاتحاد السوفييت مسؤول أمام السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييت وهو خاضع للمحاسبة من قبله، كما أنه مسؤول أمام هيئة رئاسة السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي وخاضع للمحاسبة من قبلها في الفترة بين دورتي السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي.

مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي مخول بالبت في جميع مسائل إدارة الدولة التي لا تدخل، بحكم الدستور، في صلاحية السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي وهيئة رئاسته.

تشكل هيئة رئاسة مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي المكونة من رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي ونوابه الجهاز الدائم لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتي.

يحق لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتي أن يوقف تنفيذ قرارات وأوامر مجالس وزراء الجمهوريات المتحدة، وأن يلغي كذلك مقررات وزارات الاتحاد السوفييتي ولجان الدولة في الاتحاد السوفييتي وغيرها من الهيئات التابعة له.

يشكل السوفييت الأعلى في الجمهورية المتحدة مجلس وزراء الجمهورية المتحدة ويحق لمجلس وزراء الجمهورية المتحدة أن يوقف تنفيذ قرارات وأوامر مجلس وزراء الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، وأن يلغي قرارات وأوامر اللجان التنفيذية لسوفييتات نواب الشعب في الأقاليم والمقاطعات والمدن الخاضعة مباشرة للسلطات

الجمهورية، وسوفيتيات نواب الشعب في المقاطعات ذات الحكم الذاتي وفي الضواحي والمدن المعنية في الجمهوريات المتحدة.

ينتخب السوفييت الأعلى في الجمهورية ذات الحكم الذاتي هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للجمهورية ويشكل مجلس وزراء الجمهورية ذات الحكم الذاتي.

في الأقاليم والمقاطعات ذات الحكم الذاتي والدوائر ذات الحكم الذاتي والنواحي والمدن والأحياء والبلدات والقرى تعتبر سوفيتيات نواب الشعب الهيئات الممثلة لسلطة الدولة، وهي تبت في جميع المسائل ذات الطابع المحلي انطلاقاً من مصالح الدولة العامة ومصالح المواطنين والقاطنين في منطقة السوفييت المعني.

جمهوريات الاتحاد

الاتحاد السوفييتي اتحاد فدرالي يضم خمس عشرة جمهورية متحدة، وكل جمهورية متحدة هي دولة سوفييتية اشتراكية ذات سيادة، لها أرضها الخاصة التي لا يمكن، حسب دستور الاتحاد السوفييتي، أن يجري عليها تعديل دون موافقتها. ولكل جمهورية جنسيتها ودستورها الذي تسنه. وتمارس الجمهورية المتحدة الرقابة على العمل بدستورها، وتحدد على نحو مستقل نظامها الإداري ـ الإقليمي. وبالاختصار، فإن الجمهورية المتحدة مستقلة في تقرير جميع شؤونها الداخلية. وهي مخولة دستورياً إقامة علاقات مباشرة مع الدول الأجنبية، وبعقد اتفاقات معها، وبتبادل الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين، وحق الانتساب إلى الأمم المتحدة.

لكل جمهورية متحدة سوفييت أعلى، وهيئة رئاسة سوفييت الأعلى، وحكومتها (مجلس وزراء)، وهيئتها العليا للقضاء.

والسوفييت الأعلى في كل جمهورية متحدة هو الذي يقرر ويبت في المسائل الخطيرة المتعلقة بمصير الجمهورية، ويقبض بيديه على زمام سلطة الدولة في الجمهورية.

الجمهوريات ذات الحكم الذاتي

Autonomous Soviet Socialist Republics

الجمهورية ذات الحكم الذاتي دولة قومية اشتراكية، داخلة في نطاق الجمهورية

المتحدة، على أساس الحكم الذاتي. والشعب الذي تتكون منه الجمهورية ذات الحكم الـذاتي يتصرف بصورة مستقلة في مسـائل الحيـاة الداخليـة للجمهوريـة. وفي الاتحاد السوڤييتي عشرون جمهورية ذات حكم ذاتي. كلّ جمهورية ذات حكم ذاتي تملك رقعـة أرض لا يمكن تعـديل حـدودها إلا بمـوافقتها، ولهـا هيئاتهـا العليا وإدارة تمثـل سلطة الدولة ضمن أراضيها.

المقاطعة ذات الحكم الذاتي

Autonomous Region

والدائرة ذات الحكم الذاتي

National Area

تدخل المقاطعة ذات الحكم الذاتي ضمن الجمهورية المتحدة أو الاقليم. يتخـذ السوڤييت الأعلى في الجمهورية المتحدة قانون المقاطعـة ذات الحكم الذاتي بـاقتراح من سوڤييت نواب الشعب في المقاطعة ذات الحكم الذاتي.

تدخل الدائرة ذات الحكم الذاتي ضمن الاقليم أو المقاطعة. والسوڤييت الأعلى في الجمهورية المتحدة هو الذي يقر قانون الدوائر ذات الحكم الذاتي.

نبذة عن كل جمهوريات الاتحاد :

□ جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوڤييتية

Russian Soviet Federal Socialist Republic

أسست في ٧ تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩١٧ وانضمت إلى الاتحاد السـوڤييتي في ٣٠ كـانون الأول ـ ديسمـبر عام ١٩٢٢. مسـاحتها ١٧,٠٧٥,٤٠٠ كلم مـربع. تمتد من بحر البلطيق والمحيط الشمالي في الشمال، إلى الصين ومونغـوليا جنـوباً، وإلى المحيط الهادي شرقاً. وهي أكـبر جمهوريـات الاتحاد من حيث حجمهـا وعدد سكـانها البـالغ: ١٣٥,٥٦٩,٠٠٠ نسمـة (كانـون الثـاني ـ ينـايـر ١٩٧٧) ٨٢,٨٪ منهم من الروس (إحصاء ١٩٧٠).

عدد سكان العـاصمة مـوسكو ٧,٨١٩,٠٠٠ نسمـة (١٩٧٧). من أهم مدن هـذه الجمهوريـة ميناء لينينغـراد عـلى البلطيق، وادشنجلسـك عـلى المحيط الشـمالي، وفلاديفوستوك على البحر الياباني.

تدخل ضمنها الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي التالية: بشكيريا، وبورياتيا، وداغستان، وكباردابلكاريا، وكلميكيا، وكاريليا، وكومي، وماري، وموردوفيا، واوسيتيا الشمالية، وتتاريا، وتوفا، وأودموريتا، وشاشان انغوشيا، وتشوفاشيا، وياقوتيا.

وتدخل ضمنها المقاطعات التالية ذات الحكم الذاتي: أديغيا، الطاي الجبلية، اليهودية، كارتشاي الشركسية، وهاكاسيا.

في جمهورية روسيا الاتحادية زراعات مختلفة بسبب تنوع المناخ في أرضها الشاسعة. المنتوجات الزراعية تزرع في كل أراضي الجمهورية ما عدا منطقة بحر الشمال. المساحة المزروعة في جمهورية روسيا الاتحادية تساوي ٦٠٪ من مجموع الأراضي المزروعة في الاتحاد السوفييتي. وتنتج ٥٠٪ من مجموع اللحوم المنتجة في كل الاتحاد، ٥٣٪ من الحليب، ٥٨٪ من البيض، ٤٨٪ من القطن.

نسبة السكان المتعلمين ٩٩,٩٪، ونسبة الذين أتموا دراساتهم العالية ٥٦,٥٪ (النسبة هنا وفي كل الجمهوريات الأخرى للسكان الذي تتراوح أعمارهم بين ٩ و ٤٩ عاماً).

☐ جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفييتية **Armenia**

أسست في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٢٠ وانضمت إلى الاتحاد السوفييتي في ٣٠ كانون أول ـ ديسمبر عام ١٩٢٢. مساحتها ٢٩,٨٠٠ كلم مربع، وعدد سكانها ٢,٨٩٤,٠٠٠ نسمة (كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٧) ٨٨,٦٪ منهم أرمن و ٥,٩٪ أذربيجانيون و ٢,٧٪ روس. (إحصاء ١٩٧٠).

عدد سكان العاصمة يريفان ٩٥٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). تتميز أرمينيا بجبالها العالية وأوديتها الخصبة. تلتقي حدودها غرباً مع تركيا وجنوباً مع ايران. أهم محاصيلها اللوز والزيتون والعنب والرمان والتبغ.

نسبة المتعلمين ٩٩,٨٪، وفي عام ١٩٧٠ بلغت نسبة الذين أتموا المرحلة الثانوية وما فوق ١٥,٦٪.

□ جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية Azerbaijan

أسست في ٢٠ نيسان - ابريل ١٩٢٠، وانضمت إلى الاتحاد السوفييتي في ٣٠ كانون أول - ديسمبر عام ١٩٢٢. مساحتها ٨٦,٦٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٥,٧٨٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) ٧٣,٨٪ منهم أذربيجانيون، ١٠٪ روس، ١٠٪ أرمن. عاصمتها باكو، وعدد سكانها ١,٥٣٥,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧).

تدخل ضمن أذربيجان جمهورية تاخيتشيفان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي، ومقاطعة قره باخ الجبلية ذات الحكم الذاتي.

تشغل جمهورية أذربيجان شرق القوقاز المواجهة لبحر قزوين، وهي غنية بالبترول. جنوباً، تلتقي حدودها بحدود ايران. فيها أراضٍ خصبة وموارد مائية وفيرة. أهم محاصيلها العنب والقطن والتبغ والخضار والفاكهة والزيتون والشاي.

نسبة المتعلمين ٩٩,٦٪، وتبلغ نسبة أتموا المرحلة الثانوية ٥٢,٥٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية بيلوروسيا الاشتراكية السوفييتية (روسيا البيضاء) Belorussia

أسست في ١ كانون الثاني - يناير ١٩١٩ وانضمت إلى الاتحاد السوفييتي في ٣٠ كانون أول - ديسمبر عام ١٩٢٢. مساحتها ٢٠٧,٦٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٩,٤٢٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧)، ٨١,١٪ منهم بيلوروسيين، ١٠,٤٪ روس (١٩٧٠).

عدد سكان العاصمة، مينسك، ١,٢٣٠,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). لها حدود مشتركة مع بولندا، وتقع لتوانيا ولاتفيا إلى شمال غربها وجمهورية روسيا الاتحادية إلى شمال شرقها وأوكرانيا إلى جنوبها.

وجمهورية بيلوروسيا عضو في هيئة الأمم المتحدة. الأراضي الزراعية تشغل نصف مساحتها، أهم منتوجاتها مشتقات الحليب وتربية الماشية، والزوان والبطاطا والكتان والشمندر السكري.

نسبة المتعلمين ٩٩,٨٪ والثانويين ٥٠,٧٪ (١٩٧٣).

□ جمهورية أستونيا الاشتراكية السوفييتية Estonia

اصبحت أستونيا جزءاً من الاتحاد السوفييتي في ٦ آب - أغسطس ١٩٤٠ بعد

أن تأسست في ٢١ تموز ـ يوليو من نفس ذلك العام. مساحتها ٤٥,١٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ١,٤٤٧,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) ٦٨,٢٪ منهم أستونيون و٢٤,٧٪ روس (١٩٧٠).

عدد سكان العاصمة تالين ٤١٥,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). وتقع أستونيا في شمال غربي الاتحاد السوڤييتي بين لاتفيا وخليج فنلندا، وتضم أكثر من ٨٠٠ جزيرة في بحر البلطيق، يحدها شرقاً جمهورية روسيا الاتحادية.

نسبة المتعلمين ٩٩,٨٪ وحملة الشهادات العليا ٥٣,٤٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفييتية Georgia

أسست في ٢٥ شباط ـ فبراير ١٩٢١ وانضمت إلى الاتحاد السوڤييتي في ٣٠ كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٢٢. مساحتها ٦٩,٧٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٤,٩٩٩,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) ٦٦,٨٪ منهم جورجيون و٨,٥٪ روس (١٩٧٠). عدد سكان العاصمة، تبيليس، ١,٠٤٢,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). تقع جورجيا غربي القوقاز على جانبي سلسلة جبال «سورام» ولها حدود قصيرة مع تركيا جنوباً.

تدخل ضمن جمهورية جورجيا جمهوريتا انجازيا وآجاريا الاشتراكيتان السوڤييتيتان ذات الحكم الذاتي، ومقاطعة أوسيتيا الجنوبية ذات الحكم الذاتي.

أهم محاصيل جورجيا الشاي، إذ تنتج منه ٩٥٪ من مجموع ما ينتجه الاتحاد السوڤييتي من هذه المادة كما تنتج معظم حمضيات الاتحاد السوڤييتي.

نسبة المتعلمين ٩٩,٩٪ وحملة الشهادات العليا ٤,٥٩٪ (١٩٧٣).

□ جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوڤييتية Kazakhstan

أسست كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن الاتحاد السوڤييتي في ٢٦ آب ـ أغسطس عام ١٩٢٠ وأعيد تشكيلها في ٥ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٣٦ لتصبح إحدى جمهوريات الاتحاد. مساحتها ٢,٧١٧,٣٠٠ كلم مربع، وعدد سكانها ١٤,٥٢٧,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) ٣٢,٦٪ منهم كازاخستانيون و٤٣,٢٪ روس (١٩٧٠). عدد سكان العاصمة ألما أتا ٨٧١,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). كازاخستان هي ثاني أكبر جمهورية بعد جمهورية روسيا الاتحادية. تلتقي حدود كازاخستان الجنوبية

الشرقية مع حدود جمهورية الصين الشعبية. وقد اشتهرت في كازاخستان مستوطنة بايكونور عالمياً لكونها مركزاً سوفييتياً لإطلاق الصواريخ.

نسبة المتعلمين ٩٩,٧٪ وحملة الشهادات العليا ٥٢,٢٪ (١٩٧٣).

□ جمهورية قرغيزيا الاشتراكية السوفييتية Kirghizia

أصبحت قرغيزيا جمهورية ذات حكم ذاتي في ١ شباط ـ فبراير ١٩٢٦ وتحولت إلى جمهورية متحدة في ٥ كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٣٦. مساحتها ١٩٨,٥٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٣,٤٥١,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧)، ٤٣,٨٪ منهم قرغيزيون ٢٩,٢٪ روس (١٩٧٠).

عدد سكان العاصمة، فرونزي، ٥١١,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) وتقع على ملتقى سلسلتين جبليتين ضخمتين، التين شان والبامير. تلتقي حدودها الجنوبية ـ الشرقية مع حدود جمهورية الصين الشعبية.

نسبة المتعلمين ٩٩,٧٪ وحملة الشهادات العليا ٥,٩٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية لاتفيا الاشتراكية السوفييتية Latvia

أصبحت لاتفيا جزءاً من الاتحاد السوفييتي في ٥ آب ـ أغسطس ١٩٤٠ بعد أن تأسست في ٢١ تموز ـ يوليو من نفس ذلك العام. مساحتها ٦٣,٧٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٢,٥١٢,٠٠٠ (١٩٧٧) منهم ٥٦,٨٪ من لاتفيا، ٢٩,٨٪ روس (١٩٧٠).

سكان العاصمة، ريجا، ٨١٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) وتقع الجمهورية في شمال غربي الاتحاد السوفييتي، تحدها شرقاً جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية، ومن الجنوب الشرقي بيلوروسيا.

من أهم مواردها السمك المعلب، وفراء الثعالب.

نسبة السكان المتعلمين ٩٩,٨٪ وحملة الشهادات العليا ٥٤,٢٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية ليتوانيا الاشتراكية السوفييتية Lithuania

أصبحت ليتوانيا جزءاً من الاتحاد السوفييتي في ٣ آب ـ أغسطس عام ١٩٤٠ بعد أن كانت قد تأسست في ٢١ تموز ـ يوليو من نفس ذلك العام. مساحتها

٢٠٠, ٦٥ كلم مربع وعدد سكانها ٣,٣٣٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧) ٨٠,١٪ منهم ليتوانيون، و٨,٦٪ روس، و٧,٧٪ بولنديون، (إحصاء ١٩٧٠). بلغ عدد سكان العاصمة فيلنيوس عام ١٩٧٧ ٤٥٨,٠٠٠ نسمة. وتقع ليتوانيا في الشمال الغربي من الاتحاد السوفييتي، وتحدها شمالاً لاتفيا وبيلوروسيا في الجنوب ـ الشرقي وتشترك في جنوب غربها بحدود قصيرة مع بولندا.

نسبة المتعلمين ٩٩,٧٪ وحملة الشهادات العليا ٤٣,١٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية مولدافيا الاشتراكية السوفييتية Moldavian Soviet Socialist Republic

أسست كجمهورية ذات حكم ذاتي في ١٢ تشرين أول ـ أكتوبر عام ١٩٢٤، وانضمت إلى الاتحاد السوفييتي في ٢ آب ـ أغسطس ١٩٤٠. مساحتها ٣٣,٧٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٣,٨٩٦,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧)، منهم ٦٤,٦٪ مولدافيون و١٤,٢٪ أوكرانيون ١١,٦٪ روس (١٩٧٠).

بلغ عدد سكان العاصمة كيشينيف عام ١٩٨٨ ٤٨٩,٠٠٠ نسمة. تقع مولدافيا في جنوب غرب الاتحاد السوفييتي، تحدها غرباً رومانيا.

تشتهر مولدافيا بإنتاج النبيذ والمأكولات المعلبة على نطاق واسع جداً.
نسبة المتعلمين فيها ٩٩,٥٪، وحملة الشهادات العليا ٤٦,٢٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفييتية Tadzhikistan

أسست كجمهورية ذات حكم ذاتي في ١٤ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢٤، وأصبحت جمهورية متحدة في ١٦ تشرين أول ـ أكتوبر ١٩٢٩. مساحتها ١٤٣,١٠٠ كلم مربع وعدد سكانها ٣,٥٨٩,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). ٥٦,٢٪ منهم طاجيكستانيون و٣٢٪ أوزبكستانيون و١١,٩٪ روس، (إحصاء ١٩٧٠). بلغ عدد سكان العاصمة دوشانبي عام ١٩٧٧ ٤٦٠,٠٠٠ نسمة. وتدخل ضمن جمهورية طاجيكستان مقاطعة باداخشان الجبلية ذات الحكم الذاتي.

نسبة المتعلمين فيها ٩٩,٦٪، وحملة الشهادات ٤٩٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفييتية Turkmen

أسست في ٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٢٤. وتقع في أقصى جنوب الاتحاد السوفييتي، وجنوب غربي آسيا الوسطى. تحدها من الشمال جمهورية

كـازاخستـان، ومن الشـمال الشرقي أوزبكستـان، ومن الجنـوب ايـران ومن الجنـوب الشرقي أفغانستان كما يقع بحر البلطيق إلى غربها. تبلغ مساحـة تركـمانيا ٨٤٤,١٠٠ كلم مربـع وعـدد سكـانها ٢,٦٥٢,٠٠٠ نسمـة (١٩٧٧)، ٦٥,٦٪ منهم تـركـمان و ١٤,٥٪ روس، (إحصاء ١٩٧٠).

أكثر من أربعة أخماس أراضي تركمانيا تغطيها صحراء كراكوم، مما يجعل تركـمانيا بحاجة ماسة لمشاريع الري.

بلغ عـدد سكان العـاصمة أشخبـاد عـام ١٩٧٧ ٣٠٢,٠٠٠ نسمـة. يتجمـع السكان فيها في أودية النهرين أموداريا ومـرغاب، لكن اكتشـاف المعادن في الصحـراء كان سبباً في جذب العديد من السكان للاستيطان فيها.

نسبة المتعلمين ٩٩,٥٪ وحملة الشهادات العليا ٤٩,٦٪ (١٩٧٣).

□ جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوڤييتية Ukraine

أسست جمهـورية أوكـرانيا في ٢٥ كـانون أول ـ ديسمـبر عام ١٩١٧ وأصبحت عضـواً في الاتحاد السـوڤييتي في ٣٠ كانـون الأول ـ ديسمـبر عـام ١٩٢٢. مسـاحتهـا ٦٠٣,٧٠٠ كلم مـربـع وعـدد سكـانها ٤٩,٣٤٣,٠٠٠ نسمـة (١٩٧٧)، ٧٤,٩٪ منهم أوكرانيون و ١٩,٤٪ روس (إحصاء ١٩٧٠).

بلغ عدد سكان العـاصمة كييف ٢,٠٧٩,٠٠٠ (١٩٧٧). لهـا حدود مشـتركة مع بولنـدا وتشيكوسلوفـاكيا وهنغـاريا ورومـانيا، وتمتـد أوكرانيـا حتى شواطىء البحر الأسود.

تعتبر جمهوريـة أوكرانيـا عضواً مستقـلاً في هيئة الأمم المتحـدة، وهي ثاني أكـبر جمهورية في الاتحاد السوڤييتي من حيث الإنتاج الزراعي.

نسبة المتعلمين فيها ٩٩,٨٪ وحملة الشهادات العليا ٥٤,٥٪ (١٩٧٠).

□ جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوڤييتية Uzbekistan

أسست جمهـوريـة أوزبكستـان في ٢٧ تشرين الأول ـ أكتـوبـر عـام ١٩٢٤. مسـاحتهـا ٤٤٧,٤٠٠ كلم مـربـع وعـدد سكـانها ١٤,٤٨٥,٠٠٠ نسمـة (١٩٧٧) ٦٥,٥٪ منهم أوزبكستانيون و ١٢,٥٪ روس (إحصاء ١٩٧٠) عدد سكان العاصمـة

طشقند ١,٦٨٩,٠٠٠ نسمة (١٩٧٧). وتدخل ضمن جمهورية أوزبكستان جمهورية قره ـ قلباقيا الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي.

تقع أوزبكستان في جنوب شرقي الاتحاد السوفييتي في قلب آسيا الوسطى، وتشترك في حدود قصيرة مع أفغانستان في الجنوب. تحدها تركمانيا من الجنوب الغربي وكازاخستان من الشمال وقرغيزيا من الجنوب.

نسبة المتعلمين فيها ٩٩,٧٪ وحملة الشهادات العليا ٥٣,٨٪ (١٩٧٠).

الصحافة في الاتحاد السوفييتي

تدار الصحافة والمنشورات الدورية في الاتحاد السوفييتي من قبل المنظمات الحكومية المختلفة، بما فيها الحزب الشيوعي والسوفييتيات المركزية والمحلية، والاتحادات التجارية، والتعاونيات، والوزارات، ومنظمات التخطيط، والهيئات الثقافية، والمؤسسات التربوية، والمعامل، والمزارع الجماعية.

والبرافدا هي أكبر صحيفة في الاتحاد السوفييتي، تطبع في أربعين مدينة.

يعتبر قول لينين المأثور: «الصحافة أقوى سلاح بيد الحزب» الشعار العام لصحف ومنشورات الاتحاد السوفييتي. وهدف الصحف هو نشر الأفكار الماركسية ـ اللينينية، وتقديم المعلومات حول الحياة في الاتحاد السوفييتي، وفي الخارج.

لا يسمح لأية صحيفة بنشر ما يسيء إلى الدولة أو القضية الشيوعية، الأمر الذي أوجب وجود نوع من الرقابة. إلا أنها رقابة غير ملحوظة ذلك أن النظام يختار محررين من أعضاء الحزب، كما يعين رؤساء التحرير.

الصحف السوفييتية مادة مرغوب فيها حتى أن الاتحاد السوفييتي يصدر ما يقرب من ٨,٠٠٠ صحيفة و ٦,٩٠٠ مطبوعة دورية. وأهم هذه الصحف صحيفة البرافدا الناطقة باسم الحزب الشيوعي، ويبلغ ما يوزع منها ١٠,٦٠٠,٠٠٠ نسخة، ولها أكثر من ٤٠,٠٠٠ مراسل. وهي تعنى بالقضايا الداخلية بينما تعنى الأزفيستيا، الناطقة باسم الحكومة، (توزع ٨,٦ مليون) بالشؤون الخارجية.

تلعب وكالة الأنباء الرئيسية (تاس) دوراً بتزويد الصحف المحلية والعالمية بالأخبار عبر الراديو أو اللاسلكي. وتأتي بعدها وكالة أنباء نوفوستي الحكومية أما دور

النشر البالغ عددها ٢١٧، فهي تحت سياسة اللجنة الحكومية للنشر والطباعة وبيع الكتب.

المنظمات السياسية:

الحزب الشيوعي السوفييتي

أسسه عام ١٩٠٣ لينين إثر انقسام حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي بين البلاشفة (الأكثرية والمناشفة (الأقلية). وبعد ثورة أكتوبر الاشتراكية (١٩١٨) أصبح اسمه الحزب الشيوعي الروسي، وفي عام ١٩٢٥، عندما كُوّن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، تأسس الحزب الشيوعي لعموم الاتحاد، بعد اتحاد مختلف الأحزاب الشيوعية في جمهوريات الاتحاد السوفييتي. ومنذ عام ١٩٥٢ أصبح اسم هذا الحزب «الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي».

الهيئة العليا للحزب الشيوعي السوفييتي هي مؤتمر الحزب، وتعقد اللجنة المركزية هذا المؤتمر مرة كل خمس سنوات على الأقل.

تنظيم الحزب في كافة أنحاء الاتحاد السوفييتي يسير وفق تقسيم الجمهوريات. ففي كل إقليم ومقاطعة ومنطقة لجنة حزبية تمثل كافة فروع الحزب. والفرع هو الوحدة الأساسية التي تضم عادة كل أعضاء الحزب في معمل أو مزرعة أو مؤسسة كبيرة أو مجموعة مؤسسات. وقد يضم الفرع كل أعضاء الحزب المنتمين إلى مهنة معينة في الإقليم (الكتّاب مثلاً).

أما الانضمام إلى الحزب فهو من حق المواطن السوفييتي البالغ الثامنة عشرة من عمره. ويبلغ عدد أعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي نحو ١٦,٨ مليون عضو، ٤١,٦٪ من الشغيلة، و١٣,٩٪ من عمال المزارع الجماعية.

الكومسول المنظمات السياسية الأخرى:

تتراوح أعمار أعضائه ما بين ١٤ ـ ٢٨ عاماً. ويبلغ عدد المنتسبين إليه ٣٦,٣ مليون نسمة.

الدفاع

الاتحاد السوفييتي هو أحد أقوى دولتين في العالم ويملك قوة نووية مسلحة

بصواريخ بعيدة المدى. وهو عضو في حلف وارسو. الخدمة العسكرية فيه إلزامية ومدتها في الجيش والسلاح الجوي سنتان. وفي البحرية وحرس الحدود ثلاث سنوات. وفي عام ١٩٧٧ قدر مجمل عدد القوات المسلحة بـ ٣,٦٧٥,٠٠٠ موزعة على الشكل التالي:

الجيش ١,٨٢٥,٠٠٠

السلاح الجوي ٤٧٥,٠٠٠

البحرية ٤٥٠,٠٠٠

قوة الدفاع الجوي ٥٠٥,٠٠٠

عام ١٩٧٦ قدرت تكاليف الدفاع بما بين ٥٢,٠٠٠ و ٨٤,٠٠٠ مليون روبل.

هناك بعض فصائل من الجيش السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا وبولندا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وهي ترابط هناك بموجب معاهدة حلف وارسو.

عضوية المنظمات الدولية

الأمم المتحدة. الكوميكون. حلف وارسو. وهو عضو دائم في مجلس الأمن الدولي ويمتلك فيه حق النقض (الفيتو).

العملة

١٠٠ كوبيك = ١ روبل

١,٢٥ روبل = ١ جنيه استرليني

(تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٧)

٧٣,٣٥ كوبيك = ١ دولار أميركي

الشؤون الاقتصادية

الاتحاد السوفييتي أحد أكبر قوتين اقتصاديتين في العالم. وهو رائد في إنتاج البترول واستخراج الفحم والحديد الخام والسماد والإسمنت والفولاذ.

يعتمد الاقتصاد السوفييتي على التخطيط المركزي وعلى مبدأ ملكية الدولة. تتفق أهداف الإنتاج مع توجهات الخطة الإنمائية، بين ١٩١٩ و ١٩٢٨ كانت الخطط

الاقتصادية توضع سنوياً، حتى جاء ستالين ١٩٢٩ ووضع أول خطة خمسية وما زالت الخطط الخمسية متبعة حتى اليوم.

تتصف الخطة الخمسية العاشرة (١٩٧٦ - ١٩٨٠) بالتواضع والواقعية. وأهم ميزاتها تحويل الموارد إلى الزراعة. وهدفها الرئيسي رفع الدخل القومي بنسبة ٢٤٪ - ٢٨٪.

يتكفل قطاع الصناعات الثقيلة بثلثي التصنيع العام. ويؤمن التصنيع أكثر من ٥٠٪ من الدخل القومي.

يعتبر الاتحاد السوفييتي ثاني أكبر منتج للكهرباء في العالم، حيث أنتج عام ١٩٧٦، ١,١١١,٠٠٠ مليون كيلووات من الكهرباء. وتغطي الغابات ثلث مساحة أراضي الاتحاد السوفييتي مما يجعله المنتج الأول للأخشاب في العالم. أما النسيج والبضائع الاستهلاكية فقد زاد إنتاجها كثيراً في السنوات القليلة الماضية.

أما الزراعة فشاسعة جداً وهي تعتمد على المكننة. وهناك نوعان من المزارع: المزارع الجماعية، وتضم أكثر من نصف الأراضي الزراعية وتوزع أرباح هذه المزارع على أعضائها. ومزارع الدولة التي تملكها وتديرها الدولة، وتعطي الموظفين فيها معاشات محددة.

أهم محاصيل الحبوب: القمح والزوان الشوفان والذرة، وهناك مزروعات أخرى كالشمندر السكري والقنب والقطن وبزور الزيت.

كان عام ١٩٧٥ كارثة بالنسبة لمحصول الحبوب، مما اضطر الاتحاد السوفييتي إلى استيراد كميات كبيرة من الحبوب من الولايات المتحدة وكندا وأوستراليا. وقد أضرّ هذا كثيراً بالميزان التجاري كما أثار ردات فعل اجتماعية وسياسية واسعة النطاق.

تسيطر مؤسسات الدولة التجارية والتعاونيات الاستهلاكية وأسواق المزارع الجماعية على التجاره الداخلية في الاتحاد السوفييتي. أما التجارة فهي وقف على الدولة. وتتوقع الخطة العاشرة للأعوام (١٩٧٦ - ١٩٨٠) ارتفاعاً في التجارة في الغرب. هذه التجارة التي بلغت عام ١٩٧٦، ٣٢,٩٪ من مجموع تجارة الاتحاد السوفييتي العامة.

المواصلات: تغطي السكك الحديدة مسافة ١٣٨,٥٠٠ كلم، وفي نهاية عام ١٩٧٦ كان طول الطرقات الإجمالي ١,٤٠٥,٦٠٠ كلم. وهناك ما يقرب من ١٥٤,٠٠٠ كلم من الممرات المائية الداخلية التي تنقل الأخشاب والأحمال الثقيلة.

عدد الموانىء الأساسية ٢٧ مرفأً، أهمها لينينغراد وأوديسا وفلاديفوستك.

تشرف شركة (ايروفلوت) للطيران على تنظيم الرحلات الجوية الداخلية والخارجية، وتغطي رحلاتها أكثر من ٧٥ بلداً.

التعليـــم

التعليم في الاتحاد السوفييتي مجاني في كل مراحله وإلزامي لمن تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وست عشرة سنة.

عام ١٩٧٥ بلغ عدد المدارس الابتدائية والثانوية ١٧١,٧٠٠ مدرسة، وبلغ عدد المعاهد الفنية التقنية في السنة نفسها ٤,٢٨٦ معهداً والجامعات ومؤسسات الدراسات العليا ٨٤٢ مؤسسة. ويتميز نظام التعليم السوفييتي بأنه يتيح للعمال والفلاحين إكمال دراستهم العليا حتى ولو اضطروا إلى التوقف عن العمل مؤقتاً.

أما الأمية فهي شبه منعدمة.

الفصل الرابع

القادة من لينين الى يلتسين



فلاديمير اليتش لينين
«الشيوعي الأول»
(١٨٧٠ - ١٩٢٤)

قائد الثورة السوفييتية النظري والعملي ومؤسس الاتحاد السوفييتي. أضاف إلى النظرية الماركسية دراسات هامة عن الاحتكار والاستعمار والحزب والقومية والتحالف بين العمال والفلاحين والثورة الثقافية، والديمقراطية المباشرة حتى أصبحت النظرية الماركسية من بعده تسمى النظرية الماركسية - اللينينية.

ولد فلاديمير اليتش اوليانوف لينين بمدينة سيميرسك في روسيا لأب كان يعمل مفتشاً على المدارس الابتدائية، وأمضى طفولة عادية بالنسبة لطفل من الطبقة المتوسطة، وكان مسلكه في المدرسة فيما يبدو مسلك تلميذ دؤوب مجتهد طيع. ومن عام ١٨٨٧ التحق بجامعة قازان لدراسة القانون. ولقد قيل أنه تحول إلى ثوري بعد إعدام شقيقه الأكبر البالغ من العمر تسعة عشر عاماً بتهمة الاشتراك في مؤامرة لاغتيال القيصر، ولكن لا نشك في أنه كان قد اعتنق بعض أفكار أخيه قبل ذلك. وقد طرد من جامعة قازان بسبب نشاطه الثوري بين الطلاب، ولكنه تمكن من إكمال دراسته في جامعة أخرى أنتسب إليها عام ١٨٩١ هي جامعة بطرسبورغ (لينينغرد خلال الحكم الشيوعي) انضم إلى ناد ماركسي ودرس كتاب «رأس المال» لماركس. وعندما نقل الى جامعة سامارا ووضع تحت المراقبة، وفي النهاية حصل على درجته الجامعية بالمراسلة من جامعة سانت بطرسبرغ. وانتقل من سجارا إلى سانت بطرسبرغ ليعمل ضمن صفوف حركة بروليتارية ثورية وليكتب أول كتبه «من هم أصدقاء الشعب؟» في عام ١٨٩٤ والذي فند فيه الأفكار الاقتصادية والفلسفية للجماعات الثورية التي كانت سائدة آنذاك. تمكن في عام ١٨٩٥ من توحيد عدة مجموعات ماركسية تحت لواء «عصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة» وهي التنظيم الذي يعتبر البداية الحقيقية للحزب الشيوعي الروسي. وتكرر اعتقاله والإفراج عنه ثم نفي

إلى سيبيريا وكتب كتابه «تطور الرأسمالية في روسيا» عام ١٨٩٩. ونظراً لوجوده تحت رقابة البوليس لم يستطع أن يحضر الاجتماع التأسيسي للحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي في مدينة منسك عام ١٨٩٩.

وبعد أن أفرج عنه في عام ١٩٠٠ ذهب إلى سويسرا حيث التقى بليخانوف وغيره من الثوريين المنفيين وعمل معهم، ثم إلى انكلترا حيث كان يقضي معظم وقته في مكتبة المتحف البريطاني يقرأ ويكتب. وقام أيضاً بزيارات للثوريين المنفيين في ألمانيا وفرنسا. وكان أحد مؤسسي جريدة إسكرا (الشرارة) التي رأس تحريرها واتخذها هو وغيره من المهاجرين الماركسيين منبراً لنشر أفكارهم عن الثورة، وكانت الجريدة تهرّب بصفة منتظمة إلى داخل روسيا. وكان أهم أعماله في هذه الفترة هو الكتيب الذي نشره في عام ١٩٠٢ بعنوان «ما العمل؟» والذي وضع فيه الأسس النظرية والتطبيقية لحزب ماركسي ثوري، والتي ظل متمسكاً بها إلى أن تحققت الثورة.

وفي عام ١٩٠٣ انعقد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي. وقد حدث انقسام في المؤتمر حول موضوع تنظيم الحزب، وفاز لينين بأغلبية الأصوات وأصبح زعيماً للأغلبية أي «البلشفيك» وبعد عام نشر كتابه «خطوة للأمام وخطوتان إلى الوراء» الذي وجه فيه انتقادات قاسية إلى «انتهازية» الأقلية أي «المنشفيك».

وعاد لينين إلى روسيا ليشترك في ثورة عام ١٩٠٥ ولكنه اضطر عقب فشلها للعودة إلى المنفى، في سويسرا والنمسا وفرنسا. وظل يعمل في نشر مجموعة من الكتب الماركسية الثورية كان من بينها كتاب «تكتيكان اشتراكيان ديموقراطيان في الثورة الديموقراطية» والذي ناقش فيه دور البروليتاريا في ثورة بوجوازية برلمانية وأوضح كيف يمكن عن طريق اجتذاب الفلاحين الفقراء وغيرهم من الطبقات «شبه البروليتارية» الاستيلاء على الثورة البورجوازية وتحويلها إلى ديكتاتورية للبروليتاريا. وفي هذه الفترة نفسها كان يكتب كتابه «المادية والنقدية التجريبية».

وفي عام ١٩١٢ نجح في استبعاد المنشفيك من الاشتراك في مؤتمر الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي الذي انعقد في براغ، وأنشأ حزباً منفصلاً للبلشفيك. وقد ساعد في إنشاء جريدة «برافدا» التي كانت في طريقها إلى الصدور (شرعياً) في سانت بطرسبرغ. وكان ما زال غير قادر على دخول روسيا فأقام عند حدودها في مدينة كاراكاو إلى أن اعتقله البوليس النمساوي عام ١٩١٤ وأمره بمغادرة البلاد، فعاد إلى سويسرا وظل بعض الوقت مركزاً جهده على الكتابة مهاجماً الأهمية

الاشتراكية الثانية التي كانت «انتهازية»، وكان الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني الشرعي الذي أسسه لاسال وبيبل قد أثبت عدم ثوريته عندما صوت في البرلمان إلى جانب الحرب. وفي سنة ١٩١٥ عقد اجتماعاً دعا إليه كل من استطاع حشده من الاشتراكيين الأوروبيين لاستنكار الحرب التي رأى فيها صراعاً بين قوى بورجوازية رأسمالية متخاصمة لا يمكن للطبقة العاملة أن تجني منها أي كسب. ورغم أن نظريته هو كانت تحتوي على المخطط اللازم لتحويل مثل هذه الحرب إلى حرب طبقية ثورية، إلا أنه لم ير أن الظروف المهيأة للثورة قد توافرت، ولم يستكشف آنذاك، فيما يبدو، أن هذه الحرب سوف تخلق الفرصة التي كان في انتظارها.

وقد عكف في هذه الأثناء على دراسة هيغل مدوناً ملاحظاته تمهيداً لنشر «كراسات فلسفية» في عام ١٩١٥، وعلى القراءة أعداداً لإصدار كتابه «الامبريالية ـ أعلى مراحل الرأسمالية» عام ١٩١٦، وكتاب «حق الأمم في تقرير مصيرها» عام ١٩١٦. ولم يكف في أثناء ذلك عن محاولاته لتنظيم الاشتراكية الأوروبية من أجل ايقاف الحرب، وقد عقد مؤتمراً من أجل هذه الغاية في كيينتال لم يسفر عن أية نتائج ايجابية.

وبعد اندلاع ثورة شباط ـ فبراير ١٩١٧ عاد إلى بتروغراد بمعاونة القيادة العليا الألمانية التي كانت ترجو أن تسفر عودته إلى روسيا عن عرقلة المجهود الحربي الروسي، والمفروض أنه نقل إلى روسيا عبر ألمانيا في «قطار مغلق».

وهناك، أثناء انشغاله بالعمل على تحويل الثورة البورجوازية إلى ثورة بروليتارية، وجد وقتاً لوضع كتابه التالي عن الثورة «فرضيات نيسان ـ ابريل». وكان الشعار الذي طرحه هو وأنصاره البلشفيك على العمال والجنود المتمردين هو «كل السلطة للسوفييت» أي للمجالس الثورية للعمال والجنود. وقد صبرت الحكومة المؤقتة على هذا النشاط، بسبب ما يشبه الخوف، إلى شهر تموز ـ يوليو عندما أصدرت الأوامر باعتقاله، ففر إلى فنلندا حيث وضع كتابه «الدولة والثورة» ثم تسلل عائداً إلى بتروغراد يوم ٧ تشرين الأول ـ أكتوبر حيث اقنع اللجنة المركزية للحزب بالدعوة إلى انتفاضة مسلحة. وقد أدار الثورة من مركز قيادته بمعهد سمولن. وبعد الانتصار على المعتدلين وغيرهم من الجماعات الاشتراكية أصبح رئيساً لمجلس مفوضي الشعب (التسمية الجديدة لمجلس الوزراء بعد نبذ لقب «وزير» الملطخ بالفساد البورجوازي)، وكانت سياسته المبدئية هي السلام والأرض والخبز.

امنت حكومته السلام بمعاهدة برست - ليتوفسك التي تولى تروتسكي مفاوضاتها ببراعة. وأعيد توزيع الأرض على الفلاحين. ولكن الخبز كان قضية أخرى، فما لبثت المجاعة أن انتشرت في روسيا. وقد أمم لينين البنوك وكل وسائل الإنتاج الصناعي، ولكن محاولته ايجاد اقتصاد اشتراكي كامل وهو يخوض حرباً أهلية على أكثر من عشر جبهات، ويواجه استيلاء البريطانيين واليابانيين على أراضٍ روسية لمساعدة الثورة المضادة، ومحاولته إنشاء جهازي دولة مدني وعسكري معاً من حطام الدولة البائدة، كل ذلك أدى إلى انهيار كامل للاقتصاد الروسي في عام ١٩٢٠. وهنا أظهر لينين مرونته عندما قدم السياسة الاقتصادية الجديدة التي سمحت بهامش تحرك للنشاط الاقتصادي الخاص. وقد وجد أثناء كل ذلك وقتاً ليصدر كتاب «المهام العاجلة للسلطة السوفييتية» عام ١٩١٨ وكتاب «الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي» في عام ١٩١٩ وأن ينقل كل جهاز حكومته الثورية إلى الكرملين بموسكو.

ولم يكن عليه أن يواجه الحرب مع اليمين فحسب، بل أن يواجه أيضاً المعارضة العنيفة من جانب الجماعات الاشتراكية الأخرى، وخاصة الحزب الاشتراكي الثوري الذي بدأ في عام ١٩١٨ يشن حملة اغتيالات للقادة البلشفيك. وقد أدى هذا إلى تشدد البلشفيك إزاء المعارضة رغم سقوط بعض الضحايا منهم ومن بينهم لينين، فالرصاصة التي أطلقتها عليه دوراً كابلان عضوة الحزب الاشتراكي الديموقراطي وأن تقتله، سببت تدهوراً مستمراً في صحته. وفي عام ١٩١٩ أسس الأممية الشيوعية الثالثة أي الكومينترن وظل يرأس الحكومة التي لم تكن تواجه حرباً فقط وتحرر فيها انتصاراً متزايداً، بل تواجه أيضاً المجاعة والوباء وأعمال التخريب. واستمر يكتب، فأصدر كتاب «اليسارية مرض الشيوعية الطفولي» وهو كتيب يهاجم فيه الاتجاهات الانعزالية والمذهبية الجامدة التي رأى فيها مرضاً خطيراً يهدد الثورة، وكتاب «أهمية المادية النضالية» في عام ١٩٢٢، وعدداً آخر من الأعمال في عام ١٩٢٣ من بينها كتاب «عن التعاون» وكتابه التجريبي الهام «الأفضل أقل ولكنه الأفضل». وخلال عامه الأخير أصابه انزعاج شديد إزاء نمو البيروقراطية الحزبية، وكان ستالين من بين اولئك الذين وبخهم في «وصية سياسية» لأنهم تركوها «تشوه» الديموقراطية الاشتراكية. وفي ٢١ كانون الثاني - يناير عام ١٩٢٤ توفي لينين، والسبب الأساسي بحسب أرجح الاحتمالات، الإجهاد الشديد.

لم يكن للينين ثمة حياة خاصة على الاطلاق، فلم تكن لها أية أهمية تذكر:

لقد تزوج، وعرف عنه دفء العاطفة حيال أصدقائه المقربين، واستناداً لما رواه تروتسكي فإنه كان يتمتع بحس فكاهي لاذع. ولكن عمله من أجل الثورة وإقامة الاشتراكية كان هو كل حياته. كان الوحيد بين الاشتراكيين الثوريين في عصره الذي يعلم علم اليقين أنه على حق، بينما كان الآخرون عرضة للتخاذل عن غايتهم بوضعها موضع الجدل. وقد منحه هذا اليقين قوة إرادة فائقة. وكتاباته التي كرسها للفلسفة ولشرح أساليب، واستراتيجية وتكتيكات وأهداف الثورة الاشتراكية الماركسية ولحكومة ديكتاتورية البروليتارية تملأ أكثر من أربعين مجلداً. أما أثره الباقي، رغم ما أحدثه فيه ستالين من تشويه مريع، فهو الاتحاد السوفييتي حيث يرقد جثمانه محنطاً في الضريح القائم في الساحة الحمراء في موسكو وهو مكان لا تنقطع عنه صفوف الحجاج، إذ أصبح بالنسبة لاتباعه معبوداً حقيقياً.

وعلى الرغم من الوضوح الذي تمتاز به كتابات لينين فقد فسرتها الفئات الشيوعية المختلفة كل منها وفقاً لمصلحتها واتجاهاتها السياسية.

الوصيـة

أما وصيته السياسية فلقد كتبها لينين وعرفت باسمه أثناء فترة مرضه وأعرب فيها عن موقفه وآرائه بالنسبة لقيادة الحزب الشيوعي السوفييتي وبالنسبة للتوجهات السياسية المفترض انتهاجها بعد موته.

وتشتمل هذه الوصية على ملاحظات نقدية تجاه بوخارين وستالين وتروتسكي وغيرهم من كبار قياديي الحزب والدولة. وكان ستالين أكثر الأشخاص عرضة للنقد في هذه الوصية التي طالب فيها لينين بنقله من منصبه كسكرتير عام للحزب نظراً للصلاحيات المطلقة التي يتمتع بها من يشغل هذا المنصب.

ولم تنشر هذه الوصية في الاتحاد السوفييتي قبيل وفاة لينين ولا في عهد ستالين بسبب معارضة هذا الأخير لذلك ولكنها نشرت في الغرب بُعيد وفاة لينين ثم في الاتحاد السوفييتي بعد وفاة ستالين وبالتحديد أثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي في عام ١٩٥٦.

الضـريـح

أما ضريحه حيث وضع فيه جثمانه بعد تحنيطه فيعتبر بمثابة «الحج السوفياتي» ويقع في الساحة الحمراء بالقرب من جدار الكرملين في موسكو. وضع تصميم الضريح

الفنان السوفييتي أ. ف. شوسيف Shchusev وقد صنع أساساً من الخشب. وفي عام ١٩٣٠ استبدل بآخر مصنوع من حجر الغرانيت والمرمر واللابرادور والرخام السماقي. وبعد وفاة ستالين (آذار - مارس ١٩٥٣) وضع أيضاً جثمانه في ضريح لينين ولكن القيادة السوفييتية في ظل خروتشوف أمرت بنقله في عام ١٩٦١، في إطار سياسة تصفية آثار المرحلة الستالينية.

ويزور سنوياً هذا الضريح مئات الآلاف من الزوار و«الحجاج» وتعطى الأفضلية في الزيارة للزوار الأجانب كما تعتبر زيارة الضريح محطة لا بد منها في أية زيارة رسمية يقوم بها رؤساء الدول الأجانب للاتحاد السوفييتي. وأما حالياً في ظل العهد الحالي فتتعالى صيحات المطالبة بنقل الضريح إلى موطن رأسه وإلغاء كل هذه الطقوس حول لينين.



جوزيف ستالين

(١٨٧٩ - ١٩٥٣)

«الديكتاتور الأحمر»

عُـرف بالـديكتاتـور الأحمر. حكم الاتحـاد السوفيـاتي حكـماً فـرديـاً مـطلقـا بعـد إزاحته لكل رفاقه إما بالنفي أو بالاغتيال أو بخلع كل سلطاتهم.

اسمه الحقيقي فيساريو نوفيتش دجوغاشفيلي، أما اسمه المستعار فكـان جوزيف ستالين ومعناه الرجـل الفولاذي. عـاش حياتـه بسيطاً كـادحاً من أسرة فقـيرة إذ كان والده إسكافياً فقيراً بينما كانت والدته تعمل في منظفة للثياب. كـانت أمنية والـديه أن يكون كاهناً، ألحق بأحد المعاهد الدينيـة إلا أنه سرعـان ما فصـل من المعهد لأفكـاره ونشاطاته وآرائه الثورية المناهضة لتعاليم الكنيسة.

مع بداية الثورة الروسية كان ستالين منفياً في سيبـيريا وفـترة اعتقالـه التي دامت من عام ١٩١٣ وحتى قيام الثـورة ١٩١٧ جعلته بعيـداً عن الأعداد للثـورة ولهذا فـإن دوره فـي التمهيـد لقيامها كان ثانوياً ومتواضعـاً رغم أنه كـان عضواً في قيـادة الحزب الشيوعي البلشفي الذي قاد ثورة أكتوبر.

بعـد وفاة لينـين برز اسمـه مع تـروتسكي كأحـد اثنين لخـلافة لينـين واستطاع بفضل مهارته السياسية من استقطاب معظم أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزيـة للحزب الشيوعي الـذي فضل ستـالين المنـادي بتطويـر روسيا أولاً ثم تصـدير الثـورة للخارج بعكس تروتسكي الذي كان يعطي الأهمية الأولى لعملية تصدير الثورة للدول

الرأسمالية لأن هذا التعاون والمهادنة مع النظم الرأسمالية هو خيانة وخروج على المبادىء الشيوعية. فاز ستالين بتأييد الأكثرية في المؤتمر العام للحزب الشيوعي الذي انعقد في أواخر عام ١٩٢٤ وانطلق من هذا الفوز لتصفية كل خصومه السياسيين فأخرج تروتسكي من الوزراة ثم من الحزب الشيوعي ثم نفاه إلى تركيا والمكسيك حيث اغتيل هناك في العام ١٩٤٠ وطرد زميليه كامينيف وزينوفياف وقاد حملة اعتقالات ومحاكمات انتهت بإعدام الآلاف من رفاقه وهناك العديد من المصادر تشير إلى أن عدد ضحايا الحقبة الستالينية وصل إلى ١٢ مليوناً ضحية بحجة تطهير البلاد من المعادين للثورة.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية أضحى ستالين سيد الاتحاد السوفياتي بلا منازع ولهذا لقب بالديكتاتور الأحمر استطاع أن يقيم حلفاً عسكرياً مع هتلر واشتهر هذا الحلف بحلف هتلر ـ ستالين لكن هذا الحلف لم يدم طويلاً إذ اجتاحت الجحافل الألمانية الحدود الروسية بنجاح ووقفت أمام ستالينغراد (في شتاء ١٩٤٢) وكورسيك (صيف ١٩٤٣) اللذين شاهدا أفول عصر النازية وبداية سقوطها.

بعد الحرب العالمية الثانية خرجت روسيا بزعامة ستالين قوة عسكرية عظمى وعقد مع الرئيس الأميركي روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل مؤتمر طهران (١٩٤٣) ثم مؤتمر يالطا (١٩٤٥) ليعاد رسم خريطة العالم وفق مصالح هؤلاء الكبار.

امتلكت روسيا لأول مرة القنبلة الذرية في عهده فارضاً نفسه كأحد القوتين الأساسيتين في العالم كله بجانب تحويل الاتحاد السوفياتي من بلد زراعي خفيف إلى بلد صناعي كبير واعتماد التكنولوجيا الحديثة وكذلك تحقيق زيادة في الإنتاج القومي تتراوح ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ بالمئة في مختلف الحقول فضلاً عن زيادة طاقة روسيا الحربية وقدراتها الدفاعية.

أما معاداته لليهود فمردها إلى اشتراكهم في عدة مؤامرات استهدفت حياته وقيل أن عدد من الأطباء اليهود كانوا قد تورطوا بها وقد تبع ذلك حملة إبادة وتطهير واسعتين للشيوعيين اليهود.

في العام ١٩٥٣ توفي ستالين، وبعد ذلك بثلاثة أعوام وقف خروتشوف وأذاع تقريره الشهير الذي عرف بتقرير خروتشوف فاضحاً ـ كل ممارسات الحكم الستاليني وكرس خروتشوف عهده لمحو آثار تلك الحقبة والمبالغة في إظهار انحرافات ستالين عن

الخط الشيوعي مما سبب شرخاً في الحركة الشيوعية العالمية أدت في الكثير منها إلى الانقسام والانفصال عن الحركة الأم.

يقول ميلوفان وجيلاس الذي كان بمثابة الرجل الثاني في السلطة اليوغوسلافية بعد الماريشال تيتو وخليفته المنتظر في ستالين. في إحدى مقالاته الشهيرة عام ١٩٤٠.

«هل هناك سعادة أكبر وشرف أعظم من شعورك بأن أقرب رفيق وأحب صديق إليك هو ستالين؟ لقد حقق ستالين ملحمة الحرية والأخوة بين الشعوب.. إنه رجل الدولة الوحيد الذي يهتم بمشاكل غيره قبل مشاكله. إنه مثالي: يعلم كل شيء ويرى كل شيء. وكل ما هو إنساني قريب إلى قلبه، عزيز عليه». بعد هذا التمجيد المفرط بستالين يعود دجيلاس وبعد أربع سنوات ليعبر عن شكوكه ومرارته من ستالين ليقول:

«كان يعلم أنه كان واحداً من أقسى الحكام وأشدهم استبداداً في تاريخ البشرية، على أن ذلك لم يقلقه قط، وذلك لاقتناعه بأن ينفذ حكم التاريخ. ولم يكن يزعج ضميره شيء رغم أن الملايين قد أهلكت باسمه وبالأوامر التي أصدرها. ورغم أنه أعدم الألوف من معاونيه بتهمة الخيانة. وما كان ذنبهم إلا عدم ثقتهم بأنه كان يقود الشعب إلى السعادة والحرية والمساواة لقد كان صراعه نحو السلطة طويلاً، غير أنه انتصر في النهاية. والانتصار هو المقياس الوحيد للحق. إذاً ما هو الضمير؟ هل هو موجود؟ لم يكن للضمير مكان في فلسفته، فكيف في أعماله؟



جورجي مالينكوف
(١٩٠٢ ـ ؟)
«الخلف الستاليني»

بعد وفاة ستالين في مطلع آذار ١٩٥٣ تولى رئاسة الوزارة من بعده مالينكوف الذي كان يعتبر أقرب أعوانه(١٩٥٣ ـ ١٩٥٥)، يعاونه في الحكم نوابه الأربعة: مولوتوف وبولغانين وبيريا وكاغانوفيتش. كان، قبل ذلك، قد تعاون على مدى سنوات مع ايوف، رئيس الشرطة السرية، وأشرف، في ١٩٣٤، بصفته رئيساً لدائرة الكوادر في اللجنة المركزية، على عمليات «التطهير» داخل الحزب.

وفي ١٩٣٧، شارك في عمليات «تطهير» مماثلة في روسيا البيضاء وأرمينيا متولياً بنفسه، في بعض الأحيان، علميات الاستجواب. وبخلافته هذه جمع مالينكوف بين رئاسة السلطة التنفيذية والأمانة العامة للحزب الشيوعي. واقتضت أهمية الحدث دعوة مجلس السوفيات الأعلى لإقرار هذه التبدلات. وأمام هذا المجلس المنعقد في ١٥ آذار ١٩٥٣ أعلن مالينكوف تخلّيه عن منصب الأمين العام للحزب الشيوعي حتى يتسنى له التفرغ لشؤون الحكم. وانتهى الأمر بأن توزع مالينكوف السلطة مع الثلاثي (ترويكا): مولوتوف للشؤون الخارجية، وبولغانين للشؤون الحربية، وبيريا للشؤون الداخلية. ودارت الشكوك حول هذا الموقف الجديد بعد أن أصبحت أمانة سر الحزب بين يدي رجل ثانوي آنذاك هو خروتشوف ورئاسة الوزارة بين يدي رجل ضعيف هو مالينكوف، وكان ستالين قد جمع بين المنصبين منذ ١٩٢٢. أما بيريا، أقوى أعضاء اللجنة التنفيذية، فقد سكت على مضض ورضي بمنصب النائب الأول لرئيس الوزارة كخطوة أكيدة تحمله إلى الحكم بعد مالينكوف، إلا أنها كانت خطوته نحو النهاية. ففي العاشر من تموز ١٩٥٣ أوقف بيريا وأحيل أمام المحكمة العليا بتهمة

«العمل لتهديم أسس الدولة السوفياتية لصالح الرأسمالية الأجنبية ولطمعه في جعل وزارة الداخلية مهيمنة على الحكومة والحزب». فحكم عليه بالإعدام وصفي خفية.

وتنفس الشعب السوفياتي الصعداء، وهلل لإزالة الأحكام التعسفية، واتجه الاقتصاد نحو إنتاج السلع الاستهلاكية وتنشيط الزراعة كخطوة أولى لرفع مستوى المعيشة. وما هي إلا فترة حتى عجز مالينكوف عن مواجهة المتصلبين من عسكريين وعقائديين، فقد عابوا عليه هذا التبدل الذي لم تتهيأ الدولة لتقبله بعد. فاستقال في شباط ١٩٥٥، وخلفه المارشال بولغانين، فاستعاد الاقتصاد خطه الأوّل.

في أول كلمة ألقاها مالينكوف بعد تسلمه السلطة رَسَمَ خط السياسة الخارجية الجديدة فقال: «إن الحكومة السوفياتية ستستمر على طريق تدعيم السلم، وليس ثمة خلاف لا يمكن أن يحل بالطرق السلمية وعلى أساس من الاتفاق الحر، وهذا يطبق على علاقاتنا مع كل الدول بما فيها الولايات المتحدة الأميركية.» وتلت ذلك سلسلة من التدابير أبرزها حل المسألة الكورية، ثم إعلان الدولة التركية بأن الكرملين قد كف عن المطالبة بأراضٍ أرمنية متاخمة، وبعدها إعادة العلاقات مع يوغوسلافيا وتل أبيب بعد أن انقطعت بسبب محاولة اغتيال جرت في السفارة السوفياتية هناك وظل الاتحاد السوفياتي متردداً في سياسته الخارجية بين اللين والصلابة إلى أن استأثر خروتشوف بمقدرات الحكم (١٩٥٨) فرفع لواء التعايش السلمي مع سائر الدول وخاصة مع المعسكر الغربي.

ونتيجة لهذا التقارب أعلن السوفيات عزمهم على عقد معاهدات صلح مع النمسا واليابان ، وأضحى بولغانين وخروتشوف وأحياناً ميكويان في تجوال مستمر، فزاروا مختلف العواصم من شرقية وغربية داعين للتعاون والسعي لإقرار التعايش السلمي كمبدأ أساسي في السياسة الدولية. وبلغ التبدل في خط السياسة السوفياتية ذروته عند انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي حيث تهجّم خروتشوف على عهد ستالين ونبذ «عبادة الشخصية» وحيث أقر بجرأة، غير مألوفة في السابق، بتعدد طرق تطبيق الاشتراكية. وفي ذلك إنكار صريح للكومينفورم أو «شيوعية البلد الواحد» (١٩٥٦).

نُحي عن المسرح السياسي في ١٩٥٧، وعُهد إليه بإدارة محطة كهربائية على الحدود الصينية. وفي عام ١٩٦٨، سمح له بريجنيف بالعودة إلى موسكو، فأقام في بيكوفو، وهي ضاحية من ضواحيها. كتب مذكراته عن تجربته مع ستالين ومع

خلفائه، فعرف بدوره تجربة الملاحقة من قبل الشرطة السرية. ومع تقدمه في السن عاد إلى ايمانه المسيحي، حتى أنه أصبح المشرف على إدارة أملاك كنيسة بيكوفو الأورثوذكسية.

***



نيكولاي بولغانين
(١٨٩٥ - ١٩٧٥)
«الإنذار السوفياتي للغرب»

في أعقاب إسقاط مالينكوف من رئاسة الوزارة ١٩٥٨ أنتخب بولغانين خلفاً له، بسبب خلافاته مع خروتشوف حول البرنامجين السياسي والاقتصادي للدولة. استقال من رئاسة الوزارة عام ١٩٥٨ وكان حينها سكرتير الحزب الشيوعي.

اقترن اسمه بالانذار السوفياتي إلى انجلترا وفرنسا إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. وصل إلى مستويات السلطة العليا في سن متأخرة نسبياً وتقدمه في الزعامة تعود بالدرجة الأولى إلى الاعتراف بكفاءته الإدارية العالية أكثر مما يعود إلى منجزاته الحزبية، فلقد أثبت كفاءة نادرة واكتسب سمعة ممتازة بوصفه إدارياً صناعياً، في عام ١٩٤٨ تولى رئاسة بنك الدولة وكان قبل ذلك قد التحق بالجيش إلى أن وصل إلى رتبة جنزال وحل محل فورتشيلوف عضواً في لجنة الدفاع. وفي عام ١٩٤٦ أصبح وزيراً للدفاع كما أصبح عام ١٩٤٨ عضواً كاملاً في المكتب السياسي اللحزب.

مواليد عام ١٨٩٥، توفي في ١٩٧٥



نيكيتا خروتشوف

(١٨٩٤ - ١٩٧١)

«الراعي والسياسة»

حكم الاتحاد السوفييتي من عام ١٩٥٣ إلى ١٩٦٤ وتميز حكمة بالمعاداة الشديدة للستالينية وبإرساء الدعائم الأولى لسياسة الإنفراج الدولي والتعايش السلمي.

ولد نيكيتا خروتشوف في كالينوفكا بمقاطعة كورسك الواقعة على الحدود الفاصلة بين روسيا وأوكرانيا من عائلة يعمل أفرادها في المناجم. عمل في البداية راعياً. ثم عاملاً في مصانع الصلب والحديد. وانتسب إلى الحزب الشيوعي عام ١٩١٨ وحارب إلى جانب الحرس الأحمر أثناء الحرب الأهلية. وبعد أن استتب السلام بانتصار الثورة، اشتغل كعامل مناجم وانتسب إلى الجامعة العمالية عام ١٩٢٢ حيث أصبح أمين سر الخلية الشيوعية فيها. وبعد أن أنهى دراسته في الجامعة العمالية. تفرغ للعمل السياسي في الحزب الشيوعي الأوكراني. وفي عام ١٩٣٩ أوفد إلى موسكو للدراسة في أكاديميتها الصناعية وبقي فيها حتى عام ١٩٣١ حين عاد إلى أوكرانيا وأخذ يتسلق فيها بسرعة أعلى المراتب الحزبية، فعمل سكرتيراً لعدة لجان حزبية (١٩٣١)، ثم انتخب عضواً في اللجنة المركزية (١٩٣٢)، فعضواً في مجلس السوفييت الأعلى (١٩٣٧). فسكرتيراً أولاً للحزب الشيوعي الأوكراني وعضواً مرشحاً للمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي (١٩٣٨)، وأخيراً عضواً في المكتب السياسي (١٩٣٩) وهو منصب رفيع يعتبر شاغله من قادة الاتحاد السوفييتي الفعليين.

وفي الحرب العالمية الثانية، تولى خروتشوف نقل الصناعات السوفييتية من أوكرانيا نحو الشرق، إنقاذاً لها من الاجتياح الألماني. ثم عمل في المجالس الحزبية في الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية، وشارك في تنظيم حرب الأنصار خلف الخطوط

الألمانية، وساهم كمفوض سياسي في الجيش في الدفاع عن ستالينغراد. وفي العام ١٩٤٣ مُنح رتبة فريق. وعندما حرر السوفييت كييف في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٣ عاد إلى العمل سكرتيراً أول للحزب الشيوعي الأوكراني.

وفي كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤٩، انتقل خروتشوف إلى موسكو حيث أصبح أحد سكرتيري اللجنة المركزية للحزب. واكتسب سمعة طيبة في مجال السياسة الزراعية. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٢ وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي، انتخب عضواً في المجلس الرئاسي للجنة المركزية ولأمانة سر اللجان. وبعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ قرر أعضاء المجلس الرئاسي السبعة المجتمعون أن يتولى السلطة ثلاثة منهم هم: مولوتوف ومالينكوف وبيريا. إلا أن بيريا طمع في الإنفراد بالسلطة فاعتقل وأعدم. وبقي الاثنان: مولوتوف ومالينكوف.

وأفاد خروتشوف من تصفية بيريا فأزاح مالينكوف بسهولة. وأحل بولغانين مكانه. في الوقت نفسه تصدى لحل مشاكل هامة كانت مفتاح شعبيته (كتحسين الأوضاع المادية. والإفراج عن المعتقلين السياسيين، والتقارب مع تيتو. وتطوير الاقتصاد الزراعي). غير أن ضربته الكبرى أتت في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي أعلن فيه الحرب على الستالينية.

وكان المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي (١٩٥٦) أول مؤتمر عقد بعد وفاة «ستالين» وخضع فيه الخط الجديد للمناقشة قبل أن يقر ويطبق بعد ذلك على كافة الأصعدة: الأيديولوجي والاقتصادي والعلاقات بين الدول ذات الأنظمة المختلفة. وأعدت هذا المؤتمر لجنة تحضيرية مؤلفة من «خروتشوف» (رئيساً) وشبيلوف وكاغانوفيتش وميكويان وسوسلوف وفورشيلوف. ولم يكن من المقرر البحث في أعمال ستالين.

وفي ١٤ شباط ـ فبراير ١٩٥٦ افتتح خروتشوف المؤتمر العشرين. وتلا ـ على مدى ثماني ساعات ـ تقريره الذي يقع في مائة صفحة. وبعد أن عرض الوضع الدولي للاتحاد السوفييتي، والحالة الداخلية، ونتائج الخطة الخمسية للصناعة، ونمو الإنتاج الزراعي، ورفع المستوى الثقافي للشعب، وتقدم الديمقراطية وتقوية الشرعية في النظام السوفييتي، انتقل خروتشوف إلى مشاكل الحزب مستشهداً بلينين، منددأ ببيريا، مشيراً إلى وفاة ستالين. إلا أن أحداً من الخطباء لم يشر ولو بإشارة عابرة إلى ستالين.

وأقر المؤتمر الخطوط الكبرى لتقرير خروتشوف. ثم دُعي المندوبون إلى جلسة خاصة مفاجئة حُدد يوم ١٩٥٦/٢/٢٤ موعداً لها. حيث استمعوا إلى خروتشوف.

وقد تسرب بعد ثلاثة أسابيع من ذلك التاريخ ما يشير إلى أن خروتشوف قد قدّم في تحليله، أمام الألف وخمسمائة مندوب تقريراً حول عبادة الفرد ونتائجها ومساوئها(*)، مع بحث حول القيادة الجماعية وفوائدها. وندد بجرائم ستالين وغروره، وبمساوىء بوليسه السياسي، وبأخطائه يوم شنَّ الألمان هجومهم على الاتحاد السوفييتي (١٩٤١). وديكتاتوريته بعد الحرب العالمية الثانية في الداخل والخارج. وقد أحدث هذا التقرير ضجة كبرى في العالم الشيوعي وتوالت ردود الفعل حوله بين مؤيد ومعارض. ومع أن النص الكامل للتقرير الهام ظل سراً: فإن ملخصه وضع في متناول قادة الحزب الشيوعي السوفييتي وبعض قادة بلدان المعسكر الاشتراكي، حتى أصبح السر معلوماً. وهكذا انتشرت روح التنديد بستالين والإشادة بخروتشوف في عدد من بلدان المعسكر الاشتراكي مسببة العديد من التصفيات والخلافات الحزبية وممهدة الطريق أمام انقسام الحركة الشيوعية العالمية بين موسكو وبكين.

وفي السنوات التي تولى خروتشوف فيها زعامة الحزب والحكومة في الاتحاد السوفييتي تفاقم النزاع السوفييتي ـ الصيني، في جوانبه القومية والاقليمية والايديولوجية والاقتصادية وإن لم يشهد تفاقماً عسكرياً. وكان خروتشوف صاحب قرار سحب الخبراء والفنيين السوفييت من الصين، ووقف المساعدات الاقتصادية والفنية عنها (١٩٦١).

أما معركته في مواجهة الولايات المتحدة فيما يعرف بأزمة الصواريخ الكوبية (١٩٦٢)، فإنها اتخذت طابعاً هدّد بنشوب حرب عالمية، لأنها أوصلت الدولتين العظميين إلى حافة الحرب.

انتهج خروتشوف إزاء بلدان العالم الثالث وبخاصة البلدان العربية سياسة انفتاح وتفهم وتأييد. فاتخذ موقفاً حاسماً من العدوان الثلاثي الذي وقع على مصر (١٩٥٦). وقدم المساعدة لتحقيق مشروع السد العالي في مصر، فضلاً عن المشاركة في بناء مئات المشروعات الصناعية وكسر احتكار السلاح في المنطقة العربية (سوريا ومصر). وقد عمل خروتشوف ـ انسجاماً مع قوله بالتعايش السلمي بين الأنظمة السياسية المختلفة ـ على فتح النوافذ ومد الجسور إلى الشيوعية اليوغسلافية(اتفاقية التقارب بين الحزبين والدولتين في ٤ ـ ١٢ تموز ١٩٥٥).

ولقد أنجز خروتشوف الكثير على صعيد التنمية في الداخل. ومن إنجازاته إصلاح نظام التعليم (تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٨) والخطة السبعية (١٩٥٩ ـ ١٩٦٥)، فضلاً عن البرنامج السوفييتي الطموح لغزو الفضاء الخارجي، وتعاظم

القدرة العسكرية للقوات المسلحة السوفييتية، وتطوير أنواع جديدة من الأسلحة الاستراتيجية، وتنمية الاقتصاد السوفياتي (رغم النكسات في المجال الزراعي، التي لعبت دوراً في حيثيات تنحيته بعد ذلك)، ودعم قدرة الحزب الشيوعي وتنظيماته.

وعلى الصعيد الخارجي، شهدت فترة زعامة خورتشوف تطورات هامة أيضاً منها، حل «الكومنفورم» (١٩٥٣)، وإنشاء حلف وارسو في العام ١٩٥٥. والأزمة الأهم التي واجهت العلاقات الأميركية السوفياتية في عهده كانت نجاح السوفيات أخيراً في إسقاط طائرة الاستطلاع الأميركية U_2 (أيار ١٩٦٠) والتي كانت تخترق بأمان كامل المجال الجوي السوفياتي لسنين. فتكنولوجيا الدفاع الجوي السوفياتي لم تكن قد تطورت بالقدر الكافي لإسقاط طائرة تجسس الأجواء العليا. وفي عام ١٩٦٠ تطورت التكنولوجيا وأسقطت الطائرة من الجو بقائدها فرانسيس جاري باور.

أعلن خروتشوف فوراً أن السوفيات أسقطوا الطائرة، ولكنه أخفى جزءاً من الحقيقة وهو أن قد تم القبض على الطيار وأدوات تصويره. ولأن طياري U_2 لديهم تعليمات بتدمير طائراتهم عند أول علامة للخطر ولأن خبراء الولايات المتحدة شكّوا في إمكانية أن يعيش الطيار بعد إسقاط U_2 لذلك أعلنت السلطة الأميركية بثقة وبدون أي خوف من الوقوع في الخطأ أن الطائرة كانت مخصصة لأبحاث الطقس، حينئذ كشف خروتشوف الحقيقة وطلب اعتذاراً أميركياً قبل اجتماع القمة مع الرئيس الأميركي آيزنهاور لكن عدم الاعتذار الأميركي نسف القمة بين الزعيمين.

وقد كانت التطورات التي انتهت بتنحية خروتشوف عن مناصبه سريعة ومفاجئة، ففي الأسبوع الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٤، استدعاه المكتب السياسي للحزب إلى موسكو من إجازة كان يقضيها في القرم حيث واجه اتهاماً من المكتب السياسي بأنه لا يحقق فكرة العدالة الاشتراكية، ولا يقيم وزناً للمسؤولية الجماعية. وقد أصر أعضاء المكتب السياسي على أن يُصدر نقداً ذاتياً فلم يفعل. وطلب منه سوسلوف أن يستقيل من جميع مناصبه، ما عدا رئاسة الوزراة، فرفض خروتشوف ذلك، وناقش وبرهن وهدد على مدى ساعات.

وفي ١٩٦٤/١٠/١٤ نُحّي خروتشوف عن كافة مناصبه. ويكاد يكون هناك اتفاق في الآراء على أن أبرز الأسباب وراء تنحية خروتشوف هي:

١ ـ انفراده بالسلطة خلافاً لمبدأ القيادة الجماعية، الـذي أقر بعـد وفاة ستـالين وفي المؤتمر العشرين للحزب، ٢ ـ فشـل سياستـه الزراعيـة، ٣ ـ الإساءة إلى هيبـة الاتحاد السوفييتي إبان أزمة الصواريخ الكوبية، ٤ ـ الإساءة إلى هيبة منصبه الحزبي والحكومي بتصرفات مظهرية أفادت منها الدعايات الغربيـة (مثل خلعـه الحذاء وهـو جالس عـلى مقعـده على رأس الـوفد السـوفييتي في دورة الجمعية العـامة لـلأمم المتحـدة في العـام ١٩٦٠ والدق به على المنصة)، ٥ ـ تفاقم الخلافات وتبادل الاتهامات مع قيادة الحـزب الشيوعي الصيني.

اعتكف خروتشوف بعد إعفائه من مناصبـه في دارة ريفية (داتشـا) قدمتهـا إليه الحكـومة السـوفييتية حتى تـوفي في ١١ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧١. وقـد ظهرت في العـالم الغربي قبل وفاته «سيرة حياة ذاتيـة» له بعنـوان «خروتشـوف يتذكـر» (١٩٧٠). وهي تغـطي حياتـه، بما فيهـا السنوات التـالية لإعفـائه من منـاصبـه، وتحتـوي عـلى تقييم لـلأحداث والتـطورات المعاصرة لـه، التي شـارك فيهـا، والتي تـابعهـا وهـو في حيـاة التقاعد. ولكن خروتشوف نفسه أنكر نسبة هذه المذكرات إليه قبيل وفـاته. أمـا ناشر المذكرات في الغرب فيقول أن مذكرات خروتشـوف قد نقلت من الاتحاد السـوفييتي، في أجزاء منفصلة من مصادر مختلفة وفي أوقات متباينة، وإنه مقتنع «بمـا لا يدع مجـالاً للشك» بأن هذه المذكرات تسجيل أصيل لكلمات خروتشـوف، وإن لم يكن يعلم على وجه اليقين ما إذا كان مؤلفها قد قصد أن تجد طـريقها إلى النشر سـواء في بلاده أم في الغرب.

توزعت سلطات خروتشـوف بعد إقـالته عـلى القادة الثـلاثة: الكسي كوسيغـين الـذي تـولى منصب رئيس مجلس الـوزراء، وليـونيـد بـريجنيف الـذي تـولى منصب السكرتير الأول ثم الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي ونيكـولاي بودغـورني الذي أسندت إليه رئاسة الدولة.



الكسي كوسيغين
(١٩٠٤ - ١٩٨٠)
«وحش العمل»

خرج الكسي كوسيغين نهائياً إلى مسرح الأحداث، وسلطت عليه الأضواء بشدة، حين جاء إلى باريس في كانون الأول من العام ١٩٦٦. وكانت تلك زيارته الأولى إلى عاصمة غربية. وبذلك، لم يعد كوسيغين رجل الظل كما أراد لنفسه أن يبقى، وظهر بوضوح دوره السياسي كرجل دولة.

منذ بداية حياته السياسية، حرص كوسيغين على البقاء في البقاء في الصف الثاني، وكان يعلم جيداً أنه عنصر لا يمكن الاستغناء عنه.

وفي كانون الأول من العام ١٩٤٤، قال ستالين للجنرال ديغول الذي كان في موسكو آنذاك: أنا لا أفعل شيئاً» ثم أشار إلى رجل شاحب اللون صارم التقاطيع وأضاف: «إنه المخطط، هو الذي يعمل. . .» وذلك الرجل النحيل، القصير الشعر، لم يكن سوى كوسيغين نفسه.

وبعد ١٤ عاماً من هذ الحادثة، وأمام وابل من الأسئلة الفنية التي أتته من محدثيه الفرنسيين خلال زيارته لباريس، أشار خروتشوف إلى الرجل نفسه، الذي كان أقل شحوباً هذه المرة وقال: «اسألوا كوسيغين، فهو الذي ينوب عني. . . وهو يعطيكم جميع الأجوبة. . .».

هاتان الحادثتان، كانتا بمثابة النبوءة حول مستقبل الرجل التكنوقراطي، وحتى ذلك الوقت، بقي كوسيغين رجل الإدارة والاقتصاد. إلى أن كانت زيارته لهانوي في

شباط ١٩٦٥، والتي أصبحت نقطة التحول الرئيسية في مستقبل كوسيغين إذ فرض نفسه كرجل سياسة برع في فن المفاوضات. وخرج كوسيغين من هانوي وقد سلطت عليه الأضواء العالمية بشدة.

وجاء بعد ذلك بأقل من عام، أي في كانون الثاني ١٩٦٦، مؤتمر طشقند حيث أظهر صبراً وحنكة لا مثيل لهما خلال المفاوضات بين الهنود والباكستانيين. ونجح حيث فشل كبار ساسة الغرب.

ويمكن باختصار القول أن الكسي كوسيغين رجل دولة صنع نفسه بنفسه. وبسبب فقر أحوال والده الذي كان عاملاً بسيطاً في بطر سبرغ انضم الفتى كوسيغين إلى «الحراس الحمر» وهو لا يزال في الخامسة عشرة. والتحق بعد ذلك بقليل بمعهد للعلوم المهنية ليعود ويشرف بعد سنوات على أحد المصانع. ثم جاءه الحظ بسرعة فدخل المراكز الإدارية. ذلك أنه وبسبب عمليات التطهير الواسعة النطاق التي شنها ستالين، أصبحت إدارات الدولة تشكو نقصاً فاستطاع بسهولة تثبيت مركزه وفرض نفسه بقوة.

ولقد ساعده كثيراً حبه للبقاء في الظل في المراكز الخلفية، وعدم وجود مطامع، وأطماح سياسية، بأن يبرز كرجل إداري عريق ومخطط اقتصادي من الطراز الأول. فتنقل من الإشراف على إدارة المال إلى الصناعة الخفيفة إلى الصناعة الغذائية.

وعام ١٩٦٠، أصبح الزعيم الأوحد والكبير للصناعة. وفقد عام ١٩٦٣ بعضاً من صلاحياته بسبب معارضة خروتشوف لبرامجه. لكنه أظهر قدرة على الاستمرار لا مثيل لها، هي التي مكنته خلال ١٩٤٨ - ١٩٤٩ من النجاة من عملية تصفيات «فريق لينينغراد».

لقد استطاع الكسي كوسيغين، بفضل سعة إدراكه وخبرته الطويلة أن يحسن استغلال أسس النظام لما فيه خير البلاد، وخاصة في القطاع الاقتصادي، وذلك دون أن يمس هذا النظام بأي سوء أو أن يطالب بتعديله. وأصبح كوسيغين بعد ذلك الناطق والممثل الحقيقي لقطاع الاقتصاد والصناعة في البلاد.

ولعب كوسيغين ورقة رابحة حين ربط مصيره السياسي بنجاح برنامجه الاقتصادي الإصلاحي، وهو يعتبر اليوم، المدير الأعلى لمؤسسة الاتحاد السوفييتي ذات القدرات الاقتصادية الهائلة، إذ أنه وبفضل بعد نظره، جعل بلاده قادرة على منافسة الدول الغربية من حيث القدرة والخبرة والقوة.

والرجل، كما وصفه الجنرال ديغول، وهارولد ولسون وجيمس رستون وغيرهم، هو «وحش عمل» أي أنه يعمل ساعات وأياماً وبقدرة رهيبة وبدقة متناهية. وهو يبقى ١٦ ساعة يومياً في مكتبه يدرس ويخطط ويضع التقارير ثم يقوم بزيارات مفاجئة للمصانع والمعامل لمراقبة العمل.

ويحرص كوسيغين دائماً أن يكون حسن المظهر، لكن التلفزيون يخونه دائماً خلال اجتماعات اللجنة المركزية أو مؤتمرات الحزب فينقل له صوراً قبيحة.

ويكره كوسيغين كثيراً الظهور في الحفلات والمناسبات العامة بسبب حب ابتعاده عن الثرثرة والمحادثات غير الرسمية. لكن المقربين منه يؤكدون أنه برغم حبه للوحدة والعزلة، يتسم بروح الفكاهة والخيال الخصب وإن ما يقال عنه أنه رجل حزين يعيش «مأساة ما» دائمة غير صحيح.

ويحرص أيضاً كوسيغين دائماً على أن يظهر حيويته واندفاعه الدائم، لكن التجاعيد العميقة تحت عينه الزرقاوين وشعره الفضي يفضحان الإرهاق والسن. وبرغم ذلك، يسهر كوسيغين على صحته، سهره على صحة اقتصاد البلاد، فهو يشرب ويأكل باعتدال ويزاول مختلف أنواع الرياضة من كرة اليد إلى التزلج المائي والثلجي. وكانت تشاركه أذواقه هذه كلوديا التي توفيت وابنته الوحيدة لودميلا، التي تشاركه أيضاً حبه للمسرح والغناء والمطالعة.

وأخيراً إن الكسي نيكولا يفيتيش كوسيغين، كان رجل روسيا الجديدة التي تبحث عن مزيد من الإنتاج والتطور والتقدم عوضاً عن المزيد من العقائد.

ترأس حكومة الاتحاد السوفييتي من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٠. ولد في سان بطرسبورغ من أسرة عمالية. وبعد انتهاء الحرب الأهلية التحق بمدرسة فنّية في لينينغراد، وعمل لفترة من الزمن في سيبيريا، ثم عاد إلى مسقط رأسه ليتابع دروساً في معهد النسيج. عمل، بعد ذلك، في مصنع للغزل والنسيج، وأصبح مديراً لهذا المصنع بعد ثلاثة أعوام من دخوله إليه. وفي عام ١٩٣٨، أصبح عمدة لينينغراد، وعام ١٩٣٩ مفوضاً (أي وزيراً) للصناعة النسيجية. ولم يغادر الحكومة السوفييتية منذ ذلك التاريخ: فمن وزارة الصناعة النسيجية انتقل إلى وزارة المال، ثم إلى وزارة الصناعة الخفيفة، فالصناعة الغذائية. وأثناء ذلك، ارتقى أيضاً سلم المسؤوليات داخل جهاز الحزب الذي كان قد انتمى إليه في عام ١٩٢٧. فقد انتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ١٩٤٠، ثم عضواً في المكتب السياسي، ورقي

إلى منصب نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب. خبا نجم كوسيغين بعض الشيء بعد وفاة ستالين: فقد غادر المكتب السياسي مع بقائه في الحكومة.

وفي عام ١٩٥٧ أيد مشاريع اللامركزية الاقتصادية التي تقدم بها خروتشوف، وعاد إلى احتلال مكانه في هيئات الحزب العليا. وفي عام ١٩٦٤، أصبح رئيساً للحكومة: فقد كان واحداً من أعضاء «الترويكا» (القيادة الثلاثية» التي أطاحت بخروتشوف.

وقد حافظ على هذا المنصب حتى تشرين الأول - أكتوبر من عام ١٩٨٠، حيث قدّم استقالته لأسباب صحية. وقد توفي بعد أسابيع معدودة.

كان كوسيغين إصلاحياً أكثر منه ليبرالياً، وقد أيد أطروحات الاقتصادي السوفييتي الداعية إلى منح المنشآت الاقتصادية استقلالاً ذاتياً وإلى رد الاعتبار، ولو جزئياً، إلى مقولة الربح. وقد دافع عن ضرورة رفع مستوى معيشة المواطن السوفييتي، ومنح الأولوية للصناعات الخفيفة على حساب الصناعات الثقيلة. كما حاول، من خلال لقاءاته مع رئيس الحكومة الصينية، ايجاد حل للنزاع الصيني - السوفييتي. وقد قال عنه الجنرال ديغول، بعد الزيارة التي قام بها إلى موسكو في ١٩٦٦: «أنه أذكى رجل دولة في الجانب السوفييتي».



ليونيد ايليتش بريجنيف

(١٩٠٦ ـ ١٩٨٢)

«الرجل الاول»

في البدء، كان حاجباه الكثيفان.

الناس في كل أنحاء العالم شاهدوا، في الصور، زعيم الحزب الشيوعي السوفييتي دائماً جدياً، يبتسم في كل المناسبات، وفي صعوبة، خلافاً للزعيم السابق خروتشوف. ومع هذا، اختير ليونيد ايليتش بريجنيف ليكون زعيماً للحزب والرجل الأول في الكرملين.

حين خلف خروتشوف بعد سقوطه عام ١٩٦٤، لم يكن بريجنيف سافر إلى أبعد من حدود بلدان أوروبا الشرقية. العالم لم يكن يعرف عنه سوى أنه يعمل كثيراً وأنه منظم بارع، وأن صفة التنظيم لازمته منذ انضمامه إلى الحزب الشيوعي وهو في سن الخامسة والعشرين.

ولأن ليونيد بريجنيف كان منشغلاً كل الوقت، مأخوذاً بمتطلبات منصبه، يمضي الساعات في مكتبه في الكرملين مع مساعديه ورفاقه، يرسم مستقبلاً أفضل للاتحاد السوفييتي ـ لأنه كان ذلك لم يكن أحد يعرف عنه شيئاً. ولم يهتم للأمر فالدعاية لم تكن من شأنه.

الصحافيون الأجانب لم يقابلوه أبداً، والديبلوماسيون الذين قابلوه كانوا

محظوظين. حتى قام مستشار ألمانيا الغربية فيلي برانت بزيارة رسمية لموسكو، ورافقه في هذه الزيارة صحافيون ألمان. ودهش هؤلاء الصحافيون حين تقدم بريجنيف منهم يمازحهم ثم يدلي بآرائه أمامهم عن التقارب بين الشرق والغرب.

ومنذ ذلك الحين ظهرت صورته الجديدة: صورة الزعيم المرتاح، المبتسم، الذي يستقبل الديبلوماسيين الأجانب حين تدعو الحاجة إلى ذلك. والذين قابلوه تحدثوا عن ثقة بريجنيف في نفسه وعن تصرفه كرجل دولة قوي الذاكرة.

منذ ذلك الحين اختلط الحاجبان الكثيفان بالابتسامة المهذبة والديبلوماسية اللبقة.

ومن دون أن يتخلى عن مهماته كزعيم للحزب الشيوعي السوفييتي، أخذ بريجنيف يعطي منصبه أبعاداً جديدة. وفي الخريف الماضي انتقل إلى الساحة الدولية وسافر إلى فرنسا في أول زيارة له إلى الغرب. اختار باريس ليطل منها على الساحة الدولية، واختار فرنسا كأول خطوة ديبلوماسية ورئيسية لها في الغرب، بسبب العلاقات الخاصة التي قامت بين البلدين منذ ١٩٦٦ في عهد الجنرال ديغول.

وقبل أن يذهب إلى باريس، قام بزيارة قصيرة لبلغراد حيث تصالح مع المارشال تيتو الذي زار موسكو في حزيران الماضي ليثبت أن العلاقات السوفياتية اليوغوسلافية أفضل من أي وقت مضى. وضيف آخر مهم زار موسكو في الوقت نفسه هو الدكتور فيدل كاسترو.

المراقبون في موسكو يعتقدون أن زعيم الحزب الشيوعي هو مهندس الديبلوماسية السوفياتية الهجومية الحالية، هذه الديبلوماسية التي نقلت رئيس الحكومة السيد الكسي كوسيغين إلى كندا والبلدان الاسكندينافية، كما نقلت الرئيس بودغورني إلى هانوي ونيودلهي وبورما.

وحين وصل الرئيس نيكسون إلى موسكو قال ديبلوماسي أجنبي أن اللقاء بينه وبين بريجنيف سيكون مباراة بين لاعب بوكر ولاعب شطرنج. لاعب الشطرنج هو، بالطبع، السوفييتي الهادىء المرتاح المستعد لأن يربح مهما كان لاعب البوكر مستعداً للمقامرة. بين ١٩٦٥ و١٩٧٢ قام بريجنيف بأكثر من ٣٠ رحلة إلى بلدان أوروبا الشرقية. وكان هدف معظم هذه الرحلات حضور مؤتمرات حزبية. وحين كان رئيساً لهيئة رئاسة السوفيات الأعلى (من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٣) قام برحلات عدة إلى الخارج.

لكن رحلته الكبيرة كانت رحلة فرنسا ثم أميركا حيث استهوته السيارات السريعة والالكترونيات الحديثة. فاقتنى العديد من سيارات السباق وكذلك الآلات الالكترونية المختلفة.

المواطنون ـ ولا سيما الحزبيون منهم ـ يكنون مودة له. وقد أصبح الحزب الشيوعي السوفياتي يضم في عهده ٣٦٥ ألف خلية مختلفة. وتسلم بريجنيف مناصب مهمة متعددة في الحزب، وفي مناطق مختلفة، منذ أن أصبح المفوض السياسي في الجيش السوفياتي في منطقة البحر الأسود خلال الحرب العالمية الثانية.

وصباح كل يوم، تنقل سيارة زيل فخمة ـ فخر الصناعة السوفياتية ـ ليونيد بريجنيف من منزله، في ضواحي موسكو، إلى مكتبه في الكرملين.

وتتوقف السيارة عند الضوء الأحمر، ثم تتابع طريقها عند الضوء الأخضر، ويقدم رجال المليشيا التحية للرفيق الأول، والرجل الذي يراقب العالم باهتمام كبير كلماته وخطواته.

شغل من عام ١٩٦٤ حتى ١٩٦٦، منصب سكرتير أول الحزب الشيوعي السوفييتي، ثم من عام ١٩٦٦، شغل منصب أمين عام الحزب، كما أصبح عام ١٩٧٧ على رأس كل من الحزب والدولة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وفي أيار ـ مايو ١٩٧٦، حصل على رتبة مارشال الاتحاد السوفييتي.

ولد بريجنيف في بلدة تامنسكوي الأوكرانية (تحولت فيما بعد إلى مدنية دنيبرو دزر جينسك)، لأب يعمل في التعدين، ولم يشترك في أي من الثورة أو الحرب الأهلية لصغر سنه، وقد أنهى دراسته عام(١٩٢٧)، في كورسك، متخصصاً في الهندسة الزراعية، ثم تقدم بسرعة في مجال الإدارة الزراعية المحلية، قبل أن ينتقل إلى سفردلوفسك بالأورال. انتسب بريجنيف إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٣١ في موسكو، كما حول تخصصه إلى الصناعة. وفي عام ١٩٣٧، عمل مساعداً مباشراً لخروتشوف، وبدأ نجمه يصعد في الإدارة الحزبية المحلية، في الوقت الذي كان فيه ستالين يقوم بحملاته التطهيرية في أوكرانيا. ووفي الفترة ما بين (١٩٣٨ ـ ١٩٤١)، شغل بريجنيف منصب المفوض السياسي في فيروبتروفسك، حيث تألق أيضاً عسكرياً خلال الحرب العالمية الثانية.

بعد الحرب اشترك في إعادة بناء أوكرانيا من موقعه كسكرتير أول للجنة الحزب

في زابوروجي ثم شغل نفس المنصب دنيبروبتروفسك. وفي الفترة ما بين (١٩٥١ و١٩٥٣)، شغل بريجنيف منصب سكرتير أول الحزب الشيوعي في مولدافيا، وأصبح بالتالي عضواً باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. وبعد وفاة ستالين، عزل عن كل مناصبه، ونقل إلى وزارة الدفاع، إلا أن ولاءه لخروتشوف كان سبباً في إرجاعه سكرتيراً أولاً للحزب الشيوعي لجمهورية قازخستان. وفي عام ١٩٥٧، أصبح بريجنيف عضواً في سكرتارية الحزب الشيوعي السوفييتي. وفي الفترة التي تلت ذلك شغل عدة مناصب، منها نائب رئيس المكتب الخاص للجنة المركزية لشؤون الجمهورية الروسية، كما لعب دوراً هاماً في تحديد علاقة الحزب السوفييتي بالأحزاب الشيوعية الأخرى، وساهم في تشجيع تطور برنامج الكشف الفضائي السوفييتي.

وفي عام ١٩٦٠، شغل منصب رئيس سكرتارية مجلس السوفييت الأعلى، ثم استلم منصب سكرتير أول الحزب عام ١٩٦٤، بعد عزل خروتشوف ومجموعته، فقام بإصلاح أخطاء خروتشوف في كل من السياسة الخارجية والسياسة الزراعية، مع التمسك بخطة العام؛ فأكد على الحاجة الشديدة إلى الإدارة العلمية في مجال الزراعة والصناعة، حتى لو كان ذلك على حساب الطهارة الأيديولوجية، كما طور في مجال السياسة الخارجية سياسة الوفاق مع أميركا.

وفي عام ١٩٧٧، ساهم بريجنيف في وضع أسس الدستور السوفييتي الجديد المعروف باسمه، والذي يوضح فيه أن المجتمع السوفييتي دخل الآن مرحلة البناء الشيوعي، وبقي يمارس كل صلاحيته، سواء داخل الحزب أو الدولة أو الجيش حتى وفاته في تشرين الثاني ١٩٨٢.



نيكولاي بودغورني

«من الصناعة الغذائية إلى ادارة الحزب»

(١٩٠٣ - ؟)

من بين جميع الذين حكموا الاتحاد السوفييتي فعلياً، يبدو واضحاً أن نيكولاي بودغورني هو الوحيد الذي يشبه كثيراً الرفيق خروتشوف. ذلك أن لكنته تدل بوضوح على أنه من الجبال الخضراء في أوكرانيا.

حتى العام ١٩٦٤، أظهر نيكولاي فيكتروفيتش بودغورني إخلاصاً عميقاً للأمين الأول للحزب الشيوعي آنذاك، نيكيتا سيرغيفيتش خروتشوف. لكنه برغم ذلك، لعب دوراً بارزاً في تدبير «ثورة القصر» في ١٤ أكتوبر من ذلك العام. وبعد أن أقصى رئيسه، تم تشكيل البريزيديوم الحاكم، فكان بودغورني واحداً من خمسة أعضاء هم بريجنيف، كوسيغين، سوسلوف وميكويان.

ويمكن تقسيم حياة بودغورني العملية إلى مرحلتين: في المرحلة الأولى، ظل تكنيكياً مثالياً. وحدث التحول عام ١٩٥٠ حين التحق بجهاز الحزب وتبوأ المناصب الحساسة.

لقد سار بودغورني على الطريق نفسها التي قطعها الزعماء السوفييات من قبل. فجميعهم يتحدرون من عائلات فلاحية أو فقيرة، وتلقوا العلوم في المعاهد المهنية ثم عملوا في الصناعة وانتقلوا بعدها إلى السياسة. وهذه السيرة تنطبق تماماً على بودغورني الذي ولد أبوه في كارلوفكا في أوكرانيا. كان أبوه عاملاً بسيطاً فالتحق هو أيضاً بأحد المصانع للعمل. وبعد مدة أرسل إلى معهد العمال ثم إلى مؤسسة ميكويان للصناعة الغذائية في كييف.

عمل مهندساً في مصنع للسكر من العام ١٩٣١ حتى العام ١٩٣٧. وقبل اندلاع الحرب بقليل، سمي نائباً «لمفوض الشعب للصناعة الغذائية» في أوكرانيا واحتل المنصب ذاته عام ١٩٤١ في الحكومة المركزية للاتحاد السوفييتي. وانتقل بعد ذلك إلى مركز مدير معهد الصناعة الغذائية في موسكو.

وبعد انتهاء الحرب، ذهب إلى بولونيا لإعادة توطين السكان من أصل سوفياتي وكانت لديه صلاحيات مطلقة. وبعد اتمام مهمته، عاد إلى موسكو حاملاً لقباً غريباً، وهو «الممثل الدائم لمجلس وزراء أوكرانيا عند الحكومة السوفياتية» وفي هذه الأثناء فقط، تعرف إلى خروتشوف.

يختلف بودغورني عن رفاقه الذين عملوا فترات قليلة في الصناعة قبل الانتقال والعمل في السياسة. فهو كان اختصاصياً في صناعة المواد الغذائية. وعام ١٩٥٠ كان في السابعة والأربعين من عمره، بدأ يتعاطى السياسة، تلك المهنة التي قادته في ما بعد إلى القمة في هرم القيادة السوفياتية. ومن الإدارات الوزارية، انتقل بودغورني إلى جهاز الحزب، فعين أميناً عاماً لمنطقة كركوف. وعام ١٩٥٣، أصبح الأمين الثاني لمنطقة أوكرانيا، ثم ما لبث أن انتقل إلى إدارة تلك الجمهورية عام ١٩٥٧ اثر تعيين السيد كيريتشنكو مساعداً لخروتشوف في اللجنة المركزية. وبعد ذلك بوقت قصير، سمي بودغورني عضواً في «البريزيديوم» وحمل اللقب ابتداء من أيار ١٩٦٠.

وفي كانون الثاني ١٩٦١، تعرض بودغورني للسقوط بسبب الانتقاد العنيف الذي وجهه له خروتشوف خلال اجتماع اللجنة المركزية. واتهم خروتشوف زعماء الجمهوريات بعدم الكفاءة في تنظيم الشؤون الزراعية في مناطقهم، وكان نصيب بودغورني في اتهامه بمحاولة غش اللجنة المركزية حتى لا تكشف أن نصف محاصيل القمح الأوكراني قد سرق. واعترف بودغورني بتواضع وأمام الجميع بخطيئته وطلب فرصة للتعويض. وحالفه الحظ كثيراً بفضل ظروف مناخية طارئة إذ هطلت الأمطار غزيرة في أوكرانيا وجاءت المحاصيل التالية غنية. وعاد مركزه قوياً داخل الحزب، وفي حزيران ١٩٦٣، أنتخب بودغورني في الوقت نفسه مع بريجنيف أميناً في اللجنة المركزية.

وتوكل عادة إلى الأمناء أعمال في قطاعات معينة، إلا أن بودغورني وبريجنيف جرى تصنيفهما، مديرين لهما كفاءة تامة مما سمح لهما بالإشراف على جميع القطاعات.

وفي بداية ١٩٦٤، وصف بودغورني نفسه من خلال عمله وقال: «يجب أن

أهتم شخصياً بقضايا عدة ومختلفة، وبوجه خاص بمسائل الاقتصاد والتجارة والصناعات الخفيفة». وكان يقوم برحلات كثيرة إلى مختلف العواصم وهدفه التوصل إلى حل لازمة الحركة الشيوعية العالمية يتفق ومصلحة الاتحاد السوفياتي.

وعام ١٩٦٠، رافق بودغورني خروتشوف إلى المؤتمر الثالث لحزب العمل الروماني الذي شهد انفجار الأزمة السوفياتية ـ الصينية. ثم مثل بلاده في مؤتمر الحزب الشيوعي البولوني عام ١٩٦٤. وترأس بعد ذلك بعثة سوفياتية إلى كوبا ـ وعام ١٩٦٣ حضر إلى جانب خروتشوف، مؤتمر الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية.

وفي الأسابيع الأولى التي تلت سقوط خروتشوف، احتل بودغورني المرتبة الأولى على مسرح الأحداث. وسلطت عليه الأضواء بشدة لأنه ساهم في إلغاء البرنامج الإصلاحي الذي وضعه خروتشوف في تشرين الثاني ١٩٦٢ والذي تسبب في انشقاق الحزب إلى فئتين. وفي تشرين الثاني عام ١٩٦٤ أوكلت إليه اللجنة المركزية مهمة الإشراف على إعادة تنظيم الحزب كما كان قبل برنامج ١٩٦٢. وظهر بوضوح، من خلال المهمة الموكولة إليه، أن بودغورني بات يحتل المرتبة الثانية في زعامة البلاد، وأصبح المسيطر على كادرات الحزب.

ومنذ ذلك الحين، بدأت شخصية بودغورني السياسية تبرز بوضوح، فهو ينتمي إلى الفريق «الليبرالي» الذي يضم كوسيغين والذي يطالب بالتركيز على مضاعفة إنتاج المواد الاستهلاكية وتعميم وتوسيع العلاقات المباشرة بين قطاع الإنتاج وقطاع التصريف.

في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٥ حل محل ميكويان في رئاسة مجلس السوفيات الأعلى وذلك بناءاً لاقتراح من بريجنيف الذي عاد بدوره وأقاله في ربيع ١٩٧٧ ليحل مكانه.



يوري اندروبوف

(١٩٢١ - ١٩٨٤)

«من المخابرات إلى الرئاسة»

سياسي ورجل دولة سوفييتي. انتسب للحزب الشيوعي السوفييتي في وقت مبكر وبرز في تنظيماته الشبابية وتدرج في المناصب الحزبية. أصبح سفيراً لدى هنغاريا ١٩٥٣ - ١٩٥٧ ثم أصبح مسؤول العلاقات مع البلدان الشيوعية الأخرى ١٩٥٧ - ١٩٦٢ انتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي منذ ١٩٦١ وفي العام التالي عضواً في سكرتارية اللجنة المركزية ورشح لعضوية المكتب السياسي للجنة المركزية ١٩٦٧ وأصبح عضواً في المكتب السياسي عام ١٩٧٣. ترأس لجنة أمن الدولة (المخابرات) منذ ١٩٦٧ وحاز على جائزة لينين مرتين. ثم رئاسة الدولة من تشرين الثاني عام ١٩٨٢ لغاية شباط ١٩٨٤.

في عهد حكمه للكي. جي. بي. والذي استمر لخمسة عشر شهراً ازدادت العلاقات مع الغرب توتراً حول العديد من القضايا السياسية والأمنية والعسكرية.

وصلت العلاقات الأمركية - السوفياتية إلى أدنى مستوى لها في أول أيلول/سبتمبر - ١٩٨٣ أثناء فترة رئاسته للدولة عندما أسقط السوفييت طائرة الخطوط الجوية الكورية «٠٠٧» وقتلوا ٢٦٩ راكباً كانوا على متنها. الطائرة كانت قد اخترقت المجال الجوي السوفياتي، وبعد أن استمرت في طريقها داخله لعدة ساعات دمرتها قوات الدفاع السوفياتي.

ونتيجة للعلاقة المعادية اتهم كل جانب مباشرة الجانب الآخر بعدم أخذ حياة المسافرين بعين الاعتبار.

بدورهم السوفييت ادعوا أن الولايات المتحدة مسؤولة عن الزج بأبرياء في مهامها التجسسية، وبالتالي فهي مسؤولة عن حياتهم بالكامل.

اندروبوف هو أول من أعطى الضوء الأخضر لصعود «الجياد الشابة» لمؤسسات الحزب والدولة ويعتبر غورباتشوف في هذا المجال من صنع اندروبوف الذي هو رمزه وصانعه. فهما ليسا مختلفين بالفكر ولكنهما مختلفان بالتجربة التاريخية.

وقد حاول البدء بمسيرة الإصلاح السياسي والاقتصادي والحزبي ولم يتسنى له لفترة حكمه القصيرة إكمالها حيث عمد خلفه قسطنطين تشيرننكو إلى ايقافها.

***



قسطنطين تشيرننكو
(- ١٩٨٥)
«الوفاة الغامضة!»

خلف تشيرننكو اندروبوف في شباط ١٩٨٤ كأمين عام للحزب الشيوعي وكرئيس لمجلس السوفيات الأعلى واعتبر حينها أكبر رجل سناً يتولى السلطة في الكرملين (٧٢ عاماً).

وفاته المبكرة (آذار ١٩٨٥) ألقت الكثير من علامات الاستفهام حول ظروفها وتوقيتها خصوصاً أنه أعتبر من غلاة المتشددين بالعلاقات مع الغرب وبالذات مع الولايات المتحدة الأميركية.



اندريه غروميكو
(١٩٠٩ - ١٩٨٨)

«الدبلوماسي الدائم لكل العهود»

سياسي ورجل دولة سوفييتي شغل منصب وزير الخارجية لأكثر من ربع قرن وذلك قبل أن تتوج حياته السياسية بتبوء منصب رئيس مجلس السوفييت الأعلى (١٩٨٥).

ولد اندريه غروميكو في منطقة روسيا البيضاء من أبوين كانا يعملان في الزراعة. التحق بجامعة مينسك عام ١٩٢٦ ليدرس الاقتصاد والهندسة الزراعية. وانضم خلال دراسته إلى الحزب الشيوعي. تخصص في الاقتصاد الزراعي وعين أستاذاً مساعداً في معهد لينين للاقتصاد الزراعي في موسكو عام ١٩٣٤. ثم انتسب إلى معهد الاقتصاد التابع للمجتمع العلمي السوفييتي. وقام بأبحاث حول التصنيع الزراعي في الولايات المتحدة، الأمر الذي جعله يتعلم الانكليزية. وفي ١٩٣٩، التحق بوزارة الخارجية في الوقت الذي كان فيه ستالين يسعى إلى تجديد الكوادر الديبلوماسية تولى غروميكو مسؤولية قسم أميركا. لكنه سرعان ما أرسل إلى الولايات المتحدة حيث عهد إليه بوظيفة مستشار أول في السفارة السوفييتية. وفي ١٩٤١ أصبح قائماً بالأعمال فسفيراً عام ١٩٤٣. وفي هذا المنصب، شارك في تحضير مؤتمرات طهران ويالطا وبوتسدام بين الحلفاء. وفي ١٩٤٦ أصبح مندوب بلاده لدى الأمم المتحدة، بعد أن كان قد ترأس الوفد السوفييتي إلى المؤتمر التأسيسي للمنظمة المنعقد في سان فرنسيسكو. ومن خلال موقعه هذا شارك في اتخاذ قرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧). وفي ١٩٤٩، عاد إلى موسكو ليشغل منصب نائب وزير الخارجية. وفي ١٩٥٢، عين

سفيراً لدى المملكة المتحدة لكنه سرعان ما استعاد منصبه في وزارة الخارجية بعيد وفاة ستالين. وفي ١٩٥٦ أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفي العام التالي، عينه خروتشوف وزيراً للخارجية بعد أن نجح بالتخلص من مولوتوف وجماعته. وبقي في هذا المنصب في عهود بريجنيف واندروبوف وتشيرننكو وأوائل عهد غورباتشوف. وفي ١٩٧٣ انتخب عضواً في المكتب السياسي للحزب وبعد تولي اندروبوف السلطة، أصبح في أوائل ١٩٨٣، نائب رئيس الوزراء.

تميز غروميكو طيلة وجوده على رأس وزارة الخارجية بسعيه إلى إبقاء قنوات الحوار مفتوحة مع الولايات المتحدة. وتنسب إليه قناعته بضرورة إدارة شؤون العالم بشكل مشترك بين واشنطن وموسكو. وقد عاصر غروميكو في منصبه سبعة رؤساء أميركيين، بالإضافة إلى روزفلت الذي كان قد عرفه خلال وجوده في الولايات المتحدة. وكان يعتبر غروميكو من أشد خصوم السياسة الصينية.

وبالإضافة إلى مسؤوليته في إدارة السياسة الخارجية، أصبح غروميكو في نهاية المرحلة البريجنيفية من أصحاب «الحل والربط» في الاتحاد السوفييتي وقد توجت سيرته عام ١٩٨٥ عندما اختير بتأييد غورباتشوف رئيساً لمجلس السوفييت الأعلى (أي رئيساً للدولة).

بعد وفاة اندريه غروميكو ١٩٨٨، خلفه غورباتشوف في رئاسة الدولة في الأول من تشرين الأول ١٩٨٨.



ميخائيل غورباتشوف

(١٩٣٠ -   )

«البرجوازي الأحمر الذي نسف الهيكل وأذاب الجليد بالنار»

تعتبر شخصية ميخائيل غورباتشوف أكثر الشخصيات جدلاً في التاريخ الحديث؛ فالكثير من التساؤلات تطرح الآن بعد إزاحته عن عرش الأمبراطورية الروسية وبعد تفتت هذه الأمبراطورية إلى جمهوريات مستقلة والانتهاء عملياً مما كان يسمى قديماً «الاتحاد السوفياتي» بكل عظمته وجبروته.

السؤال ما يزال مطروحاً وبإلحاح شديد: لماذا؟ ولمصلحة من؟ علماً أن مصيره انتهى كمصير الاتحاد نفسه في ذمة التاريخ، بل إن الإهانة والصفعة التي وجهت له من قبل رئيس روسيا بوريس يلتسين بطرده من مكتبه بالكرملين أرخت بالكثير من علاقات الخيبة والإذلال له بعد كل ما فعله وصنعه وسير البلاد في اتجاهه.

شخصية فيها الكثير من الغموض والأسرار بحجم الحدث الذي حصل بذاته وفيها المزيج من التراجيديا المأساوية والدهشة الصاعقة.

الدهشة.. جاءت بميخائيل سرغافيتش غورباتشوف، والدهشة ذهبت به لمدة ثلاثة أيام، إلى القرم منفياً..، والدهشة هي التي أعادته إلى الكرملين!

إن ميخائيل غورباتشوف في شخصه ومزاياه ديموقراطي ومكتشف الديموقراطية

الغربية، والحداثة والنمو كبطرس الأكبر، ومقتبس التجربة الأميركية في العظمة، كما اقتبست القيصرة كاترين عظمة فرنسا في أوجها، وهو كلينين، يحرك التاريخ بالأسباب الاقتصادية، ولكن غورباتشوف كما يقال عنه في الغرب ليس عظيماً لأنه رجل التسويات، وكما يقول عنه الشيوعيون، العارفون بخط الرجال ونماذجهم المتعاقبة على حكم الاتحاد السوفياتي، بأنه آخر القادة السوفيات من المحترفين!

فميزته الأساسية بنظر هؤلاء العارفين بشؤون وشجون وأسرار الكرملين، أنه محترف محاطاً بالهواة من رجال السياسة من الدرجة الثانية وأولهم الهاوي المنافس له بوريس يلتسين، ذلك الديماغوجي كما يقول عنه خصومه في الداخل السوفياتي، هو مجرد هاو يحلم يوماً في أن يكون قيصر روسيا بدون الاتحاد السوفياتي!

لقد قال تشرشل يوماً، «إن الاتحاد السوفياتي بلد من الألغاز الملفوفة بالأسرار المسربلة بالغموض»، ولذلك هناك علم خاص عند الغربيين لفك الرموز الصعبة، هو علم «الكرملنيوجيت».

فبعد رحيل الزعيم السوفياتي السابق قسطنطين تشيرننكو انتهى حكم العجائز والمرضى في الكرملين، هؤلاء الذين جمدوا الوضع السياسي الدولي، وكادوا أن يدفعوا العالم، إلى حافة الهاوية النووية بإصرارهم على مواقفهم الجامدة، وإلغائهم لأي إمكانية تفاهم بين قيادة المعسكرين الجبارين.

هكذا تقول تعليقات الغربيين لكون هذه القيادات السوفياتية المتعاقبة في رأيهم لم تكن تعرف ماذا تريد، وهي تملك قدرة الإصرار عليه. وتراهن على الزمن الذي تؤمن أنه يعمل لصالحها. لقد أطلق غورباتشوف صراع الأجيال والزمن والتوافقات داخل الاتحاد السوفياتي، فأضحى رمزاً للمرحلة السوفياتية الجديدة.

لذلك حطم غورباتشوف الستار الحديدي الستاليني، الذي سيج هذا الأوقيانوس الأحمر، ولكنه أقام ستاراً زجاجياً شفافاً ترى من خلاله المسرح السوفياتي التراجيدي بكامل أبطاله وفصوله، ولكنه ستار يمكن أن يرمى بالحجر، إلا أن غورباتشوف في مزيته الأخرى، إنه تلميذ لفيلسوف العقائدية السوفياتية سوسلوف، كما هو تلميذ لاندريه غروميكو، ويعمل على طريقته القائلة «إن أية محاولة لإخفاء أو تمويه ما لا يمكن اخفاؤها وتمويهه هو ضرر أكبر من نفعها بالاف المرات»!.

قالت عنه الصحافة الغربية، لا تحكم غورباتشوف عقدة الثلوج، فهو مستعد

لأن يلعب لعبة الزمن بنجاح، وتكشف ابتسامته الناصعة عن أسنان حديدية، إنه ماركة جديدة على بضاعة قديمة.

ويعتقد أن الخطر على الأميركي على الأرض، أكثر مما يوجد بالفضاء، يؤمن بفك الارتباط، وقد فعل بين ضفتي الأطلنطي، ولا يريد أن تكون أوروبا الشرقية هي نقطة ضعف الاتحاد السوفياتي.

لقد قال أحد الخبراء الغربيين في الشؤون السوفياتية «وولف موراركا» أن علاقة زعيم الكرملين بالرأي العام السوفياتي هي علاقة معقدة للغاية، فهي تشبه إلى حد كبير الزواج على الطريقة الشرقية المتفق عليه سلفاً والذي ينشأ فيه الحب والعاطفة بعد الزواج وليس قبله، والشعب السوفياتي يقع في غرام قائده المجهول بعد الاحتفالات بتعيينه وليس قبله كما يحصل في الأنظمة الغربية التي تختار زعيمها وتقع في حبه، قبل الاتفاق على الزواج السياسي.

وفي المقارنة، فإن الرأي العام الغربي، غير منتظم ويمكن قيادته وتوجيهه، بينما الرأي العام السوفياتي منتظم بوجهة الحزب الشيوعي، وهو المعبر عن رغباته وتطلعاته، وتحكمه آلية ديموقراطية مركزية أي الديموقراطية داخل الحزب.

غورباتشوف هو أول الصعود «للجياد الشابة» التي أطلقها يوري اندروبوف، الذي هو رمزه وصانعه، لذلك يقال أن اندروبوف هو الذي دفع بالرموز الجديدة إلى هذا المسرح التراجيدي.

وميخائيل غورباتشوف، أول هذه الرموز وأبرزها، كان عمره ١٢ سنة عندما شنت ألمانيا النازية الحرب على بلاده وكان عمره ٢٠ سنة عندما مات ستالين، وبدأ صعوده في الحزب في العام ١٩٧١، وانتخب أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب عام ١٩٧٨، وأصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب الذي هو أعلى قيادة في الاتحاد السوفياتي.

لقد تربى ميخائيل غورباتشوف وسط الجيل القديم الذي استمد شرعيته في الاتحاد السوفياتي بكون هذا الجيل قد رأى لينين بالعين!

ولينين ومن بعده هم ردة الفعل على عشرين مليون ضحية من المواطنين الروس، بغية الانتصار على الألمانية النازية. لذا خضع هذا الشعب للقيادة الحكيمة. فالدمار الخرافي الذي تعرض له الاتحاد السوفياتي، جعل كل عضلة في جسد الشعب

تنصرف إلى البناء، لقد كان الصراع دائماً داخل القيادة السوفياتية بحكم هذه الخلفية الدامية بني القائد الحكيم وبين الرجل المريض، ولكن غورباتشوف خرج بظاهرة ثالثة.

من وراء الستار الحديدي

ففي العام ١٩٨٤ كان ميخائيل غورباتشوف، أول زعيم سوفياتي منذ زمن طويل يخرج من وراء الستار الحديدي ليبدأ جولة خارج موسكو، حيث ذهب إلى لندن.. فوجئت به مارغريت تاتشر، يبتسم ويضحك ويمازح، ويتأنق في ملبسه، مصطحباً زوجته الشابة والأنيقة رايسا، والتي تتحدث الانكليزية، فأعلنت رئيسة وزراء بريطانيا للعالم الغربي عن إعجابها بميزات الضيف السوفياتي وزوجته، وركزت الصحف الغربية على هذه الميزات غير المعتادة بزعيم الكرملين الجديد، فوصفته برجل أوروبا في الكرملين وبالبرجوازي الأحمر!

ولكن الصحف الأميركية لم تذهب إلى هذا الحد من الإعجاب به في أول الأمر، لأنه حسب رأيها أن غورباتشوف ليس بالزعيم المسيطر والمؤثر، لأنه يفتقد إلى عنصر البطش والقسوة، ولكونه جاء إلى السلطة برعاية وتعهد سوسلوف واندروبوف، وليس نتيجة جهوده الشخصي.

كان ممكناً في البداية أن لا يصل غورباتشوف إلى الكرملين لو لم يخطىء منافسه رومانوف المثابر والعنيد، الذي استبعد عن السلطة لأن ابنته سرقت طقم المائدة الخاصة بالأمبراطورة كاترين من متحف «الارميتاج»، وكسرت بعض قطعه في حفل زفافها فكان الفوز حليف غورباتشوف الرفيق المحظوظ، الذي اقنع سوسلوف يوماً أنه قادر على تنفيذ مشروع غذائي حمل اسم «بريجنيف» يربط الأجر بالإنتاج، فأصبح غورباتشوف وهو الذي كان عاملاً ميكانيكياً للجرارات الزراعية عندما كان عمره ١٥ سنة وبعد أن ولد في اقليم ستافروبول عام ١٩٣٠، شخصية تتقدم إلى الصفوف الأولى.

قال يوماً وهو يصعد «إذ كيف يستورد نظام يقوده العمال والفلاحون القمح من النظام الرأسمالي»؟ وقال أيضاً «إن الاتحاد السوفياتي، لن يحقق طموحاته العالمية، إذا كان غير قادر على توفير الغذاء والكساء لمواطنيه»!

قالوا عنه أنه شاب عادي غير قادر على كسب الأصدقاء بسرعة متوقد الذهن

حاضر البديهة ذو تعليقات ساخرة ولاذعة لتأكيد وجهة نظره، استهلك نفسه عندما تمسك بمبادرته الدفاعية الاستراتيجية التي أطلق عليها اسم حرب النجوم، معتبراً الرئيسين الأميركيين ريغان وبوش أنهما أبناء آلة تطحن كل شيء!

الأناقة القيصرية

قدم نفسه للعالم بكونه عودة إلى الإناقة القيصرية فالستار الزجاجي حل مكان الستار الحديدي الذي أقامه ستالين، وحل محل الحوار بالقوة، حوار السلام. فابتسامته هي مقدمة لمواقف حديدية، والفارق بينه وبين منافسه حيدر عليف، أن منافسه أكثر فولاذية في تطبيق أفكار اندروبوف، وقال غورباتشوف أنه ليس المهم للاتحاد السوفياتي اصطياد الأصدقاء، بل في تقليص عدد أصدقاء أميركا!

وكانت أوروبا مرمى نظره لاعتقاده أن الأوروبيين يشعرون بالضيق لأن الأميركيين نثروا في أراضيهم شواهد القبور في نشر صواريخ «كروز» النووية، وأحبوا غورباتشوف، لأنه لم يلتزم بالموت النووي، واعتبروه رجلاً خارج الأوكسترا الحمراء، ظهر كمخلص فجأة على سطح القارة.

وغورباتشوف يصنع زعامته في الاستفتاء الشعبي أكثر مما تصنعه الغرفة المغلقة، وبدأ للجميع كما قال هيلمت شميت، أنه زعيم ممسك بالزمن، بينما اعتبره اللورد كارنغتون بأنه محرر السوفيات من عقدة ستالين، لأن غورباتشوف يؤمن بالقوة المتحركة.

ولكنه بنظر الجميع حاكم رحيم باعتبار أنه مأخوذ بموسيقى تشايكوفسكي، فالرجل الذي يؤمن بالفنون، لا بد أن يكون أكثر شفافية فهو ليس انقلاباً في الكرملين، بل هو انقلاب على الكرملين.

واعجبت الناس، وهم ينظرون بافتتان إلى رايسا زوجة الزعيم الجديد، ووضعوها في مصاف السيدات الشهيرات: جاكلين كيندي والأميرة البريطانية ديانا.

ولد غورباتشوف في الثاني من آذار ١٩٣١، في عائلة من الفلاحين في بريفولنوي بالقوقاز. وهو يحمل إجازة في الحقوق من جامعة موسكو، حيث التقى زوجته راسيا التي تزوجها في العام ١٩٥٢، تاريخ انضمامه إلى الحزب.

بدأ حياته السياسية في العام ١٩٥٥، في منطقته في ستافروبول، ككادر محلي في

منظمة الشبيبة الشيوعية (كومسومول). رفع في العام ١٩٧٠، إلى منصب سكرتير أول في هذه المنطقة، وبات يكثر من رحلاته إلى الغرب وبخاصة إلى فرنسا وألمانيا الغربية.

وفي العام ١٩٧٨، وصل وهو في السابعة والأربعين إلى أمانة اللجنة المركزية، حيث كلف الشؤون الزراعية. وفيما بعد، كان ارتقاؤه سلم المسؤوليات سريعاً جداً، بحيث أصبح في العام ١٩٧٩ عضواً مناوباً في المكتب السياسي، ثم عضواً كامل العضوية في العام ١٩٨٠.

وفي العام ١٩٨٤، تم تفضيل قسطنطين تشيرننكو لخلافة يوري اندروبوف عليه، بينما أصبح غورباتشوف «الرجل الثاني» في النظام. ورسخ سلطته بالإشراف على شؤون العقيدة ليتسلم بعد ذلك قيادة البلاد في الحادي عشر من آذار ١٩٨٥. ثم خلف اندريه غروميكو على رأس الدولة السوفياتية، في الأول من تشرين الأول ١٩٨٨ كرئيس لمجلس السوفيات الأعلى. وثبته مؤتمر الحزب في هذا المركز في الخامس والعشرين من أيار ١٩٨٩، مع إعطائه صلاحيات تنفيذية واسعة لخمس سنوات. انتخب في ١٥ آذار ١٩٩٠ رئيساً للاتحاد السوفياتي، في إطار النظام الرئاسي الذي وضع بموجب الدستور الجديد. ثم أعيد انتخابه أميناً عاماً للحزب الشيوعي في العاشر من تموز من العام نفسه.

منح غورباتشوف جائزة «نوبل» للسلام للعام ١٩٩٠، لدوره الحاسم في تحرير دول أوروبا الشرقية، ودفع الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشرقية في طريق الإصلاحات، مع اعتماده سياسة «البيرويسترويكا»، و«الغلاسنوست»، ثم بدأ يخوض غمار اختبار قوة مع القوميين في جمهوريات عدة، كما خاض معارك سياسية حساسة داخل الحزب.

وبعد فترة وجيزة من تسلمه مهامه الجديدة، أعلن سياسة «البيرويسترويكا» و«الغلاسنوست»، وبدأ مرحلة انفراج مع الغرب. لكنه كان ملزماً باقناع جهاز الحزب والشعب السوفياتي بصحة الاصلاحات التي بدأها، لا سيما منها الاقتصادية. وفي موازاة ذلك وضع حداً لـ «الحرب الباردة».

وأبدى الغرب اهتماماً بالغاً بأفكاره، لدعواته الإصلاحية والانفتاح على العالم. وقد اختارته مجلة «تايم» رجل عام ١٩٨٧، وأوردت أن غورباتشوف، هو رمز للأمل في نظام سوفياتي من نوع جديد.

وتعرض غورباتشوف لانتقادات عدة داخل الاتحاد السوفياتي بسبب دعوته الإصلاحية، وظهرت في عصره أصوات المعارضة، بفضل سياسته في «المكاشفة»، ويتردد أن عدد الأحزاب، وصل بعد هذه السياسية إلى أكثر من مئة.

ولقد كان التحول من انغلاق الحزب الشيوعي على نفسه طوال نحو سبعين عاماً إلى انفتاح غورباتشوف الشديد، هو مصدر الاضطرابات في المجتمع، حيث أن ما دعا إليه كان نغمة جديدة لم يتعودها المواطن السوفياتي.

فلأول مرة يرى «الشعب السوفياتي زعيماً له ينادي باستقلال سلطة نواب المجالس الشعبية، وإتاحة الوسائل الديموقراطية للجماهير، لمناقشة مصالحها، والدعوة إلى التعددية الاشتراكية ومشاريع العمل الفردية وحرية المؤسسات التعاونية».

ويرجح الدارسون اخفاق «البيريسترويكا» إلى أن الاتحاد السوفياتي لا يزال يمتلك اقتصاداً موجهاً ونظاماً سياسياً ديكتاتورياً.

يعتبر الرئيس السوفياتي، الذي تسلم الحكم في الحادي عشر من آذار ١٩٨٥، أكبر شخصية في العصر الحديث، أحدثت انقلاباً، لم يقتصر على الاتحاد السوفياتي وحده، بل شمل جميع أنحاء أوروبا الشرقية.

ويقوم فكر غورباتشوف على محورين: الدعوة إلى «البيريسترويكا»، (إعادة البناء)، و«الغلاسنوست» (المكاشفة)، وقد أدى هذا الفكر إلى تقويض النظام الشيوعي في العالم. كما أدى إلى زعزعة المجتمع السوفياتي، ومطالبة بعض جمهورياته بالاستقلال. ويدعو غورباتشوف إلى تطوير الاقتصاد والاقتراب من مفاهيم السوق الحر والانفتاح، مما جعله ينفتح على أميركا وأوروبا.

الاقتصاد والأمن وأوروبا

لم يتقدم غورباتشوف ببرنامجه إلا بعد ثلاثة شهور على انتخابه، وهو يرى أن الصعوبات التي يعانيها التطور الاقتصادي منذ السبعينات يعود سببه إلى أننا لم نبدأ في الوقت المناسب الدأب في تغيير بنية الإنتاج وأشكال أساليب الإدارة وديناميات النشاط الاقتصادي، واعتبر منذ البداية أن ظروفاً خارجية تملي تعجيل التطور الاجتماعي والاقتصادي في الاتحاد السوفياتي.

ورأى أنه لذلك، علينا بذل قصارى الجهد لوقف سباق التسلح، ولكن لا يجوز

السماح لأحد بأن يتفوق علينا عسكرياً، فيجب التخلي عن الأفكار القديمة والآلات القديمة.

وعندما سئل عن العلاقات مع أميركا أجاب غورباتشوف، هناك ما يبعث على الأمل وهناك ما يبعث على القلق.. وعلى القلق أكثر. وحدد المسألة بالقول أمام الجميع «إما سباق تسلح في كافة الاتجاهات، وتنامي خطر الحرب، وإما تعزيز الأمن العالمي، وبناء سلام أوطد بالنسبة للمجتمع».

وقال غورباتشوف للسوفيات وللعالم أن في واشنطن يراهنون على القوة ويعملون على بناء قوة متفوقة تخضع العالم للولايات المتحدة، معتبراً أنه خلال المحادثات الدبلوماسية مع الأميركيين، يخضع الدبلوماسيون الأميركيون للصواريخ وقاذفات القنابل، وأنها لحقيقة واضحة أن البرامج الجديدة للأسلحة الاستراتيجية يدافع عنها ويمررها في الكونغرس نفس أولئك الذين يجرون باسم الولايات المتحدة المحادثات معنا، فهم يتحدثون عن الدفاع بينما يستعدون للهجوم، إنهم يصنعون السيف الفضائي فيعدون العالم بالاستقرار، ولكنهم يدفعون بالأمر إلى كسر التوازن العسكري لصالحهم.

لقد اشتكى غورباتشوف مرة عندما زاره وزير التجارة الأميركي مالكوم بالدريج الذي حمل إليه رسالة من ريغان، حيث أبدى له غورباتشوف انزعاجه من الوضع غير المرضي للتجارة بين البلدين، والناتج عن التمييز الأميركي ضد الاتحاد السوفياتي ومحاولته التدخل بالشؤون الداخلية عن طريق استخدام التجارة كوسيلة للضغط السياسي.

ولكن غورباتشوف منذ العام ١٩٨٤ ركز على أوروبا الغربية وكما قيل في محاولة تسديد ضربات مركزة لفك الارتباط بين ضفتي الاطلنطي، وحاول التعامل مع المؤسسات الغربية الأوروبية بدلاً من الأميركية بغية إقامة مشاريع حيوية في الاتحاد السوفياتي بهدف توسيع الفجوة الاقتصادية بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

فإذا حدث هذا فإن الفجوة الاستراتيجية السياسية ستتوسع أيضاً. وإذا كان العالم الرأسمالي لم ينجح معه الاختراق الأيديولوجي، فإن الاختراق الاقتصادي، أمر يفهمه الرأسماليون جيداً، لذلك رأى غورباتشوف، إن أوروبا تعاني من الحماية الأميركية والهالة اليابانية، لذلك يصبح البديل الاقتصادي هو الاتحاد السوفياتي،

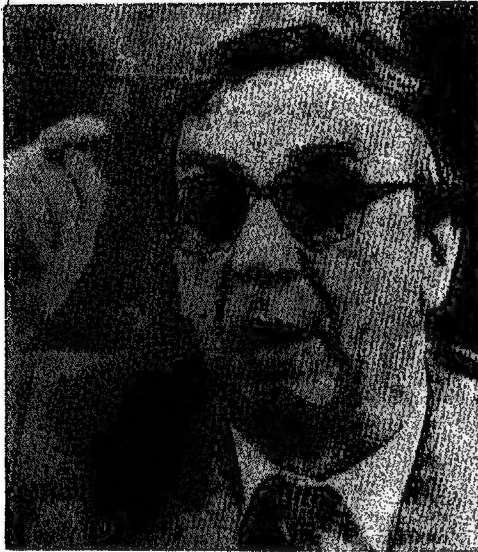
وروحيته الواقعية قائمة على المصالح المتبادلة للبلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة.

ومع باريس حاول غورباتشوف إقامة اتجاه باشتراك أوروبا الغربية كشريك أساسي في تقرير التوازن الأمني، والتعاون الاقتصادي بين شطري القارة الأوروبية.

لذلك أبعد اندريه غروميكو الذي يمثل الاتجاه الحديدي المتصلب في السياسة السوفياتية باعتباره مهندس الديبلوماسية الباردة.

ومع بكين تجاوز مرحلة التوتر في العلاقات السوفياتية ـ الصينية التي انقطعت في العام ١٩٦٦، وأطلق بداية منعطف جديد بين البلدين استمرت عشرين سنة.

***



غينادي ياناييف

(١٩٣٧ -)

«الرئيس لستين ساعة فقط»

رئيساً لستين ساعة فقط، إذ قاد انقلاب الإطاحة بغورباتشوف مع مجموعة لجنة الدولة لحال الطوارىء بين ١٩ و ٢١ آب ١٩٩١.

غينادي ياناييف (٥٤ سنة)، كان نائباً لرئيس الاتحاد السوفياتي منذ أواخر كانون الأول ١٩٩٠.

أصبح عضواً في المكتب السياسي منذ المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في تموز ١٩٩٠، حتى انتخابه نائباً للرئيس تحت ضغط المحافظين. وهو يؤيد

الانتقال التدريجي إلى اقتصاد السوق، ويحرص على أن يقدم نفسه على أنه «راديكالي واقعي».

ولد غينادي ياناييف المهندس ورجل القانون في العام ١٩٣٧ في روسيا. درس في معهد غوركي الزراعي، وتابع دروساً بالمراسلة في معهد القانون في موسكو.

وبعد بداياته في الشبيبة الشيوعية في غوركي، التي استعادت اسم نيجني نوفغورود شرق موسكو، بدأ صعود السلم في الجهاز المحلي للحزب، قبل أن تأخذ حياته السياسية بعداً دولياً.

ومعرفته للغتين الانكليزية والألمانية (وهو أمر نادر بالنسبة لمسؤول سوفياتي) قادته بين العامين ١٩٦٨ و١٩٨٠ إلى رئاسة لجنة منظمات الشبيبة السوفياتية، التي هي من الأجهزة العديدة التابعة للحزب.

وابتداء من العام ١٩٨٠ أصبح نائباً لرئيس اتحاد جمعيات الصداقة مع الخارج، قبل دخوله في العام ١٩٨٦ المجلس المركزي للنقابات، الذي أصبح رئيساً له في نيسان ١٩٩٠.

وقدم منذ آذار ١٩٨٩ كرئيس للمجموعة الشيوعية في مؤتمر نواب الشعب. وتولى ملفات دولية بصفته عضواً في لجنة الشؤون الدولية في مجلس السوفيات الأعلى.

وهذا المحافظ متزوج وأب لولدين، قد أبدى انتقاداته لميخائيل غورباتشوف، وحتى أنه تحدث أثناء قيامه بمسؤولياته النقابية عن «خطر الحرب الأهلية».

لكن غورباتشوف وصفه بأنه «رجل مبادىء»، صلب ونصير فاعل لـ«البيريسترويكا» (إعادة البناء).

بعد عودة غورباتشوف إلى السلطة وفشل انقلاب آب ألقي القبض على غينادي ياناييف وأخضع لمحاكمة ما تزال مستمرة مع قادة الانقلاب الآخرين.



بـوريس يلتسـين
(١٩٢١ -)
«رجل التحديات والمصير المجهول!»

برز بوريس يلتسـين الذي انتخب رئيساً لجمهوريـة روسيا في تمـوز ٩١، ليس فقط كزعيم يتمتع بشجاعة جسـدية وسياسية خـارقة وهـو يتحدى الانقـلابيين الـذين استولوا على السلطة في آب ٩١ بل كمنظر سياسي واجتماعي استطاع من خلال كل ما طرحه من أفكار ومبادىء إصلاحية من أن يخلق له شعبية واسعة ويحرك بـالتالي المسـار العام السوفياتي إلى الواقـع الذي يعيشـه حالياً الاتحاد السـوفياتي «سـابقاً» من انفتـاح واسع على الغرب والتأكيد على اقتصاد السوق والقيام بإصـلاحات اقتصـادية واسعـة ومقاومة ديكتاتورية المؤسسة والحزب والمناداة بالليبرالية والديمقراطية.

ولم تكن وقفـة التحـدي التي وقفهـا يلتسـين في مبنى الـبرلمـان الـروسي، والتي استثارت إعجاب العالم وتقديره، غريبـة على رجـل بنى مهنته السيـاسية عـلى التحدي والمعارضة. وخـلال السنوات الست التي قضـاها غـورباتشـوف في السلطة حمل عليـه يلتسين بدون هوادة وحذر من أنـه يمكن أن يصبح «سـتالين أو مـا شابـه ذلك». وقـد وصف غورباتشوف بأنه رجل غير متسامـح يحب السلطة ولا يحتمل الأشخـاص الذي يناقضونه في الرأي، فإما أن يطردهم أو أنه يتحاشاهم كلية.

ولد يلتسين في بلدة سفيردلوفسك في جبال الأورال في شبـاط١٩٢١ متأهـل وله بنتان، ودرس الهندسة المعمارية ثم التحق بالحزب الشيوعي المحلي وتدرج في منـاصب

الحزب حتى أصبح زعيماً للحزب الشيوعي في موسكو واختير عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوڤياتي. ولكنه فقد منصبيه خلال ثلاثة أشهر سنة ١٩٨٧ اثر نزاع مرير مع غورباتشوف بشأن عمق وسرعة الإصلاحات التي يقترحها. وقاوم المحاولات الهادفة إلى جعله منبوذاً سياسياً، واستغل شعبيته وسرعان ما أخذ يظهر في زي الزعيم الليبرالي الديموقراطي المعارض للكرملين.

وفي مارس (آذار) ١٩٨٩ عاد لينضم إلى المعمعة السياسية، عندما فاز بـ ٨٩٪ من الأصوات ليمثل موسكو في أول انتخابات متعددة المرشحين في الاتحاد السوڤياتي. ومن هناك مضى ليصبح عضواً في البرلمان الروسي قبل أن ينتخب قبل شهرين رئيساً لاتحاد الجمهوريات الروسية بأغلبية ساحقة.

وكان بوريس يلتسين استقال من الحزب الشيوعي عام ١٩٩٠ ليقود حركة استقلال الجمهوريات. وينظر إلى يلتسين، كداعية للإصلاحات الاقتصادية ومقاومة المركزية الاقتصادية والسياسية، على أنه «الليبرالي الأعظم» في البلاد. ولكن بعض نقاده يقولون إن غرائزه السياسية التي شكلتها سنوات في بيروقراطية الحزب الشيوعي وذكاءه الفذ وقيادته غريبة الأطوار، تعني أن شغفه بالسلطة قد يطغى على ليبراليته. ويجادل آخرون بأنه ليس ديموقراطياً وإنما أقرب إلى التسلط وغير متسامح، وأنه ليس مفكراً عميقاً. ويقولون أنه يعرف ما يقف ضده دون أن يعرف ما الذي يقف إلى جانبه.

ولكنه في كتابه «ضد التيار» يفند هذه الإدعاءات بطريقة غير مباشرة عندما يتحدث عن استعداده للدفاع عن غورباتشوف ضد أية محاولة للإطاحة به، على الرغم من أنه غير مقتنع شخصياً بزعامته. فقد ذكر في كتابه بعد أن تحدث عن شائعات تتصل بمحاولات لتجريد غورباتشوف من العديد من صلاحياته الدستورية في انقلاب سياسي يدبره له خصومه في اجتماع مكتمل النصاب لمؤتمر نواب الشعب السوڤييتي: «إنني لا أعتقد أن تلك الشائعات صحيحة لكن إذا كانت صحيحة فإنني سأقاتل دفاعاً عن غورباتشوف في المؤتمر. نعم إنني سأقاتل دفاعاً عنه.. عن خصمي القديم الدائم، عاشق انصاف الحلول وانصاف الخطوات، وستتسبب تكتيكاته المفضلة هذه في نهاية المطاف عن سقوطه، ما لم يدرك هو في الوقت المناسب إخفاقاته الرئيسية. ولكن في الوقت الحاضر، أو على الأقل حتى موعد المؤتمر القادم للحزب

حيث يمكن أن يبرز زعماء جدد، يظل الرجل الوحيد الذي يمكن أن يحول دون الانهيار النهائي للحزب».

وعن الاشتراكية والمستقبل والبيريسترويكا يتابع يلتسين:

هناك أناس كثيرون يقلقهم السؤال: إلى أين نحن سائرون؟ هل نحن نبني لأنفسنا بيتاً متواضعاً نعيش فيه ولو بصورة مجازية؟ إن مجتمعنا اليوم يحاول أن يهزّ التصوُّرات القديمة بكل ما أوتي من قوة للعثور على الطريق الصحيح الوحيد. لقد انحرفنا وضعنا وارتكبنا أخطاء كثيرة.. وعند كل منعطف أو مفرق يتصدّى لنا الكذب والتزوير والتلفيق والجمود الفكري.. فعلينا، إذن، جميعاً أن نعمل جاهدين كي لا نعود فنقع في مهاوي الماضي.

وإذا صدَّقنا الكتب المدرسية فإننا أنجزنا بناء الاشتراكية منذ زمن بعيد، ثم أكملنا ـ لسبب ما ـ بناءها وفي النهاية بنيناها «نهائياً بصورة لا عودة عنها». وما لبث أن تبيّن للأيديولوجيين أن هذا غير كاف فأعلنوا بمساعدة من ل. إ. بريجنيف مقولة «الاشتراكية المتطوِّرة». وها هم الآن يكادون يكسرون رؤسهم تفكيراً: أي اسم سنطلق على المرحلة التالية؟.. فثمة ضرورة أن يكون هناك صيغة معيَّنة.. لا نستطيع إكمال وجودنا دونها. ويوجد لدينا ـ وفق حسابات نظريِّينا إذا لم أخطىء ـ ستة وعشرون تحديداً لنمط أو أسلوب الحياة السوفياتي، ومن البديهي أن يكون لدينا مثلها في وقت قريب من أنواع الاشتراكية.

وإذا شئنا أن نقارن نظرية الاشتراكية وممارستها، دون أحكام مسبقة، يتبين لنا بوضوح أن من أجزائها المكونة الكلاسيكية الثلاثة لم يتحقق في الواقع سوى واحد هو: الملكية الاجتماعية، التي نُفِّذت بدورها على نحو قسري. أما عناصر الاشتراكية الأخرى فهي إما غير موجودة في الواقع أو إنها شُوِّهت إلى درجة لم يعد معها ممكناً التعرُّف إليها.

وحتى يمكننا أن نتصور إلى أين نحن ذاهبون فمن المهم جداً أن نعرف من أين نحن قادمون؟ في العشرينات «اجتثَّ» ستالين طريق الديموقراطية من جذوره وأخذ يغرس اشتراكية الدولة الهيمنية ـ السلطوية والبيروقراطية ـ الإدارية. وخنقت الديموقراطية وهي بعد جنين، ولم يستطع أن يخلق في مجتمع مكتوم أي شيء غير طرح نفسه على الجميع. فالناس المكتومون (أي غير المتصارحين المتكاشفين) لن يتمكنوا من

التوافق بعضهم مع بعض مطلقاً. فقد مورست ضغوطات مرعبة وانعدم خلال ذلك الحوار السياسي ـ الاجتماعي بين الحزب وبين الشعب. وبدأ غرس الإملاء والرعب السياسيين.

أما طريق إشاعة الديموقراطية في المجتمع فقد بشرَّ بآفاق واعدة تسود فيه المصلحة الشخصية. . الاهتمام الشخصي، إضافة إلى حساب اقتصادي حقيقي وليس شكلياً أو استعراضياً. ولكنَّ ذلك لم يحدث للأسف، فالسياسة الاقتصادية التي انتُهجت بنيت على أساس «المصلحة الاجتماعية» فحسب. وتحت سقفها مُررِّت ـ ونُفِّذت ـ كل الطرائق الاقتصادية غير الصالحة، التي وإن خدمت أحداً لم تخدم إلا المصالح الشخصية لحفنة من البيروقراطيين تحت ستار المصلحة الاجتماعية العامة. . وظل العمال والفلاحون بمنأى عن أي منافع تذكر ولم تُلبَّ مصالحهم.

وفي هذه الأيام يكثرون من الكتابة عن تجديد اشتراكيتنا، غير أن هذا ليس دفاع سيء عنها إذا أردنا استعمال مفردات لينة بقصد الوصف، ذلك أن بوسع المرء تجديد ما هو موجود في الزمان والمكان. وبالطبع، يمكن على سبيل المثال تجديد بيت مبني، قائم، كيفما أريد، إن لجهة توسيعه أو إلحاق المزيد من البناء به أو إعادة تصميمه. . ولكن ماذا لو كان غير موجود؟ رأيي هو التالي: إننا بدأنا بناء الاشتراكية لتوِّنا. نحن بحاجة إلى نظرية مخلصة، شريفة، علمية حقاً يمكنها أن تستفيد من تجربة عمرها سبعة عقود من وجودنا فتأخذها بعين الاعتبار.

لن تختفي التصورات الدوغمائية عن الاشتراكية بلحظة واحدة، بل ستظل تحاول الإفادة من قوة الاستمرار المستمدة من السنوات الخالية، وذلك لفترة طويلة من الزمن. وإن أُطْلِقَة دور عوامل التطور الاقتصادية(بإهمال العوامل السياسية ـ الاجتماعية) زمناً طويلاً قد انعكس حتى على استراتيجية البيريسترويكا العامة. والإصلاح الاقتصادي لم يتعزز بإعادة بناء متزامنة للبنية السياسية، (وكان من الأفضل أن تتقدَّمه).

وكان، أيضاً، من المفترض أن تبدأ البيريسترويكا من الحزب، وذلك بإعادة بناء جهازه. كان من الضروري بمكان أن يتم تحديد موقع الحزب في المجتمع بكل دقة، فماذا كانت النتيجة؟ تبين أننا كنا نعيد بناء الاقتصاد، في مرحلة معينة، ونحن أسرى الأفكار الجامدة والتقاليد البالية الآتية إلينا من الماضي. . من تصورات ومفاهيم ميتة

دون أن نكون مزودين بجملة قوانين عن الملكية والأرض والتعاونيات والإجارة والنظام الضريبي ونظام أسعار جديد.

واليوم في سياق سعينا لإحداث إصلاح سياسي مسرَّع نحاول التعويض عمّا فاتنا. وأستطيع القول إن الإنجازات الضئيلة المحقَّقة في هذا المجال أدَّت إلى تسييس ملحوظ في الوعي الاجتماعي.. وأصبح الشعب يندمج في السياسة بنشاط.

هذا، وقد وسَّعت السياسة الشعبية ـ التي بدأت من الدبلوماسية الشعبية ـ ترسانة وسائلها وأشكالها وطرائقها. وامتلأت الحياة الاجتماعية تماماً بالإضرابات وبلجانها التي تشكَّلت. وتتطور الصحافة الشعبية على هيئة منظمات أهلية غير رسمية وصناديق ومجموعات مبادرة، إلخ.. وفي بعض الجمهوريات والمناطق نشأت جبهات شعبية تمارس نشاطها الفعَّال فيعتبرها بعضهم أحزاباً سياسية جديدة في المجتمع. وأنا مع نشوء هذه الجبهات شرط ألاَّ تتناقض برامجها وممارساتها مع القيم الإنسانية العامة. ففي البلطيق طرحت الجبهات الشعبية مسائل لم يسهم الحزب في حلها عنيت المشكلات القومية.

لقد هزَّت البيريسترويكا الناس وأيقظت فيهم طاقة بنَّاءة ودعتهم إلى الإبداع الاجتماعي. ومن المهم أن تحتل هذه الأشكال المستجدة من السياسة الشعبية مكاناً جديراً في المجتمع، إذا يجب أن تعزز تضامن كل من أقلقه، ويقلقه، مصير البلاد، وكل من يسعى طامحاً إلى بناءٍ ديموقراطي حقيقي. وإن إبعاد أصحاب الأفكار المغايرة من النضال من أجل البيريسترويكا يضعف أشكال الحركة الشعبية. فلا بد، إذن، من تشجيع تخالف الأفكار، خصوصاً في الأوضاع الحرجة، نشداناً لاستمرار الحركة، ذلك أن وحدة الرأي الإرادوية لن تفضي بنا إلاَّ إلى الركود.. فكل كلمة جديدة، وكل فكرة جديدة تعتبران أثمن من الذهب. وعموماً، هل يمكن أن ننكر على الإنسان حقه في التعبير عن أفكاره؟!

إن غورباتشوف هو محاولة إصلاح أجهضت نفسها وحركتها بالمواقف الوسطية والتردد والميل إلى الرفاهية وحب السلطة. غورباتشوف كان قادراً على الكسر مع المحافظين الاأنه لم يكسر، وكان قادراً على إلغاء امتيازات النوفنكلاتورا (مسؤولي النظام الحزبيين) إلا أنه فضل التمتع بها.

بوريس يلتسين ابن الحزب الشيوعي ووريث عقلية قيادته وممارستها. كان أولى

قراراته بعد فشل انقلاب آب حل الحزب الشيوعي وجميع مؤسساتـه وتفكيك الاتحـاد السوفياتي وطرد غورباتشوف من الكرملين بعد مصادرة كل ممتلكات الكرملين دون العودة إلى المؤسسات الدستورية لإقرار ذلك.

ركز في كتابه «صراعي من أجل الديمقراطية» اعتراضاته على النهج الشيوعي السابق باتهام القيادة بالوقوف ضد كل معارضة ديمقراطية وسحقها وهذا ما حصده أيضاً منها وبالتمركز الشديد والكامل للصلاحيات الحزبية والتنفيذية في شخص السكرتير الأول للحزب وهذا ما أدى بالتالي إلى انزلاقات خطيرة والانحراف بالديمقراطية الفتية إلى الديكتاتورية الفولاذية.

أخيراً لخص يلتسين كل معاناته وتطلعاته بالفقرة التالية:
«بما أننا لا نزال نعيش حالة فقر بائسة، فأنا لا أستطيع أن آكل الكافيار الأسود ولا أن أركب السيارة الفخمة التي لا تعرف الإشارات الضوئية، ولا أن أبتلع الدواء المستورد من الخارج، فيما جارتي لا تعثر على حبة أسبرين لطفلها».

هل نجح يلتسين في تحقيق كل ما اعترض من أجله وهو الآن في موقع السلطة والقرار؟

إن مشاهد الطوابير الطويلة المصطفة للحصول على رغيف الخبز والحاجات الضرورية وندرتها وغلاء أسعارها إن وجدت والفقر المتقع الذي يعيشه الآن المواطن الروسي رغم صيحات «التوسل» للمساعدة والمساندة من كل أقطار العالم وفقدان المواد الغذائية الضرورية من الأسواق نتيجة لجشع التجار وسرقة حتى «مواد المساعدات» كل هذه مؤشرات على أن الواقع الروسي وكل الواقع الحالي للجمهوريات المستقلة (السوفياتية سابقاً) يسير باتجاه حروب داخلية طاحنة وتمزق وتفتيت، باختصار إنه الطريق نحو المجهول!!

الفصل الخامس

المحطات الكبرى في تاريخ الاتحاد السوفياتي (١٩١٧ - ١٩٩٢)

١٩١٧ : ثورة شباط[١]، تنازل القيصر نيقولا الثاني عشر العرش في الثاني من آذار، واستيلاء البلاشفة على السلطة في الخامس والعشرين من تشرين الأول.

١٩١٨ : لينين يؤسس الجمهورية السوفياتية في روسيا وعاصمتها موسكو واندلاع الحرب الأهلية بين الجيشين الأحمر والأبيض وإعدام القيصر نيقولا الثاني وعائلته.

١٩١٩ : إقامة الكومنترن الدولية الشيوعية في آذار.

١٩٢١ : ثورة بحارة كرونستات على نهر البلطيق على الوضع الاقتصادي والمناداة «بحياة السوفيات دون الشيوعيين»، عقد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي وتبني سياسة اقتصادية جديدة وإقامة الحزب الواحد.

١٩٢٢ : توقيع معاهدة الاتحاد، التي ستكون أساساً للدستور السوفياتي لعام ١٩٢٤، وانتخاب ستالين أميناً عاماً للحزب الشيوعي.

١٩٢٤ : وفاة لينين (٢١ كانون الثاني) وتولي ستالين وزينوفيف وتروتسكي وكامينيف السلطة.

١٩٢٧ : طرد تروتسكي[٢] من الحزب واقصاء زينوفيف وكامينيف عن السلطة وبات ستالين السيد المطلق في السلطة والحزب وإعلانه عن تشريع تطبيق الملكية الجماعية للأراضي.

١٩٣٦ : محاكمات موسكو: حملة تطهير ستالينية طالت كل خصوم الحكم المطلق لستالين. وصل أعداد ضحايا الحقبة الستالينية إلى أكثر من ١٢ مليون ضحية بحجة تطهير البلاد من المعادين للثورة عدا إعدام الالآف من رفاقه المعارضين له.

وهذه الثلاث محاكمات المعروفة تحت اسم «محاكمات موسكو» لا تمثل إلا جانباً

(١) راجع أول الكتاب عن: شروق الأمبراطورية الروسية.

(٢) تم اغتياله في المكسيك ١٩٤٠.

واحداً لفترة الرعب للنظام الستاليني (١٩٣٦ - ١٩٣٨) المساة بـ «Yéjovchtchina» نسبة إلى Léjov إذ كان رئيساً لما يسمى بالـ Gêpêou (الشرطة السياسية). وفي الحالات الثلاث، كان المتهمون الرئيسيون هم من البلاشفة من أصحاب لينين، صناع ثورة تشرين/أكتوبر وكلهم من الوجوه المعروفة في الشيوعية الدولية بدون استثناء. اعترفوا بالجريمة وأقروا بالذنب. وفي المحاكمات الثلاث كانت عقوبة الموت هي التي أنزلت في معظم المتهمين.

١ - أبرز المتهمين في المحاكمة الأولى ١٩ - ٢٤ آب ١٩٣٦، ما يدعى بـ «المركز التروتسكي - الزينوفيقيست الموحد» Trotskylte - Zinovievist زينوفييف Zinoviev وكامينيف Kamenev (اللذين كانا مع ستالين، وشكلا معه الـ «الثلاثي Troika» في السلطة بعد موت لينين. وكان سيمونوف وافدوكيموف وباكييف من بين السبعة عشر متهماً في المحاكمة الثانية: محاكمة (٢٣ كانون الثاني - يناير ١٩٣٧) وهم المدعوون بـ(المركز التروتسكي الموازي) والمتهم رقم واحد هو Platakov وعلى جانبيه Roded, Sodolulkov Serebriakov، وكان موكب الرفاق القدامى يتتابع مع الواحد والعشرين متهماً للمحاكمة الثالثة (٢ - ١٣ آذار - مارس ١٩٣٨) وهم المدعوون «بالزمرة اليمنية والتروتسكيين» ومن بينهم Boukharine، الذي يقاسم مقعد المتهمين مع Krestinsky و Lagoda (الرئيس السابق لـ Tchéka).

٢ - اختيار المتهمين تم حسب طريقة خاصة. حيث زُج في المحاكمة نفسها ثوريون، وهم الذين كانوا في الماضي، قد اتخذوا طروحات مختلفة (ولكنهم انضموا إلى ستالين) وكانوا يحاطون بشيوعيين أقل شهرة، ويضاف إليهم أشخاص ثانويون غير معروفين بالنسبة لهم وهم ذوو ماض غامض، يدعمون طروحات الاتهام.

٣ - كان السيناريو للمحاكمات الثلاث متشابهاً. فالتحقيق سريع من قبل النائب العام للدولة Vychinsky الذي يثبت على المتهمين الجرائم التي ينسبها إليهم قرار الاتهام.

إنه الاعتراف بالتآمر الإرهابي ضد قادة الاتحاد السوفييتي خصوصاً اغتيال Kirov (خاصة في محاكمة Zinoviev) وكذلك اعتراف (Maxime Gorki) وابنه، واعتراف (Lagoda).

الصقت الأعمال التخريبية والنهب بـ (Sokoinikov, Pitakov) وقادة اقتصاديين آخرين.

وكان من بين الاتهامات النشاط التجسسي والخيانة التي تهدف إلى قلب السلطة السوفييتية عن طريق الاتصال بتروتسكي و«اتصالات» هذا الأخير مع القادة الهتلريين.

وإذ كان دور تروتسكي أثير في المحاكمات الثلاث، يتبين من حالة إلى أخرى أن تقدماً لا بأس به قد تم بهذا الشأن في المحاكمات كما في الاعترافات.

٤ ـ رافق ذلك أحياناً بعض الكتمان والإنكار، وشهادات مسجلة في التحقيق وتقطيع مسار الاعتراف. ومن أكثر من هذه المؤشرات العرضية، برزت متناقضات، لا تصدق وثغرات وضحت من قبل محللي المحاكمات التي بذرت الشك في الرأي المشوش بهذا القدر من الجوانب غير المألوفة من الأحداث، ومثال ذلك اعترافات نيكيتا خروتشوف (Nikita Khrouchtchev) «وفي تقريره السري» للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٦ الذي تضمن بعض التوضيحات. ولكن إلقاء الضوء حول الإجراءات التي استعملت من أجل تركيب سيناريو «محاكمات موسكو» لم يظهر إلا في أواخر سنوات الستين ضمن كتاب Arthur London: الذي صدر تحت عنوان «الاعتراف».

١٩٣٩: توقيع المعاهدة السوفياتية ـ الألمانية في ٢٣ آب، ومدتها عشرة سنوات وتنص على إقامة حلف بين الدولتين يمتنع بموجبه الحليفان من الاشتراك في أي حلف عسكري يهدد أحدهما. وهذا يعني امتناع ستالين عن دعم فرنسا وانجلترا وبولندا مع أحقيته بموجب بند سري في المعاهدة بضم نصف بولندا الشرقي في حال إقرار تعديلات على حدود بولندا وبذلك يكون ستالين قد اختار موقف المتفرج في حياد لا يكلفه شيئاً بل يعطيه فرصة للاستعداد ويبعد عنه إمكانية هجوم ياباني من الشرق (نظراً للتحالف الياباني ـ الألماني) وكذلك يعده بنصف بولندا.

١٩٤٠: * ضم بلاد البلطيق بعد دخول الجيوش السوفياتية لها وتنازل ألمانيا عن ليتوانيا للسوفيات مقابل تعديل حدود القسمة وفق معاهدة آب ١٩٣٩.
* اجتياح فنلندا ٣٠ تشرين الثاني بعد رفض الأخيرة المطالب السوفياتية بالحصول على بعض الامتيازات على أراضيها، بنجاح الغزو السوفياتي انصاعت فنلندا لمطالب الاتحاد السوفياتي (آذار ١٩٤٠) وأقرت له ببعض المناطق المتاخمة.

١٩٤١ ـ الاجتياح الألماني للاتحاد السوفياتي:

لم يعمر الاتفاق بين هتلر وستالين طويلاً للخلاف على مناطق النفوذ وتعاظم المد الشيوعي بسبب مآسي الحرب. بدأت القوات الألمانية (صيف ١٩٤١) تنفيذ خطة هتلر (بربروسا) مخترقة خط ستالين الدفاعي وباتت المدن السوفياتية مهددة: لينينغراد (٣٠ آب) وقد صمدت رغم الحصار الشديد والبرد والجوع مدة عامين، وكييف (١٩ أيلول) ومنسك ومسمولنسك، وبات العدو على مسافة مائة كيلومتر فقط من موسكو (ت[1] ١٩٤١) التي أدار منها ستالين المعركة ضد الألمان.

ولم يوقف زحف الغزاة إلا حلول الشتاء وتدني معدل الحرارة حتى العشرين تحت الصفر. وبحلول الربيع التالي استأنف الغزاة تقدمهم باتجاه القفقاس وآبار البترول في باكو وستالينغراد وأضحت ألمانيا تستولي على قمح أوكرانيا ومناجم الدونيتز وفي طريقها للاستيلاء على بترول القفقاس وباكو.

حزيران ١٩٤٢ ـ بعد ركود الشتاء واصل الألمان تقدمهم بالعمق السوفياتي فاستولوا على الفولغا وسباستوبول على البحر الأسود وأكملوا حصار ستالينغراد من كل الجهات التي استطاعوا احتلال الجزء الأكبر منها. مع استماتة الروس في الدفاع عن مدينتهم، بدأ الهجوم السوفياتي المعاكس والذي قدر وقتها بعشرة الآف مدفع واثني عشر ألف دبابة مخترقاً الصفوف العسكرية الألمانية مما أدى إلى تراجع الألمان على كل الجبهات الروسية وبداية النهاية لألمانيا النازية.

١٩٤٥ ـ تشكيل حلف وارسو في ١٤ أيار بزعامة الاتحاد السوفياتي من دول المنظومة الاشتراكية.

١٩٥٣ ـ وفاة ستالين، وتولي خروتشوف السلطة لعشر سنوات بعد فترة انتقالية قصيرة تولاها مالينكوف.

١٩٥٦ ـ التدخل العسكري السوفياتي في المجر بفرض الحكومة الموالية.

١٩٥٦ ـ المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي وما عرف بتقرير خروتشوف الشهير حول تجاوزات ستالين وعبادة الفرد والحملة على الستالينية.

تقرير خروتشوف

هو تقرير سياسي سري معاد لستالين ألقاه نيكيتا خروتشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي في جلسة مغلقة عقدت في موسكو بتاريخ ١٤ شباط - فبراير ١٩٥٦، وشكّل بداية الحملة الرسمية لتصفية آثار الستالينية في الاتحاد السوفييتي. وقد أدان التقرير بشكل مفصّل وموثق «أخطاء» ستالين و«تجاوزاته» و«جرائمه». وقد تمثل كل هذا، حسب التقرير، في نظرية ستالين حول الصراع الطبقي، وهي نظرية كانت تدعو إلى تصعيد حدة الصراع كلما اقتربت البلاد من تحقيق الاشتراكية وفي إلصاق تهمة «عدو الشعب» بكل المعارضين وعدم احترام القواعد اللينينية داخل الحزب «وانتهاك الشرعية الاشتراكية».

وأشار التقرير أيضاً إلى حملة التصفية الجماعية التي أمر بها ستالين ابتداء من اغتيال سيرج كيروف عام ١٩٣٤، فكشف أن ستالين قد أمر بإعدام ٩٨ عضواً من اللجنة المركزية للحزب من أصل ١٣٩ عضواً كان المؤتمر السابع عشر للحزب قد انتخبهم، كما أمر بتطهير آلاف الأطر من الحزب والجيش والقطاع الصناعي، بالإضافة إلى نفي مئات الآلاف من المواطنين العاديين الأبرياء. وكشف التقرير أيضاً التزوير الذي لحق بالمحاكمات السياسية الكبرى (١٩٣٦)، والأساليب البوليسية القمعية التي دفعت العديد من الحزبيين إلى الاعتراف بارتكاب جرائم لم يقترفوها. وتعرّض التقرير أيضاً إلى دور ستالين أثناء «الحرب الوطنية الكبرى» (الحرب العالمية الثانية) فشكك بوطنّيته وكفاءته، وركز على مسؤوليته في الهزائم الكبرى الأولى التي لحقت بالجيش الأحمر وعجزه عن إدارة العمليات العسكرية.

بقي تقرير خروتشوف سرياً لمدة سنوات فلم يطلع عليه سوى أعضاء المؤتمر العشرين وبعض القياديين في الأحزاب الشيوعية الأوروبية والعالمية. ثم بدأت تتسرب بعض مقاطع منه إلى الغرب إلى أن نشرت الصحافة الأمريكية نصه الكامل. وقد سارعت الأحزاب الشيوعية الأوروبية إلى التشكيك في صحة هذا التقرير فكانت تشير إليه بتعبير: «التقرير المنسوب إلى خروتشوف»، إلا أن خروتشوف عاد في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب فكرر اتهاماته السابقة ووضحها بشكل علني هذه المرة (١٩٦١).

كان لنشر تقرير خروتشوف وقع عميق على الحركة الشيوعية العالمية، فبدأ الصراع الصيني السوفييتي على أثره يظهر إلى العلن، كما أن الحملة ضد «عبادة

الشخصية» أخذت تشهد أبعاداً واسعة داخل الاتحاد السوفييتي نفسه وتنعكس في سياسة الانفتاح النسبي التي أخذ خروتشوف ينتهجها، سواء في الداخل أو في الخارج. أما الأثر الأعمق للتقرير فكان تحرر العديد من الأحزاب الشيوعية من وصاية الاتحاد السوفييتي واتجاهها نحو تبني خط شيوعي خاص بها وبظروفها.

٢٢ تشرين الأول ١٩٦٢ : الحرب العالمية الثالثة كادت أن تقع!!

ـ أزمة كوبا ـ

كانت طائرات التجسس الأمريكية، في تحليقاتها فوق كوبا، قد كشفت وجود صواريخ سوفياتية مركزة في الأدغال كما كشفت عدداً من البواخر السوفياتية تمخر المحيط الأطلسي باتجاه كوبا وعلى متنها بشكل ظاهر صواريخ جديدة.

والأمر الذي صدر من واشنطن لم يكن فيه أي شك بأن البيت الأبيض قد اتخذ قراراً مصيرياً خطيراً: يجب على القوات البحرية والجوية الأميركية أن تصد هذه البواخر عن الوصول إلى كوبا مهما كلف الأمر، كما يجب على موسكو أن تصدر الأمر بتفكيك صواريخها المركبة في كوبا وبشحنها من جديد إلى الاتحاد السوفياتي.

ووقف العالم في تلك الأثناء على شفير حرب من نوع لم تشهد مثله البشرية بعد.

تلك الحرب، لو وقعت، كان من المتوقع لها أن تمحو عن الكرة الإرضية وجود ما لا يقل عن ٨٠٠ مليون نسمة وأن تترك حوالي مليار و ٥٠٠ مليون نسمة في حالات المرض يودون هم أنفسهم لو أن الموت اختارهم بدلاً من أن يعانوها.

فبعد القرار الذي اتخذه الرئيس الراحل كينيدي بفرض الحصار على كوبا وبفرض المطالب التي يتوجب على خروتشوف أن ينفذها على الفور، صدرت عن المصادر الرسمية في موسكو الأخبار التي تقول:

«لقد أصبحت القوات السوفياتية، وبصفة خاصة قوات الصواريخ العابرة للقارات، والبحرية السوفياتية وحاملات القنابل ذات المدى البعيد لدى القوات الجوية في حال استنفار كاملة. كذلك فإن أساطيل الغواصات، بما في ذلك الغواصات النووية، قد أخذت مواقعها لإطلاق النار».

وإذا كان هذا القليل القليل قد أصبح معلوماً الآن عما جرى في الاتحاد

السوفياتي آنذاك، فإن معلومات أوفر أصبحت معلومة عما جرى في الولايات المتحدة.

من تلك المعلومات الأميركية:

في «غرفة الحرب» التابعة للقوات الجوية الواقعة في طبقة تحت الأرض من البنتاغون ومطوقة بالاسمنت المسلح السميك كان هنالك فريق من العسكريين المنهكين الذين جلسوا على مقاعد قيادة الحرب. لقد كانوا يتطلعون بأعين محمرة من التعب إلى اللوحات الألكترونية الكبيرة المعلقة أمامهم.

لقد كانت هذه اللوحات تظهر كل قاعدة حربية أميركية على الكرة الأرضية وكانت عليها أنوار صغيرة متنوعة الألوان تدل على تحركات جميع الجيوش. وعلى خرائط بلاستيكية كانت ثمة نقاط مضيئة كل منها تعني طائرة تحمل قنابل نووية أو صاروخاً. كل من هذه الطائرات والصواريخ كان له هدف معين في الاتحاد السوفياتي. وإطلاق كل منها من عقاله كان مسألة ساعات معدودة.

والضابط الأميركي، مصدر هذا الوصف، يتذكر كذلك: عندما وصلت على جناح السرعة للقيام بواجبي هذه المرة اعتراني شعور غريب للمرة الأولى. لقد تساءلت: هل سأخرج حياً وهل باستطاعتي أن أرى زوجتي وأولادي من جديد؟

لقد نزل الضابط واقفاً على سلم متحرك إلى القبو الأسفل في مبنى البنتاغون ثم عاد فصعد بضع أدراج وسار عبر ممر طويل إلى الغرفة الرقم ب. د ـ ٩٢٧.

هناك، كبس على زر كهربائي وتحدث إلى من هم في الداخل عبر مذياع صغير مركز أمام مرآة خاصة يراه الحارس من ورائها من غير أن يكون هو قادراً على رؤيته. وبعد المعاملات الخاصة للتحقق من الهوية، استطاع الضابط أن يدخل عبر الباب المؤدي إلى غرفة الحرب. هناك، وقف على ما يشبه المنبر حيث كان بإمكانه أن يراقب كل آلات الرقابة وكذلك لوحات الرادار الخمس المضيئة.

كل من هذه اللوحات كان يظهر جزءاً من القوات الأميركية الضاربة المتأهبة في وضع ديفكون ـ ٢.

ما هو الديفكون في المصطلحات الحربية الأميركية؟

ديفكون ـ ١ يعني الحرب الفعلية. ديفكون ـ ٢ يعني علامة الإنذار الأخيرة قبل اندلاع الحرب. ديفكون ـ ٣ يعني الحذر الشديد بسبب اضطراب الأوضاع.

ديفكون ـ ٤ يعني أن الأوضاع مضطربة بعض الشيء. ديفكون ـ ٥ يعني السلم العادي ووجود بعض أفراد القوى المسلحة في الإجازة.

وبين الضباط الحاضرين في غرفة الحرب كان هنالك رئيس أركان القوات الجوية الجنرال كورتيس لوماي. إنه في الغرفة مثل باقي الضباط مع إنه في الأيام العادية يكتفي بمخابرة ضباط الغرفة من مكتبه في الطبقة الرابعة من البنتاغون.

إجمالاً، كان هناك ٣٠ ضابطاً في الغرفة. كلهم كانوا يعملون واقفين إلا جنرالاً واحداً كان قاعداً. أهم آلة تركز عليها الاهتمام هي تلك التي بإمكانها أن تطلق التحذير في حال اقتراب أي صاروخ معاد من منطقة أميركا الشمالية كلها، لارتباطها بأجهزة الرادار والتحذير العديدة الموزعة في القطب الشمالي وآلاسكا وكندا.

والأرقام التي كان بإمكانها أن تضاء تلقائياً على إحدى اللوحات كانت ستعني عدد الصواريخ السوفياتية التي أصبحت في الجو والعدد المحتمل لضحاياها من الناس. كذلك كانت ثمة خريطة للولايات المتحدة يظهر فيها بالنقاط الحمر المضيئة أي مكان يمكن أن تنفجر فيه قنبلة نووية.

ووسط الغرفة كان سبعة ضباط وعرفاء يراقبون الزر الذي تندلع الحرب لحظة كبسه. فهذا الزر ترتبط به الاتصالات مع جميع أجهزة الحماية الموزعة في الكرة الأرضية ومع الرئيس في البيت الأبيض ومع وزير الدفاع ومع هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة.

ضابط وعريف كان كل منهما يحمل مسدساً من عيار ٣٨ في يده ويدير فوهته إلى الأرض. هذان كانت مهمتهما أن يصرعا فوراً أي شخص، من أكبر جنرال إلى أصغر جندي في الغرفة، إذا ما فقد أعصابه في مثل هذا الجو الرهيب وحاول أن يهجم على الزر ليكبسه بفعل النرفزة التي قد تنشأ عنده فجأة. فلو أقدم أحدهم على كبس الزر لكان ذلك يعني اندلاع الحرب ودمار العالم لا لشيء إلا لأن شخصاً واحداً هستر في جو محموم.

ضابطان كان كل منهما يعلق في رقبته مفتاحاً. في حال اقدام الرئيس كينيدي على إعطاء الإشارة الانتقال إلى ديفكون ـ ١، فإنهما كانا سيتناولان المفتاحين ليفتحا بهما قفلين مختلفين لصندوق صغير في داخله كيس بلاستيكي حجمه ١٢ سنتمتر مكعباً. هذا الكيس يتضمن الأوامر إلى كل القواعد الأميركية الموزعة بين آلاسكا عند

القطب الشمالي وجزيرة غوام في قلب المحيط الهادي: ابدأوا الحرب.

يقول الضابط صاحب الوصف: كنا ننتظر إشارة الحرب بين لحظة وأخرى. فلو اختار خروتشوف أي قرار بإطلاق أي صاروخ باتجاه الولايات المتحدة، لكان على جميع القوات الاستراتيجية الأميركية أن تهب لتضرب ضربتها.

لقد أظهرت اللوحات المضيئة في غرفة الحرب آنذاك أن ٩٠ طائرة ب ـ ٥٣ محملة بقنابل نووية تراوح قوتها بين ٢٥ و ٥٠ ميغاطن كانت تحلق باستمرار فوق المحيط الأطلسي وتنتظر الأمر بالهجوم.

وعلى الأرض كانت هناك ٥٥٠ طائرة ب ـ ٥٢ أخرى و ٨٠٠ طائرة ب ـ ٤٧ و ٧٠ طائرة ب ـ ٥٨ (المسماة «هستلر») تنتظر الأمر بالإقلاع.

٨ غواصات نووية في شمال المحيط الأطلسي حضرت صواريخ بولاريس الـ ١٢٨ التي عليها وضبطت اتجاهاتها إلى أماكن معينة من الاتحاد السوفياتي، الأسطول السادس في المتوسط والأسطول السابع في غرب المحيط الهادي حضرا مخزونهما من القنابل النووية. في الولايات المتحدة أعدت اهراءات الصواريخ تحت الأرض لتلقي الأمر بين لحظة وأخرى لإطلاق صواريخها، وهي ١٠٢ أطلس و ٥٤ تيتان و ١٢ مينوتمان.

لكن خروتشوف اختار سبيلاً آخر لحل الأزمة العالقة بينه وبين كينيدي حول كوبا، وأمكن إنقاذ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، ومعهما العالم كله، من الدمار.

وأعطيت الإشارات الرئيسية في قبو البنتاغون بالتتابع: ديفكون ـ ٣ ثم ديفكون ـ ٤ وأخيراً ديفكون ـ ٥، أي السلم العادي وإمكان ذهاب الجنود في إجازات.

١٩٦٣ ـ القطيعة بين الاتحاد السوفياتي والصين:

بنجاح التجربة الشيوعية في الصين أضحت بذلك مثلاً زائعاً للبلدان المختلفة في جنوب شرق آسيا. أصبح ممكناً الكلام عن «ظل الصين» تبسطه على آسيا بل على جزء كبير من العالم. وبذلك لم تعد موسكو وحدها عاصمة الشيوعية في العالم وهذا ما خلق فتوراً ضمنياً في العلاقات انفجر إلى العلن بعد نشر تقرير خروتشوف حول مرحلة «الستالينية» فضلاً عن اختلاف نظرة

البلدان للمفاهيم الشيوعية الفكرية والعقائدية وكيفية تطبيق الاشتراكية واتهام الواحد للآخر بالانحراف عن المسيرة والأهداف الشيوعية.

أما مراحل هذا الخلاف فبدايته ظهرت بالاكتفاء السوفياتي اللفظي دون العملي بتأييد الصين لاستعادة فرموزا، وبالغاء السوفيات للاتفاق الذري مع الصين (١٩٥٩ يونيو) وبرد صحيفتي «العلم الأحمر» و«الشعب» الصينيتين على تقرير خروتشوف (١٩٥٦) ونعت القيادة الصينية للسوفياتية بالإصلاحية والتعايش السلمي مع الامبريالية، وسحب السوفيات لبعثاتهم الفنية والتجارية من بكين بعد اتهامهم للصين بمحاولة إضعاف الموقع السوفياتي في الحركة الشيوعية العالمية وفي العالم الثالث.

في أيلول ١٩٦٦ طالبت الصين موسكو بإعادة ٦٠٠ ألف ميل مربع من أراضي الصين التي ضمت إلى روسيا في العهود السابقة مما أدى إلى قيام سلسلة طويلة من الاستفزازات والصدامات على الحدود بينهما.

فقد الخلاف الروسي ـ الصيني حدته بعد موت ماوتسي تونغ وتمكن الفريق الأكثر مرونة واعتدالاً بزعامة هواكو فنغ من السيطرة على القيادة الصينية وبروز غورباتشوف كداعية سوفياتية إلى التعايش الدولي والانفراج في العلاقات العالمية دون الزوال النهائي لمشكلة الحدود بينهما والتي ما تزال تعيق التطبيع الكامل للعلاقات.

١٩٦٤ ـ إقالة خروتشوف وحلول ليونيد بريجنيف على رأس الحزب

في ساعة متأخرة من مساء الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٦٤، هبط على محرري «تاس» البيان الرسمي الذي جاء فيه أن «اللجنة المركزية استجابت لطلب الرفيق نيكيتا سرغيفيتش خروتشوف بإعفائه من مهامه كأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكعضو في رئاسة المركزية، وكرئيس لمجلس الوزراء السوفياتي بسبب تقدمه في السن وتدهور حالته الصحية. وانتخبت ليونيد ايليتش بريجنيف».

وكان خروتشوف حينها يمضي إجازته في جزيرة القرم.

١٩٦٨ ـ التدخل العسكري الروسي في تشيكوسلوفاكيا

في حزيران ١٩٦٧ عقد اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين مؤتمره السنوي

وأصـدر سلسلة من القرارات المعـادية لسيـاسة الحـزب والحكومة. في تشرين الأول ١٩٦٧ عقـد الحزب الشيـوعي التشيكي مؤتمره وأقـال حكومـة نوفـوتني المـدعومـة من الاتحاد السـوفياتي وتـوزعت المناصب الـرسمية بـين الكسنـدر دوبتشيك كأمين عام للحزب ولودفيك سفوبودا كرئيس للجمهـورية وأوريش شرمنك كرئيس للحكومة. وفي عام ٢٩ أيار ١٩٦٨ بدأت قيادة الحزب بحملة تطهير واسعة ضد أنصار حكومة نوفوتني مواكبة مع إجراءات رفع الرقابة عن الصحافة وإعـادة الاعتبار إلى ضحـايا الحكم السـابق وطرح مشروع التسيـير العمالي والتخفيف من وطأة المركزيـة. وقد خلقت هـذه الإجراءات مناخـاً ديمقراطياً عاماً استفادت منه العناصر الصهيونية واليمينية التي دعت إلى إعـادة العـلاقات مـع اسرائيـل ووقف المسـاعـدات عن الفيتنـاميـين وإنهاء الهيمنـة السوفياتية على السياسة الخارجية التشيكية. قوبلت هذه التجربة بترحيب حار من الغرب والذي أطلقت عليها «ربيع براغ» بينما نظرت موسكـو إليها نـظرة ريب وشك.

وجهت موسكو عـدة تحذيـرات للقيادة التشيكيـة الجـديـدة للحـد من هـذه التـوجهات الإصـلاحيـة دون جـدوى مما أدى بحلف وارسـو إلى التـدخـل العسكـري ليـل ٢٠ ـ ٢١ آب ١٩٦٨ ولـوضـع حـد نهائي ومؤقت لهـذه التجربة. انتخاب هوساك أميناً عاماً للحزب بعد استقـالة دوبتشيـك أعاد الأوضاع إلى ما قبل ربيع ١٩٦٨.

١٩٧٥ ـ توقيع معاهدة هلسنكي النهائية حول الأمن والتعاون في أوروبا مما خفف كثيراً من حدة التوتر بين العالمين الشيوعي والرأسمالي وأرسى أسس التعاون للجم حالات التسلح والتهديد بالحرب.

١٩٧٩ ـ التدخل السوفياتي في أفغانستان

على أثر الانقلاب الناجح الذي قاده الحزب الشيوعي بدأ التدخل السـوفياتي يأخذ منحى التـواجد العسكـري المباشر بعـد أن كانت المسـاندة السـوفياتيـة تمثلت في التسليح والخبراء العسكـريـين والاقتصـاديـين. وذلـك نتيجـة للتهـديـدات التي كـان يُهـدد النـظام الشيـوعي الأفغـاني بهـا من الـداخـل (المجاهدين) ومن الخارج (باكستان).

بـدأ الجيش السوڤيـاتي بالانسحـاب مع بـداية استـلام غورباتشوف للسلطة الروسية ونتيجة لسياسة التعايش الدولية.

١٩٨٢ ـ وفاة بريجنيف، وحلول اندروبوف مكانه.

١٩٨٣ ـ (أيلول): إسقاط طائرة مدنية كورية تحمل ٢٦٩ راكباً أثناء تحليقها فوق مناطق حساسة وعسكرية. اتهم السوڤيات حينها الأميركان باستخدام الطائرة الكورية عمداً للتغطية على نشاطات تجسس كانت تقوم بها طائرة استطلاع أميركية.

١٩٨٤ ـ شباط:
وفاة اندروبوف بعد خمسة عشر شهراً(!!) فقط من انتخابه رئيساً للدولة. وحلول قسطنطين تشيرننكو مكانه.

١٩٨٥ ـ آذار:
وفاة قسطنطين تشيرننكو بعد ثلاثة عشر شهراً فقط(!!) من انتخابه كأمين عام للحزب الشيوعي وكرئيس لمجلس السوڤيات الأعلى.

(١٩٨٥) ـ (١١ آذار): انتخاب غورباتشوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوڤياتي بعد وفاة تشيرنينكو وتنصيب أندريه غروميكو رئيساً للدولة.

(٣ تموز): تسلم شيفارنادزه منصب وزارة الخارجية من اندريه غروميكو الذي ترأسها طيلة ٣٠ عاماً.

(١٥ تشرين الأول): غورباتشوف يقدم مشروعه للاصلاح الاقتصادي، المشروع يفشل لكن الاسم يبقى.

١٩٨٦ ـ (٦ آذار): ختام المؤتمر الـ ٢٧ للحزب الشيوعي بإعادة تفعيل الأجهزة الإدارية وبإعادة النظر في السلطات والمشاريع الإصلاحية لغورباتشوف.
(٢٣ كانون الأول): عودة ساخاروف (عالم الذرة السوڤياتي والملقب بـ«أبو القنبلة الهيدروجينية السوڤياتية) بعد سبع سنوات من النفي.

١٩٨٦ ـ (٢٦ نيسان): انفجار تشيرنوبيل المحطة النووية في أوكرانيا.

نشرت السلطات الأوكرانية في شهر نيسان (٩٢) إحصاءاً بعدد ضحايا حادثة انفجار المفاعل النووي «تشيرنوبيل» في ٢٦ نيسان ١٩٨٦ وبناءاً لهذا الإحصاء فإن ما بين ٦ الآف و ٨ الآف مواطن أوكراني توفوا إثر الكارثة. علماً أن

الإحصاءات الروسية حينها قللت من عدد الضحايا فأعلنت أن عدد الضحايا لم يتجاوز الـ ٣١ قتيلاً. وحسب دراسة قدمت إلى البرلمان الأوروبي فإن نحو ١٥٠ ألف شخص بينهم ٦٠ ألف طفل تعرضوا لكمية كبيرة من الاشعاعات. وتجدر الإشارة هنا أن السلطات الأوكرانية قررت إقفال المفاعل في العام ١٩٩٣.

١٩٨٧ - (٣٠ آذار): فصل وزير الدفاع الماريشال سيلوجيو سوكولوف على أثر خرق الألماني الغربي ماثياس راست الدفاعات الجوية السوفياتية ونزوله بطائرته «السسنا ١٧٢» في الساحة الحمراء في موسكو دون أي اعتراض.

(٨ كانون الأول): توقيع معاهدة إلغاء الصواريخ المتوسطة المدى في واشنطن.

١٩٨٨ - (٢٨ شباط): بدء الصراعات القومية داخل الجمهوريات السوفياتية (مواجهات عنيفة في أذربيجان.)

(١ تشرين الأول): غورباتشوف يتسلم منصب رئيس الدولة بعد وفاة غروميكو.

(١ كانون الأول): دستور جديد يقلب السلطة الرئاسية ويخول غورباتشوف صلاحيات واسعة منفردة.

(تموز): إضرابات لعمال المناجم في أوكرانيا وسيبيريا احتجاجاً على الأوضاع الاقتصادية والمعيشية.

١٩٨٩(أواخر) - بدأت الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية تتهاوى النظام تلو الآخر، بفعل رياح التغيير التي استطاعت إحداث تحولات جذرية في النظام السياسي وتحويله من نظام شيوعي إلى نظام الاقتصاد الرأسمالي والارتباط بالغرب سياسياً واقتصادياً.

١٩٩٠ - إعادة توحيد ألمانيا بعد موافقة غورباتشوف لقاء مساعدة ودعم مالي واقتصادي ألماني.

- اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي تفتح الطريق أمام التعددية الحزبية في الاتحاد السوفياتي لاغية بذلك احتكار الحزب الشيوعي للعمل الحزبي.

١٩٩٠ ـ (١١ آذار): إعلان ليتوانيا استقلالها ومعارضة موسكو لهذا الاستقلال وإنزال قوات سوڤياتية في العاصمة فيلينوس احتلت مباني التلفزيون والإذاعة والمباني الرسمية ومواجهات دامية بين الطرفين.

ـ (١٥ آذار): انتخاب غورباتشوف لفترة ٥ سنوات رئيساً للاتحاد السوڤياتي من قبل مجلس النواب مع إعطائه صلاحيات مطلق لتطبيق «البيرسترويكا» والغلاسنوست(*١)

(١٠ تموز): إعادة انتخاب غورباتشوف أميناً للحزب الشيوعي.

(٨ تشرين الأول): غورباتشوف يحذر من لبننة الاتحاد السوڤياتي.

(١١ كانون الأول): احتجاجات واسعة ضد السياسة الاقتصادية.

(١٢ كانون الأول): رئيس الـ(ك ج ب) كريوتشكوف ينذر بالمحاولات الخارجية لبلبلة الأوضاع في الداخل نتيجة لأموال خارجية تصرف بالداخل من أجل زعزعة الاستقرار الأمني والاقتصادي داخل الاتحاد السوڤياتي ومتهماً أميركا مباشرة بالضلوع لتنفيذ هذا المخطط التخريبي.

١٩٩١ ـ (٥ شباط): تدخل الجيش السوڤياتي في دول البلطيق على أثر قرار برلمانات هذه الدول الانفصال عن الاتحاد.

(١٤ شباط): تسمية فالنتين بافلوف رئيساً للوزراء.

(١٢ حزيران): انتخاب بوريس يلتسين بالاقتراع العام رئيساً لجمهورية روسيا.

(١٩ ـ ٢١ آب): فشل انقلاب المحافظين، بفضل المقاومة التي قام بها يلتسين بصورة خاصة. واعتقال الانقلابيين وعودة غورباتشوف من القرم إلى موسكو(*٢) وصعود نجم يلتسين كمنقذ للديمقراطية ورمز الشجاعة والتصدي.

(٢٤ آب): غورباتشوف يستقيل من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعي السوڤياتي ويدعو اللجنة المركزية في الحزب لحل نفسها.

(٢٥ آب): بدء حملة واسعة بكل الجمهوريات السوڤياتية لحظر الحزب

(*١) البيرسترويكا: إعادة البناء، الغلاسنوست: الانفتاح الإعلامي أو المكاشفة.

(*٢) راجع الفصل الخاص بالانقلاب.

الشيوعي وملاحقة أعضائه. ويلتسين يعلق إصدار الصحف الشيوعية وأبرزها «البرافدا».

(٢٦ آب): الأمانة العامة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أوصت بحل نفسها.

(٢٧ آب): غورباتشوف يصادق على نهاية الاتحاد السوفياتي.

اعتبار الرئيس الأميركي بوش أن ما يحدث في الاتحاد السوفياتي هو «المسمار الأخير في نعش الشيوعية».

(٢٩ آب): البرلمان يسحب من غورباتشوف سلطاته الخاصة في المجال الاقتصادي ويعلن فشل سياسته الإصلاحية.

(٦ ـ ٩ أيلول): الاتحاد السوفياتي يعترف باستقلال جمهوريات البلطيق الثلاث (ليتوانيا، لاتفيا، أستونيا).

(٢٥ تشرين[٢]): قادة سبع جمهوريات يقررون عدم التوقيع على مشروع معاهدة اتحاد، يقوم على أساس نظام كونفيديرالي والذي اقترحه غورباتشوف.

(٨ كانون[١]): رؤساء روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء يجتمعون قرب مينسك «روسيا البيضاء» ويعلنون في وثيقة أن الاتحاد السوفياتي «لم يعد قائماً».

(١٣كانون[١]): قرار الجمهوريات الخمس في آسيا الوسطى بالانضمام إلى مجموعة الدول المستقلة التي اجتمعت في ٨ كانون الأول.

(١٧ كانون[١]): غورباتشوف ويلتسين يقرران باتفاق مشترك، زوال مؤسسات الاتحاد السوفياتي وتصفيته سياسياً قبل آخر العام ١٩٩١ وتقاسم ممتلكات الاتحاد باتباعها للجمهوريات المتواجدة بها وكان نصيب مقر الكرملين من ممتلكات روسيا الاتحادية وكذلك بنك الدولة السوفياتي.

(٢٥ كانون[١]): استقالة الرئيس ميخائيل غورباتشوف وانتهت معه سياسة البيروسترويكا والغلاسنوست والتي دامت ست سنوات وخمسة أشهر وثمانية أيام.

(٢٧ كانون[١]): البرلمان السوفياتي الموحد يعلن حل نفسه والإعلان على انتهاء الدولة.

(٣١ كانون[١]): إنهاء الاتحاد السوفياتي عملياً وقباب الكرملين تودع المطرقة والمنجل بإنزال العلم الأحمر من سمائها.

انقلاب آب الذي مهد للزلزال

مقدماته:

إذا كانت البيروسترويكا التي أعلنها غورباتشوف فور تبوئه سدة السلطة في الحزب والدولة الاتحادية، هدفت إلى التطوير والتحديث انطلاقاً من داخل النظام والحزب الشيوعي الحاكم، استكمالاً للثورة البلشفية التي توقفت تراوح في بيروقراطيتها التعسفية منذ وفاة لينين ومجيء ستالين، فإن الانقلاب الفاشل الذي قاده الحرس الشيوعي في غير الزمان الملائم، أطلق رصاصة الرحمة على الحزب الذي سقط مترنحاً وتهاوت قلاعه كقصور من كرتون عصفت بها الرياح، وبدأ النظام المركزي للاتحاد مرحلة الإرباك والعجز عن الإمساك بناحية التطورات، فأصبح منفعلاً بها، منجراً بتيارها، بدل أن يكون القابض الفاعل والموجه لمسار تيار التغيير.

كيف قامت الحركة الانقلابية، ولماذا فشلت؟

سؤال من المبكر البحث عن إجابات دقيقة عليه، قبل أن تنجلي النتائج وتعلن، هذا إذا أعلنت بحقيقتها. فالشائعات كثيرة وخطيرة بحجم خطورة وكبر الحدث بحد ذاته.

المحاكمات التي جرت وما زالت لقادة الانقلاب الفاشل لم تقنع بنتائجها أحد، حتى اعترافات هؤلاء القادة لم يعرها أحد أي اهتمام!

الكلام.. كثير وكثير جداً ويمكن تلخيصه بأن الذي جرى على المسرح بأبطاله ودوافعه المعلنة هو غير الحقيقة لا بشخوص الأبطال ولا بأسبابها.

فمن هم هؤلاء الأبطال الحقيقيون الذين جروا أهم المؤسسات بالدولة إلى القيام بالذي جرى وحدث لتدفع بالتالي أمبراطورية بالكامل عمرها أكثر من خمسة وسبعون عاماً بكل جبروتها وقوتها وعظمتها جزية الذي حدث وكأنها لوح زجاج أصيب برمية حجر.

المسار والمخاض العسير الذي يعيشه حالياً الاتحاد السوفياتي السابق، لعل فيه

الجواب الشافي عن الأبطال والشخصيات الرئيسية التي دفعت العربة إلى الهاوية وحركت من وراء الستار كل ما جرى وحدث.

ولكن يبقى أن هذا الانقلاب الفاشل شكل منعطفاً في مسار التطورات، فالذي كان يحدث قبله عملية تطور تمسك السلطة المركزية في الكرملين زمام قيادتها وتوجيهها. في تلك المرحلة كان الحزب الشيوعي السوفياتي ما زال فزاعة، يشكل حجر الرحى في الموقف والقرار وإن كان لم يعد وحيداً مستأثراً، بل إن المنشقين حديثاً عنه باتوا يشكلون شركاء له في السلطة وإن بفعالية محدودة، بحيث أن وجودهم كان مجرد تأكيد لانعطاف الحزب باتجاه الديمقراطية.

لذلك فالانتقادات والاتهامات والإدانات، في تلك المرحلة، انصبت على قادة الحزب السابقين، ولكن ليس على الحزب جهاراً. كذلك كان الجيش، وهو اليد الحديدية للحزب، القوة المرهوبة من الجميع، وأداة الحسم التي يتجنب الجميع استثارتها خوفاً من خروجها عن صمت الانضباط والتحرك باتجاه الاستيلاء على القرار والقيادة.

البارود والنار والانفجار المدمر

في تلك الفترة أيضاً، كان الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، وهوبنفس الوقت الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي، الرجل الأقوى في قمة السلطة يستحوذ على كل البريق القيادي، يمسك بيديه دفة التغيير ويسيرها حسب منهجه التطويري المرحلي، يلعب ببراعة على التناقضات ويقيم من حوله توازن الأضداد، جاعلاً من نفسه نقطة الالتقاء والمحجة التي يسعى إلى التقرب منها.

بالمقابل كان رئيس جمهورية روسيا الاتحادية يلتسين، قوة بين هذه القوى، وإن كان أكثر منها بريقاً إعلامياً بسبب براعته في تسليط الأضواء عليه، وأيضاً بسبب تركيز الإعلام الغربي على تزيين صورته، إلا أنه لم يكن هو الأقوى والأبرز، وبقي نطاق نفوذه محصوراً داخل الجمهورية ولم يتمكن مرة من اقتحام معاقل القيادة الاتحادية داخل الكرملين.

فغورباتشوف الذي أزعجه ضجيج رفيقه السابق، وتخوف من صعوده الإعلامي وما برز من طموحه للاستيلاء على السلطة المطلقة انطلاقاً من رئاسته

للجمهورية الأم في الاتحاد، وفي سياق لعبة التوازن بين المتناقضات، وربما تدليلاً على نيته بالمحافظة على الحزب شريكاً أساسياً مؤثراً داخل السلطة الاتحادية المركزية، وأن بتطوير نهجه باتجاه الديمقراطية، عمد إلى تقريب الشيوعيين المتشددين منه وتسليمهم المراكز الكبرى في القيادة الاتحادية. وهؤلاء من الذين قادوا الانقلاب عليه.

هذه الخطوة كان هدفها من جهة، الحد من اندفاعة يلتسين للتغيير الجذري والفوري من النظام الشيوعي إلى النظام الرأسمالي، سياسة واقتصاداً وعقيدة حكم، ومن جهة ثانية هدف إلى تحميل الجناح المتشدد داخل الحزب الشيوعي السوڤياتي مسؤولية مواجهة تحديات المرحلة المقبلة والمشاركة في وضع الحلول للأزمة الاقتصادية الخانقة، بحيث لا يبقى داخل الحزب من يعارض القرارات المتخذة والتحولات المقررة.

هكذا جمع غورباتشوف تحت جناحيه قطبي التطرف والتطرف المضاد، وفي اعتقاده أنه يجمع الماء والنار فتنطفىء هذه بفعل تلك وتتبخر تلك بوهج هذه. ولكن ما فعله كان عكس ذلك تماماً، إذ تبين أنه جمع النار والبارود في سلة حكمه الواحدة، فكان لا بد من الانفجار المدمر، وقد وقع بالفعل وأطاح بكل نهجه وبه أيضاً.

الذي تبين، أن غورباتشوف، الذي حاول أن يجعل نفسه نقطة التقاء الأضداد ومركز تفاعلها الايجابي لصالح نهجه الإصلاحي، وهي لعبة سياسية تقليدية وذكية، ولكنها شديدة الخطورة وصعبة المراس، تحول بفعل تردده في اتخاذ القرارات إلى هدف مكشوف لهؤلاء الأضداد، وبدأت خطوات التغيير ترسخ بين مطرقة الإصلاحيين وسندان التقليديين وانطلق سباق محموم بين الضدين للاستيلاء على السلطة المركزية والاستئثار بالقرار.

تمهل يلتسين فوقع الحزب في فخ التسرع

فيلتسين الجامع الطموح لم يعد يحتمل البقاء في الصف الثاني من سلم السلطة المركزية، واحداً من مجموعة متنافرة متصارعة، فبدأ زحفه الديمقراطي المتسارع من البيت الأبيض مركز الحكومة الروسية باتجاه الكرملين المركز الرمز للقيادة الاتحادية، ملوحاً مرة بشق عصا الطاعة على الاتحاد، وأخرى بإجراءات جذرية باتجاه استقلال

جمهوريته عن الاتحاد، وبتشجيع الجمهوريات الأخرى على اعتماد نهجه الاستقلالي.

من جهة أخرى وجد الحرس الشيوعي المتشدد داخل الحزب والسلطة أن الأمور بدأت تفلت من بين يديه، وأنه وبالرغم من مشاركته الكثيفة في قمة القرار الاتحادي، إلا أنه بدأ يتحول إلى شاهد زور، وأن الرمال بدأت تتحرك تحت قدميه داخل الجمهوريات؛ وبالتالي كاد أن يتحول إلى رأس بلا جسد، فأطلق الإنذار تلو الآخر باتجاه غورباتشوف والآخرين وبدأت أصوات المحذرين من داخله تتصاعد. مما جعل الجميع يتكهن وقبل فترة طويلة بأن في الأفق مفاجأة قد تحسم الوضع باتجاه العودة إلى ما كان، وإن ببعض التجميع الديمقراطي.

وإذا كان يلتسين المتسرع في توقه للاستئثار بالسلطة الاتحادية وجد من ينصحه بالتروي والانتظار إلى أن تنضج الأوضاع وتتاح الفرصة، وقع الحزب الشيوعي المعروف عنه بطء الحركة، في فخ التسرع هذه المرة، متخذاً من موعد إبرام اتفاق اتحادي جديد بين غالبية الجمهوريات موعداً لاستعادة سيطرته الاحادية على القيادة والقرار، غير آخذ بالاعتبار الأوضاع الداخلية والدولية، معتبراً أن مجرد بروز أسماء رموز السلطتين العسكرية والمخابراتية كاف لحسم الوضع.

خطأ في التوقيت والقيادة

فكان انقلاب آب في الوقت الخطأ وبالقيادة الخطأ، وكان السقوط الكبير للحزب الذي حكم بالحديد والنار الاتحاد السوفياتي حوالي ثلاثة أرباع القرن، محققاً الإنجازات الهائلة في الخارج، ومحولاً الاتحاد السوفياتي إلى قوة عظمى تناطح الولايات المتحدة الأميركية على زعامة العالم، ولكنه عجز عن دخول قلوب مواطني الاتحاد وبناء جيل حاسم الخيارات والقناعات العقائدية، ربما لأنه أسقط من حساباته تراث الشعوب والقوميات والاثنيات التي تفوق عدد الجمهوريات السوفياتية بأضعاف مضاعفة. جاعلاً من تاريخ انطلاق الثورة الشيوعية، بداية التاريخ، ومن الماركسية اللينينية احادية الايمان والمعتقد.

أحد الشيوعيين العقائديين قال: «الذي يجري حالياً سيؤدي إلى نتائج أسوأ، من الوضع الذي كان، لأن الانتهازيين السابقين الذين أثروا بفعل الفساد السابق هم

الآن في الـواجهة، يستثمـرون ما سلبـوه بالأمس في الفـوضى الاقتصاديـة والسيـاسيـة السائدة اليوم على حساب لقمة المواطن.

لن يكون في المستقبل أي دور للحـزب الشيوعي كـما عرف بـالسابق، ولكن لا بد من أن تنبثق عنه حركات وأحزاب ذات منحى ديمقراطي تتولى الدفاع عن مصالـح الشعب. وستكون هي الأقوى، لأن كل ما يفـرخ اليوم أحـزاب وحركـات وتجمعات تدعي الديمقراطية هي مجرد فقاعات صابـون لن تقوى عـلى مواجهـة الأزمات القـائمة والتي ستستجـد، وبالتـالي ستبقى معـزولـة شعبيـاً، عـاجـزة عن كسب ثقـة وتـأييـد الجماهير».

على كل ما حدث قبل الانقلاب الفاشل أصبح من مخلفات الماضي في معظمـه، فالتطورات الدرامية المتسـارعة والانهيـارات المتتاليـة في كل اتجـاه، والتي أعقبت فشل الانقلاب والسقوط النهائي للحزب الشيوعي السوفياتي، تبقى هي الأهم في أية محاولة لاستقراء مستقبل هذه الدولة العظمى والتي أصبحت الآن قطع متناثـرة متحاربـة ضد بعضها البعض.

الاربـــاك

منـذ اللحظات الأولى لإعـلان الانقلاب تبـين أن خللاً مـا ينتـاب خـطتـه، إذ سارعت لجنة الثمانية إلى إعلان توليها السلطة بسبب مرض الرئيس غورباتشوف الذي كان يقضي إجازته في منطقة القرم، ولكن ظهر فجأة البطء والإرباك في اتخاذ القـرارات والخطوات الفورية والكفيلة بنجاح هذه الخطوة.

في الـوهلة الأولى أعطى هـذا التصرف انطبـاعـاً بـأن الانقـلابيـين واثقـون من النتـائج، وأنهم يـريدون إظهـار خطوتهم وكـأنها مجرد انتقـال دستوري للسلطة نتيجـة شغور الرئاسة، وأن ليس في الأمر انقلابـاً عسكريـاً، ولكن الذي تبـين في ما بعـد أن السبب هـو ارتباك قيـادة الانقلاب، والتي قـامت بخطوتهـا ومن ثم بدأت البحث عن زعيم رمز للقيادة.

يقول الجنرال يازوف (وزير الـدفاع السـابق) وهو أحـد الثمانيـة الانقلابيـين في مقابلة تلفزيونية أجـريت معه في معتقله، أنـه ما إن لحظ اضـطراب ينايـيف وارتجـاف

يديه أثناء المؤتمر الصحافي الذي أعلن خلاله عن اقصاء غورباتشوف، تأكد له فشل الانقلاب، متهماً يناييف بالمدمن.

ربما هذا التصريح من وزير الدفاع السابق، مجرد محاولة لاسترضاء قضاته وتخفيف نتائج الحركة الفاشلة عليه. ولكن الشريط التلفزيوني الذي بث أثر هذا التصريح أظهر بوضوح ارتجاف يدي يناييف، وقد يكون ذلك بسبب الإرباك وتهيب الموقف، أو نتيجة «السكر» كما يتهمه الكثيرون اليوم.

إذا صدق تصريح الجنرال يازوف، قد يكون فيه الجواب على السؤال المحير حول موقف الجيش من الانقلاب. إذ لا يعقل مطلقاً أن يؤدي تجمهر بضعة ألوف أمام مقر يلتسين (البيت الأبيض) إلى فشل انقلاب عسكري يدعمه الجيش السوفياتي.

في الواقع لم يتجمهر أمام مقر يلتسين في اليوم الأول أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف مواطن روسي، وهذا العدد بالنسبة لمدينة مثل موسكو، عدد سكانها القاطنين يزيد على العشرة ملايين، يعتبر هامشياً ويمكن مشاهدة أعداد أكبر، مثلاً أمام محلات ماكدونالد، مركز الاستقطاب الأبرز للصفوف الطويلة التي تصل إلى حوالي ٥٠٠ متر.

دور اليهود

هذا العدد تضخم في اليومين الثاني والثالث عندما تأكد للجميع أن ليس في نية الجيش قمع هذه التظاهرة التي تحولت إلى ما يشبه المهرجانات، حيث كانت فرق الموسيقى موزعة بشكل مدروس في الشوارع المحيطة بمبنى (البيت الأبيض) تصدح بالموسيقى الراقصة، وأحياناً قليلة بالأناشيد الوطنية الروسية، مما جعل من غالبية المحتشدين مجرد فضوليين ومستمعين ومتفرجين.

أحد الصحافيين السوفيات الذين غطوا الحدث أكد أن اليهود هم الذين سارعوا إلى الاحتشاد في اليوم الأول وقاموا باتصالات سريعة وحثيثة تدعو للتجمع حول البرلمان الروسي احتجاجاً على الانقلاب.

هذه الواقعة أكدها أكثر من مرجع. أكثر من ذلك البعض أكد أن المنظمات اليهودية وفرت أكثر من إغراء لتأمين الحشد الكبير نسبياً في اليومين الثاني والثالث

للانقلاب، وهي التي وزعت الفرق الموسيقية في الشوارع المحيطة، كما قدمت الوعود السخية لبعض الجهات المؤثرة شعبياً تحثها على حشد أنصارها في الشوارع.

وبالتأكيد ليست هذه التظاهرات الاحتفالية هي التي أسقطت الانقلاب في اليوم الثالث، وأنه لو قامت دبابة واحدة بإطلاق رشقة من رشاشها في الهواء أو قذيفة واحدة لتفرق الجميع لاختبأوا في أقبية المباني، ولكن الذي حدث أن قوات الجيش التي طوقت المكان بأعداد ضخمة وقفت تتفرج بلا مبالاة على ما يجري، وهذا الأمر ما زال يثير التساؤل.

دور واشنطن وأوروبا

الأمر الملفت الآخر أن وسائل إعلام خاصة من إذاعات وصحف انحازت فوراً ضد الانقلاب وأخذت تحرض بحرية تامة عليه دون أن يتحرك الانقلابيون لوقفها، بل اكتفوا بسيطرتهم على الإعلام الرسمي من إذاعة وتلفزيون وبعض الصحف وأهمها جريدة البرافدا.

كذلك تبين أن حرية اتصال يلتسين بالخارج استمرت طوال أيام الانقلاب الثلاثة، دون أي تدخل من قبل الانقلابيين لوقفها ولو بالطرق التقنية المتطورة التي تمتلكها المخابرات السوفياتية الـ «ك. جي. بي».

وتقول بعض المصادر أن أجهزة اتصال متطورة، كان يديرها خبراء غير روس داخل مقر يلتسين، هي التي أمنت استمرار اتصاله بالخارج وتبادل المعلومات والآراء مع الرئيس الأميركي بوش وقادة دول أوروبا الغربية.

على كل فالأكيد أن الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا، خصوصاً فرنسا وألمانيا وبريطانيا، لعبت دوراً نشطاً، ومارست ضغوطات كبيرة ضد الانقلاب، مما أسهم في زيادة إرباك لجنة الثمانية التي وجدت نفسها معزولة عالمياً، دون أي تأييد يذكر.

باختصار كما قال أحد الصحافيين السوفيات «كان الانقلاب من حيث توقيته وقيادته العاجزة عملاً غبياً، جاء لصالح النفوذ الغربي وأدى إلى ضرب الحزب الشيوعي السوفياتي».

وأضاف: «على كل لقد انتهى الحزب الشيوعي السوفياتي، وقد نال ما يستحقه لأنه تعالى على مجتمعاته وتصرف بصلف وغباء وغرقت عهوده المتتالية بالبيروقراطية والانحراف والفساد والانتهازية».

الانقلاب: ٣ أيام هزت العالم

في خطوة فاجأت العالم عشية توقيع معاهدة الاتحاد الجديدة في موسكو، أعلنت «لجنة الدولة لحال الطوارىء» إطاحة الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف الذي كان يمضي إجازة في شبه جزيرة القرم لأنه «عاجز عن الاضطلاع بمهماته لأسباب صحية»، وعهدت في صلاحياته إلى نائبه السيد ياناييف وفرضت حال الطوارىء لمدة ستة أشهر.

وترافق إعلان «مرسوم» إطاحة غورباتشوف الذي أكد الرئيس بوريس يلتسين أنه محتجز في مكان إقامته في القرم مع سلسلة بيانات نقلت بموجبها كل الصلاحيات على الأراضي السوفياتية إلى «لجنة الدولة» التي، وإن تكن أكّدت الاستمرار في سياسة الإصلاحات وطمأنت الخارج إلى التزام التعهدات السابقة والاتفاقات والمعاهدات، شدّدت على الحفاظ على وحدة الاتحاد وفرض النظام ولو بالقوة، في إشارة إلى الجمهوريات المتمرّدة التي تطالب بالانفصال عن السلطة المركزية في موسكو.

وأصدر يلتسين مرسومين رفض بموجبهما «شرعية» القيادة الجديدة أو التزام أوامرها ووجه دعوة إلى الاضراب المفتوح والعصيان المدني انضمت إليها جمهوريتا ليتوانيا ولاتفيا، فيما أعلنت أذربيجان تأييدها «الأحداث الجارية في موسكو»، وتجنّبت أوكرانيا الإضراب أو إعلان عدم شرعية «لجنة الدولة».

«مرسوم الإعفاء»

ونقلت وكالة «تاس» السوفياتية الرسمية «المرسوم» الذي أعلن إعفاء الرئيس غورباتشوف وهنا نصه:

«نظراً إلى عجز ميخائيل غورباتشوف لأسباب صحية عن الاضطلاع بمهماته رئيساً لاتحاد الجمهوريات السوفياتية، أتولّى مهمات رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية اعتباراً من التاسع عشر من آب ١٩٩١ استناداً إلى الفقرة السابعة من المادة ١٢٧ من الدستور».

غينادي يانايف

«نائب رئيس اتحاد الجمهوريات
الاشتراكية السوفياتية: ١٨ آب ١٩٩١».

إعلان القيادة الجديدة

وبعد وقت قصير، بث إذاعة موسكو وأوردت «تاس» إعلاناً للقيادة السوفياتية الجديدة فسرَّ أسباب إعفاء ميخائيل غورباتشوف وإعلان إنشاء «لجنة الدولة لحال الطوارىء» التي كُلفت قيادة البلاد وتطبيق نظام حال الطوارىء. وهنا نص الإعلان:

«نتيجة عجز ميخائيل سيرغييفيتش غورباتشوف لأسباب صحية عن تولي مهمته رئيساً لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية،

ونتيجة انتقال سلطات رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية طبقاً للفقرة ٧ من المادة ١٢٧ من الدستور السوفياتي إلى نائب رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية غينادي إيفانوفيتش يانابيف،

ومن أجل تخطي الأزمة العميقة والواسعة والفوضى التي تهدِّد حياة مواطني الاتحاد السوفياتي وأمنهم وسيادة وطننا وسلامة أراضيه واستقلاله،

ونظراً إلى نتيجة الاستفتاء الوطني على بقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية،

وبدافع الحرص على المصالح الحيوية لجميع الاتنيات التي تعيش في وطننا وعلى الشعب السوفياتي،

نقـرر:

١ ـ طبقاً للفقرة الثالثة من المادة ١٢٧ من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وللمادة الثانية من القانون السوفياتي في شأن «النظام القانوني لحال الطوارىء»، وتلبية لمطالب الجماهير الشعبية الواسعة باتخاذ أكثر الإجراءات حزماً لمنع انزلاق المجتمع نحو كارثة وطنية ولتأمين الأمن والنظام، نعلن حال الطوارىء في بعض أنحاء الاتحاد السوفياتي لمدة ستة أشهر اعتباراً من ١٩ آب عند الساعة ٤,٠٠ بتوقيت موسكو.

٢ ـ إن لدستور الاتحاد السوفياتي وقوانينه أولوية غير مشروطة على جميع أراضي الاتحاد السوفياتي.

٣ ـ إنشاء لجنة دولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوڤياتي مكلفة قيادة البلاد وتطبيق نظام حال الطوارىء بطريقة فاعلة. وهي تضم:

- أوليغ باكلانوف النائب الأول لرئيس مجلس الدفاع في الاتحاد السوڤياتي.
- فلاديمير كريوتشكوف رئيس (جهاز أمن الدولة) الـ «كي. جي. بي.».
- فالنتين بافلوف رئيس وزراء الاتحاد السوڤياتي.
- بوريس بوغو وزير الداخلية في الاتحاد السوڤياتي.
- فاسيلي ستارودوبتسيف رئيس اتحاد الفلاحين في الاتحاد السوڤياتي.
- الكسندر تيزياكوف رئيس رابطة مؤسسات الدولة والمنشآت الصناعية ومنشآت البناء والنقل والاتصالات في الاتحاد السوڤياتي.
- ديمتري يازوف وزير الدفاع في الاتحاد السوڤياتي.
- غينادي ياناييف الرئيس الحالي للاتحاد السوڤياتي.

٤ ـ إن قرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء يجب أن تطبقها إلزامياً بحرفيتها هيئات السلطة والإدارات والمسؤولين والمواطنين في جميع أراضي الاتحاد السوڤياتي.

التوقيع:
غينادي ياناييف
فالنتين بافلوف
أوليغ باكلانوف

نداء «لجنة الدولة»

وتلا الإعلان «نداء من لجنة الدولة لحال الطوارىء» موجّه إلى «مواطنينا... مواطني الاتحاد السوڤياتي»، هنا نصه:

«إننا نتوجّه إليكم في هذه الساعة الحرجة والخطيرة بالنسبة إلى مصائر وطننا وشعوبنا. هناك خطر كبير يهدّد وطننا الكبير.

إن سياسة الإصلاحات التي أطلقت بمبادرة من ميخائيل س. غورباتشوف(...) وصلت إلى طريق مسدود. فالجمود واليأس حلاّ محل الآمال وحماسة البداية. السلطات على كل المستويات فقدت ثقة الشعب.

إن قوات متطرفة أفادت من الحريات التي منحت فاستولت على أول أغصان الديمقراطية وانكبّت على تصفية الاتحاد السوفياتي وعلى التسبّب في إفلاس الدولة وعلى السيطرة على السلطة بأي ثمن كان.

إن الرهانات الباردة على العواطف القومية ليست سوى ستائر لإشباع الطموحات.

اليوم يطلب من الذين يعملون في الواقع على قلب النظام الدستوري تقديم حسابات إلى الأمهات والآباء لمئات الضحايا التي سقطت في الصراعات الاتنية.

إنهم يتحمّلون مسؤولية مصير أكثر من نصف مليون لاجىء. إنهم يتحمّلون أيضاً اللوم لأنهم حرموا مئات الملايين من السوفيات الطمأنينة وبهجة العيش. هؤلاء السوفيات الذين كانوا يعيشون في إطار عائلة كبيرة وباتوا اليوم مثل منبوذين داخل بيتهم.

كان للأزمة في السلطة انعكاسات كارثية على الاقتصاد. فالتحرك الفوضوي والعفوي نحو اقتصاد السوق تسبّب في تفجّر الأنانيات الاقليمية والمحلية ولدى المجموعات والأفراد.

وأدّت حرب القوانين وتشجيع اتجاهات الابتعاد عن المركز إلى تدمير آلية الاقتصاد المخطط على المستوى الوطني والذي طبق طوال عقود. وكانت النتيجة انحفاضاً مفاجئاً في مستوى معيشة غالبية الشعب السوفياتي ونمو الاقتصاد الموازي والمستفيدين.

ولا مرة في التاريخ الوطني وصل انتشارا الجنس وتفشّي العنف إلى هذا المستوى مما يهدّد صحة الأجيال المقبلة ووجودها. هناك ملايين من الأشخاص الذين يطالبون باتخاذ تدابير لمكافحة أخطبوط الجريمة وانعدام الأخلاق.

إن عدم الاستقرار المتزايد للوضع الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفياتي يقوّض مواقعنا في العالم.

نريد إعادة الأمن والنظام على الفور ووقف نزف الدماء وإعلان حرب من دون رحمة على المجرمين والقضاء على الظواهر المعيبة التي تسيء إلى سمعة مجتمعنا وتفسد

المواطن السوفياتي. ستنظف شوارع مدننا من العناصر المجرمة وسنضع حداً للممارسات التعسفية للذين ينهبون الثروة الوطنية.

حرصنا الأول هو على تسوية مشكلات الإسكان والتموين. وستكرس كل القوى الضرورية لذلك، إذ أن الأمر يتعلّق بالاحتياجات الأساسية للشعب.

إننا نعلن بحزم أننا لن نسمح لأحد بالتعرض لسيادتنا واستقلالنا على كل أراضينا. وسيتم إفناء أي محاولة من أي جهة أتت لتملي على بلدنا سلوكه».

«القرار رقم ١»

وألحقت اللجنة بياناتها السابقة بـ«القرار الرقم ١» الذي حظّر الإضرابات والتظاهرات وفرض الرقابة على الصحف ووضع كل السلطات والإدارات السوفياتية تحت الرقابة وأحال من يخالف على القضاء بعد توقيفه. وهنا نص القرار كما أوردته نشرة «ساب» الرسمية:

«بهدف حماية المصالح الحيوية لشعوب الاتحاد السوفياتي ومواطنيه واستقلال البلاد ووحدة أراضيها، وبسط القانون والنظام، واستقرار الوضع، وإزالة الأزمة الصعبة، وقطع الطريق على الفوضى والاضطرابات والحرب الأهلية بين الأخوة، تقرّر لجنة الدولة لحال الطوارىء ما يلي:

١ ـ يطلب من كل أجهزة السلطة والإدارة للاتحاد السوفياتي والجمهوريات ذات الحكم الذاتي والمقاطعات والأقاليم والمدن والمناطق والبلديات والقرى تأمين المراعاة الصارمة لنظام حال الطوارىء بموجب القانون السوفياتي الخاص بحال الطوارىء، وقرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

وفي حال عجز السلطة والإدارة المعنية عن تنفيذ هذا النظام تتوقف صلاحيات هذه الأجهزة ويعهد في تنفيذ وظائفها إلى شخصيات مكلفة خصيصاً في لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

٢ ـ تحل فوراً بنى السلطة والإدارة والتنظيمات العسكرية العاملة خلافاً لدستور الاتحاد السوفياتي والقوانين السوفياتية.

٣ ـ تعتبر لاغية القوانين والقرارات التي اتخذتها أجهزة السلطة والإدارة والتي تتعارض ودستور الاتحاد السوفياتي والقوانين السوفياتية.

٤ ـ وقف نشاطات الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية والحركات الجماهيرية التي تعرقل تطبيع الوضع.

٥ ـ بما أن لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي تتولى مؤقتاً وظائف مجلس الأمن في الاتحاد السوفياتي، يتوقّف نشاط الأخير.

٦ ـ يطلب من المواطنين والمؤسسات والمنظمات أن تسلّم فوراً كل أنواع الأسلحة النارية والذخائر والمتفجرات والتقنية والتجهيزات الحربية التي في حوزتهم. ويطلب من وزارة الداخلية والـ «كي. جي. بي.» ووزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي تطبيق هذا الأمر، وبصرامة. وفي حال رفض الامتثال للأوامر تصادر الأسلحة المشار إليها بصورة إلزامية ويتحمل المخالفون المسؤولية الجنائية والإدارية.

٧ ـ يطلب من النيابة العامة ووزارة الداخلية والـ «كي. جي. بي.» ووزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي تنظيم أعمال أجهزة الأمن والقوات المسلحة وتنسيقها في تأمين حماية النظام الاجتماعي وأمن الدولة والمجتمع والمواطنين بموجب قانون الاتحاد السوفياتي الخاص بحال الطوارىء وقرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

تمنع الاجتماعات والمسيرات والتظاهرات في الشوارع وكذلك الإضرابات.

عند الضرورة يفرض نظام منع التجول وتسيير الدوريات والتفتيش، وتتخذ التدابير اللازمة لتعزيز نظام مراقبة الحدود ونقاط الجمارك.

وضع الرقابة، وإقامة الحراسة عند الضرورة على المنشآت الحكومية والاقتصادية الرئيسية، وكذلك المرافق الحياتية.

العمل بحزم في قطع الطريق على بثّ الإشاعات والممارسات التحريضية والمخالفات الاستفزازية للقانون، وإذكاء النعرات القومية، والتمرد على المعنيين بتطبيق نظام حال الطوارىء.

٨ ـ فرض الرقابة على وسائل الإعلام وتكلف تطبيقها هيئة خاصة تشكل لدى لجنة الدول لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

٩ ـ يطلب من أجهزة السلطة والإدارة ورؤساء المؤسسات والإدارات اتخاذ الإجراءات اللازمة لرفع مستوى الانتظام واستتباب النظام والانضباط في كل مجالات حياة المجتمع، وتأمين ظروف العمل الطبيعي للمؤسسات في كل فروع الاقتصاد الوطني والتنفيذ الصارم لتدابير حماية العلاقات العمودية والأفقية وتعزيزها خلال مرحلة التطبيع بين الجهات الاقتصادية على جميع الأراضي السوفياتية، والتنفيذ الصارم للأحجام المقررة من الإنتاج ومشتقات المواد الخام والمواد التي تكمل المصنوعات.

إقرار نظام الاقتصاد الصارم في الموارد المادية والعملة الصعبة وتطبيقه.

صوغ تدابير مكافحة التخريب الاقتصادي وتبديد خيرات الشعب وتطبيقه.

التشدّد في مكافحة اقتصاد الظل وفرض المسؤولية الجنائية والإدارية في حال الرشوة والفساد والاختلاس والتهريب وإخفاء السلع عن المواطنين والتخريب الاقتصادي وغيرها من المخالفات في مجال الاقتصاد.

توفير الظروف الملائمة لزيادة المساهمة الفعلية لكل أصناف النشاطات العملية التي تمارس بموجب قوانين الاتحاد السوفياتي في قدرة البلاد الاقتصادية وتلبية حاجات السكان الملحة.

١٠ ـ يمنع الجمع بين العمل في بنى السلطة والإدارة بصورة دائمة ومزاولة عمل حر.

١١ ـ يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي القيام في مهلة أسبوع واحد بجردة شاملة لكل موارد المواد الغذائية والسلع الصناعية الاستهلاكية الضرورية وإطلاع الشعب على ما تملك البلاد وفرض الرقابة الشديدة على حمايتها وتوزيعها.

إلغاء كل القيود التي تعرقل انتقال المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية في أراضي الاتحاد السوفياتي وكذلك الموارد المادية والخاصة بإنتاجها وتطبيق هذا النظام بصرامة.

إيلاء تجهيز المؤسسات ما قبل المدرسية ودور الأطفال والمدارس والمؤسسات

المهنية المتوسطة والدراسية العليا والمستشفيات وكذلك المتقاعدين والعجزة بالتجهيزات الأساسية الضرروية، اهتماماً خاصاً.

العمل خلال مهلة أسبوع واحد على صوغ مقترحات في شأن تنظيم أسعار بعض السلع الصناعية والغذائية، وتجميدها وخفضها، ولا سيما المخصّصة للأطفال، وخدمات المواطنين والتغذية الاجتماعية، وكذلك رفع الأجور ومعاش التقاعد والإعانات والتعويضات لمختلف فئات السكان.

العمل في مهلة أسبوعين على اتخاذ التدابير الخاصة بتنظيم أحجام أجور رؤساء مؤسسات الدولة والمؤسسات الاجتماعية والتعاونية والمنظمات الأخرى على مختلف مستوياتها.

١٢ - نظراً إلى الوضع الصعب في شأن جمع المحاصيل، وخطر المجاعة، تتخذ إجراءات استثنائية لتنظيم جمع المحاصيل الزراعية وحفظها ومعالجتها.

١٣ - يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي العمل في غضون مهلة أسبوع واحد على اتخاذ قرار يلحظ تأمين قطعة أرض مساحتها ١٥ في المئة من الهكتار لكل راغب من سكان المدينة خلال سنتي ١٩٩١ - ١٩٩٢ لاستخدامها بستاناً أو حديقة.

١٤ - يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي الإنهاء في غضون أسبوعين من صوغ تدابير عاجلة خاصة بإخراج مجمع الطاقة والوقود في البلاد من الأزمة والتحضير لفصل الشتاء.

١٥ - إعداد التدابير الفعلية في غضون شهر واحد في شأن تحسين البناء السكني وتأمين السكان بالمسكن خلال سنة ١٩٩٢ وإطلاع الشعب عليها.

وضع برنامج محدَّد خلال نصف سنة في شأن تعجيل تطوير البناء السكني خلال مهلة خمس سنوات وذلك على مستوى الدولة والتعاونيات والأفراد.

١٦ - إلزام (أجهزة السلطة والإدارة) في المركز ومحلياً إيلاء حاجات السكان الاجتماعية وإيجاد إمكانات تحسين الخدمات الطبية المجانية والتعليم الشعبي المجاني تحسيناً جذرياً، الاهتمام الأولى».

الفصل السادس

العرب والسوفيات

مقدمـة:

بين ١٩٥٣ و١٩٧٢ وقعت في المنطقة العربيـة حربـان: حرب السـويس، عام ١٩٥٦ وحرب حزيران عام ١٩٦٧.

وبين ١٩٥٣ و١٩٧٢ تغيرت في المنطقة العربية أمور كثيرة: ثـورة العراق ضـد نوري السعيد، استقلال الجزائـر، استقلال اليمن الجنـوبية، حـرب اليمن الشماليـة، الوحدة بين مصر وسوريـا ثم الانفصال، وصـول حزب البعث العـربي الاشتراكي إلى الحكم في سوريا والعراق، مطالبـة عبد الكـريم قاسم بضم الكـويت، نزول القـوات الـبريطانيـة في الأردن والقوات الأمـيركية في لبنـان، الثورة في ليبيـا ضد نـظام ادريس السنوسي وعشرات الأحداث التاريخية الأخرى.

لكن بـين ١٩٥٣ و١٩٧٢ كان أبـرز ما يميـز به التحـول العربي من المحيط إلى الخليج هو العامل الذي لم يكن موجوداً قبل ذلك التاريخ: الاتحاد السوفياتي.

كانت بين العرب والاتحاد السوفياتي مسافة جغرافية ضئيلة جداً نسبياً. مـوسكو أقرب إلى بيروت من باريس وموسكو أقرب إلى القـاهرة من لنـدن وموسكـو أقرب إلى كل العواصم العربية من واشنطن، ولكن منذ أيام القياصرة كانت هناك هـوة ضخمة بين العالم العربي وبين روسيا ثم بين العالم العربي والاتحاد السوفياتي.

السبب «القيصري» أن روسيـا كانت تـطمـع بـالـوصـول إلى المياه الـدافئـة في المتـوسط، أو مـا يسمى «بحلم بـطرس الأكـبر» في الـوقت الـذي كـانت الأسـاطيـل البريطانية والفرنسية وأحياناً البرتغالية، تحتل هذه الميـاه، وكان عـلى أي باخـرة روسية أن تعـبر البحر الأسـود إلى المتوسط من مضـايق الدردنيـل، وهذا أمـر لم يكن سهلاً في وجـود أمبراطـورية عثمانية منتصرة، ثم أصبـح أكثر صعـوبة في وجـود تركيـا منهزمة وخاضعة بشكل أو بآخر للنفوذ الغربي.

السبب «السوفياتي» كان أكثر أهمية: ففي عالم عربي شديد الايمان والتدين، كان من الصعب التعاطي مع دولة ملحدة.. وفقيرة ومنهمكة في بناء نفسها. والواقع أن ستالين نفسه لم يتخذ أي مبادرة رئيسية للوصول إلى العالم العربي لدرجة أنه بدا مكتفياً بظهور طلائع الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي خلال الأربعينات. وفي استثناء ذلك لم يفعل أي شيء، بل لم يكن في استطاعته تحقيق أي توسع سياسي في اتجاه هذه المنطقة، نظراً إلى الأوضاع الداخلية التي كان يعيشها الاتحاد السوفياتي بعد نهاية الحرب: فقد كانت هناك أوروبا الشرقية التي أصبحت جزءاً منه بموجب اتفاقات يالطا، وكانت هناك من جهة أخرى عمليات التطهير السياسي في الداخل وعمليات البناء للمدن التي دمرها النازيون حتى التراب.

بعد وفاة ستالين كانت موسكو بدأت تتطلع إلى الخارج كدولة كبرى، أي بدأت تتطلع إلى التعامل مع الدول غير الشيوعية في العالم على أساس «دولة مع دولة» بصرف النظر عن طبيعة النظام الحاكم.

وكان أول ما وقع نظرها على النظام الاشتراكي الجديد في مصر!

إنها ليست فقط أمام أكبر الدول العربية وأكثرها إمكانات وطاقات بل أيضاً أمام نظام اشتراكي تحرري ينادي بطرد الاستعمار الغربي من المنطقة والتعامل مع الجميع على أساس المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل.

وعندما ازدادات العلاقات المصرية ـ البريطانية تدهوراً بين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ازدادات العلاقات المصرية ـ السوفياتية وداً بصورة تلقائية ووقع البلدان اتفاقاً تجارياً في آذار ١٩٥٤.

لكن توقيع معاهدة مصرية ـ بريطانية في تشرين الأول من ذلك العام، نصت على انسحاب القوات البريطانية من الأراضي المصرية، أصابت روابط موسكو والقاهرة بنكسة بارزة. ووصفت إذاعة موسكو تلك المعاهدة، التي سمحت للقوات البريطانية بالعودة إلى قواعدها في السويس في حال تعرض أي دولة عربية لهجوم، بأنها «أول خطوة نحو ضم مصر إلى المعسكر الغربي».

لكن حظ السوفيات كبر مرة أخرى عندما تبنت بريطانيا والولايات المتحدة حلف بغداد الذي كان الهدف الرئيسي منه تطويق الحركة الشيوعية والأنظمة التقدمية

في المنطقة، فاتجهت مصر مرة أخرى نحو موسكو، وهكذا وقعت أول خطوة تاريخية في العلاقات بين البلدين عندما عقد الرئيس جمال عبد الناصر ما يعرف الآن بصفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥، والتي كانت بداية مساعدة عسكرية سوڤياتية مستمرة إلى ذروتها بعد حرب حزيران عندما أعلن الرئيس عبد الناصر أن موسكو قررت أن تعوض على مصر وسوريا كل الأسلحة التي خسرتها في الغارات الاسرائيلية المفاجئة.

كانت صفقة الأسلحة التشيكية بمثابة أساس لتحالف جديد بين الاتحاد السوڤياتي ومصر، كما كانت في الوقت نفسه بداية مرحلة جديدة من «الثقة» بين الفريقين، إذ حتى ذلك الوقت كان الاتحاد السوڤياتي لا يزال يشكك في مدى إخلاص مصر للنظام الاشتراكي بينما كانت مصر لا تزال تشكك في نيات موسكو.

... ثم جاء العدوان الثلاثي ـ الفرنسي ـ البريطاني ـ الاسرائيلي على السويس ليزيد من اندفاع مصر نحو موسكو. ففي الوقت الذي كانت الطائرات والبوارج تضرب المدن المصرية وقف نيكيتا خروتشوف في موسكو يحذر بأنه سيستخدم صواريخه الجديدة إذا لم توقف الدول الثلاث العدوان على الفور. وارتبط اسم الاتحاد السوڤياتي، كما ارتبط اسم خروتشوف بنهاية العدوان على السويس في كل العالم العربي.

كان حجم العلاقة قد بدأ يكبر بسرعة وفي كل الاتجاهات. لكن سياسة عدم الانحياز التي أعلنها الرئيس عبد الناصر، وهي السياسة التي شارك في خلقها مع نهرو وتيتو، حملته على إبقاء الانفتاح على الغرب برغم خلافه الشديد في تلك المرحلة مع محور واشنطن ـ لندن ـ باريس، وبصورة خاصة مع وزير الخارجية الأميركية جون فوستر دالاس.

واتجه عبد الناصر مرة أخرى نحو الغرب طلباً لمساعدات التنمية عام ١٩٥٨، بسبب غضبه آنذاك من السياسة السوڤياتية في العراق، ووجه ضربات حادة إلى الشيوعيين داخل مصر.

لكن الغرب ارتكب آنذاك غلطته الكبرى تجاه مصر إذ أخذ فوستر دالاس يضغط على البنك الدولي لعدم مساعدة عبد الناصر في تحقيق حلمه العظيم: السد العالي!

مرة أخرى اتجه عبد الناصر نحو موسكو ومرة أخرى كان الجواب بالايجاب: سوف نساعدكم على بناء السد. واتخذت العلاقة مع الاتحاد السوفياتي شكلاً جديداً: في خضم العداء الواضح من الغرب، كان هو الصديق الوحيد. كانت فرنسا تقاتل في الجزائر وبريطانيا تقاتل في عدن وأميركا تغرق الدول بالأحلاف، بينما كانت موسكو تقدم المساعدات غير المشروطة في الحقلين الاقتصادي والعسكري.

أصبح السلاح المصري كله سلاحاً سوفياتياً. السد العالي يبنى بمساعدة سوفياتية وبإشراف مهندسين سوفيات. معظم المصانع المصرية تتحرك بالآت سوفياتية. أميركا في المقابل، أصبحت موضوع هجوم رئيسي ومستمر في خطب عبد الناصر الذي منحه السوفيات لقب البطل. وفي عام ١٩٦٤ جاء نيكيتا خروتشوف بنفسه إلى مصر ليدشن إحدى مراحل السد العالي، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها زعيم سوفياتي لأي بلد عربي، وجاء بعده اليكسي كوسيغين والماريشال غريشكو وزير الدفاع وعدد كبير من الوفود الاقتصادية والعسكرية الرفيعة المستوى، وفي المقابل زار الرئيس عبد الناصر موسكو وكذلك فعل عدد كبير من الوزراء والمسؤولين.

حرب حزيران ١٩٦٧ كانت نقطة تحول أخرى. الرئيس عبد الناصر الذي وقف في أيار من ذلك العام يعلن أن قوة مصر العسكرية أصبحت قادرة على محاربة اسرائيل ومن يقف خلفها، استفاق في ٥ حزيران على الهجوم الاسرائيلي المباغت الذي دمر ثلاثة أرباع ما تملكه مصر من أسلحة.

لكن السوفيات، الذين اعتبروا أنفسهم يتحملون جزءاً من المسؤولية لأنهم نصحوا الرئيس الراحل «بضبط النفس» أعلنوا فور انتهاء الحرب أنهم سيقدمون إلى مصر كل الأسلحة التي تطلبها، وارتفعت قيمة الأسلحة التي قدمتها موسكو من ملياري دولار إلى ٤,٥ مليارات دولار عام ١٩٧٠، لتصل بعد ذلك إلى ١٠ مليارات من الدولارات. كذلك أخذ الخبراء العسكريون السوفيات يتدفقون على مصر بالمئات ثم بالالاف، بحيث بلغ عددهم عندما أعلن الرئيس أنور السادات «إنهاء مهمتهم» ما يراوح بين ١٧ ألفاً و ٢٠ ألفاً حسب تقديرات معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن.

هذه الأسلحة شملت صواريخ سام ـ ٢ وسام ـ ٣ وعدداً كبيراً من طائرات سوخوي ـ ٧ وطائرات «فوكسبات» التي يقال أنها نسخة متطورة جداً من الميغ ـ ٢٣ ـ ورافق ذلك حشد ضخم للأسطول السوفياتي في المتوسط. وبينما لم يكن للسوفيات

قبل سنوات أي سفينة حربية في البحر الأبيض أصبح لهم بصورة دائمة بين ١٥ و ٢٠ قطعة حربية يرتفع عددها بسرعة إلى ٥٠ قطعة خلال الأزمات، أي بزيادة ١٠ قطع على الأسطول السادس.

كذلك رافق المساعدات السوفياتية لمصر (والمساعدات الأميركية لاسرائيل) عامل سياسي بالغ الأهمية: قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ الذي يدعو إلى انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، وبالتالي الوصول إلى حل سلمي للمشكلة الجديدة التي فرضتها اسرائيل عن طريق الحل العسكري.

هذا القرار، الذي عرضه على مجلس الأمن مندوب بريطانيا بالاتفاق مع مندوبي الدول الكبرى الأخرى في مجلس الأمن ومن بينها طبعاً الاتحاد السوفياتي، (ثم كان مشروع روجرز ومهمة يارينغ والوساطات الأخرى امتداداً له) ألزم الاتحاد السوفياتي بالحل السلمي. بل إن السوفيات، برغم المساعدات العسكرية الواسعة النطاق، كانوا يصرون دائماً على الحل السلمي للمشكلة ولم يستخدموا عبارة «تأييد العرب في استخدام الوسائل لاستعادة الأراضي العربية المحتلة» سوى في زيارة رئيس الوزراء المصري عزيز صدقي إلى موسكو في تلك الفترة.

وبعد وفاة الرئيس عبد الناصر في أيلول ١٩٧٠ ومجيء الرئيس أنور السادات بدأت العلاقات المصرية - السوفياتية تتعرض للخسارات المفاجئة. فالوضع العربي لم يتغير فيه شيء منذ ٥ حزيران ١٩٦٧ ومهمة يارينغ شُلت، وكل الوساطات الأخرى فشلت. والجبهة في حالة ركود بعد وقف اطلاق النار الذي مدد طوعاً.

كان المطلوب من السوفيات أكثر مما أعطوا وكان السوفيات يقولون أنه لم يعد في استطاعتهم أن يعطوا أكثر من ذلك وأن ما أعطي أكثر من كاف.

ثم قام اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وليبيا وسوريا في العام الماضي ورافقته ثلاثة أمور مهمة:

أولاً: الحرب ضد الحزب الشيوعي في السودان التي ساعدت خلالها مصر وليبيا اللواء جعفر النميري.

ثانياً: انضمام العقيد القذافي، المعروف بعدائه العلني الشديد حينها للاتحاد السوفياتي، إلى اتحاد يرئسه السادات.

ثالثاً: إبعاد معارضي اتحاد الجمهوريات، الذين هم في الوقت نفسه أصدقاء الاتحاد السوفياتي المعلنين، عن الحكم وزجهم في السجون وبالذات اعتقال نائب الرئيس علي صبري الذي عينه الرئيس عبد الناصر مسؤولاً عن العلاقات المصرية ـ السوفياتية.

لا شك في أن أحداث ١٩ تموز في السودان. (التي ابتدعت عقد قمة حلف فرصوفيا في القرم) وإبعاد علي صبري ورفاقه كانا بداية تدهور حقيقي في العلاقات بين القاهرة وموسكو، برغم توقيع معاهدة الصداقة السوفياتية ـ المصرية ومدتها ١٥ عاماً، على غرار المعاهدة التي وقعت في وقت سابق بين الهند والاتحاد السوفياتي.

ولا شك على الاطلاق في أن موسكو كانت ترى في علي صبري حليفها الأول في القاهرة الذي كان يضع يده على أقوى منظمة سياسية في مصر: الاتحاد الاشتراكي العربي.

وبعد ذلك حدد الرئيس السادات العام ١٩٧١ عام الحسم، أي إما الحسم العسكري، وكان في ذلك متكلاً طبعاً على الاتحاد السوفياتي بصورة رئيسية، وإما الحل السلمي وكان متكلاً على موسكو بصورة رئيسية أيضاً.

لكن عام الحسم انتهى دون أي حسم. وبعد ذلك وقف الرئيس السادات ليعلن أنه كان ينوي خوض المعركة في تشرين الأول الماضي لكن انهماك الاتحاد السوفياتي في الحرب الهندية ـ الباكستانية هو الذي حال دون ذلك.

وبهذا الإعلان أصاب السادات الاتحاد السوفياتي بأمرين: الأول إنه اتهم موسكو بأنها خاضت الحرب مع الهند ضد الباكستان، والثاني إنه اتهمها بالالتهاء عن القضية العربية.

تجلى رد فعل روسيا الستالينية حيال الثورة المصرية بصورة محض ماركسية. فقد رأى فيها أفراد الجيل الأول في الكرملين استيلاءاً عسكرياً على الحكم. وكانوا في ذلك يفتقرون إلى استقراء تقييمي ملائم للدور الذي يمكن أن يلعبه الجيش في حركة التحرير الوطنية في قطر نام. فكان تحليلهم في منتهى البساطة: أن الجيش، في طبيعته، أداة يؤدي إلى نظام تعسفي لا يمكن أن يكون ثورياً.

لكن ما أغفلوا تحليله بحذر في ذلك الحين كان حقيقة كون الجيش في البلد

النـامي يؤدي وظيفـة مغـايـرة كلياً لـوظيفـة الجيـوش في المجتمعـات الأقـدم والأكـثر استقراراً.

عارض الحزب الشيوعي في مصر الثورة منذ البدايـة وحاول أن يستثـير في مصر الثورة منذ البداية وحاول أن يستثير المزيد من المعارضة الشعبيـة بإقـدامه على توزيـع المناشير في الشوارع. وبالطبع كان الاتحاد السوفياتي يؤيد كلياً الشيوعيين وكانت إذاعة موسكو تهاجم الثورة بحدة. قالوا إنها حركة فاشستيـة من تدبـير الأميركيـين لإجهاض طاقة مصر الثورية.

وفي الأعوام الثلاثة التالية راقب الروس مسيرة الرئيس عبـد الناصر بخليط من العداء والافتتان، كانوا ما زالوا يسمونه الـديكتاتـور العسكري والمضـطهد حينـما كان يناضل ضد حلف بغداد. لقـد حيرهم الـدور الذي لعبـه في مؤتمر بـاندونـغ وحيرتهم التقـارير التي تلقـوها من شـوان لاي حول منـاقشاتـه ومحادثـاته مع عبـد النـاصر في رانغون. وكانوا كثيري الاهتمام بنزاعاته المختلفة مع البريطانيين.

كانوا شديدي البطء في استيعـاب وقع سيـاساتـه ومعانيهـا. ولقد شعـروا حتى عندما وقعوا صفقة السلاح عام ١٩٥٥ بأنهم يتعاملون مع لغز. ولكن في ذلـك الحين كان خروتشـوف، الذي بـدأ يصبح القـوة الحقيقية في الكـرملين، قد عـرف عن عبد الناصر ما يكفي لإقناعه بأن لا ضرر من المغامرة في عقد صفقة السلاح معه.

عـلى أن الأحـداث التي تلت صفقـة الأسلحـة والتي بلغت ذروتهـا في العـدوان الانكليـزي ـ الفـرنسي ـ الاسرائيـلي عـلى السـويس عـام ١٩٥٦ قـربت كثيـراً بـين خروتشوف وعبد الناصر.

لكن الأمور لم تكن كلها سمناً وعسلاً. فقد انتظرت روسيا ستاً وثـلاثين سـاعة للتعليق على تأميم قناة السويس، وفي مـا بعد أصبـح هذا التـأخر منهـا قضية رئيسيـة كبرى في الخصام ما بين عبد الناصر وخروتشوف.

كذلك عندما وزع السلاح على المدنيين أثناء غزو السويس من أجل شن حـرب عصابات على البريطانيين والفرنسيين، استغـل عدد من الشيـوعيين المصريـين الوضـع وحاولوا بسط سيطرتهم على المليشيا الوطنية (الحرس الوطني) وبخاصـة في منطقـة بور سعيد.

ـ اللقاء الأول(*) ـ

وفي غمرة هذا المزيج من الخصام المبطن والاهتمام المستمر تم اللقاء، للمرة الأولى، بين نيكيتا سرغيفيتش خروتشوف وجمال عبد الناصر في ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٥٨.

كان خروتشوف يتطلع بشوق إلى مقابلة عبد الناصر. وأذكر أنني في ١٩٥٧ كنت أرافق وفداً ذهب إلى موسكو للاشتراك في الاحتفال بالذكرى الأربعين للثورة السوڤياتية. وكان ماو تسي تونغ هناك.

وذات يوم بينما كان يتباحث مع خروتشوف في ما يفعله عبد الناصر في السويس قال له الزعيم الروسي:

ـ أتعرف أننا نحاول أن نقنعه بالمجيء لرؤية الاتحاد السوڤياتي. إنه يعتقل الشيوعيين في بلاده ومع ذلك فإننا نريد أن يرى ما تفعله الشيوعية.

لقي عبد الناصر استقبالاً ضخماً عندما وصل إلى موسكو ولكن منذ الاجتماع الرسمي الأول في الكرملين توترت العلاقات حتى وصلت إلى درجة الانفصام.

وكان ذلك بسبب خطأ من المترجم:

كانت الوفود المصرية تجابه مصاعب الترجمة عندما تتعامل مع الروس.

وكان في وسع عبد الناصر أن يتخاطب بيسر مع دالس وايدن باللغة الانكليزية. ولكن لم يكن لديه مترجم روسي ولم يكن لدينا مترجمون عن الروسية. بينما كان مترجمو العربية لدى الروس من أولئك الذين تدربوا في كلية الدراسات الشرقية والذين لم يزوروا قط أي قطر عربي. وكانت النتيجة مخيفة.

كان عبد الناصر، وهو على رأس وفد الجمهورية العربية المتحدة (الذي كان يضم أعضاء سوريين)، يشرح للروس طبيعة الثورة المصرية.

تحدث عن استقلاله وعن معاداته للامبرياليين وعن عدم انحيازه وعن تكريس نفسه للوحدة العربية. وانطلق من ذلك إلى الحديث عن التطوير والانماء الاجتماعي والاقتصادي المتجه في طريق اشتراكي ومستقل.

كان يترجم كل ذلك ببعض التردد مترجم محرج يبدو عليه الضيق وهو يجلس

(*) المصدر: محمد حسنين هيكل: حكاية العرب والسوفيات.

إلى رأس طاولة طويلة يتحلق حولها، متواجهين من طرفيها، أعضاء كل من الوفدين. وتولى ترجمة كلام خروتشوف عندما كان الزعيم الروسي يتحدث، وفهم الرئيس عبد الناصر منه أن خروتشوف قال إنه إذا كان (عبد الناصر) سيتبع سبيلاً اشتراكياً فإنه لا يسعه أن يكون معادياً للشيوعيين. واعتبر عبد الناصر ذلك إشارة إلى حظره الحزبين الشيوعيين في مصر وسوريا.

ولم يرد عبد الناصر وسرعان ما انتهى الاجتماع.

ولكن عندما اجتمعا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي في الكرملين افتتح عبد الناصر الجلسة قائلاً:

«يجب أن أقول صراحة أنني لم أستسغ مناقشتنا في الأمس. ولقد أمضيت ساعات أفكر فيها ووجدت أن عليّ، قبل المضي في هذه المحادثات، أن أطلب ايضاحاً.

ومضى يجمل ما فهم أن خروتشوف قاله في اجتماعهما السابق، بينما كان المترجم الروسي يعيد صياغة أقواله بالروسية. ثم راح يطرح بأن ما فهمه يشكل تدخلاً في الشؤون الداخلية للجمهورية العربية المتحدة وقال:

«لن نسمح بقيام الحزب الشيوعي في الجمهورية العربية المتحدة. ولا نعتقد أن الأحزاب الشيوعية تتفهم أو تحلل تحليلاً صحيحاً طبيعة الحركة القومية في الأقطار النامية وبالتالي لن نجيز قيامها. ولست مستعداً للإصغاء إلى أي شيء يتعلق بتلك الأحزاب».

ودهش خروتشوف وقال بإلحاح:

«لم أقل ذلك اطلاقاً».

وأقسم بأنه لم يقل شيئاً في شأن الحزبين الشيوعيين في مصر وسوريا.

ورد عبد الناصر عليه بأن هذا ما سمعه.

كان المترجم يقوم بترجمة هذا الحوار من اللغة العربية إلى الروسية وبالعكس. وأصابته رعشة الارتجاف وقتذاك.

ومضى خروتشوف يؤكد براءته، فقال عبد الناصر أن الأمر ربما كان من قبيل سوء التفاهم الناتج عن خطأ في الترجمة ذلك لأنه فهم جيداً واستوعب ما سمعه.

وعند ذلك بدأ خروتشوف يزمجز:
«إذا كان الأمر خطأ ارتكبه المترجم فإنه يجب ألا يبقى من دون عقاب».

وقام المترجم بواجبه فترجم هذه العبارة بعربية ركيكة جداً.
وأشفق عليه عبد الناصر وقال: «حسناً لا يهم»

لكن خروتشوف ظل عنيداً متصلباً:

«لا... لا... إذا كان يرتكب الخطأ في أمر مهم كهذا فإن علينا أن نحوله إلى لوح صابون».

وردد المترجم كل كلمة من هذا التهديد وأخذ ينضح بعرق الخوف. وأصبح المشهد أثقل من أن يتحمله عبد الناصر فانطلق ضاحكاً مقهقهاً من ملابساته الغامضة.

على أن خروتشوف لم يستطع أن يفهم لماذا نضحك.

* * *

ظل عبد الناصر مصدر إعجاب وافتتان بالنسبة إلى خروتشوف، فقد كان أول زعيم من زعماء الدول النامية يزور موسكو. وكان قد أطلق وأثار عاصفة بلاده وعبر كل أرجاء العالم.

وخرج الطلاب العرب في جامعة موسكو عن طورهم في الهتاف والتهليل له. وتهاوت زوجة القائم بالأعمال السوري في موسكو مغمياً عليها عندما قدمت إليه.

ورأى خروتشوف هذا المشهد ولما سأل عن سبب إغمائها قيل له: «من الانفعال» لكنه وجد ذلك كله مدعاة للحيرة البالغة.

وقد أبدى اهتماماً بالطريقة التي يؤدي بها المسلمون صلواتهم. وعندما بدأ عبد الناصر بعد تناول الغداء في بيت خروتشوف يعد العدة للتوجه إلى حيث يؤدي الصلاة في أحد جوامع موسكو، طرح خروتشوف الكثير من الأسئلة عن الصلوات الإسلامية.

وإذ ذهب عبد الناصر ليتوضأ قبل الصلاة حمل له خروتشوف المنشفة في يده. وكان في ذلك يتصرف في منتهى النعومة والرقة.

وتوجه الرئيس عبد الناصر على إثر ذلك في جولة في الاتحاد السوفياتي زار خلالها سغردلوفسك ولينينغردا وستالينغراد قبل أن يطير عائداً إلى بلاده في ١٦ أيار (مايو) ليستعد لزيارة أخرى للماريشال تيتو، من أجل البحث في شؤون دول عدم الانحياز. ولم يكن خروتشوف سعيداً قط بهذه الزيارة لتيتو. كان يشبه دالس في ريبته من عدم الانحياز وكان يشك في تيتو بصورة خاصة وقد قال لعبد الناصر:

«لا تثق في تيتو ولا تأتمنه».

لكن عبد الناصر كان يثق في تيتو ويأتمنه وهكذا أبحر في ٦ تموز (يوليو) من الاسكندرية على متن اليخت «الحرية» يرافقه الدكتور فوزي وأنا وزوجاتنا لزيارة الزعيم اليوغسلافي في بريوني.

كانت الرحلة ممتعة. وكنا لا نزال في بريوني عندما بدأت الإذاعة البريطانية يوم ١٤ تموز (يوليو) تبث الأنباء الأولى عن الانقلاب في العراق وعن القضاء على العائلة الملكية واستيلاء الضباط الوطنيين بقيادة اللواء الركن عبد الكريم قاسم على الحكم.

وتفجر هذا النبأ في سماء عالم عربي يمزقه الانقسام. فقد كان كل من لبنان والأردن على شفير الثورة.

أما وقد هزم الهاشميون وقتل ملك العراق وولي عهده واكتشف أمر نوري السعيد الذي تنكر في زي امرأة فقتل وسحل في شوارع بغداد، فإن ثائرة الأتراك ثارت لأنه كان من المقرر أن يزور هؤلاء الثلاثة تركيا لحضور اجتماع الحلف ببغداد في اليوم الذي قتلوا بالذات.

وكان عدنان مندريس، رئيس وزراء تركيا آنذاك، وقد مات شنقاً هو الآخر بعد الانقلاب العسكري على حكومته، ينتظر في المطار لاستقبال الحكام العراقيين عندما وصلته أخبار مصيرهم.

كانت المنطقة بأسرها في حالة غليان. وبدا الشرق الأوسط على وشك الانفجار. ومن ثم سمعنا أن الأسطول الأميركي السادس يمخر عباب البحر في اتجاه بيروت لإنزال قوات أميركية في لبنان بينما كان البريطانيون يرسلون المظليين إلى عمان جواً. وكرر البريطانيون خطيئة السويس بإثارتهم عداء العالم العربي إذ طلبوا من الاسرائيليين الإذن بالطيران في أجواء اسرائيل. وبدا أننا نوشك أن نرى من جديد

تواطؤا بين الإسرائيليين والبريطانيين في مغامرة عسكرية على الأرض العربية.

اتصل الرئيس عبد الناصر بالقاهرة بواسطة جهاز الراديو الخاص المشفوع بوحدة الشيفرة في اليخت «الحرية» ومن ثم تداول مع الرئيس تيتو.

وكان الزعيم اليوغسلافي بالغ القلق وقال أن الحالة قد تؤدي إلى كارثة ما لم تعالج بعناية.

وبدت الحرب العالمية الثالثة وشيكة جداً ذلك اليوم. وسأل عبد الناصر الدكتور فوزي عن رأيه فأجاب بأنه يرى الأمر كأكبر مقامرة سبق لكازينو مونتي كارلو أن شهدها. فقد تتمخض عن ثروة هائلة أو عن افلاس قطعي.

وقرر الرئيس اختصار زيارته وهكذا أبحر إلى مصر أصيل ذلك اليوم وجرى له وداع بحري كامل ورفعت الأعلام وخفقت وعزفت الموسيقى. لكنه غادر يوغوسلافيا متوجساً بعض الشيء.

وكان تيتو قلقاً على سلامته فأرسل مدمرتين انضمتا إلى المدمرتين المصريتين اللتين كانتا تخفران اليخت «الحرية» وقال تيتو حينئذ:

«لقد خرج الأميركيون عن طورهم وقد يحدث أي شيء».

وحتى قبيل التوجه في هذه الزيارة إلى يوغوسلافيا كانت الاستخبارات المصرية قلقة من احتمال مواجهة المتاعب من جانب الأسطول السادس وجرى بحث في احتمال ضرب يخت الرئيس بالطوربيد أو قصفه، لكن عبد الناصر استبعد هذه المخاوف باعتبارها غير ذات أساس وقال أن الأميركيين لا يستطيعون أن يفعلوا إلا شيئاً واحداً عندما يقابلون سفينة ترفع علم رئيس دولة وهو «أن يؤدوا التحية لها».

بيد أن العودة بعد الثورة العراقية وعملية إنزال القوات في بيروت وعمان وعمليات الطيران في سماء اسرائيل أتت تشكل وضعاً مغايراً.

وكان سبق لتيتو أن اقترح أن يعود الرئيس في طائرة اليوشين بدلاً من مواجهة سفرة بحرية تستغرق أربعة أيام بكل ما تحفل به من أخطار محتملة. ولكن كانت قد جرت حادثة ذات دلالة عندما حاول الاسرائيليون نصب مكمن لطائرة تحمل الفريق عبد الحكيم عامر من سوريا. وقد أسقطوا طائرة غيرها كانت تحمل حاشية عبد

الحكيم عامر وحراسه ونجا هو. وإذ مثلت هذه الواقعة في الذهن استبعدت فكرة استخدام الطائرة في العودة.

وعلى هذا الأساس أبحرنا متجهين إلى الاسكندرية بينما كانت ردهة البث في «الحرية» تعمل بما يتجاوز ساعات الدوام المقرر لها. ففي الليلة الأولى في عرض البحر تلقت وبثت ١٩٢ رسالة بالشيفرة.

لقد طلب قاسم بعثة عسكرية وسلاحاً.

وصدر الأمر بإيفاد البعثة العسكرية بينما نظمت من سوريا قوافل السلاح إلى العراق.

وحينما كان الوضع يتطور، شعرنا بأن الغرب ربما كان يحاول القيام بسويس أخرى لتدمير القومية العربية والقضاء عليها. وهكذا اتجه عبد الناصر لإحباط المرامي الغربية.

وتلقى عبد الناصر رسالة من تيتو بعث بها بواسطة إحدى مدمرتيه وجاء فيها:

«أرجوك ألا تمضي إلى أبعد مما مضيت في البحر. وأعتقد أن الاستمرار في الرحلة محفوف بالخطر الشديد. أرى أن تعود إلى أقرب ميناء يوغوسلافي وقد نستطيع أن نهيىء طائرة قوية جداً لحملك إلى القاهرة».

وأجاب عبد الناصر:

«فهمت وجهة نظرك. وقررت العودة إلى بولا».

أما ما جرى فيتلخص في أن تيتو طلب من الروس أن يرسلوا إليه واحدة من طائراتهم النفاثة المدنية الجديدة من طراز تي - يو ١٠٤ لحمل عبد الناصر إلى القاهرة فوافق الروس وانطلقت الطائرة النفاثة في طريقها إلى يوغوسلافيا.

في تلك الليلة استدعى الرئيس عبد الناصر الدكتور فوزي واستدعاني إلى مكتبه في اليخت وقال لنا:

«يقترح تيتو أن أعود إلى بولا وأركب طائرة روسية إلى القاهرة ولكن عندي فكرة أخرى. إنني أفكر في الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي ومقابلة خروتشوف بحيث أستوثق من موقف الروس وأعرف ما ينوون عمله وما هم مستعدون له وما ليسوا

مستعـدين له. ذلـك أننا سنكـون في الظلام إذا عـدت إلى القاهـرة من دون استقراء الموقف السوفياتي واستكشافه. فما رأيكم في هذا الاقتراح؟».

قال له الدكتور فوزي:
«يا سيادة الرئيس هل لك أن تعطينا بعض الوقت للتفكير؟».

كـان فوزي متـوجساً من تـأثير مثـل هذه الـزيارة عـلى الأميركيـين الذين كـانوا يتصرفون تصرف الخارجين عن الصواب.

وخرجنا من المكتب نجول ونجول على ظهر اليخت. كان الليل شـديد الـظلمة وكانت الأضواء مطفأة لأن القبطان اليوغـوسلافي الـذي كان يقـود القافلة رأى طـائرة استكشاف فأمر بالاظلام وحجب الأضواء.

كان الليل مظلماً وهادئاً وبالغ التوتر.
تفحصنا اقتراح الرئيس من كل جوانبه والحجج التي سيقت معه وضده. وأمعنا فيه بحثاً ودرساً ولكن لم نستطع أن نصل إلى قرار فعدنا إلى مكتب عبد الناصر.

وأقر الدكتور فوزي واعترف بهزيمتنا وقال:

«أعتقد أن في التاريخ لحظـة على الزعيم القائد فيهـا أن يقرر وفق الهـامه وليس وفقاً لأية حسابات لأنه يمكن الحسابات أحياناً أن تنتهي وتصل إلى مأزق وبالتـالي على الزعيم أن يتخذ القرار. ويؤسفني جداً أن أقـول أننا لم ننتـه إلى قرار وأن رأينـا هو أن تستشير ذاتك».

وفكر الرئيس زهاء ثلاثين ثانية وقال:
«حسناً. سنذهب».

وفي الساعة الثامنة من الصباح التالي تركنا عائلاتنا في اليخت وانتقلنا إلى المدمرة «النـاصر» التي انطلقت في أقصى سرعتهـا نحو بـولا حيث ألقت مرسـاهـا في الخليـج الخلفي بالقرب من مقر الماريشال تيتو.

وشرح عبد الناصر لتيتـو خطتـه بالـطيران إلى موسكـو أثناء تنـاول العشاء تلك الليلة وحذره تيتو من أن الأميركيين قد يستشيطون غضباً لكنه وافق على أهمية حـاجة عبد الناصر إلى معرفة موقف الروس. وأخـذ تيتو عـلى عهدتـه إخطار الـروس بموعـد

وصول عبد الناصر وتهيئة الترخيص للطائرة بالطيران عبر سماء بلغاريا ومن ثم تـوجهنا في السيارات إلى مطار بولا وكانت الظلمة مطبقة وكنا نتحرك بكل سرية.

وصعدنا إلى الطائرة الضخمة نحن الأربعة فقط: الرئيس والدكتـور فوزي وأنـا وسكرتير الرئيس. وجاءنا قبطان الطائرة النفاثة وحيا وقال بانكليزية طليقة جداً مخاطبـاً الرئيس:

«هل أتوجه إلى القاهرة يا سيدي؟».

فأجابه الرئيس:

«كلا. إلى موسكو».

تطلع إليه الطيار وتساءل:

«إلى موسكو يا سيدي؟»

أجاب الرئيس:

«أجل. إلى موسكو».

«حسناً جداً يا سيدي».

قالها الطيار وحيا وسار إلى قمرة قيادته.

وصلنا إلى موسكو فجر السـابع عشر من تمـوز (يوليـو) وكان في انتـظارنا ثـلاثة رجال احتموا بمعاطفهم من برد الصباح بينما توقفت الطائرة في نهاية المـدرج بعيداً عن محطة هبوط الركاب في المطار.

كان الثلاثة: ميكويان والجنرال سيروف والمترجم.

وصعد عبد الناصر وميكويان والمترجم إلى سيارة من سيارتـين كانتـا في الانتظار وانحشرنا نحن الباقين في السيارة الثانية وأسدلت ستائر السيارتين بينما كـانتا تنـطلقان بنـا عبر أشجـار الصنوبـر وعـبر شـوارع مـوسكـو إلى داتشـا (دارة) في مكـان يـدعى كاراخويا.

وأبلغ ميكويان الـرئيس أن الموقف أصبح أكثر تـوتراً وأن دالس دفـع العالم إلى الشفير بإنزاله القوات الأميركية في لبنان.

وقال ميكويان أن خروتشوف سيأتي لمقابلتنا في الساعة العاشرة واقترح علينـا أن نأخذ قسطاً من الراحة في انتظار ذلك. ولم يكن لدى أي منا استعداد للراحة.

. . .

وصل خروتشوف في العاشرة بالضبط. وكان بالغ الانفعال بما كان يجري في الشرق الأوسط لكنه أعطانا انطباعاً بأنه جيد من الصعوبة صياغة سياسة ما نظراً إلى أن الأحداث تتحرك وتتلاحق ببالغ السرعة والخطورة.

وفي ذلك اليوم استمرت المحادثات ثماني ساعات. وفي أول ساعتين تحادث عبد الناصر وخروتشوف على انفراد ولم يحضر حديثهما سوى المترجم. ثم انضممنا، فوزي وأنا، إلى المحادثات التي كانت تتناول في المقام الأول تقييم واستقرار نيات أميركا.

. . .

وأبلغني الرئيس بعيد ذلك ما جرى في ساعتي المحادثات الخاصة التي أجراها مع خروتشوف.

في تلك المحادثات قال الزعيم السوفياتي أنه يعتقد أن الأميركيين خرجوا عن صوابهم. «لكننا بصراحة غير مستعدين للمواجهة. لسنا مستعدين لحرب عالمية ثالثة». وكان عبد الناصر يطالبه بضمانات مشيراً إلى أن الأميركيين يمكن أن يستخدموا الأتراك لغزو سوريا وأن ذلك سيؤدي إلى تصاعد حالة خطيرة لأنه إذا هاجم الأتراك سوريا فسيكون مضطراً إلى مقاتلتهم.

ورد خروتشوف بأن على عبد الناصر أن ينحني مع العاصفة وليس ثمة سبيل آخر لأن دالس قد يفجر العالم ويدكه دكاً. وقال خروتشوف لعبد الناصر:

«إنه ـ أي دالس ـ يدعي أنه قسيس. لكنني متأكد من أنني، برغم كوني ملحداً، أقرب إلى الله منه: فهو خلو من القلب».

لم يقتنع عبد الناصر ولم يسعد بهذا الجواب فقد كان يريد أن يعرف الكيفية التي يستطيع بها الروس مساعدته. وقد اطلع خروتشوف على طريقة مساعدته للعراقيين إذ أرسل إليهم الطائرات ووحدات الرادار من سوريا والذخيرة من مستودعات الذخائر البريطانية التي صادرها في منطقة القناة والتي تلائم الأسلحة العراقية.

وأشار الرئيس مستدركاً إلى أن كل ذلك يتطلب وقتاً وحث خروتشوف على الحيلولة دون تحركات غربية ضد العراق أو سوريا وذلك بإصدار إنذار إلى الغرب تماما كما فعل أثناء غزو السويس.

ورفض خروتشوف فلم يكن مستعداً لتحمل أية مخاطرة قد تؤدي إلى حرب. وبعد ساعتين من النقاش في ذلك خرج ليبحث في طلبات عبد الناصر مع أعضاء من المكتب السياسي كانوا في انتظاره في داتشا مجاورة.

وعندما عاد قال لعبد الناصر إن جل ما يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يفعله كان أن يعلن عن إجراء مناورات عامة على الحدود البلغارية ـ التركية وقال:
«لكنني أقول لك بصراحة: لا تعتمد على أي شيء أكثر من هذا».

أوكلت إلى الجنرال سيروف مهمة التخطيط لإعادة الرئيس ونحن إلى الوطن سالمين. ومن أجل ذلك تشاور مع وزير الدفاع الماريشال مالينوفسكي فقررا أن السبيل الأضمن هو الطيران إلى دمشق فوق ايران والعراق. وطلب من السفير السوفياتي في طهران أن يقابل الشاه ويستحصل على إذن شخصي منه يرخص لطائرة سوفياتية بالطيران في سماء ايران. وقد حير هذا الطلب الشاه الذي لم يبلغ شيئاً عن هوية ركاب الطائرة لكنه وافق. وهكذا جرى تخطيط الرحلة.

كان عبد الناصر لا يزال يقلب فكرة العودة بحراً إلى الوطن إلا أن الجنرال سيروف رفض الفكرة رفضاً باتاً. ومازح خروتشوف عبد الناصر قائلاً إن دالس قد لا يحب الآن شيئاً أكثر من أن يجعله طعماً للأسماك في البحر المتوسط.

بقي خروتشوف معنا حتى منتصف الليل وجاء إلى المطار يودعنا. وفي ذلك الحين صدر الأمر إلى ٢٤ فرقة بأن تبدأ المناورات على الحدود التركية وأصدر الماريشال مالينوفسكي «أمراً يومياً خاصاً» في شأن هذه المناورات التي جرى تضخيم أنبائها وتعميمها في أرجاء العالم.

أما آخر ما قاله خروتشوف لعبد الناصر في المطار فكان:

«إنها مجرد مناورة... وأرجوك يا سيادة الرئيس أن تتذكر أن لا شيء يتعدى المناورة». كان هذا ـ على الأقل ـ ما قاله بالروسية. ولكن عندما صاغ المترجم ذلك الكلام بعربيته المفككة حاول أن يستخدم كلمة «لعبة» بدل «مناورة» إلا أنه عوض ذلك استخدم كلمة «دمية».

هبطنا للتزود بالوقود في قاعدة عسكرية ونحن نطير جنوبياً وكان المطار يعج

بالطائرات المقاتلة التي حشدت من أجل المناورة. وتطلعت إلى هـذه الطائـرات وقلت لعبد الناصر:

«يا الهي إنه مشهد مؤثر».

فضحك وقال:

«لا تنس. إنها مجرد دمية».

طـوال ذلك الـوقت كانت عـائلاتنـا المسكينة المتحـيرة قد استبقيت وراء سجف السريـة في بريـوني. كان قـد مضى وقتـذاك عـلى زواجي سنتـين فقط ولم تكن زوجتي معتادة هذا النوع من الحياة. فلم تعـرف ما جـرى لي ولم تكن تعرف مـا سيحل بهـا. وكان رئيس التشريفات، وهو كهل رقيق محترم، ومساعده مقتنعين بأنهما تركا ليموتـا. فهـما أيضاً لم يختـبرا مثل هـذه الحالات. وعنـدما خـاطب سكرتـير الرئيس من دمشق هاتفياً رئيس التشريفـات مستخدمـاً شيفرة كـلامية مـرتجلة ليبلغه ويبلغ مسـاعده أنهما سيعودان بالطائرة وليس بالباخرة، ارتج عليه الأمر كلياً وتشوش.

فقد قال له السكرتير:

«مش حتيجي عالبطة إنما حتيجي عالعصفور».

وبعد دقائق من محادثة غير مفهومة ألقى المسكين بالهاتف جانباً وانهار. في النهاية جرى تسفير الجميع جواً في سلامة.

. . .

وبعـد وصولنـا إلى دمشق وشيوع نبأ هذه الـرحلة الجويـة خرج الـرئيس عبـد الناصر إلى شرفة قصر الرئاسة ليتحدث إلى الشعب. وكان الناس قد جاؤوا بالألوف. قال لهم إن الاتحاد السوفياتي «يدعمنـا كليـاً» لكننا مع ذلك «نـطلب السلاح انـطلاقاً من مركز القوة».

وعندما عاد من الشرفة قلت له:

«تعرف أن ما قلته كان قوياً للغاية».

فضحك قائلاً:

«كان يمكن كلامي أن يكون أقوى بكثير لو لم يكن الأمر دمية».

ومـرت الإزمة وتـلاشت وسحب الأميركيـون والبريـطانيون قـواتهم ولم يتعـرض العراق للغزو.

. . .

لقد رسمت خطوط الصراع وحددت.

وفي دمشق أخـذ أعضاء الحـزب الشيوعي الـذي انتقـل إلى السريـة يـوزعـون المناشير. فاعتقلوا وبدأت مصر تهاجم الحزب الشيوعي العراقي ومن ثم بـدأت تهاجم قاسم بالذات.

وبالطبع كان الاتحاد السوفياتي يدعم الحزب الشيوعي العـراقي وكان ثمـة قسط كبير من الاستياء حيال تهجمات مصر عليه وحيال حركة اعتقالات الشيوعيين في سوريا ومصر.

ومع ذلك حاول الروس أن يلحموا شقة الخـلاف التي كانت بـدأت تظهـر بين مصر والاتحاد السوفياتي. وكان الاتفاق على بناء المرحلة الأولى من سد أسوان قـد وقع في كانون الأول (ديسمبر) وكان الروس يعدون العدة لبدء العمل.

ولكن كان حتى لذلك الاتفاق بعض الايقـاعات المـريرة. فـظهرت في صحيفتي «الـبرافدا» و «الأزفستيـا» رسائـل يتساءل أصحـابها عن سبب مسـاعدة روسيـا أولئك الذين يعتقلون الشيوعيين. وبديهي أن ما من رسائل من هذا النـوع يمكن أن تنشر في الاتحاد السوفياتي ما لم تكن مـوضع المـوافقة الـرسمية، وبـالتالي كـانت تلك الرسـائل تعكس خيبة أمل الروس من أن مقامرتهم في العراق لم تعط الثمار المرجوة.

ومن ثم، أثناء المؤتمر الحـادي والعشرين للحزب الشيـوعي، وقف خروتشـوف وقرأ تقريره وهاجم عبد الناصر بالذات، وقال أن أولئك الذين يهاجمون الشيوعيـين لا يمكن أن يكونوا قوميين حقيقيين. وقال عن عبـد الناصر إنـه شاب منـدفع انفعـالي لا يستـطيع أن يفـرض إرادته عـلى العالم العـربي. وحاجّ بـأن المصريـين يتحـدثـون عن الاشتراكية بينما تؤلف الاشتراكية الخطوة الأولى نحو الشيوعية وبأن عبد الناصر لم يحلل أو لم يفهم الحتمية التاريخية للوضع.

استشاط عبد الناصر غضباً وكان في دمشق حيث خرج في اليوم التالي إلى شرفة قصر الرئاسة ورد على خروتشوف بخطاب غاضب لاذع العبارات وسط تهليل الألوف الذين تجمهروا في الساحة تحت الشرفة.

وضعت هاتان الخطبتان نقطة النهاية لفترة الافتتان بين خروتشوف وعبد الناصر ونقطة البداية لفترة من الخصام.

استمرت الحرب الكلامية الشفهية بين الرجلين زهاء أسبوعين. وكان خروتشوف حيثما ذهب، سواء إلى جلسات المؤتمر أو إلى حفلات الكوكتيل الديبلوماسية، يغمز من قناة عبد الناصر.

وانطلق الرئيس عبد الناصر في جولة على مدن سوريا، وفي كل يوم ومن مدينة إلى أخرى كان يطلق جواباً طلقات جديدة جانبية. واستمرت المعركة الكلامية مستعرة بين كروفر ومن دون طائل وقد جاءت بمثابة الذروة لسلسلة من الوقائع التي سلطت الأضواء على الخلافات بيننا والروس.

. . .

عندما قرأ عبد الناصر هذا التقرير ألقى به جانباً قائلاً أن تسايسيف ربما كان في حالة سكر وبالتالي لم يتخذ إجراء في شأنه. لكنه تذكر التقرير في ما بعد واستخدمه في تبادل خطي لرسالتين خاصتين مع خروتشوف.

وفي هاتين الرسالتين أوضح كل منهما موقفه وفلسفاته ومآخذه على الآخر.

ترتدي الرسالتان أهميتهما المرموقة من حيث أنهما تكشفان وتعريان مواقف اثنين من رؤساء الدول وانفعالاتهما. وقد بدأ هذا التبادل عندما بعث الرئيس عبد الناصر، في حرصه على تفادي خصام مع خروتشوف شاهده يلوح في الأفق، برسالة إلى الأخير بواسطة السير الروسي كيسيليف الذي كان في عودته إلى موسكو من القاهرة لحضور المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي.

«أنا لست شيوعياً. إنني قومي، إنني تقدمي أو على الأقل أظن نفسي تقدمياً. وأنا أعتبر نفسي اشتراكياً لكنني أعتقد أن هناك في الشيوعية بعض الأشياء التي ولى زمانها. ولا أقول أن جميع الشيوعيين سيئون، ذلك أن بعضاً من أفضل أصدقائي هم من الشيوعيين. إن تيتو شيوعي وهو صديق حميم لي. وخروتشوف صديق حميم لي وهو شيوعي. وإذا كنت أهاجم الشيوعيين في العالم العربي فيجب ألا يحمل ذلك محمل الانتقاد للاتحاد السوفياتي».

استشهد ناصر بهذا القول في رسالته إلى خروتشوف عن طريق كيسيليف في

محاولة لحصر الخصام. على أنه لم ينجح. وتبع ذلك اندلاع معركة الخطب بينهما.

وعندما عاد كيسيليف إلى القاهرة في نيسان (ابريل) ١٩٥٩ حمل معه رسالة طويلة من خروتشوف.

استهل خروتشوف رسالته ودياً بإبداء الأسف «لأن سماء العلاقات بين بلدينا بدأت تظلم وأن ذلك لم يكن في حال من الأحوال نتيجة مبادأة من جانبنا». ولكن بعد هذا الاستهلال انطلق خروتشوف غير هياب يقول:

«تذكر يا سيادة الرئيس أنه عندما حدثت الثورة في العراق بحثنا معك في موسكو في المسائل المتصلة بالأعمال التي يحتمل أن تصدر عن المعتدين ضد الشعوب العربية، وقلت لك وقتئذ أننا، من جهتنا، ستتخذ كل التدابير الممكنة إذا أقدم المعتدون على شن هجوم على الجمهورية العراقية.

«لكنني في الوقت ذاته أعربت لك عن وجوب قيامنا ببذل كل جهد لتسوية كل ما نشأ من المشكلات تسوية سلمية من دون حرب. ولمعرفتنا باندفاعك، خشينا أن يؤدي تأييدنا اللامحدود لمشاعرك المقدامة النزاعة إلى الحرب إلى حثك على اتخاذ إجراء عسكري اعتبرناه دائماً غير مرغوب فيه كما خشينا أن تفسر مثل ذلك التأييد بمثابة موافقة منا على إجراء عسكري.

«وربما تذكر جداً، يا سيادة الرئيس، أنه عندما عرضت علي اقتراحاً بتزويدك من جانبنا بالقاذفات المتوسطة المدى وبالصواريخ ذات المدى المتوسط قلت لك ملاحظاً أن رقعة بلادك هي من الصغر حيث ستجد من الصعب استخدام هذه الأسلحة.

«ومن ثم سألناك عن ماهية الصواريخ ذات المدى المتوسط في رأيك فأجبت بأنك تحتاج إلى صواريخ يراوح مداها بين ٥٠ و ٧٠ كيلومتراً. وأبلغتك عندئذ أن صواريخنا المتوسطة المدى قد صممت لمسافة تراوح بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ كيلومتر وهي بالتالي لا تلائمك وإذا ما نشأت حاجة إلى استخدام هذه الصواريخ فإن من الأفضل، بداهة، إطلاقها من أراضينا. ولذا فليست لك حاجة إلى مثل هذه الصواريخ ولكن يمكنك أن تعتمد على تقديمنا العون لك بهذه الصواريخ من أراضينا إذا شن المعتدون الحرب عليك.

«ولا أريد أن أخفي عليك حقيقة أنه عندما نوافق على اقتراحك بأن نزودك بالصواريخ المتوسطة المدى، كان في ذهننا أنك قد تقدم، في حالة هياج وانفعال ناشئة إلى حد كبير عن الوضع السائد، على عمل غير مستحسن يؤدي إلى الحرب».

كان كل ذلك تفنيداً لاتهامات عبد الناصر بأنه وقف وحده ضد التهديد بالعدوان عندما أنزلت القوات الأميركية والبريطانية في لبنان وعمان.

وعاد خروتشوف في رسالته إلى نغمة المساعدة ضد العدوان فقال:

«لا أخفي عليك أننا فوجئنا بشكل خاص بالبيان الذي أدليت به في خطابك يوم ٢٢ آذار (مارس). فقد قلت أنه خلال العدوان الانكليزي - الفرنسي - الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ لم يكن هناك من تعتمدون عليه سوى الله وأنفسكم. وأنه حتى ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ وحتى نهاية القتال كنتم وحدكم ولم تحصلوا حتى على تلميح بأدنى مساعدة من الاتحاد السوفياتي.

«إنك هنا، يا سيادة الرئيس، سرت في طريق الإنكار المطلق للحقائق الساطعة البديهية.

«فمن المعروف عامة أن الاتحاد السوفياتي هب في حزم واستمرار، منذ اليوم الأول لأزمة السويس، يدافع عن حقوق مصر المشروعة وذلك بايلاء مصر دعماً أدبياً واسع النطاق. وبعد الهجوم المسلح على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا واسرائيل اتخذت الحكومة السوفياتية من الخطوات ما لعب دوراً يتجاوز كثيراً الدور الأخير في إجبار المعتدين على مغادرة الأراضي المصرية.

«هل كانت أية شكوك تخامر أي إنسان في أنه لو تجاهلت القوات التي شنت العدوان المسلح على مصر التحذير القطعي من الاتحاد السوفياتي ولم توقف الأعمال الحربية، لكان الاتحاد السوفياتي استخدم وسائل أكثر فعالية لوقف المعتدين وإحباطهم؟».

وأكثر ما تبقى من هذه الرسالة استهلك في محاضرة طويلة عن فضائل الشيوعيين وفي إنكار الاتهامات بأن الاتحاد السوفياتي يتدخل في الشؤون الداخلية للأقطار الأخرى.

وعندما شارفت الرسالة على نهايتها أشار خروتشوف إلى موضوع المساعدة الروسية لمصر فقال:

«قيل لنا، يا سيادة الرئيس، أنه يمكن في الاجتماعات التي تعقد الآن في الجمهورية العربية المتحدة سماع هتافات تقول «لا روبلات لا دولارات» وأن هذه الهتافات لا تصدر من دون تشجيع من جانب السلطات. وأن بعض السياسيين يذهب إلى حد الإعراب عن شكوكه في المساعدة السوفياتية. إنني لن أخوض في تفصيلات الاختلافات الأساسية بين المساعدة السوفياتية والمساعدة الأميركية لكنني أحب فقط أن أطرح هذا السؤال:

«هل يمكن الروبلات السوفياتية أن تشين وتورط أحداً ما في الجمهورية العربية المتحدة؟

«من المعروف جيداً أن الاتحاد السوفياتي لم يفرض أبداً ولا يفرض مساعدته على أي كان، إنما يقدمها إذا طلبت منه. وتعرف حق المعرفة، يا سيادة الرئيس، أن تلقي المساعدة من الاتحاد السوفياتي هو أمر طوعي إطلاقاً ويتوقف عليك بالطبع أن تتلقاها أو ترفضها. وإذا كان من رأيك، أن المساعدة التي وافقنا نحن على تقديمها، بطلب منك، إلى الجمهورية العربية المتحدة، هي عبء عليك وإذا كنت تريد التخلص من الروبلات التي أعطيناها بموجب الاتفاقات الراهنة فإنك حر في أن ترفضها.

«وفي وسعك أن تبقى بكل الأحوال مطمئناً إلى أن ذلك لن يسوءنا في حال من الأحوال وسنحقق رغبتك طوعاً. والحقيقة أن لدينا حقلاً واسعاً يمكن أن نوظف الأموال فيه. ويخطر في ذهني البرنامج الواسع للتشييد الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي. إننا لا نرغب في أن نكون مندفعين بإعطائنا المساعدة لأقطار لا تحتاج إليها، لأقطار تشهر بنا، بدلاً من أن تبدي عرفانها، وتؤلب الشعب ضد الاتحاد السوفياتي الذي يعطي مساعدة مجردة.

«ثم ألا يؤدي الوضع الحالي، عندما تنطلق في الجمهورية العربية المتحدة حملة ضد الاتحاد السوفياتي وبالتالي ضد الشعب السوفياتي، إلى نشوء تعقيدات في وجه قيامنا بالتزامنا بموجب الاتفاق لبناء سد أسوان؟

«أرجو أن تدرك أن هذا ليس بتهديد من جانبنا إنما هو قلق نعرب عنه حيال

حقيقـة أن حملة على الاتحـاد السوفيـاتي تشن الآن في الجمهوريـةالعربيـة المتحـدة وأنـه سيكون من العسير جداً علينا أن نؤدي، في هـذه الظروف، وننفـذ التزامـاتنا بموجب الاتفاق الذي وقعناه معكم.

«والحقيقـة أن على المـواطنين السـوفيات أن يبقـوا في بلادكم وأن يعملوا هنـاك ويظهروا مبـادأتهم الخلاقـة حتى يمكن تأمـين الحل التقني الصحيـح في ما يتعلق ببنـاء السد ـ وكل ذلك في ظروف وأحوال يجري فيها تأليب السكان المحليين عليهم.

«لا بل إننا الآن نتلقى رسائل عدة من مواطنين سوفيات تعرب عن القلق عـلى مصـير أولئك الـذين سيذهبـون إلى بلادكم. وأن شعبنـا ليتساءل متعجباً كيف يمكن ايفـاد المواطنـين السوفيـات إلى الجمهوريـة العربيـة المتحدة لتنفيـذ اتفاقـات المساعـدة الاقتصادية القائمة إذا كانوا سيتعرضون لخطر الأذية الأدبية، أو ربما الجسدية. وفي كل الأحوال الراهنة فقد تحدث من جانب المتعصبين تجاوزات واشتطاطات لا يمكن القبول بها.

«إننـا نسألـك أن تتفهم تفهماً صحيحـاً أسباب قلقنـا، وإذا كنت الآن لست في حاجة إلى مساعدتنا فارفضها ولن نستدعي مستائين مواطنينا إنما سنحافظ على علاقات عادية طبيعية معكم كما نفعل مع جميع الأقطار».

وأنهى خروتشوف رسالته بطريقة تنم عنه إذ قال:

«إن بلادكم قد تحتاج كذلـك، وليس لمرة واحـدة، إلى عون الاتحـاد السوفيـاتي وإلى تعاونه الودي المتكافىء. وهنا أود أن أشير إلى مثـل روسي معروف: «لا تبصق في البئر، فقد تحتاج إلى شرب مائها».

أما رد الرئيس عبد الناصر فكان مثل كتـاب خروتشـوف طولاً وعـدم تسامـح. وجاء فيه:

«لا أستطيع أن أخفي عليك أن دهشتي من محتويات رسالتك كانت من الشـدة بحيث خيـل إلي عندمـا قرأت بعض فقـراتها أنني أقـرأ مقـالاً في واحـدة من الصحف الغـربيـة حيث تنحـرف الحقـائق عن أصولهـا وحيث تمـلأ الثغرات بـين الأحـداث بالخيالات وحيث يلجأ الكتاب إلى المخيلة حينما تخذلهم الحقائق».

ومضى يرد على النقاط التي أثارها خروتشـوف فأنكـر أن يكون قلل للحـظة من

تقدير قيمة الإنذار السوفياتي لبريطانيا وفرنسا وقت السويس، لكن الواقع «أننا كنا وحدنا في الميدان. وكان جنودنا يحاربون وحدهم في أرض سيناء. وكان جيشنا وشعبنا يحاربان وحدهما في شوارع بور سعيد. ولم نكن نتوقع عوناً إلا من الله».

واستذكر أن الرئيس القوتلي الذي كان يزور موسكو في ذلك الحين حث الروس على مساعدة مصر. وقال عبد الناصر أن القوتلي كتب إليه لإبلاغه موقف الروس وقد وضحت من كتابه الأمور الآتية:

١ ـ إن الاتحاد السوفياتي ليس مستعداً لدخول حرب عالمية.
٢ ـ على هذا الأساس لا يسع الاتحاد السوفياتي أن يتدخل عسكرياً حتى بإرسال المتطوعين.
٣ ـ إن أقصى ما يمكن عمله للمساعدة هو إرسال بعض المعدات والفنيين.

وتابع عبد الناصر:

«أوكد لك، يا سيادة الرئيس، إنني فهمت كلياً ذلك الكتاب ولم يخطر في بالي أن أحملكم ما يزيد على قدرتكم أنكم تطيقون احتماله.

«لقد فعلت كل ذلك ـ واسمح لي أن أفشي لك هذا السر الآن ـ لقد سحبت هذا الكتاب من الملفات ووضعته في جيبي. لأنني لم أرغب في أن يطلع عليه أي إنسان قد تتأثر معنوياته بقراءته.

ولم يخرج ذلك الكتاب من جيبي إلا بعدما انتهت المعركة حيث أمرت بإعادته إلى الملفات باعتباره أحدى وثائق الدولة.

«وما زلت أعتقد أن هذه الوثيقة هي شرف عظيم لنا ذلك أنها الدليل الأفضل على أننا حاربنا وعلى أننا لم نكن فقط وحدنا في ميدان المعركة إنما كنا نعرف أننا سنبقى وحدنا.

«وقد تكون عالماً، يا سيادة الرئيس، بأن الإنذار السوفياتي ـ الذي لا يستطيع أحد أن ينكر مفعوله ـ صدر من موسكو من دون علمنا تماماً وبعد مرور تسعة أيام كنا فيها وحدنا في المعركة.

«كان هناك احتمال أن نفقد عزيمتنا وكان ثمة احتمال أن نستسلم بعد يومين أو

ثلاثة أيام أو بعد أسبوع، بل كان حتى من الممكن أن نستسلم في صبيحة اليـوم الذي صدر فيه إنذاركم.

«فما نفع الإنذار ذلك اليوم يا سيادة الرئيس لو كنا وصلنا إلى النهاية وسقطنا؟

وأعرب عبد الناصر عن دهشته من رواية خروتشوف لطلبه الصواريخ فقال:

«طلبت منـك بعض المدفعيـة الصاروخيـة المتوسـطة المدى وقلت في رسـالتك، وهذا صحيح، إنني طلبت صواريخ بمدى يرواح بين ٥٠ و ٧٠ ميلاً.

«ودهشنا لتعليقك على هذا الـطلب إذ قلت أن الصواريـخ المتوسـطة المدى التي يملكها الاتحاد السوفياتي هي لمدى يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ ميل.

«لقد حددت ما طلبته وحددت مداه وربما كانت الترجمة مشفـوعة بـالإبهام بـين كلمة «قذائف صـاروخية» وهي الشيء الـذي طلبته وكلمـة «الصواريـخ» وهي الشيء الذي لم أطلبه، مسؤولة عن هذا الخطأ وإن لم يكن من العسيرالاعتقـاد بأن هـذا هو التفسير في ضوء سلسلة الاختلافات بين الحقائق كما كانت وبين روايتك عنها».

كذلك قوبلت اتهامات خروتشوف الذاهبـة إلى أن الرئيس عبـد الناصر أراد أن يتدخل عسكرياً في أقطار عربية مجاورة بإنكار شديد.

وأشار عبد الناصر إلى أنه ذعر من رواية خروتشوف عن محادثتهما لأنها «أبعـد ما تكون جملة وتقصيلاً عن الحقيقة»...

وقـال: «إنه لمـا يدهشني أن تكـون قد تصـورت أنني أريد عـونـك في مغـامـرة عسكرية ضد أقطار عربية. كيف يمكن أن يكون ذلك وارداً بينما نعتبر أي تهـديد لأي قطر عربي ـ مهما تكن ظروفه ـ تهديداً لنا؟».

وكانت نقطة الثقل في رسالة عبد الناصر تأكيده أن الأحزاب المحليـة الشيوعيـة في جميع أرجاء العالم العربي تعمل، بمساندة سوفياتية، ضد القوميـة العربيـة والوحـدة العربية وإنه كان لـزاماً عليـه أن يحارب هؤلاء الشيـوعيين ولـو أثار ذلـك عليه استيـاء الروس وهو أمر يأسف له جداً.

وأنهى رسالته، على غرار خروتشوف، بالمثل العـربي القائـل: «اليد الـواحدة لا

تصفق». وأضاف: «نريد أن نشعر بأن يدنا الممدودة إليكم بالصداقة لن تترك معلقة في الفراغ».

كان تبادل هاتين الرسالتين بين رئيسي الدولتين تبادلاً مدهشاً من حيث ما أظهرتاه ودللتا عليه من سوء تفاهم حقيقي ومن حيث المصادمات والنزاعات المباشرة التي تسببت في كتابتهما.

كان من المحتوم أن تصبح العلاقات بين الاتحاد السوڤياتي والجمهورية العربية المتحدة باردة جداً بعد مثل هذا التبادل. ورأت الولايات المتحدة فرصتها تسنح فتقدمت إلى عبد الناصر بعروض كبرى بالمساعدة. ولكنها كانت كمحاولة لاستثمار الموقف من الشفافية والانكشاف بحيث لم تؤد إلى طائل. وخيم بعض الهدوء على الموقف. ذلك أن عبد الناصر وخروتشوف كانا قد قالا كل شيء في رسالتيهما. ولم يعد ثمة مزيد من الخطب العنيفة.

في ڤيلا السفارة الروسية المزروعة ميكروفونات

كانت مصر لا تزال تهاجم الشيوعيين الذين كانوا يحاولون السيطرة على الدول العربية. وبينما امتنعت روسيا عن مهاجمة مصر، فإن الدول التي تدور في فلكها قد فعلت. إذن كان ذلك كله، وقتذاك، يؤلف خلفية الاجتماع التالي بين خروتشوف وعبد الناصر.

اجتمعا في كواليس مقر الأمم المتحدة، وقت الافتتاح الشهير العاصف لدورة ١٩٦١ عندما اقتحم خروتشوف نيويورك اقتحاماً عاصفاً، عاقداً المؤتمرات الصحافية من شرفة السفارة السوڤياتية، كجوليييت من طراز غير متوقع، ضارباً طارقاً بحذائه على منصته في ردهة الجمعية العمومية.

واقترح عبد الناصر وجوب عقد اجتماع بينهما فوافقه خروتشوف «لأن هناك الكثير من الحسابات التي يجب أن تسوى».

اجتمعا يوم ٢٤ أيلول (سبتمبر) في غلين كوف، فيلا السفارة الروسية ذات الطابع الفخم، والكائنة في رحبة واسعة من حي أصحاب الملايين في لونغ ايلند، تحدثا مدة ساعة ونصف، لكن محادثاتهما لم تكن جدية كثيراً، لأن خروتشوف حذر

عبد الناصر من أن «هذا المكان مزروع بالميكروفونات السرية... ولقد اكتشفنا شبكة ميكروفونات التجسس هذه».

أما اللقاء الثاني بينهما فتم في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ولكن في حضور آخرين من زعماء دول عدم الانحياز فلم يستطيعا أن يعكفا على العمل الجدي.

على أنهما في ٢ تشرين الأول (أكتوبر) أمضيا معاً أكثر من ثلاث ساعات في غلين كوف، في حديقة ڤيلا السفارة وخارج مدى الميكروفونات السرية المزروعة في ثنايا السفارة.

في ذلك اللقاء أعاد عبد الناصر تأكيد موقفه، مبلغاً خروتشوف أنه إذا كان قد حظر الحزب الشيوعي في مصر فإنه فعل لأن الشيوعيين أخطأوا في تحليل الطريقة التي يجب تطوير البلاد بها، كذلك أبلغه أنه لا يشترك في أي حرب صليبية عالمية ضد الشيوعية وأنه ليس معادياً للشيوعية وقال:

«وكما قلت لسفيركم فأنت صديقي وأنت شيوعي. وتيتو صديقي وهو شيوعي».
ورد خروتشوف بحدة على هذه العبارة قائلاً:
«تيتو ليس شيوعياً... إنه ملك».

أجريا حديثاً بعيد المدى متنوع المواضيع خرج منه عبد الناصر بانطباع يفهم منه أن بعض خلافاتهما قد سوي. لكن المشاعر بينهما ظلت باردة.

...

وظل الوضع وضع خصام بين عبد الناصر وخروتشوف حتى ساعدت الأحداث بالذات في لأم الصدع بين الرجلين.

كان ثمة اندفاع عظيم لحركة القومية العربية. فقد خُلع عبد الكريم قاسم وقتل نتيجة انقلاب قام به عبد السلام عارف. وانهار الحزب الشيوعي في سوريا والعراق وانهارت معهما أحلام خروتشوف بالسيطرة والهيمنة على البلدين.

وفي ١٩٦٤ أصبحت القاهرة مسرح كثير من الأحداث العالمية: مؤتمر القمة العربي في كانون الثاني (يناير) ومؤتمر القمة الأفريقي في تموز (يوليو) ومؤتمر القمة لدول عدم الانحياز في تشرين الأول (أكتوبر).

وكنا في خصام مع الأميركيين بشأن اليمن.

وكانت الأحداث تسير متسارعة جداً في جميع أرجاء الشرق الأوسط.

وكانت أسهم عبد الناصر ترتفع عالياً.

أما خروتشوف الذي حيرته الاندفاعية المتفجرة فقد بدأ يتقرب إلى عبد الناصر من جديد.

ووضع العام ١٩٦٤ نقطة النهاية لفترة الخصام ونقطة البداية لفترة من التفاهم بين الرجلين.

تركز ذلك التفاهم على حفلات تدشين المرحلة الأولى من السد العالي. وكانت قد وجهت في السابق دعوات عدة إلى خروتشوف لزيارة مصر وقبل الآن بزيارتها من أجل أن يشترك في مراسم الاحتفال بهذا الصرح الهائل الذي يقام للتعاون المصري ـ السوفياتي. وبدأ الأمر مناسبة رمزية.

طلب مني أن أسافر معه ومع أفراد عائلته على الباخرة التي حملتهم إلى مصر. كانت رحلة ساحرة انطلقت من دارته في يالطا.

تراخى خروتشوف منفرجاً على الباخرة. وكان يسرق قطع الحلوى المحظورة عليه ويتحدث ويشاهد الأشرطة السينمائية. وقد أهدى بتوقيعه إلى غروميكو شريطاً سينمائياً عنوانه «الديبلوماسي العاري».

كان كل شيء بهيجاً مسراً ورقيقاً.

كان خروتشوف تواقاً إلى زيادة معرفته بمصر وبالعرب وتحادث معي لساعات، مصغياً بافتتان إلى أفكار القومية العربية ومعطياتها التي كان في السابق قد رفضها واستبعد وجاهتها.

لقد عاد إليه اهتمامه القديم بعبد الناصر ولكن بمزيد من الفضول العقلاني هذه المرة. على أن الفضول الآن لم يقتصر على رجل واحد إنما توجه إلى حركة تاريخية ومعناها.

وذات يوم صادفني على ظهر الباخرة استمع إلى إذاعة القاهرة فسألني عن الاستعدادات التي تتخذ من أجل وصوله: «هل يقومون بما فيه الكفاية؟ هل يجذبون ويحشدون الناس؟» فطمأنته إلى أن الإذاعة مفعمة بأخبار زيارته. ولكن بعيد ذلك

وبينما كنا نقترب من الاسكندرية طلب مني أن أذهب لمقابلته وكان بالغ التعاسة لأنه كان يتلقى تقارير لاسلكية تفيد أن الحكومة المصرية تقلل من شأن استقباله. فقلت له: «لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. أنت ضيف عبد الناصر ولا عليك. إنها التقاليد العربية التي تقول أن كرامة الضيف هي من كرامة المضيف».

وعندما وصلنا إلى الاسكندرية قال من جديد:

إنهم يطبقون البروتوكول عليّ. إن عبد الناصر في القاهرة ولن يستقبلني سوى الفريق عبد الحكيم عامر لأنني لست رئيس دولة».

وأعدت تطمينه قائلاً إنني أعرف أن الرئيس لا يتقيد بالبروتوكول بالنسبة إلى أصدقائه وأنه سيكون هناك في استقباله.

وسرعان ما جاء قارب لمقابلتنا واستقبالنا وكان على متنه الفريق عامر. فتوجهت إليه وسألته عن مكان الرئيس عبد الناصر فأجاب بأنه على الرصيف ينتظر نزولنا. وابتهج خروتشوف عندما أخبرته بذلك فقد كان دائماً شديد الاهتمام بتلك التفصيلات.

أدهشت الاسكندرية خروتشوف التي قال عنها «إنها مدينة كبرى» وأخال أنه كان يتوقع رؤية الأبل والصحراء.

لقي خروتشوف استقبالاً هائلاً. فكان فرحه عظيماً إلى درجة أن دموع العرفان والغبطة ترقرقت في عينيه. وبدأت زيارته بداية بديعة. وأعجب إعجاباً بالغاً بالقاهرة وبمناخها وتاريخها.

وفي أسوان بدت المصالحة بين خروتشوف وعبد الناصر تامة. فقد منح الزعيم الروسي الرئيس وسام لينين وجعله «بطل الاتحاد السوفياتي».

لقي خروتشوف استقبالاً حماسياً من الجماهير في أسوان إلا أنه ألقى خطاباً توجبت ترجمته فقرة فقرة.

وبعد الانتهاء الفعلي من تحويل مياه النيل، وكان مشهد عميق التأثير في النفوس، تقرر ترتيب يوم راحة لنا لأن خروتشوف كان متضايقاً من وطأة الحر. كما أن اليخت «الحرية» قد أبحر إلى برنيس على البحر الأحمر وركبنا الطائرة إلى هناك لتمضية يوم في صيد الأسماك لأن خروتشوف كان راغباً في الصيد في البحر الأحمر.

كان معنا بن بللا وعارف. وكان العمل قد بدأ في تجهيز القوارب لأولئك الذين يريدون الصيد. وبينما كنا في انتظارها على سطح اليخت راح عارف يتحدث إلى خروتشوف معبراً عن إعجابه الكبير بالاتحاد السوڤياتي.

فصدمه خروتشوف فوراً وبحدة قائلاً:

«لا نستطيع أن نصادق أولئك الذين يشنقون الشيوعيين».

صعق عبد السلام عارف وأسقط في يد المضيف الرئيس عبد الناصر وأحرج. ولم يفه الاثنان بكلمة. لكن بن بللا الذي كان الروس يشيدون به كبطل للثورة الجزائرية التفت إلى خروتشوف يرد عليه مدافعاً عن القومية العربية قائلاً أنه - أي خروتشوف - لا يفقه شيئاً عن الوحدة العربية أو العرب.

وتابع بن بللا يوضح دعواه حتى قال له خروتشوف:

يجب أن أقر بأنني لا أفهمك. ذلك أن هناك وحدة واحدة هي وحدة الطبقة العاملة».

وعند ذلك اشترك عبد الناصر في الحديث قائلاً:

«ها أنت تعيدنا إلى باحة الخصومات القديمة. وبصفتي مضيفاً لم أشأ أن أشترك في هذه المناقشة وكنت سعيداً بتركها لك ولبن بللا ولكن يجب أن أشترك فيها الآن.

«تقول أن هناك وحدة واحدة هي وحدة الطبقة العاملة. إذن كيف تستطيع أن تفسر حقيقة التخاصم الحالي بين الاتحاد السوڤياتي والصين، وهما القطران اللذان تحكم فيهما الطبقة العاملة؟

«تذكر، يا دولة الرئيس، كيف درجت على التحدث إليّ عن الحرب (العالمية الثانية). إنك تسميها الحرب الوطنية العظمى. فلماذا؟ لماذا لا تسميها الحرب الايديولوجية العظمى؟ أعتقد بالحكم والاستناد إلى ما قلته لي، أن السبب هو أن الحزب قد هزم واندحر.

«لقد كانت الوطنية هي التي تصدت لتحدي هتلر وجابهته. هل تذكر ما قلته لي قبل ثلاثة أيام؟ قلت لي أن ستالين فوجىء عندما غزا النازيون روسيا وأنه أقفل على نفسه باب غرفته في الكرملين وأخذ يشرب بصورة متواصلة ولم يتسلم أية تقارير

عن الحرب ومن ثم عقد اجتماعاً للمكتب السياسي قال فيه: «أيها الرفاق. إن الدولة التي بناها لينين تسير إلى نهايتها».

«أعتقد أن هذا الكلام كان تصريحاً بالهزيمة من جانب الحزب. ولكن الأمة الروسية ذاتها هبت وحولت الهزيمة إلى حرب وطنية عظمى».

«أما وأنك تقول لنا أنه لا يمكننا مهاجمة الشيوعيين، فكيف تهاجم أنت ستالين؟ إننا نهاجم الشيوعيين الأشرار وستالين هو مثال ساطع على الشيوعي الرديء».

استبد الغضب المطبق بخروتشوف وصاح:

«أستطيع أن أهاجم ستالين لكنكم لا تستطيعون أنتم مهاجمته. ليس لكم الحق في مهاجمته».

غير أنه في نهاية تلك الساعات الطويلة الحارة من التصارع ظهر أخيراً على خروتشوف أنه بدأ يتفهم الموقف العربي.

وتضمن البلاغ المشترك الصادر في نهاية الزيارة إشارة خاصة بالوحدة العربية. ومنذ ذلك الحين صارت البلاغات عن نتائج اجتماعات رؤساء الدول العربية مع السوفيات تأتي على ذكر الوحدة العربية.

وخيل إلى المصريين أنهم يدخلون، بعد كل تلك السنوات من سوء التفاهم والتخاصم، في فترة من التفاهم مع الروس تستند إلى معرفة حقيقية بأماني العرب ومثلهم العليا.

أبحر خروتشوف من الاسكندرية وهتافات الجماهير العربية تتصاعد في أرجاء الميناء وتلفه لفاً. وبدا خروتشوف سعيداً وودعه عبد الناصر بتفاؤل. فقد شعر بأنه بات يستطيع الآن أن يقيم علاقة سليمة لائقة مع الاتحاد السوفياتي.

ولكن سرعان ما أزيح خروتشوف عن الحكم. وحبس العالم أنفاسه منتظراً معرفة سياسات الزعماء الجدد للاتحاد السوفياتي. ولم يكن ثمة من هو أكثر قلقاً وتوقاً إلى ذلك من الرئيس عبد الناصر. فقد خاف أن يزول التفاهم الذي توصل إليه، بعد الكثير من المشكلات، مع خروتشوف.

وقال معلقاً عندما وصل النبأ إلى القاهرة:

«يا الهي، سنضطر إلى أن نعود سيرتنا الأولى من جديد».

القيادة الجديدة والعرب(*)

جاءت إنباء عزل خروتشوف بينما العلاقات المصرية السوفياتية في أفضل حالاتها. ولا أبالغ إذا قلت أن القاهرة كانت أكثر العواصم شعوراً بالصدمة نتيجة لذلك. فقد كان خروتشوف يحتل مكانة خاصة لدى المصريين. كان الرجل الذي هدد الغرب تأييداً لمصر في حرب السويس. ثم كان قبل أسابيع بينهم في مصر، وشاهد المصريون وجهه مراراً وتكراراً على شاشات التلفزيون. كانوا قد تعودوا أن يعتبروه صديقاً وحليفاً. لهذه الأسباب كلها شعر المصريون بتأثير بالغ عندما سمعوا بالبيان الموجز الذي صدر في موسكو معلناً رحيله.

كانت القيادة تتألف من بريجنيف وكوسيجين وبودجورني، وميكويان العتيد يحوم خلفهم على مسافة قريبة. كانت هنا أسباب حقيقية تدعو للتساؤل بشأن نواياهم تجاه مصر. ذلك أن سياسة خروتشوف في الشرق الأوسط، كان يشار إليها باعتبارها أحد أسباب عزله. وقيل أن بعض بلدان أوروبا الشرقية قد احتجت على أن مستوى المساعدات السوفياتية لمصر كان أكثر مما ينبغي، وأنه لم تبذل أية محاولة للوصول إلى معاملة أفضل للأحزاب الشيوعية المحلية مقابل ذلك، وقيل أيضاً أن الأوسمة الرفيعة التي أنعم بها على عبد الناصر وعبد الحكيم عامر كانت موضع نقد.

وكان واضحاً أن قلق المصريين وتساؤلاتهم قد بلغت مسامع الزعماء الجديد. لذلك حاول بريجنيف أن يهدىء من هذه المشاعر في لقائه الأول مع المشير عامر أثناء زيارة الأخير لموسكو لحضور الاحتفالات السنوية وكان مما قاله له: «أن ما يحدث لا علاقة له مطلقاً بكم أو بسياستنا تجاه العالم العربي، فقرارات الحزب لا تصدر عن أفراد، لكنها تعكس إرادة جماعية أن علاقاتنا معكم تقوم على أساس قرارات بعيدة المدى اتخذها الحزب لا خروتشوف.

وكان هذا هو ذات المنطق الذي استخدمه خروتشوف نفسه بعد إزاحة شيبيلوف.

لكن هذه التأكيدات لم تكن مقنعة تماماً. كان خروتشوف معروفاً. وكان القادة الجدد لا يزالون مجهولين. وعلاوة على ذلك كان الوفد المصري ذهب إلى موسكو في نوفمبر محملاً، كالمعتاد، بعدد من القضايا التي يريد إثارتها. فضلاً عن طلبات كان يأمل أن تجاب، لكنه عاد دون أن يتلقى رداً عليها.

(*) المصدر السابق.

وكما حاولت مصر تقييم الموقف على الطبيعة، كان في موسكو وفد صيني برئاسة شواين لاي يسعى لنفس الهدف. وتبادل الوفدان ملاحظاتهما. كان من الطبيعي أن يسر الصينيون لاختفاء خروتشوف. لكن بينما كان المصريون يرون أن القيادة السوفياتية الجديدة قد تحدث بعض التغييرات في سياستها، غير أن الصينيين كانوا يرون أن الاحتمال المرجع هو أن تستمر السياسات السابقة تجاه الشرق الأوسط.

عندما أحس الكرملين بقلق مصر المستمر، قرار إرسال الكسندر شيلبين لحضور الاحتفال بعيد النصر في ٢٣ ديسمبر ١٩٦٤، رغم أن الاحتفال كان محدوداً، ومقصوراً على مدينة بور سعيد، لكن مما لا شك فيهه أن شيلبين أرسل لأنه كان وثيق الصلة بوجه خاص بخروتشوف. وعند وصوله شرح لنا أن القادة الجديدك انوا مشغولين جداً أثناء احتفالات نوفمبر ـ في مقابلة عدد هائل من الأشخاص للمرة الأولى، ومواجهة مشكلات جديدة ـ حتى أنهم لم يكن لديهم متسع من الوقت للبت فيما أثاره الوفد المصري معهم. وأحضر شيلبين معه بالفعل ردوداً على بعض المطالب المصرية، وكانت مرضية لحد ما. كذلك قضى جانباً كبيراً من وقته في القاهرة وهو يحاول تأكيد حقيقة أنه لن يتغير شيء في الموقف السوفياتي.

وفي حين كانت موسكو تظهر من آن لآخر قلقها على مصالح وأوضاع الأحزاب الشيوعية المحلية إلا أن قادة الحزب هناك لم يخطر على بالهم أنهم قد يتلقوا يوماً ما نبأ حل الحزب الشيوعي المصري لنفسه. لكن هذا ما حدث بالفعل في ٢٥ أبريل من عام ١٩٦٥، حيث أعلن الحزب قرار الحل. ويستحق البيان الذي تضمن هذا القرار الخطير أن نسجله كاملاً. وهذا نصه:

قرار من اللجنة المركزية الموسعة للحزب الشيوعي المصري

بعد المناقشات التي جرت في الحزب خلال الشهرين الماضيين حول مشكلة الاشتراكيين المصريين، وبعد القرار الإجماعي الذي أعلنته اللجنة المركزية وقبلته أغلبية المؤتمر المركزي الذي عقد لمناقشة تقرير اللجنة عن هذا الموضوع، وبعد المؤتمرات المحلية والمناقشات الجماعية والفردية التي نشأت عن قرار المؤتمر المركزي الذي عبر فيه كل أعضاء الحزب عن وجهات نظرهم، أصبح من الواضح أن أغلبية أعضاء الحزب قد تبنوا الاتجاه الذي قبلت به اللجنة المركزية.

وتبعاً لذلك طلبت اللجنة المركزية عقد اجتماع موسع يضم كل الأعضاء المسؤولين عن المناطق والأمانة المركزية وكذلك المسؤولين عن أوجه النشاط بين الجماهير. وبعد هذا الاجتماع الموسع، وبعد استعراض نتائج العمل الفكري على كل المستويات وافق الحزب بالإجماع على إصدار القرارين التاليين:

١ - ينتهي الوضع المستقل للحزب الشيوعي المصري، ويطلب من كل أعضائه التقدم فردياً لعضوية الاتحاد الاشتراكي العربي وأن يناضلوا من أجل تكوين حزب اشتراكي موحد يضم كل القوى الثورية في أرض الوطن.

٢ - تمت الموافقة على التقرير المقدم من اللجنة المركزية بالإجماع، ووافق الاجتماع الموسع على أنه ينبغي إعلان هذه القرارات على كل المستويات المسؤولة في الحزب الشيوعي.

امضاء: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
المصري

خلق القرار الذي اتخذه الحزب الشيوعي بحل نفسه فزعاً وغضباً بين الأحزاب الشيوعية الأخرى في العالم العربي. لم يتصوروا أن يكون من حق أي حزب أن يقدم على مثل هذه الخطوة، ولأنهم لم يكونوا داخل دائرة نفوذ عبد الناصر المباشر. لقد كانوا عاجزين عن فهم الضغوط التي تعرض لها رفاقهم المصريون. وكانوا ينظرون بشك إلى مفهوم «تأميم الصراع الطبقي» الذي تبناه عبد الناصر. الذي كان يشعر أنه على الرغم من أن الصراع الطبقي حقيقة لا يمكن تجاهلها، إلا أن عملية التخمر الثوري الذي كان لا بد أن تخلقه سوف تتضاءل بشكل ملحوظ لو أنها تركت لتأخذ مجراها داخل إطار الوحدة الوطنية. كانت الأحزاب الاشتراكية الأخرى تعتقد أن ذلك مدخل غير تاريخي. وعلاوة على ذلك كانوا قلقين بشأن النفوذ الفذ الهائل الذي كان يمارسه عبد الناصر على الجماهير العربية خارج مصر. كانوا يخشون، وهم يختزنون ذكريات ما حدث في سوريا، حيث كانت إحدى النتائج المباشرة لإقامة (ج.ع.م) حل كل الأحزاب السياسية بما في ذلك الحزب الشيوعي، أن يجد أي بلد ينضم إلى مصر أو يدور في فلكها، إن الحزب الشيوعي فيه يعامل بنفس الطريقة. ولم يكن بوسعهم أن ينسوا مصير الشيوعيين في العراق.

وهكذا حدث أن ساءت علاقات مصر مع الشيوعيين العرب، وأن تصاعد عنف حملاتهم على عبد الناصر وسياساته. وفي الطرف الآخر استغلت القوى الرجعية في العالم العربي القرار دعائياً إلى أقصى حد فزعموا بأنه كان يثبت أنه لم يكن هناك أي تمييز حقيقي بين الناصرية والشيوعية، وأن عبد الناصر لم يكن هو الذي امتص الشيوعيين، بل أن الشيوعيين هم الذي امتصوا عبد الناصر.

ومن ناحية أخرى، فقد شهد العام ذاته أزمة جديدة في العلاقات المصرية السوفياتية، بسبب الإعداد لمؤتمر جديد للتضامن الأفريقي الآسيوي. كان من المنتظر أن يعقد مؤتمر «باندونج الثاني» هذا في الجزائر خلال شهر مارس ١٩٦٥. وأصر الروس على أنهم بلد آسيوي، ولذلك ينبغي أن يحضروا المؤتمر. بينما رفض الصينيون الادعاء الروسي تماماً. وهكذا واجهت حركة التضامن الأفريقية الآسيوية انقساماً حقيقياً. بعض الحكومات أيدت الروس والبعض أيد الصينيين. وتمسكت كل من روسيا أو الصين، بموقفها إلى أقصى حد. حتى أنقذت الحركة الأفريقية الآسيوية من الانهيار الكامل بالانقلاب الذي حدث في الجزائر في ١٩ يونيو، والذي حل هواري بومدين بمقتضاه محل بن بللا. وتصادف عندما حدث الانقلاب إن كان شوان لاي في مصر، وبعد التشاور معه ومع نهرو اقترح عبد الناصر تأجيل المؤتمر. واتفق على ذلك أخيراً. وتم انقاذ ماء وجه الجميع.

لكن الحادث ترك ارثا من المشاعر السيئة. فقد وجدت مصر نفسها عاجزة عن تأييد وجهة النظر السوفياتية. وفي حين أنها كانت تقبل بأن السوفيات كان لهم دور يؤدونه في الشؤون الأفريقية الأسيوية، إلا أنها كانت تشعر أن مؤتمر القمة الذي يحضره بودجورني وبريجنيف وكوسيجين لا يمكن أن يعد أفريقيا ـ آسيوياً. لأنه سوف يبدو كما لو كان منعقداً تحت رعاية دولة كبرى. كان الروس واعين للتحفظات المصرية في هذا الصدد، وفسروها على أنها دليل آخر على افتقاد الثقة في القيادة الجديدة.

وهكذا بدا مرة أخرى أنه من الضروري عقد اجتماع جديد. واقترح أن يقوم عبد الناصر بزيارة رسمية لموسكو، تكون رداً على زيارة خروتشوف لمصر وتم قبول الاقتراح. كانت الزيارة بمثابة رؤية عبد الناصر الأولى لروسيا بعد خروتشوف. وكان القادة الجدد مصممين على نجاح هذه الزيارة نجاحاً عظيماً. وهكذا كانت كل القيادة الجديدة في المطار يوم وصول عبد الناصر في ٢٧ أغسطس وحشد الحزب كوادره،

لتملأ الشوارع ترحيباً وتهليلاً، أثناء استقبال الوفد المصري. كان رجال القيادة الثلاثية واعين تماماً بأهمية الشرق الأوسط على المسرح العالمي، وكانوا حريصين على أن يثبتوا لعبد الناصر أن السياسة السوفياتية هي في جوهرها مسؤولية الحزب وأنها لم تكن أبداً امتيازاً شخصياً لخروتشوف. ولذلك قال بريجنيف لعبد الناصر بعد اجتماعين رسميين: «لقد رأيت الاتحاد السوفياتي قبل ذلك، إن ما نحتاجه في هذه الزيارة هو الوقت لكي نتحدث. وأقترح أن نقضي عطلة نهاية الأسبوع خارج موسكو، لكي نتعرف على أحدنا الآخر أفضل، كبشر، دون أن تكون بيننا طاولة خضراء».

كان لدى النظام السوفياتي الجديد الكثير مما يشغله بكل تأكيد، ووصل إلى القاهرة أصداء محاولات القادة الجدد إعادة تقييم الموقف. ورغم أنهم ظلوا يصرون على أن تغير القيادة لم يكن بحال من الأحوال مرتبطاً بالسياسة تجاه مصر والعرب، إلا أنه ليس هناك شك في أن أحد أوجه النقد الموجه إلى خروتشوف أنه في تعامله مع مصر كان في الحقيقة يتعامل مع رجل واحد فقط. وهذا صحيح تماماً، لأن النظام المصري كان مرادفاً لعبد الناصر. وكان هناك انقسام أساسي حول السياسة في الكرملين. وقد لعب الشرق الأوسط دوراً فيه، إذ استغل بعض نقاد خروتشوف وخاصة سوسلوف نفس الحجج التي كانت الأحزاب الشيوعية العربية تستخدمها. كانت الحجة تقول بأن الشيوعيين المحليين كانوا يضعون أنفسهم في موقف مريب بتركيز جهودهم في تأييد عبد الناصر: وكلما ازداد عبد الناصر قوة كلما ازدادوا هم ضعفاً، وأنه لو حاول تحقيق الوحدة فإنهم سوف يجدون أنفسهم محلولين.

في مايو ١٩٦٦ قام الكسي كوسيغين بزيارة لمصر هدفها بالدرجة الأولى تبديد المخاوف المصرية من تأثير إزاحة خروتشوف على العلاقات بين البلدين والبحث في العلاقات المستقبلية وتمتينها، ثم دخلت المناقشة نطاق المتاعب. فبسبب الموقف المتدهور في الشرق الأوسط ـ التوتر المتزايد بين سوريا واسرائيل، شعر عبد الناصر أنه مضطر إلى عرض طلب لمزيد من الأسلحة، وفي نفس الوقت لتأجيل دفع الفوائد عن بعض ديون مصر للسوفيات. وشرح كوسيغين أن هذه الطلبات لسوء الحظ التي كان سفير مصر في موسكو قد أرسلها إلى سيمونوف في وزارة الخارجية، قد وصلت متأخرة بحيث لم ينظر المكتب السياسي فيها قبل مغادرته. كان حريصاً على شرح الكيفية التي تؤدي بها القيادة الجديدة مهامها، مؤكداً أن أية طلبات لا بد أن ترسل إلى موسكو في وقت مبكر ما أمكن حتى يمكن دراستها، فقد كان من الضروري أن تنظر في أمرها

الأجهزة المختصة ـ الاقتصاد، الصناعة، القوات المسلحة الخ ـ وذلك في ضوء توجيه عام من المكتب السياسي، ثم ينظر في توصيات هذه الأجهزة وتعتمد من المكتب السياسي. وكان كل ما يستطيع قوله هو أنه سيحاول أن يتأكد من أن طلبات مصر من الأسلحة كانت تعامل من خلال القنوات الملائمة.

أما بالنسبة لطلب مصر تأجيل دفع الديون فقد شرح كوسيغين أن المشكلة كانت شائكة جداً. فمثل هذا الطلب لم يكن مقصوراً على مصر وحدها، فقد كان يثير مسألة مبدأ من المحتم أن تلاحظه البلدان الأخرى. وقال أن مديونية العالم الثالث للاتحاد السوفياتي كانت تبلغ ٢٤ مليار روبل، وإذا حدث تباطؤ عام في تسديد هذه الديون فإنه سوف يقلب كل التخطيط الإجمالي للاتحاد السوفياتي. فقد كان اقتصاد الاتحاد السوفياتي يقوم على التخطيط كما قال. وكان ينبغي عليهم أن يعرفوا بالضبط ما سوف يحتاجون إليه سنة بسنة في كل ميدان من ميادين الانفاق. وأشار إلى المشكلة غير العادية التي كانت تواجه الاتحاد السوفياتي بسبب حرب فيتنام. قال: «إن الصينيين يتكلمون كثيراً، لكننا نحن الذين نقوم بالدفع. وشكا من أن الفيتناميين الشماليين كان لديهم كميات هائلة من الأسلحة الروسية من نوع ممتاز لم يكونوا يستعملونها فقد كانوا يريدون تكديسها كاحتياطي استراتيجي. وحتى مع هذا فإن الاتحاد السوفياتي كان قد أعطى الفيتناميين الشماليين كل ما طلبوه، بل إنه عرض عليهم أسلحة لم يكونوا يعلمون عنها شيئاً، وأنه قد أرسل إليهم فنيين ليقوموا بتعليمهم كيفية استخدامها. وكشف عن أن الاتحاد السوفياتي قد عرض عليهم حتى أن يرسل إلى فيتنام الشمالية معدات عسكرية لاستخدامها في حالات الطوارىء. لكنه قال أن الفيتناميين الشماليين رفضوا العرض، وأن الصينيين أذاعوا أنهم لن يقبلوا وجود قوات روسية في فيتنام الشمالية. وعندما ذكر كوسيغين أن الفيتناميين الشماليين كانوا يرغبون في بناء احتياطي استراتيجي من الأسلحة لم يستطع عبد الناصر مقاومة الإغراء بأن يذكره. قال: «نحن أيضاً نريد أن نحتفظ بمخزون من الأسلحة».

كان المطلب الآخر الذي كان علينا أن نتقدم به إلى كوسيغين أثناء وجوده بالقاهرة يختص بالقمح. شرح له عبد الناصر الصعوبات التي كنا نواجهها مع الأميركيين. فقد كنا نأخذ مليوناً ونصف من الأطنان منهم، لكنهم كانوا يهددون بخفض هذه لكمية، أو التوقف تماماً عن تزويدنا بالقمح. كان عبد الناصر يريد أن

يعرف ما إذا كان يستطيع في حالة حدوث ذلك أن يعتمد على الاتحاد السوفياتي في أن يهب لنجدة مصر.

وكان كوسيغين صريحاً في اعترافه بأن امدادات القمح كانت نقطة الضعف في الاتحاد السوفياتي. وسأل لماذا لا تزرع مصر المزيد من القمح. وشرح له عبد الناصر ان ما كانت مصر تزرعه كان مسألة استخدام ما يمكن من استخدامه من مساحة الأرض الخصبة المحدودة المتاحة بأقصى قدر من الفائدة. كان الفدان الواحد يمكنه إنتاج ما قيمته ٣٧ جنيهاً استرلينياً من القمح في السنة، أو ما قيمته ١٢٠ جنيهاً استرلينياً من قصب السكر، أو ٢٥٠ جنيهاً استرلينياً من الفواكه والخضروات. أعجبت هذه الحجة كوسيغين. فقال: «سنرى. إن كل شيء يعتمد على المحصول. لا أستطيع أن أعدك بشيء. وعليك أن تنتظر شيئين: الطبيعة والمكتب السياسي».

وبعد ذلك بشهرين وصل الرد على طلب عبد الناصر بشكل نمطي في أسلوبه غير المباشر. في حفل الاستقبال الذي أقامه السفير المصري في موسكو للاحتفال بالذكرى السنوية لثورة يوليو جاءه موظف كبير وقال له: «لا تستشهد بي، لكنني أظن أن الوقت مناسب الآن لتقديم طلب للقمح». بمثل هذه الأساليب الصغيرة ولكن التي لها دلالتها ساعد الروس الذين كانت لهم معاملات منتظمة مع مصر، على تدعيم مواقعهم.

كان كوسيغين دائماً رجلاً يجد متعة في الحقائق والأرقام. وقد ظهر هذا على وجه الخصوص في مرحلة ما من زيارته عندما أثير موضوع إمكانية بناء انفاق قطارات تحت الأرض كوسيلة لحل مشكلة المواصلات المزمنة في القاهرة. هل كان الاتحاد السوفياتي يمكنه أن يساعد في هذا؟ وعلى الفور راح كوسيغين يطلق أسئلة فنية. كان يبدو كما لو كان سدا قد انهار في هذه الشخصية المتحفظة دائماً. سأل عن نوع التربة التي سوف يواجهها المهندسون. هل كانت صخرية أو طميية؟ وأي حجم؟ وهكذا. ثم انسابت منه أرقام مفصلة حول تكاليف الإنشاء في كل الظروف الممكنة. وأظهر نفس التمكن المطلق من التفاصيل الفنية عندما ناقش فيما بعد كهربة السد العالي.

بعد هذا كله فإنني أعتقد أن القادة السوفيات الجدد كانوا قد بدأوا يشعرون أنهم يعرفون على وجه التقريب الأرض التي يقفون عليها مع عبد الناصر، لكن بقية العالم العربي لم تكن تسبب لهم إلا الصداع.

في ذلك الوقت أصبح ملحوظاً تزايد نشاط مكتب أمن الدولة الروسي. قبل ذلك لم يكن السوفيات في حاجة حقيقية إلى بذل جهود خاصة للحصول على معلومات ـ فقد كانت حركة الأسلحة بينهم وبين مصر وبلدان أخرى توفر لهم تقريباً كل الفرص التي يحتاجونها للحصول عليها. لكنهم عندئذ كانوا يشعرون أن هناك الكثير من الأسئلة المحيرة التي كانوا يطلبون جواباً عنها، وعلى الأخص علاقات مصر مع أميركا التي كانوا يشكون فيها على مدار السنة. كانت الزيارة التي قام بها جورج وودز رئيس البنك الدولي إلى القاهرة كفيلة بأن تثير انزعاجهم الشديد. وقبض على ملحقين بالسفارة المصرية في موسكو في أثناء محاولة القاهرة كفيلة بأن تثير انزعاجهم الشديد. وقبض على ملحقين بالسفارة المصرية في موسكو في أثناء محاولة كل منهما أن يهرب مائة عملة ذهبية، وقيل لهما أنهما سيفرج عنهما إذا وافقا على العمل لمكتب أمن الدولة.

وكان جزءاً من نفس الحملة، بدون شك، أن بعض ضباط الجيش المصريين الذين كانوا يدرسون في الاتحاد السوفياتي دهشوا ذات يوم عندما وجدوا أن كتاب النصوص الروسي المحدد لدراساتهم الاجتماعية كان يحمل عنواناً: «الأسس العملية للشيوعية». ووجدوا أيضاً مؤلفات شيوعية موضوعة في حجرات نومهم. ولما كان هناك اتفاق مكتوب مع السوفيات ألا يخضع الضباط المصريون الذين كانوا يدرسون معهم لتشريبهم أية مبادىء، فقد قدم عبد الحكيم عامر شكوى مكتوبة إلى جريشكو متعلقة بهذا الموضوع. ومن الثابت أن الروس كانوا قد أصبحوا في صيف عام ١٩٦٦ وخريفه قلقين للغاية بشأن الموقف العام في العالم. كانوا يشعرون أن الرئيس جونسون كان قادراً على أن يفعل أي شيء «إنه أخطر من دالاس»، كما قال بريجنيف ليوثانت. ووجدوا أنه من الغريب أن يكون أولئك العرب، الذين كانوا يعدونهم أصدقاء، غير قادرين في هذه الفترة على تسوية خلافاتهم فيما بينهم، فمن المؤكد أن الأنظمة التقدمية على الأقل مصر، العراق، سوريا، الجزائر ـ كان بإمكانها أن تبدو جبهة متحدة وألا تنغمس في حديث عن الدم والثأر؟ وتذكروا الحبشة وإسبانيا واقليم السار والنمسا، وخشوا أن تؤدي النزاعات المحلية مرة أخرى إلى تورط القوى الكبرى في الحروب التي تتوسع دائرتها.

وفي رسالة عاجلة بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٦٦، أعطى السفير المصري بموسكو

تحليلاً مفصلاً للموقف كما يراه السوفيات، وللأخطار التي كانوا يرون أنها تتهدد مصر والإجراءات الوقائية التي كانوا يشعرون أنه من الضروري أن تتخذ. كتب يقول أن السوفيات يعتقدون أن ثمة سياسة أميركية تجاه المنطقة تحت الإعداد. فبسبب انسحاب ديجول من قيادة حلف شمال الأطلنطي، كانت الولايات المتحدة قد خسرت قاعدتها في فرنسا. ولم تكن ايطاليا تقدم البديل. وفي الناحية الأخرى من البحر الأبيض المتوسط كانت تركيا لا تزال في أيدي الأميركيين. لكن استياء الرأي العام هناك كان يزداد من النفوذ الأميركي. وكان الساحل الجنوبي للبحر الأبيض يشكل منطقة استراتيجية بديلة ممكنة. وأن هذا كان يفسر الضغط الهائل الذي كانت أميركا تمارسه في ذلك الوقت على تونس والمغرب وليبيا. بل وحتى على الجزائر. وكان البلد الوحيد الذي لا يتلاءم مع هذه الاستراتيجية هو مصر، ولهذا كان لا بد أن يصبح الهدف الأميركي، هو تحطيم مصر والموقع المسيطر الذي تشغله في العالم العربي.

وواصل السفير المصري مراد غالب قوله أن السوفيات قد أكدوا له أنهم تلقوا معلومات تفيد أن الأميركيين كانوا يدعمون قواعدهم في شمال أفريقيا (التي كانت في الواقع تعني قاعدة هويلس التي لم يكن للحكومة الليبية أي سلطان عليها) بصواريخ، وأن هذه الصواريخ يمكن أن تستعمل ضد مصر أو سوريا في حالة الحرب. كان يعني هذا أن الصواريخ الأميركية يمكن اطلاقها من أرض عربية على أهداف في أراض عربية أخرى وأن في هذه الحالة سيكون من الصعب على الاتحاد السوفياتي أن يقوم برد مناسب. وربما كان هذا ما يريده الأميركيون.

كان الأميركيون يخشون أن تستخدم وكالة المخابرات المركزية في خلق ظروف تؤدي إلى نشوب صراع مسلح في المنطقة، وإذا حدث هذا فإن مصر سوف تدمغ بأنها معتدية، فيلي ذلك التدخل الأميركي الذي سوف يقدم على أنه محاولة لحماية السلام.

في ضوء هذا التحليل ألح السوفيات على شن حملة مستمرة وحادة ضد وجود أية قواعد أجنبية في العالم العربي وشمال أفريقيا، وألحوا أيضاً على بذل جهود للتوفيق بين الخلافات بين الدول العربية، وتجنب أية إجراءات قد تصعد التوترات العربية الاسرائيلية إلى حرب معلنة. وكان التحذير السوفياتي الأخير هو أن السياسة الأميركية قد تفتتح بعرض مساعدة هائلة الحجم على مصر. وسوف يكون من المغري لمصر أن تقبلها، ولكن حقيقة الأمر أنها ينبغي أن تفهم على أنها طعم يهدف إلى تحطيم مصر

نهائياً وتجب مقاومته. ومن الواضح أن المكتب السياسي شغل بهذا الموضوع طويلاً. كانوا يقدرون الدور الأساسي الذي كانت مصر لا تزال تلعبه ووصفوا علاقاتهم بمصر بأنها «حارة». كانت مصر لا تزال في أعينهم أهم دولة عربية، لكن مكانتها كفئة(أ) كانت تنحدر بالتدريج.

بعد ذلك بشهر في نوفمبر ١٩٦٦ كان عبد الحكيم عامر في موسكو وأثار كوسيغين معه المسألة العربية الاسرائيلية، وبدا أن الاتحاد السوفياتي قد بدأ لأول مرة محاولة التفكير بجدية في الحلول الممكنة للمشكلة. تساءل كوسيغين عن احتمال وجود وسيلة ما لخفض مستوى الأسلحة في المنطقة. كان هذا هو نوع السؤال الذي اعتادت مصر أن تسمعه من الأميركيين أكثر مما تسمعه من الروس.

كان عبد الناصر يشعر منذ وقت أنه قد يكون مفيداً دعوة بريجنيف إلى القاهرة، كان الاقتراح قد طرح بشكل غير رسمي، وكان رد الفعل الأول لبريجنيف هو التحمس للفكرة. وأراد أن يعرف مناسبة هذه الدعوة. وقيل له أن محطة توليد الكهرباء التي يقوم السد العالي بتشغيلها كانت على وشك الافتتاح. واعتبرت هذه مناسبة ملائمة. لكن الروس أعادوا النظر في الأمر مرة أخرى. كانوا يخشون أن مثل هذه الزيارة في مثل هذه المناسبة سوف تذكر الناس بشكل قوي بزيارة خروتشوف، وسوف تعقد مقارنات بينهما حتماً. لهذا أرسلوا إلى عبد الناصر خطاب اعتذار يطلب تأجيل الزيارة وأوضحوا أن عام ١٩٦٧ كان يصادف الذكرى الخمسين للثورة الروسية، وأنهم كانوا يريدون أن يقدموا أفضل عرض ممكن. كانت عمليات تنظيف موسكو تجري، وتعبئة الجماهير تتم، والسلع الاستهلاكية توفر، وكل أعضاء المكتب السياسي موزعين في البلد يعدون للاحتفالات. والحقيقة أنه كان هناك بعض النقد للوقت الطائل الذي كان بريجنيف قد قضاه مؤخراً في زيارات للخارج أساساً إلى بلدان أوروبا الشرقية. ومن الواضح أنه كان هناك شعور بأن الوقت كان يتطلب تركيز اهتمام القادة على الجبهة الداخلية.

ولكن لأنه كان هناك أشياء كثيرة مطروحة للمناقشة، ولأن السوفيات كانوا بدون شك واعين بالشكوك السائدة بين العرب وفي العالم الثالث بوجه عام حول المعاني التي كانت سياسة الوفاق تتضمنها (كان هناك كلام كثير في ذلك الوقت حول «يالتا جديدة»)، لهذا قرر السوفيات أن يرسلوا جروميكو في زيارة تستمر ثلاثة أيام في

مارس ١٩٦٧ . لم يكن جروميكو بطبيعة الحال بديلاً لبريجنيف، لكنه حالما وصل كان حريصاً على أن يشرح أنه جاء لا بصفته وزيراً للخارجية، لكن بصفته عضواً مرشحاً للمكتب السياسي. وقال أنه أوضح هذا ليؤكد حقيقة أن علاقات السوفيات مع مصر كانت تعتبر هامة لدرجة أنها ظلت شغل المكتب السياسي. وأكد جروميكو لعبد الناصر أن الاتحاد السوفياتي لم يكن لديه أي اتفاق سري مع الولايات المتحدة. قال: «لم يحدث هذا ولن يحدث. إن الأميركيين يحاولون أن يثيروا المتاعب ويحبون أن يعطوا الانطباع بأن علاقاتهم معنا تتحسن باستمرار، وأننا وهم نتشاور معاً في كل شيء. لكن هذا بكل بساطة ليس صحيحاً. مثلاً، لقد حاول القائم بالأعمال الأميركي أن يتصل بسفيرنا في القاهرة قبل وصولي هنا بقليل. وأعتقد أن الأميركيين ربما كانوا يريدون إثارة بعض الأمور المتعلقة بزيارتي فطلب تعليمات من موسكو. فأخبرناه أن يستمر وأن يلتقي بالقائم بالأعمال الأميركي. لكن عندما حضر الأميركي لم يكن لديه ما يقوله بشأن زيارتي، مما يؤدي بنا إلى استنتاج أن هدفه الوحيد كان أن يعطي شعبكم انطباعاً أن الولايات المتحدة الأميركية ونحن ننسق سياساتنا».

وأثار عبد الناصر مع جروميكو مسألة مبيعات الأسلحة السوفياتية إلى ايران بموجب اتفاق أجرى في فبراير ١٩٦٧ . لماذا كانوا يبيعون أسلحة إلى نظام الشاه الرجعي في حين كان أصدقاؤهم مثل مصر، تواجه صعوبة دائمة في الحصول على السلاح الذي يحتاجونه؟ قال جروميكو: «إنكم تظنون يا سيادة الرئيس أن بيع الأسلحة هذا تم ترتيبه بالتنسيق مع الأميركيين. لكن هذا ليس صحيحاً تماماً. كنا نحن الذين أخذنا المبادرة مع الشاه. إن هدف الأميركيين هو أن يعزلوا الاتحاد السوفياتي عن أصدقائه ويخلقوا جواً من التواطؤ السوفياتي ـ الأميركي، على أمل أن يضر هذا بالحركة الشيوعية الدولية وحركات التحرر الوطني في كل مكان وأن يعمق الصراع الصيني ـ السوفياتي بأن يبدوا كما لو كانوا يبررون المزاعم الصينية بأن سياسة الوفاق هي مجرد تعبير آخر عن التواطؤ وأن يضعفوا الروح القتالية عند الفيتناميين. لكنني في الحقيقة أستطيع أن أؤكد لك أن العلاقات بيننا وبين الأميركيين متوترة للغاية».

لكن على الرغم من تأكيدات جروميكو كان هناك شك واسع الانتشار فيما كان يجري بين الروس والأميركيين. ولم يكن هذا الشك مقصوراً على الحكومات العربية،

لأن الهنود كانوا يشاركونها في هذا الشك. وذهب الجزائريون إلى حد اقتراح الدعوة لعقد اجتماع لكل الحكومات التي كانت لها معاملات مع الاتحاد السوفياتي لتبادل وجهات النظر.

كان هناك في واقع الأمر الكثير من تبادل وجهات النظر بين الحكومات العربية في القاهرة وعواصم أخرى، مثل لندن وواشنطن وموسكو، حيث كان السفراء العرب قد اعتادوا أن يعقدوا اجتماعات غير رسمية منتظمة. (كان الانطباع العام أن السوفيات كانوا مشغولين بأخطار تصعيد الحرب في فيتنام وكانت همتهم قد أثبطت من الصعوبات التي كانوا يلقونها في معاملاتهم مع العرب لدرجة أنهم كانوا مستعدين أن ينفضوا أيديهم منهم، حتى كان الرأي الإجماعي للمشاعر السوفياتية: «ليذهب العرب إلى الجحيم».

نقل السوريون على سبيل المثال أن السوفيات كانوا متشددين للغاية حول مسألة تسديد الدين (وكانوا هم والمصريون يواجهون مشكلات في مواجهة التزاماتهم). والواقع أنهم قالوا أن السوفيات لم يرفضو فحسب أن يسمحوا بأي خصم على ثمن المشتروات من الأسلحة الجديدة، بل إنهم رفعوا السعر بالفعل. وكان السوريون الذين كان لديهم فائض كبير في محصول التبغ يرغبون في تصديره. وطلبوا من الروس أن يشتروه، لكن الروس لأول مرة رفضوا أن يأخذوا أي تبغ. وعندما شكا السوريون كان الرد الذي تلقوه من وزارة الخارجية السوفياتية هو أنهم كانوا صانعي سياستهم ولا بد أن يكونوا مستعدين أن يدفعوا الثمن لهم. فإذا لم يكونوا قادرين على هذا فإن هذا أمر يؤسف له. وقال الجزائريون أنهم حين تقدموا باقتراح أن يدفعوا ثمن القمح الذي كان على وشك الشحن أليهم من جانب الاتحاد السوفياتي نتيجة اتفاق تجاري بأن يرسلوا خام الحديد في مقابله، فإن السوفيات رفضوا على الرغم من أنهم قبلوا فيما بعد. كان الجزائريون قد اشتكوا إلى موسكو مما كان يصل حد التكتيكات السوفياتية لإغراق الأسواق من خلال امدادات الغاز الطبيعي إلى ايطاليا لمنافسة الغاز الجزائري. لكن الجواب الذي تلقوه هو أن كل بلد له الحرية في أن يفعل ما يراه مناسباً لصالحه!

وبحلول بداية مايو ١٩٦٧ كان الانطباع يتزايد بأن شيئاً ما سوف يحدث في الشرق الأوسط على الرغم من أن أحداً لم يكن يستطيع أن يعرف ما الذي سيحدث أو أين أو كيف. كانت القاهرة تتلقى تحذيرات من السوفيات حول تحركات القوات

الاسرائيلية، مما ضاعف من الشعور بالتوتر. كانت هذه التحذيرات بالطبع حسنة النية، وتقوم على حقائق. وربما أمكن رؤيتها على أنها واحدة من الطرق التي تأمل قوة عظمى أن تحتفظ من خلالها بنفوذها على قوة محلية ـ فعندما تفزع القوة المحلية فإنها لا بد أن تستشير القوة العظمى. في حالة اسرائيل وأميركا بطبيعة الحال كان الدوران معكوسان. فقد كانت اسرائيل هي التي غذت واشنطن بحكايات تحمل نذيراً كجزء من عملية الاحتفاظ بالأميركيين مرتبطين بمصيرها. وكانت علاقات أميركا باسرائيل تدار من الداخل في حين كانت علاقات روسيا مع العرب تدار من الخارج. كان العرب يلحون دائماً للاتحاد السوفياتي على استقلالهم، في حين كان الاسرائيليون يفضلون أن يؤكدوا للأميركيين اعتمادهم الوثيق المتبادل بينهما. كان هذا الفرق سوف يؤدي إلى نتائج هامة أثناء حرب ١٩٦٧ وبعدها.

حرب الـ ٦٧

في الخامس من يونيو في البداية نجح الاسرائيليون في إحداث بلبلة كبيرة في عقول الناس حول من ذا الذي كان قد بدأ الحرب. أرسلت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند على وجه السرعة برقية قلقة للغاية إلى كوسيغين بمجرد أن سمعت أن القتال قد اندلع. ورد عليها كوسيغين بأن الحكومة السوفياتية علمت من مصادرها ذاتها أن اسرائيل كانت المعتدية، وأن اسرائيل كانت تحظى بتأييد بعض القوى الكبرى التي كانت على اتصال وثيق معها خلال الأيام القليلة الماضية، وأنها لم تشن الهجوم وحدها. وقال أن الاتحاد السوفياتي كان يقف بحزم إلى جانب ج.ع.م. وأن سياسة الاتحاد السوفياتي كانت دائماً أن يعطي تأييده لاستقلال وسلامة الشعوب المناضلة. غير أنه بالنسبة لأي منا في القاهرة في ذلك الوقت كان القول بأن الاتحاد السوفياتي يقف بحزم إلى جانبنا يبدو أبعد ما يكون عن الحقيقة.

كان عبد الحكيم عامر عندما وردت الأنباء من سيناء في حالة انهيار كامل. وفي عصر ٦ يونيو استدعى السفير السوفياتي وانهال عليه بفيض من الاتهامات. وقال أن الأميركيين قد شاركوا في تدمير سلاح الطيران المصري (كان هذا هو الاعتقاد السائد بوجه عام في ذلك الوقت)، وأن الاتحاد السوفياتي لم يقدم مساعدة من أي نوع، ولا حتى بإعطاء صورة دقيقة عن توزيع القوات الاسرائيلية وسأله إن كان هذا هو معنى الوفاق. وهل كان وفاقاً أم تواطؤاً؟

مرة أخرى كان الجميع يتكلمون مثلما حدث في عام ١٩٥٦، عن التواطؤ، بل

كانت هناك هذه المرة مخاوف من تواطؤ مزدوج بين أميركا واسرائيل وباسم الوفاق بين أميركا وروسيا.

كان هناك اعتقاد سائد بأن الأميركيين كانوا متورطين ايجابياً في الهجوم الاسرائيلي، ربما من خلال امدادات الأسلحة وتنسيق المخابرات، وهكذا. وقد ظهر فيما بعد دليل على أن جونسون أعطى الاسرائيليين الضوء الأخضر للبدء بشن عدوانهم. وقد ألمح عبد الناصر إلى تورط أميركا في خطاب استقالته الذي ألقاه يوم ٩ يونيو. ولم يكن هذا مجرد دعاية. لكنه كان يعتقد في ذلك حقاً.

والحقيقة أن الأميركيين لعبوا أوراقهم بمهارة فائقة. في ٨ يونيو حلقت فوق قنال السويس طائرتان تحملان علامات أميركية. وبعد نصف ساعة فقط من مشاهدتهما تلقى عبد الناصر رسالة من كوسيغين تنقل رسالة من الرئيس جونسون تقول أن تحليق الطائرتين الأميركيتين فوق الأراضي المصرية لم يكن يعني بحال من الأحوال عملاً عدائياً موجهاً ضد مصر، تفسره حقيقة أن سفينة أميركية كانت قد أصيبت في البحر الأبيض وأنهما كانتا تسارعان إلى نجدتها.

كانت سفينة التجسس الأميركية «ليبرتي» كما شاع بسرعة، قد هوجمت من جانب طائرات اسرائيلية وراح ضحية الهجوم عدد كبير من بحارتها. لكن الحادث كله بما في ذلك استخدام واشنطن لموسكو كقناة اتصال مع القاهرة كان حادثاً غريباً لحد ما، شجع الاعتقاد السائد في العالم العربي أن سياسة الاتحاد السوفياتي الخاصة بالوفاق قد أدت به إلى حد التواطؤ مع الأميركيين. لكن الآراء اختلفت حول ما إذا كان الروس قد خدعهم الأميركيون أم أنهم كانوا فيح الة فزع لا تسمح لهم بأن يهبوا لنجدة أصدقائهم.

كان هناك دليل يؤيد اتهامهم بالتواطؤ. ففي يوم ٢٥ مايو كان ايبان ومدير المخابرات العسكرية الاسرائيلي في واشنطن. وفي مساء ذلك اليوم ذهب السفير المصري لمقابلة يوجين روستو مساعد وزير الخارجية للشؤون السياسية بوزارة الخارجية الذي قال له: «إنني أخاطبك باسم الرئيس. لقد جاء ايبان إلينا بدون موعد وطلب مقابلة وزير الخارجية الذي استقبله على الفور. وقد قال إنه كان لديه معلومات من اسرائيل بأن مصر سوف تقوم بشن هجوم هذه الليلة. ولا بد لي أن أحذركم من أنه إذا كان هذا صحيحاً فإن الولايات المتحدة سوف تقف ضد مصر».

نقل السفير المصري هذه الملاحظات في برقية عاجلة إلى القاهرة. وفي الثالثة من صباح اليوم التالي ذهب السفير السوڤياتي إلى مكتب سامي شرف سكرتير الرئيس وطلب مقابلة عبد الناصر، حيث كانت لديه رسالة من موسكو صدرت إليه تعليمات بتسليمها دون إبطاء. أيقظ السفير السوڤياتي عبد الناصر من نومه فارتدى قميصه وسرواله ونزل إلى غرفة الاستقبال حيث لقيه السفير باعتذارات عديدة. ثم قال أنه لديه رسالة من كوسيغين تفيد بأن الأميركيين قد اتصلوا به ونقلوا إليه تقريراً يقول أن مصر حسب ما نقلته مصادر اسرائيلية كانت على وشك الهجوم عند الفجر وأنهم كانوا يناشدون مصر أن تكف عن القيام بهذا فقال عبد الناصر إن مصر لم يكن لديها مثل هذه الخطة.

استشهد عبد الحكيم عامر بهذا الحادث أيضاً ضمن الاتهامات التي وجهها إلى السفير السوڤياتي. قال: «إنكم أنتم الذين منعتمونا من توجيه الضربة الأولى. وقد حرمتمونا من أخذ زمام المبادرة. وهذا تواطؤ!».

انزعج القادة السوڤيات للغاية بطبيعة الحال من اتهامهم بالتواطؤ، واستجابوا لاقتراح الرئيس تيتو بأن يعقد اجتماع لكل ممثلي بلدان حلف وارسو ويوغوسلافيا في موسكو في ٩ يونيو لمناقشة الموقف الذي خلقه عدوان اسرائيل في الشرق الأوسط. وقد ألح تيتو على أنه إذا ظهر المعسكر الاشتراكي في صورة من لا يفعل شيئاً تجاه تعرض إحدى الدول الرائدة في العالم الثالث غير المنحازة لهجوم عسكري شامل، فإن ذلك سوف يخلق انطباعاً بالغ السوء.

ووعد كل من حضر اجتماع موسكو، فيما عدا رومانيا، بتقديم المساعدات للعرب، واتفقوا على قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل. لكن الرئيس تيتو شعر بأن ذلك لم يكن كافياً. فاقترح عقد اجتماع للأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية ولرؤساء الدول لمناقشة سبل مساعدة العرب. واجتمع هؤلاء، فيما عدا رومانيا، في بودابست يومي ١١و١٢ يوليو، واتفقوا على تنسيق المساعدات السياسية والاقتصادية والعسكرية «بما في ذلك الإجراءات التي قد تساعد على تطوير الصناعة والزراعة في الدول العربية الصديقة».

كان هناك حادث قد أقحمت فيه يوغوسلافيا وساعد على تعقيد علاقات مصر بالروس.. ففي ذروة المعركة كانت القاهرة قد طلبت من موسكو جسراً جوياً فورياً

لامدادات الأسلحة، وأخبرت على الفور أن هذه الامدادات كانت في طريقها إليها. لكن شيئاً لم يصل. ومر يومان ثم طلب عبد الحكيم عامر معرفة ما حدث من السفير السوفياتي، فقال السفير أن اليوغوسلافيين لم يمنحوا الطائرات المشتركة في الجسر الجوي حق العبور في الأجوء اليوغوسلافية. وأرسل عبد الناصر رسالة إلى تيتو يسأله إن كان ذلك صحيحاً. أجاب تيتو بأنهم على العكس من ذلك قد أعطوا الروس من الساعات الأولى للقتال حق عبور أجوائهم لنقل أية مساعدات كانوا يريدون إرسالها إلى مصر. وربما كان تفسير هذا هو أن خلطاً بيروقراطياً ما قد حدث في مكان ما لكنه خلق انطباعاً سيئاً.

كان مجلس الأمن بطبيعة الحال منعقداً بشكل يكاد يكون متصلاً منذ بدء القتال، وفي ١٣ يونيو قدم الاتحاد السوفياتي قراراً من القرارات المألوفة يدعو إلى إدانة «أنشطة اسرائيل العدوانية» وإلى سحب القوات الاسرائيلية إلى ما وراء خطوط الهدنة «فوراً وبدون قيد أو شرط» ورفض القرار. كان هناك بالفعل دليل بدأ يتكشف على أن هناك تفاهماً بين الحكومتين الاسرائيلية والأميركية. وقد ظل ساري المفعول لسنين طويلة بعد ذلك ـ ولا يزال في الحقيقة ساري المفعول في أساسياته حتى يومنا هذا.

كان هذا التفاهم حول ثلاث نقاط:

أولاً: أن تعطي أميركا تأييدها الكامل لاسرائيل في الأمم المتحدة وألا تسمح تحت أية ظروف بإدانتها بالعدوان.

ثانياً: ألا تضغط أميركا على اسرائيل لكي تنسحب من الأراضي التي احتلتها إلا في مقابل السلام الكامل.

ثالثاً: أن تراعي أميركا أن يظل ميزان التسلح في صالح اسرائيل.

ولهذا لجأ الروس، في ظل السياسة الأميركية والتهديد باستخدام الفيتو الأميركي، الذي يصادر بشكل فعال أي تقدم في مجلس الأمن، إلى فكرة عقد اجتماع طارىء للجمعية العامة كما حدث في ١٩٥٦.

لقي الاقتراح تأييداً كافياً لأن تجتمع الجمعية العامة في نيويورك في ١٩ يونيو. لكن بعد أسبوعين من الجدل الساخن لم يحصل أي من القرارات الأربعة المقدمة للمجلس على ما يكفي من الأصوات للأخذ به.

وفي جو المأساة وخيبة الأمل الذي ساد في أعقاب الحرب كان كـل واحد يحـاول أن يلقي اللوم على الآخر لما حدث. كان الجنود المصريـون ورجال الـطيران يهمهمون ضد الخبراء السوڤيات. وبرهن الخبراء على أنهم قادرون أتن يكيلوا لهم بنفس الكيل. كتب أحد الخبراء الملحقين بالقوات الجوية تقريراً يرغم فيه أن ضباط القوات الجويـة، وعلى الأخص ضباط القاعدة الموجودة غرب القاهرة، كانـوا كسالى وعـديمي الكفاءة. وادعى الضـابط الروسي أمنـه لاحظ بعد الضربـة الاسرائيلية الأولى أنـه كانت هنـاك ثلاث طائـرات من طراز سـوخوي لا تـزال سليمة عـلى الممر، وأنـه لهذا قـال لبعض الطيارين أن يطيروا بها إلى مكـان آمن، فقالـوا إنهم لم تكن لديهم أوامـر، وبعد ربـع ساعة عاد الاسرائيليون ودمـروا هذه الـطائرات أيضاً. وصل هـذا التقريـر إلى اللواء محمد فوزي وزير الحربية الجديد وساعد على إثارة المشاعر، وشق بعض الحنق الموجـه ضد الروس طريقه إلى الصحافة.

وفي ١٢ مايو أرسل السفير المصري في موسكو برقية تقـول أن السوڤيـات كانـوا يشعرون بمرارة عميقة من النقد الموجه إليهم علناً وسراً في مصر. كانوا مستائين بشـدة من التلميحـات إلى أنهم كانـوا شركـاء بشكـل من الأشكـال في مؤامـرة ضـد الـدول العربية. وأوضـح السفير أن التحـدي الحقيقي الذي يـواجه العـرب كان لا يـزال في المقـام الأول يتمثل في النضـال ضد الامـبريـاليين، وأن تحقيق ذلـك سـوف يتـطلب مساعدات هـائلة يمكنها أن تـأتي فقط من الاتحاد السـوڤياتي، وكتب يقـول: «في حين أنني أقدر تماماً أنه لا بـد أن تكون هنـاك مشاعـر مريـرة في مثل هـذا الوقت، إلا أنني أحث على ضرورة النظر إلى الموقف بموضوعية. فمن الضروري جداً أن نجد في هـذه الأيام العصيبة سبيـلاً إلى تنسيق سياستنـا مع الاتحـاد السوڤيـاتي. لقد أكـدوا لي أنهم جادون في تصميمهم على عمل أي شيء في استطاعتهم لتصفية آثار العدوان».

* * *

وربما كان من الممكن رصد حالة المزاج السائد في تلك الفترة بأفضـل صورة إذا ما وقفنا عند زيارة بومدين/عارف إلى موسكو وقتئذ. كـان بومـدين قد حـاول إرسال قـوات طوارىء لتشـارك في المعركـة، لكن كل شيء كان قـد انتهى قبل أن تستـطيـع الوصول إلى الجبهة. ففي الجزائر كما في كل البلدان العربيـة كانت الحـرب قد خلقت مرارة بالغة، وكان هناك شعور عام أن الروس وقفوا خلالها موقف المتفرج، بينما كـان

أصدقاؤهم وحلفاؤهم يضحى بهم. فاستدعى بومدين السفير السوفياتي وأخبره أنه ينوي الذهاب إلى موسكو، بدعوة أو بدون دعوة، ليشرح للقادة السوڤيات تفاقم الشعور في العالم العربي. وقام بهذه الزيارة في ١٢ يونيو، لكنه لم يحقق شيئاً.

وعلى أية حال، ففي أعقاب الاجتماع الذي عقدته «دول المواجهة» (مصر، سوريا، العراق، الأردن، والجزائر) في القاهرة فيما بين ١٠ ـ ١٣ يوليو، اتفق على أن يذهب بومدين والرئيس عارف إلى موسكو مندوبين رسميين عن الحكومات العربية الأخرى، ووصلا إلى موسكو في ١٧ يوليو، وعقدا اجتماعات مع القيادة السوڤياتية في نفس اليوم وفي اليوم التالي. كان يرافقهم اسماعيل خير الله، وزير الخارجية العراقية بالنيابة، والعقيد طاهر الزبيري، رئيس الأركان الجزائري في الجانب الآخر كان بريجنيف، كوسيغين، ويناماريف، مارشال جريتشكو، كوزنتسوف، النائب الأول لوزير الخارجية، وجيبورين، رئيس قسم الشرق الأوسط في الوزارة.

افتتح عارف بصفته رئيس دولة، الجلسة. فشكر الاتحاد السوڤياتي باسم كل الحكومات العربية للمساعدات التي قدمها، لكنه عبر عن أمله في أن يضاعف السوڤيات مساعداتهم الاقتصادية والعسكرية، حيث لم يكن يستطيع أحد أن يفترض أن المباحثات الدبلوماسية الجارية كانت ستؤدي إلى أكثر من كسب الوقت الذي يستطيع فيه العرب أن يعيدوا تنظيم قوتهم.

أعطى بريجنيف مفتاح الكلام. قال: «لننظر إلى الأشياء كما هي في الحقيقة». كان من الواضح الآن أن اسرائيل ظلت تخطط لعدوانها منذ زمن بعيد، كان تعداد سكانها مجرد مليونين ونصف مليون، لكن كان لديها جيش يبلغ ٣٥٠/٠٠٠ جندي ـ أو بعبارة أخرى كان ربع سكانها تحت السلاح. وكان تعداد سكان مصر ثلاثين مليوناً، ولكن كان ١٪ فقط من شعبها تحت السلاح. نفس النسبة كانت تنطبق على سوريا. وكان الاسرائيليون قد أعدوا الجبهة الداخلية للحرب، ولم يكن العرب قد فعلوا نفس الشيء. وطرح بريجنيف السؤال: «هل يمكن لأي بلد أن يحارب في هذه الظروف؟».

أوضح بريجنيف أن البلدان الاشتراكية قد عقدت في الفترة القصيرة التي أنقضت منذ بداية القتال لمناقشة الإجراءات التي يجب اتخاذها. وقال إنه لم يكن من

السهل ترتيب مثل هذه الاجتماعات، وأنها لم تتم استخفافاً بالأمر، كان هدفها جدياً، لا دعائياً.

ثم واصل قوله يصف ما كان يعتبره «جذور المشكلة» كانت اسرائيل وحدها، لا شيء. كان وجودها يعتمد على المساعدات الأميركية. والسبب الذي كان يحدو بالأميركيين إلى إبقائها على قيد الحياة هو أنهم كانوا يريدون نفط الشرق الاوسط، الذي يمثل ٦٠٪ من احتياطي البترول في العالم. ولكي يحصلوا على هذا النفط كانوا قد حاولوا إبقاء العالم العربي تحت سيطرتهم. لكن اتضحت استحالة ذلك بعد ظهور النظم التقدمية. ولم يكن الأميركيون قادرين على الهجوم على الأمة العربية بأنفسهم، لكنهم كانوا قادرين على الهجوم من خلال اسرائيل.

وقال بريجنيف: «والآن، إننا نريد أن ننتقدكم قليلاً، فبدون النقد لا يوجد حب. نحن في مواجهة مأزق. أنتم تشعرون أنكم غير قادرين على الاعتراف باسرائيل، ولو بشكل غير مباشر، لكننا جميعاً نريد أن نرى القوات الاسرائيلية تنسحب. أليس هناك تناقض في هذا؟» وقال أن الامبرياليين هم الذين كانوا يريدون استمرار الوضع الراهن، بدون أن تتخذ الأمم المتحدة قراراً بإدانة اسرائيل أو إصدار الأمر بانسحاب قواتها لأن الاسرائيليين سوف يبقون في المناطق التي احتلوها إلى ما لا نهاية بدون مثل هذا القرار. وسوف يكون العرب هم من يعاني نتيجة لذلك، والدول الصديقة، مثل الهند، التي أضيرت من إغلاق قناة السويس.

وأوضح بريجنيف أنه كان يريد تأييد العرب للقرارات التي كانوا يعدونها لعرضها على الأمم المتحدة، إما في مجلس الأمن أو في الدورة العادية للجمعية العامة حتى ولو أدى ذلك بالحكومات العربية إلى شكل من أشكال الاعتراف باسرائيل. وقال إنه كان يدرك العداوة القائمة بين العرب واسرائيل. لكن هذا لا يؤدي بالضرورة إلى إفناء اسرائيل. وأعاد إلى الأذهان التاريخ الروسي. وعاد بذهنه مرة أخرى إلى معاهدة بريست ـ ليتوفسك، حين قام لينين بتضحيات واقعية وإن كانت مؤقتة. كانت الظروف تتطلبها.

كانت الأسلحة الروسية التي استولى عليها الاسرائيليون موضوعاً مؤلماً. قال بريجنيف: «إنني حزين لأن سمعتنا كانت مرتبطة بسمعتكم. إنني حزين لأن أحدث الأسلحة التي زودناكم بها قد أرسلت إلى أميركا أو ألمانيا الغربية. لقد أعطيناكم

طائراتنـا، ولكن لم يكن لديكم طيـارون، وأعطينـاكم دبابـاتنا، ولكن لم يكن لـديكم أطقم لها.» كان الخبراء الروس الملحقين بالجيوش العربية قد نقلوا تقـارير بـأن سائقي بعض الدبابـات أرسلوا للعمل بعـد تدريب دام أقـل من ست ساعـات. كيف يمكن السماح بهذا؟ ومرة أخرى عاد إلى حاجة العرب إلى الـوقت لكي يبنوا قـواتهم المسلحة واقتصادياتهم، ولكي يعدوا شعوبهم سياسياً للمعركة. كـان هذا يعني أن تكـون هناك مباحثات تهدف إلى تأمين قرار ينال تأييد الأغلبية بثلثين في الجمعية العامة وبهـذا يترك اسرائيل معزولة.

انضم كـوسيغين إلى النقـاش مؤيداً حجـج رفيقه، وقـال: «إنكم تؤكـدون أن البلاد العربية لا يمكنها أن تـوافق على إنهاء الحـرب مع اسرائيـل. ولكن أين يضعكم هذا؟ إذا استمرت حالة الحرب، فلن تنسحب اسرائيل. وسـوف تؤيد أمـيركا وألمـانيا وحكومات أخرى اسرائيل. لكن هل أنتم مستعدون للحرب؟ لقد قمنا بإجـراء تقييم للموقـف، وكان يسعدنا أن نقول لكم: «حسناً، إلى الأمام» لكن التقييم الذي قـام به خبراؤنا مختلف إنهم يقولون أن استئنافكم الحرب أمـر غير وارد. وأريـد أن أقول لكم أنكم تتبعون سياسة غير مرنة.

«إن الشعـارات الثوريـة يمكنها أن تعمـل ضـد مصـالـح العـرب. انـظروا إلى الصين. إنهم يتبعون خطاً ثورياً قاسياً، ويقولون أنكم إذا خضتم الحرب فـإنهم سوف يساعدونكم. لكن ما الذي يستطيعون مساعدتكم به؟ عشرة مقالات؟ مـائة اجتـماع؟ إن الأفكار الثورية التي تصاغ في كلمات لا تعني أي شيء ما لم تدعمها قوة حقيقية».

أصر كـوسيغين مـرة أخرى عـلى ضرورة تماسـك الجبهات الـداخليـة العـربيـة والتخلص من كل من يعارضون الطريق التقدمي. كان يعتقد أن الأمر سوف يستغرق سنتين على الأقل لكي يستكمل العـرب المرحلة الأولى من الإعـداد، وفي تلك المرحلة «لا ينبغي لهم أن يتبعوا سياسة عقائدية في معاملاتهم مـع الغرب» ـ لا بـد أن يكونـوا مرنين. وانتهى إلى القول بأن إنهاء حالة الحرب ليس مهماً. المهم كسب الوقت لتعزيـز القوات العسكرية التقدمية في المنطقة.

احتج عارف بقوله أن إنهاء حالة الحـرب سوف يعني فتـح قنال السـويس وإجراء مفاوضات بشأن تسوية سلمية بشكل مباشر مع الاسرائيليين. فقال كوسيغين أن ذلك ليس أمراً ضرورياً. فقـد كان من الممكن إجـراء هذا من خـلال الأمم المتحدة. وإذا

حاول الاسرائيليون التملص من الالتزام بالانسحاب فإن حالة الحرب لا بد أن تستمر.

حاول بومدين أن يشرح أن الصراع العربي الاسرائيلي يجب النظر إليه على أنه حلقة واحدة في سلسلة طويلة من الصراعات التي تفرضها الامبريالية ضد الشعوب. وناشد الروس ألا يفكروا في صيغة حل من خلال الأمم المتحدة. فلم يكن التصويت في الأمم المتحدة ليفعل شيئاً بشأن المشكلات الصعبة والخطيرة في الشرق الأوسط. كان الأميركيون في رأيه يعرفون أنهم كانوا يحتفظون بالأوراق الرابحة في أيديهم. ولم يكونوا ليوافقوا على أي قرار لا يعكس وجهة نظرهم مائة بالمائة. وأصر بومدين على أن الهدف الحقيقي للأميركيين كان تحطيم كل النظم التقدمية.

قال بومدين أن الصراع في الشرق الأوسط كان صراعاً ذا شقين ـ المشكلة الفلسطينية ـ وهي إرث من حرب ١٩٤٨، ومشكلة العدوان التي كانت نتيجته الحرب الأخيرة. كانت أميركا تريد تصفية المشكلتين بضربة واحدة لمصلحة اسرائيل وعلى حساب النظم التقدمية في المنطقة.

وسأل بريجنيف بومدين عن الحل الذي يقترحه إذا سلموا بصحة تحليله فقال إنه كان أمامهم خياران ـ إما أن يقبلوا العملية المنتهية ويتفاوضوا، وهكذا يدمرون النظم التقدمية، وربما يكافأون بإرجاع بعض الأراضي، أو أن يتخذوا موقفاً يقوم على مبدأ. وقال أن الدول العربية كان بإمكانها أن تعطي بعض التنازلات (على الرغم من أنه لم يحددها) لكن هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها أو أن يواجهوا الانهيار.

كان الجانبان يجادلان في الواقع من مقدمات منطقية مختلفة، وعيونهما على أهداف مختلفة أيضاً. ويمكن أن تقوم هذه المناظرة التي دامت يومين في موسكو مثالاً كلاسيكياً عن الصعوبات وسوء الفهم الذي يثور حتماً في العلاقات بين قوة عظمى وتلك القوى المحلية التي ارتبطت مصالحها بها.

كان من الواضح أن بريجنيف وكوسيغين والآخرين قد تألموا ألماً عميقاً. فقد بدا لهم أن كل ما فعلوه وما فعله أسلافهم في العالم العربي قد دمر. لم تكن تشغلهم الآن الأيديولوجية في قليل أو كثير. ولكن أن يحتفظوا ما أمكنهم بموقعهم كقوة عظمى في المنطقة حيث كانت لهم استثمارات اقتصادية وسياسية هائلة.

اتخذ في موسكو قرار بضرورة حضور كوسيغين الدورة الطارئة الخاصة للجمعية العامة. وكان من الطبيعي أن يطرح السؤال عما إذا كان سيلتقي بالرئيس جونسون أثناء وجوده في أميركا. كان المكتب السياسي منقسماً حول هذا السؤال، وحول أمور أخرى متعلقة بنتيجة حرب يونيو، بينما كان العسكريون والأيديولوجيون يتهمون السياسيين بأنهم فقدوا سيطرتهم على الأحداث. ولهذا فإنه حين سأل سفير بورما في موسكو سوسولوف عما إذا كان من المحتمل عقد مثل هذا الاجتماع، تلقى الرد بأنه لم تكن هناك فرصة لذلك. فلا يمكن أن يأتي خير من التباحث مع الأميركيين.

لكننا نعلم أن بريجنيف دافع عن سياسته في الشرق الأوسط ضد نقاده في خطاب دام ثلاث ساعات أمام المكتب السياسي، وفي نهايته اتخذ القرار بارسال بودجورني إلى مصر. واتجه بودجورني رأساً من اجتماع المكتب السياسي إلى المطار في ٢١ يونيو، ورافقه بريجنيف لكي يكون في وداعه. وكان المقصود بذلك أن يكون لفتة لا نظير لها تدل على التماسك.

توقف كوسيغين في باريس وهو في طريقه إلى نيويورك في ١٦ يونيو حيث تناول طعام العشاء مع ديجول، وأثناء وجوده في أميركا عقد اجتماعين مع الرئيس جونسون في جلاسبرو بولاية نيو جيرسي.

العرب والسوفيات بعد رحيل عبد الناصر(*)

رحل الضيوف الذين وفدوا للعزاء وانتهت فترة الحداد وتأكد اختيار أنور السادات رئيساً للجمهورية خلفاً لعبد الناصر من خلال استفتاء عام في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠. رأس الوفد السوفياتي للمشاركة في الجنازة الكسي كوسيغين الذي اجتمع بكل القيادات المصرية ليحثهم على التكاتف والتضامن لملء فراغ غياب عبد الناصر، لكن التمنيات والرغبات السوفياتية تبخرت خلال مسار حكم السادات وأصاب حتى العلاقات المصرية الروسية في الصميم.

أولاً ـ كانت هناك فترة من الشك، انشغل فيها السادات بمحاولة دعم مركزه في الداخل، وكان وهو والروس يقومان فيها بتقييم أحدهما للآخر. لم تكن فترة سهلة وقد بذرت أثناءها بذور سوء الفهم فيما بعد.

وأبرز محطات هذه المرحلة كانت اقصاء ما سمي «بجماعة علي صبري» عن السلطة في مصر في مايو ٧١ والتي اعتبرت حينها ضربة لجماعة موسكو في مصر ولتخفيف تأثير ذلك على العلاقات السوفياتية المصرية ثم توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين بناءاً لاقتراح من الرئيس السادات حمله سامي شرف للقيادة السوفياتية أثناء مشاركته لها في احتفالات افتتاح مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي في ٣١ مارس ١٩٧١.

وكذلك بدء الاتصالات الأميركية المصرية على أثر مبادرة السادات في ٤ فبراير ٧١ والتي أعلنها في خطاب عام وإشارته إلى الاستعداد لقبول اتفاقية سلام مع اسرائيل دون معاهدة سلام.

لم يرق السوفيات كثيراً لهذه الاتصالات وبدأوا ينظرون إليها نظرة ريب وشك وخصوصاً أن معلوماتهم في ذلك تؤكد أن السادات قد خطى أكثر من ذلك في التقرب للأميركان مما يهدد مستقبلاً التحالف السوفياتي ـ المصري.

جاء انقلاب الشيوعيين على النميري في السودان (١٩ يوليو ١٩٧١) ليزيد من اتساع الهوة إذ وقف السادات مع نظام جعفر النميري ضد انقلاب الشيوعيين، وفشل الانقلاب مع ما تبعه من إعدامات لجماعة موسكو في الخرطوم وبالذات إعدام شفيع أحمد الشيخ رئيس اتحاد العمال السودانيين والحاصل على جائزة لينين للسلام بالمناصفة.

(*) المصدر السابق.

وعلى الرغم من كل الصراحة المتبادلة بين الطرفين فالثقة أصبحت بينهما مفقودة فكلا الطرفين ينظر للآخر نظرة ريب وشك.

السوفيات غير مطمئنين لما يجري في الداخل المصري وقلقين جداً من بدء تطور الاتصالات المصرية - الأميركية بالواسطة أحياناً (عبر أطراف عربية وايران) ومباشرة أحياناً أخرى. والمصريين غير مكتفين بنوعية الأسلحة التي تقدم لهم (قياساً على السلاح الأميركي الذي يقدم لاسرائيل كماً ونوعاً).

وكذلك مطالبة السوفيات بتواجد عسكري ثابت في موانىء مرسى مطروح وبتأمين مطار خاص بهم في غرب القاهرة والإلحاح السوفياتي على استمرار حالة «اللاحرب واللاسلم» وهذا ما اعتبر زيادة في الاعتماد المصري على السوفيات كل هذه العوامل الظاهرية على الأقل أدت في مقدماتها وتوتراتها إلى قرار السادات بطرد الخبراء السوفيات من مصر في يوليو ١٩٧٢.

ثانياً - التحول السياسي الكبير في الموقف المصري بعد طرد الخبراء الروس اعتبر حينها الحدث السياسي الأبرز مثلما كان قرار جمال عبد الناصر بكسر احتكار السلاح في عام ١٩٥٥ بعقده لصفقة السلاح التشيكية لمصر. ومع كل الاذلال الذي حمله القرار المصري للسوفيات فلقد انسحب الروس بانتظام. وبخلال عشرة أيام كان واحد وعشرين ألف خبير في بلدهم.

لم تشأ أي من موسكو أو القاهرة أن ترى الحادث يتصاعد نحو نزاع علني كبير. كان هناك قدر كبير من الاعتزاز بالذات وضبط النفس في كلا الجانبين في العلن. لكن الروس ظلوا يكشفون في السر عن قدر كبير من الضيق الذي يمكن تفهم أسبابه.

في بداية أغسطس أرسل بريجنيف رسالة خاصة إلى السادات كانت بدايتها باردة، بما فيه الكفاية حيث كتب يقول: «عزيزي السيد الرئيس» في حين كان الأسلوب المعتاد في مخاطبته هو «الأخ» أو «الصديق» أو «الرفيق».

ركزت رسالة بريجنيف على المبادىء في إقامة العلاقات بينهما ودور الاتحاد السوفياتي في دعم الدول العربية وبعض الدول النامية في أفريقيا وآسيا وكذلك على العلاقات التاريخية التي أرساها جمال عبد الناصر وعن موضوع طرد الخبراء تساءل بريجنيف: أين تذهب مصر؟ وخصوصاً أننا لا يمكن أن نبدي عدم اكتراث بالسياسة

التي تبنيها الحكومة المصرية والتي هي من الناحية الموضوعية والذاتية ضد مصالح شعبينا. وإلى أين تدفع من جانب قوي داخل حدودها وخارجها؟

وأنهى رسالته بالطلب بإجابة على أسئلته هذه «بكل صراحة».

رد السادات كان غاضباً وتناول عدة نقاط:

١ ـ الإشادة بالشعب السوڤياتي بمواجهة النازيين وبتضحياته.
٢ ـ التركيز على أن قتال اسرائيل هو من مسؤولية مصر وقواتها وعدم الرغبة في أن يكون هذا الصراع صراعاً أميركياً ـ روسياً لما يعنيه ذلك من كارثة على العالم أجمع.
٣ ـ ضرورة وجود القدرة العسكرية المصرية على الرد والردع للتعديات الاسرائيلية المستمرة على الأراضي المصرية وفي العمق وبدون هذه القوة والقدرة فليست لدى مصر أي قدرة على القيام بأية مبادرة عسكرية.
٤ ـ عدم خضوع الوحدت العسكرية السوڤياتية في مصر للقيادة المصرية من ناحية القيادة أو السيطرة مما خلق إرباكاً على الموقف العسكري العام.
٥ ـ عدم التأمين السوڤياتي لمستلزمات عسكرية مهمة للجيش المصري لمواجهة التدفق اللامحدود بالعتاد الأميركي لاسرائيل والمماطلة المستمرة في تلبية هذه المطالب.
٦ ـ إن قراركم بسحب الطائرات الأربع من طراز ميغ ـ ٥٠٠ ـ وسحب أجهزة تعطيل الرادارات على أساس أنها سريةٌ سيؤدي إلى مضاعفة مشاعر السخط في صفوف قواتنا المسلحة ولدى الشعب لمصري.
٧ ـ الرغبة في أن تكون العلاقات السوڤياتية ـ المصرية طيبة، وهذا سوف يحدده مدى استعداد السوڤيات للمساعدة في حل المشكلة الأولى والأخيرة مشكلة تحرير الأراضي المحتلة.

لم تحد برودة العلاقة بين السوڤيات والسادات من إعادة تدفق السلاح الروسي على مصر بل بالعكس تمت زيادة المساعدات بكميات أكثر وبنوعيات أسلحة متطورة علّ السوڤيات بذلك يكسبون المعركة العسكرية بعد هزيمتهم في المعركة السياسية مما دفع السادات إلى القول: «يبدو أنهم يريدون أن يدفعوني إلى معركة بعد أن فتحوا كل عنابرهم»(*).

(*) المصدر: محمد حسنين هيكل ـ حكاية العرب والسوڤيات.

ـ حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ

أمام اجتياح الجيشين المصري والسوري لقناة السويس والجولان. . ذابت الخلافات القديمة وأصبحت في طي النسيان بين القاهرة وموسكو. إذ اعتبر السوڤيات أن سلاحهم هو الذي انتصر وهذا ما عبر عنه السفير الروسي بالقاهرة أثناء دعوته لمقر القيادة لإبلاغه نبأ العبور. لكن المخاوف السوڤياتية تجلت في أن يفلت النصر من أصابع العرب أو أن يتحول إلى هزيمة، ففي يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر بعد ثلاثة أيام من بداية الحرب، عبرت السفارة الروسية في القاهرة عن قلقها من الموقف العسكري خصوصاً على الجبهة السورية بعد أن توقف الزحف المصري عند مداخل ممرات سيناء.

كان الهجوم المصري ـ السوري قد أثار غضب كيسنجر الذي كان قد وصل حديثاً إلى منصب وزير الخارجية فسافر إلى موسكو للاتفاق مع السوڤيات على قرار موحد لعرضه على مجلس الأمن لوقف إطلاق النار. في ٢٦ أكتوبر موعد بدء سريان القرار لم تلتزم اسرائيل به مما مكنها من تصعيد الموقف العسكري خصوصاً على الجبهة السورية مستغلة قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وهذا ما حدا ببريجنيف إلى التهديد بالعمل وحدهم دون مشاركة أميركا في فرض قرارات مجلس الأمن.

ولا بد من الاعتراف بأن موقف السوڤيات خلال حرب أكتوبر تجاه العرب كان موقفاً لا تشوبه شائبة. فقد وقفوا بكل وجدانهم مع القضية العربية وبذلوا ما في وسعهم لتقديم العون لمصر وسوريا على المستوى المحلي والدولي، على المستوى المحلي من خلال الجسور الجوية لامدادات الأسلحة والمعدات، وعلى المستوى الدولي من خلال قيامهم بدور المدافع عن العرب أمام الأميركيين والأمم المتحدة.

السلاح السوڤياتي والسلام الأميركي

إذا كان السلاح السوڤياتي قد أدى دوره في حرب أكتوبر مما أعاد له اعتباره بعد نكسة الـ ٦٧ فإن هذا السلاح استمر بالتدفق لكل من مصر وسوريا حيث أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤياتي قد أخذت قراراً بإعطاء مصر هدية من ٢٥٠ دبابة ودعوة إلى الحكومات الأخرى على تقديم مساهمات شبيهة بجانب الوفاء بكل الوعود والاتفاقات المعقودة بين الطرفين والتي سارع السوڤيات إلى تنفيذها دون إبطاء فإن كل

المبادرات الدبلوماسية سواءاً من خلال مجلس الأمن أو من خلال المبادرات المختلفة التي أطلقها الرئيس السادات لم تلق كل هذه المبادرات أي نتيجة وذلك لارتباط الموقف الأميركي بشكل متطابق مع الموقف الاسرائيلي.

تحركت الدبلوماسية الأميركية بشكل مكثف باتجاه منطقة الشرق الأوسط وتحديداً باتجاه أنور السادات حيث حسم اللقاء الأول بين كيسنجر ومساعده سيسكو مع أنور السادات مسار الحل المقبل لازمة المنطقة والقاضي بالحل الأميركي على حساب إخراج الاتحاد السوفياتي من الشرق الأوسط.

والواقع أن استراتيجية كيسنجر كانت واضحة تماماً. كان يستهدف أمرين متوازيين فقد كان يرى في المقام الأول أن الشرق الأوسط لا يزال المنطقة التي يحتمل أن تحدث فيها مواجهة بين القوى العظمى. وكان يرى أن أفضل سبيل لتجنب المخاطرة بذلك هو إخراج الروس من المنطقة مما يضمن بالتالي سلامة اسرائيل في المقام الثاني. وكان يعتقد أن أفضل سبيل لتحقيق هذا هو أن يضمن ألا تتورط اسرائيل في حروب أخرى مثل حرب أكتوبر.

وهكذا ذهب الروس إلى الحفل الختامي في جنيف (١١ نوفمبر ١٩٧٣) لتوقيع اتفاقية لم يؤدوا فيها دوراً على الاطلاق. كانت أسلحتهم هي التي جعلت المعركة ممكنة. وقد سُلب النصر العسكري من أصدقائهم، لكن على الرغم من هذا كان الجميع يتكلمون عن النفوذ السياسي الذي كان العرب في وضع يسمح لهم ممارسته. ومع ذلك ترك أصدقاء العرب وأعوانهم في العراء. ولا بد أن الروس وجدوا صعوبة فائقة في فهم حسابات العالم العربي التي أوصلت الأمور إلى هذا الحد. ومن المؤكد أن نغمة الرسالة الأولى التي أرسلها جروميكو إلى السادات بعد مؤتمر جنيف كانت مزيجاً من الغضب والاسترضاء. فقد قال في الواقع أنه لو أن العرب والروس حافظوا على تعاون وثيق فيما بينهم بعد الحرب، لجاء مؤتمر جنيف بنتائج أفضل بكثير لكل منهما. وقال أنه على أية حال لم يكن يريد تضييع الوقت في تبادل الاتهامات، لكنه كان يأمل بصدق أن يكون الدرس قد أفاد، وألا تتكرر الأخطاء التي حدثت في المناسبات القادمة .

نجحت الدبلوماسية الأميركية في مسك أوراق أزمة المنطقة منفردة بمعزل عن مشاركة السوفيات وذلك نتيجة لإعطاء السادات لهم مواقف ومواقع على الأرض أكثر مما كانوا يتوقعون. وهكذا نجح في الابتعاد بنفسه عن الجانب السوفياتي الخاسر كلما اقترب من الجانب الأميركي الرابح وكما قال لوفد من مجلس الشيوخ الأميركي: «لقد حققت ذاتي». وبدأت تبعاً لذلك المواقف المصرية تتصاعد في حرب غير معلنة على السوفيات في الشرق الأوسط:

٥ مايو ١٩٧٦: إعلان السادات عن إلغاء المعاهدة السوفياتية ـ المصرية.

٧ مايو ١٩٧٦: رسالة من القادة السوفيات للسادات مصاغة بلغة قاسية تتهم السادات باتخاذ خطوة من جانب واحد لم يكن لها ما يبررها على الإطلاق وإعادة توجيه السياسة الخارجية المصرية إلى حد التراجع عن سياسة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي. وهاجمت الرسالة اتفاقيات فض الاشتباك وتجاهل مصر للمساعدات العسكرية الضخمة التي قدمت قبل وخلال حرب أكتوبر وكذلك تأليب الرأي العام العربي من خلال وسائل الإعلام المصرية ضد الاتحاد السوفياتي.

بداية ١٩٧٧: نشرت جريدة البرافدا السوفياتية رداً على مذكرات أنور السادات والذي تناول فيها العلاقة المصرية ـ السوفياتية أن ما ورد فيها يقوم على أكاذيب وافتراء وتزييف لسياسة الاتحاد السوفياتي تجاه العرب وأعادت الجريدة عرض كل المواقف السوفياتية والتقديمات التي قدمتها القيادة السوفياتية لمصر خلال عهدي جمال عبد الناصر وأنور السادات.

لكن حتى هذا التبادل المرير للاتهام لم يكن نهاية القصة. ففي بداية يونيو ذهب اسماعيل فهمي إلى موسكو، بل إنه تمكن من لقاء بريجنيف الذي أخبره أنه يريد أن يوضح أمرين توضيحاً كاملاً. أولاً أنه كان يود أن يبدأ صفحة جديدة في العلاقات المصرية السوفياتية. كان الماضي قد انتهى، لكن الأمر كان متروكاً للمصريين لا للروس لكي يبادروا بالخطوة الأولى. وعندما تبدأ هذه الصفحة الجديدة فإنه ـ بريجنيف ـ سيراقب بحذر كل تطور. ثانياً: إن المصريين لا بد أن يدركوا أن ما فعلوه

كان مشيناً ويتعدى العلاقات العادية بين الدول.. فإذا كانت مصر أو أي بلد آخر في العالم تظن أنها تستطيع أن تعامل الاتحاد السوفياتي بازدراء ثم تتوقع أن يعود السوفيات إليها زاحفين، فإنها ترتكب خطأً فادحاً في الحقيقة وأن سلوك مصر قد أدى بالضرورة إلى مضاعفات في كل مكان في العالم.

وقال بريجنيف: «إننا نتعامل مع ١٢٠ حكومة ونمنح مساعدات لأكثر من نصفها.. فإذا ظنت أي من هذه البلدان بسبب السابقة المصرية أنها تستطيع أن تكيل علينا الإهانات يومياً وأن تلغي اتفاقياتها معنا من جانب واحد، وأن تنكث بعهدها فيما يتعلق بديونها، فإن كل سمعة الاتحاد السوفياتي ونفوذه سوف تنهار. ولن نسمح بذلك، ولهذا، فإن كل ما أستطيع أن أقوله هو ـ إذا كنتم تريدون بداية جديدة نحن على استعداد، لكننا سنراقبكم. وأضاف بريجنيف قوله أن أي تطور في العلاقات بين بلدينا سوف يكون عملية بطيئة لأن النزاع مع مصر أصبح الآن خارجاً عن أيدي اللجنة المركزية ـ وقد انتقل إلى كادرات الحزب.

تحقيق وتكهن(*)

عندما حل عام ١٩٧٥ كان الهجوم السوفياتي الكبير الذي بدأ في عام ١٩٥٥ قد استهلكت قواه. . وعلى امتداد عشرين عاماً كانت له نجاحاته واخفاقاته، كانت هناك لحظات شعر فيها أولئك الذين كانوا يرحبون به بالزهو، ولحظات شعر فيها أولئك الذين كانوا يرفضونه بالرعب. لكن الآن لم يعد هناك مجال لوجود رأيين ـ كان الهجوم في حالة انهيار كامل. وعندما انتهى هنري كيسنجر من مهمته كحكم وحيد في مصائر بلدان الشرق الأوسط، كان فصل واحد في قصة تلك البلدان وعلاقاتها بالاتحاد السوفياتي قد انتهى، وبدأ فصل جديد تماماً.

كانت أسباب هذا الانهيار المذهل عديدة. . ففي المقام الأول كان الهجوم قد بدأ أصلاً دون أية حسابات مسبقة من الجانبين سواء من جانب الروس أو من جانب العرب. فبعد عام ١٩٤٥ بشكل عام ظهر تصميمان للشرق الأوسط ينافسان أحدهما الآخر لملء الفراغ الذي خلفته السيطرة الاستعمارية القديمة لبريطانيا وفرنسا. من ناحية كان هناك تصميم برعاية الولايات المتحدة لنظام في الشرق الأوسط يغطي المنطقة ويواجه احتياجات استراتيجية الحرب الباردة الأميركية بنفس الطريقة التي أريد لحلف شمال الأطلنطي أن يواجه بها احتياجات أوروبا. أو تلك التي أريد لحلف جنوب آسيا الشرقي والتحالفات الثنائية الأخرى أن يواجه بها احتياجات آسيا. كان تصميماً يقوم على اعتبارات جغرافية محضة، كان على كل دول المنطقة أن تنضم إليه لمجرد أنها كانت موجودة فيه، بغض النظر عن مشاعرها تجاه روسيا أو الغرب، أو تجاه إحداها الأخرى. كان المخططون في واشنطن يتنبأون بمعقل في الشرق الأوسط ضد التوسع الروسي يقف فيه العرب وتركيا وايران، بل وحتى اسرائيل في صف واحد. ومن الناحية الأخرى كان هناك تصور عربي تدعو إليه القوى القومية المتصاعدة التي رفضت التصميم الأميركي، شأن عبد الناصر، يقوم لا على الجغرافيا ولكن على الحقائق التاريخية والمصالح الحقيقية لشعوب المنطقة. فإذا كان للعالم العربي عدو، فقد كان العدو اسرائيل، لا الاتحاد السوفياتي، ويمكننا رؤية الصراع في الشرق الأوسط فيما بعد ١٩٤٥ في شكل صراع بين التصور العربي للشرق الأوسط والتصور الغربي للمنطقة ذاتها. لكن الزعماء القوميين حينما أداروا ظهورهم لكل خطوط الأحلاف

(*) المصدر السابق.

والتحالفات فقد كانوا يرون فيها مجرد الاستعمار القديم في زي جديد وأدركوا أنهم لن يستطيعوا الوقوف وحدهم.

كانوا بحاجة إلى حلفاء.. وكان الاتجاه الطبيعي بالنسبة لهم أن يتطلعوا إلى الاتحاد السوفياتي. لم يكن هذا لمجرد أن الاتحاد السوفياتي كان بريئاً من أي ماض استعماري في المنطقة، ولكن لأن أي نظام جديد مستقل، لكي يحقق أي قدر من المعقولية، كان عليه أن يكون قوياً. وكان هذا يعني العثور على مصدر جديد للأسلحة يحل محل الامدادات الشحيحة والمشروطة التي تأتي من الغرب وكان من الممكن أن يكون الاتحاد السوفياتي ذلك المصدر الجديد.

ولهذا اتجه العرب إلى الاتحاد السوفياتي طلباً للأسلحة ووافق السوفيات على امدادهم بها.. ولا بد أن المزايا الفورية لهذا التطور كانت تبدو واضحة في موسكو. فقد أوقف إقامة الحائط العدائي الذي كان يبنى على حدود روسيا الجنوبية، ودمر فعالية أداة الغرب الرئيسية في المنطقة وهي حلف بغداد. ولكن على الرغم من أن السوفيات استجابوا للمطالب بابتهاج إلا أنهم فعلوا ذلك دون أن يجعلوا منه أساساً لاستراتيجية واضحة بعيدة المدى. فقد تشبثوا بفرصة أتيحت لهم دون أن يكون لديهم الوقت أو القدرة على تدبر المعنى الكبير الذي كان ينطوي عليه هذا العمل.

كيف كان في إمكان الاتحاد السوفياتي أن يحدد أهدافه وهو ينتقل إلى هذه الشركة الجديدة مع العرب، هل كان هدفه الأول أن يبحث عن موقع يمكنه أن يساوم منه مع الغرب؟

الواقع أن كل التفكير الروسي في منتصف الخمسينات من القرن العشرين يسيطر عليه، في نهاية الأمر مشكلة العلاقات مع أميركا. كان الروس يودون أن يتمكنوا من التفاوض مع الغرب.. لكن يخشون عدوهم الرئيسي ويتشككون فيه. وفي لعبة الشطرنج العالمية التي كانوا يلعبونها في ذلك الوقت كانت أوروبا تشغل منتصف الرقعة ومعظم القطع الرئيسية الأخرى في آسيا.. لكن الشرق الأوسط ربما يستحق على الأقل بضعة بيادق. وكان الهدف الذي يسعون إليه على الدوام هو تحقيق التكافؤ مع الولايات المتحدة ـ أن تعترف بقية العالم بهم بصفتهم نداً عسكرياً وسياسياً لأميركا. إلا يجوز أن يوفر لهم حلولهم محل الغرب في الشرق الأوسط الدليل المقنع على أنهم قد حققوا هذا التكافؤ؟

هل كان الهدف الحقيقي للروس هو تحويل المنطقة إلى الشيوعية؟ هل ظنوا أن ذلك سوف يجعل موارد الشرق الأوسط متاحة لهم؟ لقد كانت المنطقة على الدوام منطقة مغرية لتوسع المصالح الروسية، والآن بمواردها البترولية الهائلة، وبتوفيرها فرصة الوصول إلى طرق العالم البحرية، كانت إغراءات الشرق الأوسط أعظم من ذي قبل.

لكن ما إن أدرجت هذه الأهداف المحتملة في القائمة حتى طرحت الشكوك والمخاطر نفسها. كان الروس يدركون أن العرب على الرغم من رفضهم العنيف لتسلط الغرب السياسي سواء كان في ثوب قديم أو جديد، كانوا لا يزالون مرتبطين بالغرب بروابط اللغة والثقافة. وكان في إمكان الاتحاد السوفياتي أن يكون بديلاً للغرب، وربما كان بديلاً فقيراً في هذا الشأن. ولم يكن الروس قادرين حقاً أن يتوقعوا في أعماقهم أن يعتنق الشرق الأوسط بسرعة حقائق الشيوعية التي تكشف عن نفسها. ربما كانت هناك لحظات بدت فيها احتمالات «هداية» زعيم ما احتمالات محفوفة بالرجاء لكن كانت هناك دائماً عقبات نكدة تتمثل في القومية والدين والثقافة والعادات، وما إلى ذلك. أما فيما يتعلق بالإغراءات الاقتصادية والاستراتيجية للمنطقة، فإن هذه بمثابة فخ وطعم في آن واحد. وكان الروس يدركون أن أي تهديد حقيقي لإمدادات نفط الشرق الأوسط كان من الممكن أن يدفع الغرب بما في ذلك أميركا إلى الحرب. صحيح أنهم كانوا ينوون تصعيد منافستهم مع أميركا في كل مجال وفي كل منطقة، لكنهم كانوا يريدون في نفس الوقت أن تتحكم حقائق السياسة سواء في الحرب الباردة أو في الوفاق في هذه المنافسة. ولهذا ظل الاتحاد السوفياتي غير متحقق مما كان يحاول أن يفعله على وجه الدقة في الشرق الأوسط. كانت الشكوك والترددات تحيط آماله.

فشل الروس في تحديد أهدافهم بوضوح، لكن فشلهم ذهب إلى أبعد من ذلك.. وبطبيعة الحال ضلت قوى عظمى أخرى طريقها ضلالاً أشد تعاسة في تعاملها مع ما يسمى الآن بالعالم الثالث. وكان ذلك أكثر وضوحاً في لحظات النزع الأخير للأمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في العالم العربي وأفريقيا والتورط الأميركي في جنوب شرقي آسيا. لكن هذه الأساليب لم يمل إليها الروس إطلاقاً أو حتى فكروا فيها. فلم يكن الروس يحاولون أن يتشبثوا بشيء بال أو أن يكبحوا جماح شيء يتعذر كبحه، كانوا يحاولون أن يتلاءموا مع شعوب وظروف كانت تبدو في حاجة

إليهم. كانوا يقفون فيما يبدو على عتبة فرصة تاريخية كبرى، لكن الفرصة أفلتت. لماذا؟ هذا هو السؤال الذي يجب عليهم وعلينا أن نجد إجابة عليه.

في المقام الأول، وكما ظهر من خلال الفصول السابقة، عجز الروس عن فهم الدور المؤثر للقومية العربية في العالم العربي. فلم يتمكنوا من تقدير أن هذه الأمم كانت لا تزال في طور التشكيل ولا تزال في حالة صراع شديد فقط مع القوى الامبريالية التي خضعت لها لفترة طويلة، وأن هذا الاعتبار كان يفرض تأجيل حل الكثير من المشاكل الاجتماعية التي أولاها الاتحاد السوفياتي الأسبقية. ولم يكن الروس سعداء عندما رأوا أن زعماء حركات الاستقلال الوطني في العالم العربي قد جاءوا جميعاً من الطبقة الوسطى. وأن هذه الطبقة في الحقيقة هي التي لا تزال تلعب دوراً أساسياً في مثل هذه الحركات. . ولم يملكوا إلا أن يلاحظوا أن هؤلاء الزعماء الوطنيين الذين جاءوا من الطبقة الوسطى، كانوا قادرين على إجراء حوار مع نظرائهم في الغرب الذين كانت تربطهم بهم وشائج مشتركة ثقافياً، ولغوياً سواء اتفقوا معها أو اختلفوا بعنف. فقد كان البحر الأبيض بالنسبة لشعوب أوروبا الغربية وشمال أفريقيا والشرق الأوسط جسراً وحاجزاً في نفس الوقت. وربما أثبتت النزاعات الحالية أنها ليست أكثر من فاصل في شركة طويلة وباقية.

ثم كانت هناك التناقضات المتأصلة في مواقف الاتحاد السوفياتي ذاتها من العالم الخارجي. فقد فرض عليه أن يتكلم وأن يتصرف على مستويين كمعقل للثورة العالمية وكقوة عظمى عندما كانوا يتكلمون باعتبارهم مهد الثورة. كان السوفيات يعاملون القوة الأصغر مثل كوبا أو مصر على أساس من المساواة. وهم يشجعون ذلك ويقولون أنه ينبغي علينا أن نناقش أمورنا كأنداد. ولكن إذا حاول بلد صديق أن يجادلهم في الوقت الذي يؤدي فيه السوفيات دورهم بصفتهم دولة عظمى فإن هذا لا يرضيهم. إنهم يبذلون النصح كند لند، ولكنهم يتوقعون الإصغاء إليهم عندما يبذلون النصح بصفتهم قوة عظمى.

كانت الصرامة الشديدة للمؤسسات السوفياتية حجر عثرة أخرى، ربما كان الحزب الشيوعي قد ترك تأثيراً عميقاً على روسيا الأم، لكن روسيا الأم قد تركت هي الأخرى تأثيراً عميقاً على الشيوعية السوفياتية، فالبيروقراطية والحزب في الاتحاد السوفياتي هما إعادة تناسخ للبيروقراطية القيصرية والكنيسة الأرثوذكسية، حيث

السلطة تنتشر من المركز حتى تصل إلى قسيس الأبرشية أو موظف الحزب. لكن في بلدان العالم العربي التي حصلت على استقلالها حديثاً كان هناك عادة رجل واحد: سادات، أو بومدين، أو أسد، تتركز في يديه سلطة اتخاذ القرارات، وهؤلاء الرجال يتوقعون من أصدقائهم ومساعديهم في الاتحاد السوفياتي نفس السرعة التي يمارسون بها اتخاذ القرار في بلادهم ذاتها، وعندما يواجهون بدلاً من ذلك بيروقراطية تحتاج عجلاتها إلى «تشحيم» فإنهم يصابون بخيبة الأمل.

وليست البيروقراطية السوفياتية وحدها بطيئة، لكن الرجال في القمة، كانوا أيضاً يعطون الانطباع بتجمد الحركة - أو ما أسماه ذات مرة أحد الزعماء العرب الذي كانت له معاملات كثيرة معهم «بالعقلية السيبيرية». فإذا أقام أحد زعماء من العالم الثالث علاقات مع نيكسون مثلاً، ثم فسدت فهناك دائماً احتمال أن يجد وجهاً جديداً في البيت الأبيض في خلال سنتين أو ثلاث سنوات، في حين أنه لو ساءت علاقاته برجال الكرملين فإن مصيره قد تقرر إلى الأبد. وكل وجه جديد في البيت الأبيض يعني فريقاً جديداً كاملاً من صانعي القرارات، يستمد من بين أفضل العقليات المتاحة في عالم الأعمال والجامعات والقانون، وحيثما توجد موهبة. ولكن في حين أن عبد الناصر تعامل بالدور مع ترومان، وايزنهاور وكنيدي، وجونسون ونيكسون وفرقهم، والسادات مع نيكسون وكيسنجر وفورد وكارتر وفانس، فعلى امتداد ٢٥ عاماً فيما بينهما تعاملا في موسكو مع خروتشوف وبريجنيف، ومع نفس «الجروميكو»، وهم يعودون عاماً بعد عام، لكي يحاضروهم بنفس الطريقة وبنفس الكلمات تقريباً.

الفصل السابع

اليهود والسوفيات

- مقـدمـة
- الدور والمهام والهدف

مقدمة :

عمدت المجتمعات الأوروبية إلى طرد اليهود من أراضيها مع بداية القرن الرابع عشر نتيجة للجشع والرباء والاستغلال ومحاولة التحكم الذي مارسته الجاليات اليهودية أينما وطأت. طرد اليهود من فرنسا عام ١٣٠٦ ثم عام ١٣٤٨م، ومن هنغاريا عام ١٣٦٠ م و ١٥٠٠ م ومن بلجيكا عام ١٣٧٠ وسلوفاكيا عام ١٣٨٠ م، ومن النمسا عام ١٤٢٠ وهولندا عام ١٤٤٤ م ومن إسبانيا عام ١٤٩٢ وليتوانيا عام ١٧٤٤ م ومن كل هذه الدول كانت أسباب الطرد ونبذهم واحدة.

إفساد المجتمع، الرباء، الاستغلال، التآمر ومحاولة السيطرة الاقتصادية على هذه المجتمعات.

استقر اليهود بعد عمليات الطرد الجماعية هذه والمتتالية في أوروبا الشرقية حيث فرض عليهم العيش في كانتونات معينة محرم تجاوزهاوذلك بموجب قوانين حكومية حددت إقامتهم لكي لا يفسدوا المجتمعات المحيطة بهم، واستقروا على الحدود الغربية الروسية من سواحل البحر البلطيكي في الشمال حتى ساحل البحر الأسود في الجنوب.

نبذ المجتمعات الأوربية لهم، خلق عندهم ردة فعل سلبية وشرسة تجلت في خلق عالمهم الخاص عبر إنشاء عدة جمعيات وهيئات هدفت إلى:

١ ـ القضاء على جميع الحكومات الشرعية.
٢ ـ إلغاء الإرث كخطوة أولى نحو تفكيك الرابط العائلي
٣ ـ إلغاء الملكية الخاصة بصورة مطلقة.
٤ ـ إبادة المشاعر الوطنية والقومية والإنسانية.
٥ ـ إخضاع الإنسانية عبر إلغاء أو إبادة كل الأديان السماوية للاستعباد

المطلق والطغيان الأبدي تحت وطأة الدكتاتورية الشاملة لمحفل حكماء صهيون.

تراكمت أحقاد اليهود داخل أسوار أحياء الغيتو... وترعرع الظمأ إلى الانتقام في كل بيت يهودي.

حملة نابليون بونابرت (١٨١٢) على روسيا جعلت القيصر الروسي اسكندر الأول يصدر عدة قوانين هدفت أولاً إلى حماية الجبهة الداخلية وتماسك الشعب لمواجهة آثار الحملة فألغى العديد من القوانين التي حددت سابقاً إقامة اليهود في أماكن معينة وجعلهم بالتالي ينخرطون ضمن المجتمع الروسي والعمل تحديداً في حقل الزراعة لتعويض خسائر الحرب.

خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ روسيا برزت مجموعة اليهود اللوبافتش كمحرك أساسي ليهود روسيا. فمن هم هؤلاء؟(*)

تعتبر مجموعة اليهود اللوبافتش اليوم من المجموعات الحسيدية المهمة. وتأتي أهميتها من كثرة عدد أفرادها وسعة نشاطاتها وحجم تأثرها في عالم اليهود. وسميت هذه المجموعة ـ كأكثر المجموعات الحسيدية الأخرى ـ باسم المدينة التي ارتبط تاريخها بها وهي مدينة لوبافتش (Lubavitch) التي تقع شمال روسيا والتي سكنها وعاش فيها بعض زعماء هذه المجموعة. وكان المؤسس لهذه المجموعة والزعيم الأكبر لها الصديق شينور زلمان بن باروخ.

ولد شينور زلمان في مدينة ليوزنو (Liozno) في روسيا البيضاء عام ١٨٤٥. وكان أبوه حسيدياً من أتباع بعل شم طوب (مؤسس الحركة الحسيدية) يعمل في جماعة سرية من الحسيديم يسمون نستاريم (متخفين) إذ كانت الحركة الحسيدية في بداية نشأتها محاربة من بقية اليهود، خصوصاً الأرثوذكس، الأمر الذي اضطر أتباعها إلى العمل في الخفاء والسر.

ويروي اللوبافتش أن بعل شم طوب نفسه هو الذي بارك شينور زلمان عند ولادته وتنبأ له كذلك بمستقبل عظيم. وهم يروون كذلك أن مؤسس حركتهم كان متميزاً منذ طفولته وخص بروح جديدة «لم تنزل الأرض سابقاً (!)

(*) المصدر: بحث للأستاذ الجامعي جعفر هادي حسن: جريدة الحياة.

ولم تعرف جسماً آخر (هذه الرواية تتفق مع فكرة اليهود الحسيديم في تناسخ الأرواح). وكان يتمتع بذاكرة حادة لا يسمع شيئاً إلا حفظه وتذكره. وبدأ يتكلم وهو بعد في الثانية. وحفظ الكثير من المزامير وهو لا زال في الثالثة. وأعطى درساً في التلمود وهو في الثالثة عشرة من عمره إذ اعتبر عالماً بالتلمود في هذا العمر». ويذكر مؤرخو حياته أنه كان شغوفاً بالدراسة الدينية متعلقاً بها منذ الصغر لا يكل منها ولا يمل. وتحدث هو عن هذا الشغف فقال «عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري درست لوحدي في أكثر الأوقات وخصصت ثماني عشرة ساعة في اليوم للدراسة. وخلال ثلاث سنوات خصصت ثلثي الوقت خلال أيام الأسبوع لدراسة التلمود وما يتعلق به. وخصصت الوقت الباقي لدراسة التوراة وكتب القبالة».

ودرس قبل أن يبلغ الثالثة عشرة على يد حاخام مدينة لوبافتش الذي قال لوالده بأن ابنه قد أصبح أعلم من أستاذه. وتزوج شينور زلمان عندما كان في الخامسة عشرة. وفي العشرين رأى أنه بحاجة إلى المزيد من الدراسة، فقرر الرحيل إلى مدينة ميسيريتش حيث مقر خليفة بعل شم الذي يعرف بالمغيد (الواعظ). ولم يخف الأستاذ إعجابه بتلميذه فقال عنه «إنه معجزة المعجزات إذ تسكن جسمه الضعيف قوة روحية هائلة»(!) وقال عنه أنه سيصبح عالماً دينياً لكل روسيا وستستمع إليه جموع كثيرة. ودرس ثلاث سنوات على يد الأستاذ المذكور. وطلب منه أن يؤلف كتاباً في الفقه اليهودي وألف الكتاب وأسماه «شلحان عاروخ». وسمي الكتاب في ما بعد «شلحان عاروخ الصديق» تفريقاً له وتمييزاً عن كتاب آخر بالعنوان نفسه. وهو كتاب مشهور في الفقه اليهودي العملي، ألفه الفقيه اليهودي الحاخام جوزف كارو (توفي عام ١٥٧٥).

وبعد وفاة أستاذه عام ١٧٧٣ أنشأ الكثير من طلابه مراكز خاصة بهم والتفت حول كل واحد منهم مجموعة من الحسيديم. أما شينور زلمان فلم يؤسس مركزاً خاصاً به بل اعتزل الناس وانكب على الدراسة والعبادة.

وأصدر زعيم اليهود المعارضين للحسيديم في هذه الفترة ـ الغاؤون الياهو ـ قراراً (حرم) يطرد به الحسيديم من اليهودية. وأصبح الحسيديم

مطاردين في كل مدينة من مدن بولندا وروسيا وعرضة للهجوم من معارضيهم. وكان أحد زعماء الحسيديم واسمه مناحيم مندل قد هاجر إلى فلسطين، ربما بسبب ذلك أصبحت المجموعة الحسيدية من دون زعيم يتولى شؤونها ويدافع عنها. فأرسل مناحيم مندل من فلسطين رسالة إلى شينور زلمان يطلب فيها منه أن يتزعم الحركة الحسيدية. وكذلك طلب من أتباعه أن يلتفوا حوله ويساندوه. وقال في رسالته لهم «قدسوه (شينور زلمان) وقدروه فقد سعى كثيراً من أجل أن تسمع كلمة الله الحي وقد عيناه معلماً للصلاح في البلد حتى لا تكون جماعة الرب غنماً بلا راع. وهو كزعيم وراع لا يقارن به أحد».

وحاول شينور زلمان أن يخفف من حدة هجوم المعارضين وذلك بزيارته لبعض زعمائهم. وحاول مقابلة الغاؤون الياهو الزعيم الأكبر لهم ولكن الأخير رفض المقابلة. وعندما أصدر شينور كتابه «تانيا» حرّف اليهود المعارضون بعض المقاطع وقدموه إلى الغاؤون فاعتبره هرطقة وكفراً. وطلب شينور مناقشته ومناظرته أمام الملأ ولكن الغاؤون رفض ذلك. وقال إنه لا يناظر الهراطقة والكافرين. وتآمر المعارضون عليه عند الحكومة الروسية حيث اتهموه أمامها بعدة تهم، فأمرت الحكومة بسجنه مع مجموعة من أتباعه فأخذ إلى العاصمة الروسية عام ١٧٩٨. ومن التهم التي وجهت إليه أنه يتزعم فرقة دينية مضرة غيرت طريقة العبادة عند اليهود ونشرت آراء دينية كاذبة وجمعت الأموال وأرسلتها إلى فلسطين لصرفها على أمور غير معروفة. وكتب شينور زلمان رداً على التهم وأرسله إلى قيصر روسيا بولس الأول. وبعد فترة قصيرة من كتابة رده أخلي سبيله. وصادف ذلك في اليوم التاسع من الشهر العبري كسلو. وأصبح هذا اليوم عيداً من أعياد مجموعة اللوبافتش يحتفلون به ويتذكرونه.

وتآمر اليهود المعارضون على زلمان مرة أخرى ووشوا به إلى الحكومة الروسية، وعلى رأس هؤلاء الواشين حاخام يهودي أرثوذكسي. وأرفق بتهمته وثائق عدة قدمها إلى الحكومة. فقبض على زلمان مرة أخرى واستمر التحقيق معه لفترة غير قصيرة ثم أطلق سراحه عام ١٨٠١ من جانب القيصر الجديد لروسيا الكسندر الذي جاء إلى الحكم بعد اغتيال بولس الأول.

وعندما قامت الحرب بين نابليون والروس عام ١٨١٢ انقسم حاخامو اليهود على أنفسهم. فمنهم من أيد الروس وعارض نابليون واعتبره رمزاً للهرطقة واللاإدرية، ومنهم من أيد نابليون واعتبره محرراً لليهود.

وكان شينور زلمان من المعارضين لنابليون. ويقول عن سبب تأييده للروس أنه قد كشف في الصلاة أن نابليون إذا انتصر فسيكون هناك انتعاش مادي لليهود ومنافع سياسية ولكن قلوبهم تكون رافضة لله بعيدة عنه. وإذا انتصر القيصر فإن اليهود سيكونون أكثر قرباً إلى الله وإن عانوا فقراً مادياً.

وتأكيداً على مساندته العملية للروس أمر أتباعه بمساعدة الجيش الروسي بما يملكون وبكل وسيلة. وطلب منهم أن يتجسسوا لحساب الجيش الروسي. فعمل منهم من كان يجيد اللغة الفرنسية في القيادة العليا للجيش الفرنسي وأرسلوا معلومات سرية عن طريق الحسيديم في الجيش الروسي.

وعندما اندحر الروس أمام نابليون أحرق زلمان بيته وهرب مع عائلته ومجموعة من أتباعه إلى قرية صغيرة اسمها«بينا» قرب مدينة كورس حيث توفي عام ١٨١٣.

بيد أن الأمور اختلفت مع صعود نيقولا الأول إلى العرش (١٨٢٥) حيث وجد القيصر الجديد أن اليهود انكبوا على التغلغل السريع في كافة مجالات الاقتصاد الرسمي عبر الرأسمال المالي الضخم الذي زج فيه ضمن هذا المجال مبتعدين عن العمل الزراعي، وكذلك حرص اليهود على الاحتفاظ بهويتهم الخاصة الثقافية والحضارية وبلغتهم وبزيهم الخاصين والحرص على البقاء كأقلية منعزلة في قلب المجتمع الروسي، وسن القيصر الجديد لذلك عدة قرارات أهمها إلزام اليهود بتدريس أولادهم في المدارس العامة لفك عقدة الاضطهاد الديني المزعومة لديهم وكذلك للإسراع بدمجهم ضمن المجتمع.

لكن المفاجأة كانت في اقتصار تلاميذ هذه المدارس بأكثريتهم على اليهود حيث نسبة التلاميذ الروس كانت متدنية.

وهكذا أصبح العنصر اليهودي يحتل المقام الأول من الناحية الثقافية دون التخلي عن عنصريته وانعزاله وقوميته!

خلف القيصر اسكندر الثاني (١٨٥٥م) نيقولا الأول واتسمت سياسة القيصر

الجديد بالانفتاح على كل الطبقات الاجتماعية الروسية وأولى اهتماماً خاصاً لتحسين أوضاع الفقراء والمحتاجين ووصف بأنه «خير من تولى عرش روسيا». فتح القيصر الجديد الأبواب لتبوأ المناصب لكل حملة الشهادات وخريجي الجامعات من الروس بغض النظر عن دينهم والمقصود هنا ـ اليهود ـ.

خشي زعماء اليهود من التسامح المفرط للقيصر الجديد إزاءهم لتحسين أوضاعهم ونبذ احتقار المجتمع لهم ومعاملتهم كالروس على قدم ومساواة كل ذلك خوفاً على اندماجهم الكامل ضمن المجتمع الروسي وذوبان شخصيتهم المستقلة الثقافية والحضارية والتعصبية ولذلك عمدوا إلى استدراجه إلى بيت غانية يهودية اسمها (هسيا هلفمان) حيث تمكنوا من اغتياله عام ١٨٨١ بعد فشل محاولتين سابقتين.

عقب اغتيال القيصر ردات فعل عنيفة ضد اليهود حيث ارتكبت العديد من أعمال العنف الانتقامية ضدهم.

دشن القيصر الجديد اسكندر الثالث سياسته بإصدار (قوانين مايو) والتي حوت على أحكام وأنظمة قاسية بحق العنصر اليهودي لم تهدف هذه القوانين فقط إلى الانتقام لمقتل القيصر اسكندر الثاني بل هدفت أيضاً، إلى الحد من التفاف الأخطبوط اليهودي على الاقتصاد الروسي لمنع انهيار الاقتصادي القومي والحياة الاجتماعية بسبب الوسائل غير المشروعة التي يستخدمها التجار والمرابون اليهود.

واجه زعماء اليهود هذ القوانين والإجراءات الروسية ضدهم بالمزيد من الضغط على الاقتصاد الروسي حيث استطاعوا نتيجة نفوذهم المالي المتشعب من فرض الحظر على كل منتجات روسيا ومبادلاتها (١٩٠٥) وتغذية كل الحركات الفوضوية والإرهابية في البلد لزرع الفوضى والاضطرابات وبث روح الأحقاد وتفتيت المجتمع.

عمدت الحركات الإرهابية واليهودية إلى اغتيال العديد من الوزراء وحكام المقاطعات ومنهم وزير التعليم الروسي عام ١٩٠١ (بوغولبيوف) لدوره في سن قوانين (مايو) وكذلك وزير الداخلية (دسبياغين) واغتيال حاكم مقاطعة أوقا يوغداتونيتش عام ١٩٠٣ ورئيس وزراء روسيا فيتشيليف غون بلهيف عام ١٩٠٤ واغتيال الأمير غراندوق (سرجيوس) عم القيصر والجنرال دويراسوف ١٩٠٦ ورئيس الوزراء ستوليبين رجل الإصلاح عام ١٩١١ من قبل محام يهودي اسمه مرداحي يوغووف.

ألقى القيصر اسكندر الثالث تبعة كل هذه الاضطرابات والاغتيالات والأزمة الاقتصادية على عاتق الزعماء والمرابين اليهود الذين عمدوا والحركات السياسية والعقائدية التي ظهرت في خضم هذه المشاكل الاقتصادية إلى توجيه اهتماماتها نحو التخلص من القيصر ذاته فكلفت لذلك أحد اليهود وكان خياطاً ويدعى (إيفنو آزيف) بالتعاون مع اسكندر أوليانوف (شقيق لينين) وغيشون محاولة اغتيال القيصر، إلا أن المحاولة فشلت فألقي القبض على أوليانوف وتم إعدامه.

مع انتصار الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وسقوط حكم القيصر تشير مصادر أجنبية(*) إلى الدور البارز الذي لعبه اليهود في انتصار هذه الثورة عبر قيام الحركة اليهودية بسلسلة المجازر التي سبقت سقوط القيصر متهمة عسكره بارتكابها لتأجيج الرأي العام الروسي ومنها مجازر ١٩٠٥ و١٩١٧ والذي سقط فيها آلاف القتلى والجرحى. عدا عن تقنينهم للمواد الغذائية لمدن موسكو وبطرسبرغ للوصول إلى حالة المجاعة والتي كانت شرارة انطلاق الثورة ونجاحها.

وتعزز هذه المصادر معلوماتها بالإشارة إلى أن كل أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي الذي حكم روسيا بعد انتصار الثورة قبل إزاحتهم جميعاً من قبل ستالين بعد وفاة لينين وهم: لينين وزينوفييف وكامينييف وتروتسكي وتومسكي وستالين.. هم جميعاً من اليهود باستثناء لينين وستالين لكن زوجاتهما كانتا يهوديتان فضلاً عن أن كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) منظر الشيوعية العالمية وفيلسوفها ولد يهودياً (نسبة إلى والده) قبل اعتناقه للمسيحية.

(*) المصدر: وليم كار، كتاب: اليهود صناع الجريمة.

الدور والمهام والهدف

لقد كتب الكثير عن نشاط اليهود في الاتحاد السوفياتي، ولا سيما منهم من يرتبط بـ «الوكالة اليهودية» العالمية، في الصحف والمجلات العربية والأجنبية، لكن ما يمكن مشاهدته أو معرفته ميدانياً و«عينياً» في الاتحاد السوفياتي نفسه هو أكثر بكثير، لا بل يفوق التصور الذي يمكن أن يراود صحافياً أو أي متتبع أو مهتم بهذا الشأن؛ ذلك أن ما تشهده الساحة السوفياتية اليوم ـ علناً ـ ومن قبل ـ في الخفاء ـ يستحق المتابعة . . والتخوف من جسم هو ليس كالأجسام، وعقل هو ليس كالعقول، حافظ على خصوصياته، وأهدافه في ظل النظام الشيوعي «الضابط الكل»، وزاد من نفوذه وتغلغله في المجتمع مع بروز «البريسترويكا» و«الغلاسنوست»؛

صدق أو لا تصدق: إن الاتحاد السوفياتي يرزح اليوم تحت قبضة أقل ما يقال فيها أنها حديدية، في أدّق مرحلة يمر فيها الاتحاد السوفياتي وأخطر المشاكل التي يعاني منها أكان على المستوى السياسي أم الاقتصادي.

وإذا كانت الأديان أو الأعراق أو الاتنيات، وما أكثرها في الاتحاد، سارعت إلى المطالبة بـ«بحقوقها» بعد إطلاق «البريسترويكا»، فإن اليهود هم أول من طالب وسعى إلى مثل هذه «الحقوق» ولا سيما منها الهجرة إلى «وطنهم» المزعوم اسرائيل، ذلك أنهم سبقوا الجميع في هذه المطالبة وسعوا من أجل تحقيق مطالبهم قبل غيرهم بسنين.

وإذا كان نشاط اليهود الصهاينة في الاتحاد غامضاً أو سرياً إلى حد كبير، على رغم الظروف السياسية المستجدة، فإن من السهل اكتشاف جوانب كثيرة من تحركاتهم أو أهدافهم في هذه التظاهرة أو تلك، أو هذا المقال أو ذاك، حيث تبرز بصماتهم في السطور أو «ما وراءها»، الأمر الذي بدأ يخلق نفوراً لدى الكثير من الأوساط الشعبية السوفياتية ويؤدي بها إلى حد تنظيم تكتلات أو تجمعات سياسية مهمتها مناهضة الصهاينة في الاتحاد السوفياتي، أو الدعوة أحياناً كثيرة إلى رحيلهم من الاتحاد.

ما هو دور اليهود السوفيات في الاتحاد السوفياتي؟ في مواقع القرار، في الإعلام، والاقتصاد والمجتمع السوفياتي؟

مناخ البريسترويكا

إذا كانت «البريسترويكا» أو العلانية وإشاعة الديمقراطية قد خلقت مناخاً جديداً في الحياة السياسية في الاتحاد السوفياتي أفاد منه الأقليات في توسيع نشاطهم الاجتماعي والسياسي، فإن اليهود السوفيات لم يشكلوا استثناء على ذلك، بل على العكس فقد ازداد نشاطهم، بصورة أكيدة، وإن كان ذلك بطريقة غير علنية.

والواقع أن اليهود الصهاينة في الاتحاد استغلوا ظروف العلنية والديمقراطية، وشنوا حملة عنيفة اتهموا فيها كل معاد للصهيونية بـ«الشوفينية» و«العداء للسامية»، وبالتحضير لمجازر ضد اليهود؛ ذلك أن نتائج المرحلة الأولى من «إعادة البناء» انعكست بشكل واضح على الحياة السوفياتية الداخلية، فتزايد نشاط المنظمات الاجتماعية القديمة، وجرى تشكيل عدة تجمعات كـ«الذاكرة» المعادية للصهيونية و«ضد الذاكرة» و«الثقة» وغيرها، فانتعشت تحت مظلة هذه الشعارات نشاطات الصهاينة بشكل خاص، وخصوصاً خلف الكواليس.

نشاط من الخارج

ولم يكتف الصهاينة بالظروف التي سمحت لهم بإضفاء «الشرعية» على نشاطهم السري في الداخل، بل تكثّف نشاطهم من الخارج والموجه إلى الاتحاد، فخلال ١٩٨٧ وصل إلى موسكو زعيما الصهيونية العالمية رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ادغار برونغمان ورئيس المؤتمر الوطني الأميركي «للدفاع عن اليهود السوفيات» ابراهام موريس، حيث طرحا «مطالب الصهاينة أمام الدولة السوفياتية»، وأبرزها السماح بدراسة اللغة العبرية بشكل علني.

ووصل ضغط النفوذ الصهيوني في الاتحاد إلى درجة أن وسائل الإعلام السوفياتية باتت تتردد أو تحجم عن نشر المقالات التي تهاجم الصهيونية، وثمة حديث يدور عن وجوب «التبرؤ» من كل ما كتب سابقاً ضد الصهيونية.

ظهور إلى العلن

ومع تحول النشاط الصهيوني من الخفاء إلى العلن (نسبياً)، بدأ تأسيس مراكز ثقافية وجمعيات لليهود الصهاينة في معظم المدن التي يتواجدون فيها، وأصبحت هذه

الجمعيات تصدر صحفاً ومنشورات تنطق باسمها. كما سمح لهم بفتح مدارس خاصة لهم تقتصر على تدريس اللغة العبرية والديانة اليهودية و«التاريخ» اليهودي، ومراكز لتعليم «القوانين الاسرائيلية» و ١٦ ارسالية تابعة لـ«الوكالة اليهودية»، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ٢٠٠ مركز ثقافي يهودي أبرزها مركز «سولومون ميخايلس الثقافي ـ التنويري اليهودي» الذي افتتح في موسكو في ١٢ شباط ١٩٨٩ بالاشتراك مع «المنظمة الصهيونية العالمية» و«المؤتمر اليهودي العالمي» و«الوكالة اليهودية الاسرائيلية».

وقد اعتبر الصهاينة افتتاح هذا المركز مؤشراً على «إعادة انبعاث الثقافة اليهودية في الاتحاد السوفياتي»، واعتبر اسحق شامير ذلك «علامة من علامات التطور في الاتحاد». وقد وصف رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ادغار برونغمان «البريسترويكا» بـ«الإنجاز الذي يثبت أنها مؤهلة لأن تجلب الخير للطائفة اليهودية السوفياتية»، ونوه بالرد السوفياتي «الايجابي» على «مطالبنا». فلقد «حصل تزايد حاد ومستمر في أعداد اليهود الذين سمح لهم بالهجرة، كما تقلصت بحدة القائمة الطويلة للممنوعين من الهجرة، وأفرج عن «سجناء صهيون». واعتبر ذلك «ظرفاً مؤاتياً»، بحيث يجب على يهود «اسرائيل» ويهود العالم أجمع استغلاله، الآن وفوراً، نظراً لأن لا أحد يستطيع التكهن ما إذا كان هذا المجال سيظل مفتوحاً طويلاً أمامنا أم لا»؟

وفي آب ١٩٨٩ اتخذ النشاط الصهيوني العلني طابعاً أكثر وضوحاً، فتم تأسيس منظمة «اتحاد الصهاينة» التي وصفت بأنها منظمة «سياسية واجتماعية». ومن أهدافها المعلنة:

- «ترويج الثقافة اليهودية الاسرائيلية».
- نشر الأيديولوجية الصهيونية الدينية.
- إقامة علاقات وثيقة وثابتة بين اليهود والسوفيات و«اسرائيل».

وعلى الأثر قام عدد من الصحفيين والكتاب السوفيات بعقد ندوة في موسكو ضمت صحفيين عرباً، أبدى فيها الحضور احتجاجهم على تشكيل منظمة «اتحاد الصهاينة»، واعتبروا أن برنامج هذا «الاتحاد» ينص على «صهينة» اليهود السوفيات.

مؤتمر المنظمات والهيئات اليهودية

وفي كانون الأول (١٨ ـ ٢٢) ١٩٨٩ عقد في موسكو مؤتمر المنظمات والهيئات اليهودية الصهيونية في الاتحاد السوفياتي؛ وشارك فيه ٤١٤ مندوباً يمثلون ١٩٨ منظمة

وهيئة من ٧٣ مدينة، كما حضر المؤتمر ٦٠ ممثلاً عن المنظمات الصهيونية في الغرب، وممثل عن المنظمة الصهيونية العالمية هو سيمحا دينتيس. وتم انتخاب ثلاثة رؤساء، لما أسماه الصهاينة، «الاتحاد اليهودي في الاتحاد السوڤياتي» أي «الوعد»، والذي يدعو، دائماً، إلى «الهجرة إلى اسرائيل»، كونها ـ حسب رأيه ـ «مركز تجمع الشعب اليهودي». وقد أصدر المؤتمر قراراً يناقض قرار الأمم المتحدة الذي يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية.

وبدا واضحاً أن الصهاينة، من خلال قيام هذا الاتحاد، يستهدفون الحصول على التمثيل السياسي وعلى مقاعد لهم في مؤتمر نواب الشعب السوڤياتي، كما يستهدفون تسهيل هجرة اليهود السوڤيات إلى «اسرائيل». وقد كشف عضو الاتحاد تشلانف بكل صراحة أثناء المؤتمر «أن هدفنا الوحيد والأساسي هو إخراج كل اليهود من هنا (من الاتحاد السوڤياتي)، وانتقالهم إلى حضنهم الشرعي اسرائيل».

تغلغل في الإعلام

وتبين أنه في العام نفسه عاد الاعتبار إلى عدد من المجلات والصحف ذات الميول الصهيونية التي سبق وأوقفها ستالين، وأعيد السماح لها بالصدور مثل مجلة «روسكي سوفريمينك»، «كنيجي فوسخودا» (دفاتر الشروق)، «ايديديشيس فولكسبلات» (الجريدة اليهودية الشعبية) وغيرها. كما تم تأسيس «وكالة أنباء يهودية» من خلال الأمانة العامة لـ«الوعد»، مهمتها تغطية أخبار ونشاطات الجمعيات والمنظمات اليهودية الصهيونية في الاتحاد السوڤياتي.

ولم يقتصر الأمر على صحف عادت إلى الصدور، بل تغلغل النفوذ الصهيوني في عدد من وسائل الإعلام الرسمية ومنها: الأزفستيا، كومسمولسكايا برافدا، لينغراد سكايا برافدا، نوفي مير، ليتراتوريا غازيتا، برافدا سيبيريا، سمينا، أنباء موسكو، سبوتنيك وغيرها؛ ويشار إلى أنه ظهر في السنوات الأخيرة حوالي ٣٠٠ مطبوعة كـ: «العاصمة» و«الصدى»، يؤثر الصهاينة في سياستها وتوجهاتها السياسية كنشر بعض المقالات أو رفض نشرها وعلم أن أحد كبار الصحافيين في الاتحاد أجرى حواراً صحافياً مع سفير جامعة الدول العربية في الاتحاد السوڤياتي ولم يتمكن من نشره في صحيفة «روسيا السوڤياتية» إلا بعد شهر ونصف قام خلالها بسلسلة اتصالات واضعاً كل ثقله حتى تمكن من نشره؛ فضلاً عن تغلغل هذا النفوذ في التلفزيون عن طريق

بعض البرامج ذات التأثير الصهيوني المباشر كبرنامج «الدولاب الخامس» في تلفزيون موسكو لصاحبته اليهودية الصهيونية «بيلا كوركوفا».

وفي ربيع ١٩٨٩ ظهرت إلى الوجود، ومن دون أي ضجة، «الرابطة الثقافية اليهودية» برئاسة ميخائيل تشلينوف. وفي شباط افتتح في موسكو رسمياً «المركز الثقافي اليهودي».

وتركز «المنظمة الصهيونية العالمية» على عدة منظمات في نشاطها وأبرزها: «جمعية الصداقة والعلاقات الثقافية مع اسرائيل»، ويقدر عدد أعضائها بحوالي ٦٠٠ ينتشرون في ٣٥ مدينة سوفياتية، وبموجب نظامها الداخلي فإن مهمتها الرئيسية نشر «المعلومات الصادقة عن اسرائيل ومكافحة الافتراءات عليها في وسائل الإعلام السوفياتية، وتنظيم التبادل الثقافي بين اسرائيل والاتحاد السوفياتي». و«اتحاد مدرسي اللغة العبرية» ويضم أكثر من ١٠٠ عضو ينتشرون في ٣٤ مدينة سوفياتية. و«المنظمة الصهيونية» مهمتها «تكوين البنية السياسية التي تقوم بتمثيل وحماية الجماعات ذات الاتجاه الصهيوني وكذلك الأفراد»، وتنظّم «قنوات العودة إلى الوطن». ويعتقد ليف غوروديتسكي رئيس المنظمة «أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ اليهود الباقين هنا من الاندماج مع القوميات الأخرى هو التوجه القوي نحو اسرائيل ونحو أيديولوجيا الصهيونية الدينية».

ويبدو جلياً أن عدداً من اليهود الصهاينة خرق مواقع ومراكز سياسية وغير سياسية مهمة في الاتحاد، أبرزهم: أكاديمي كوردنسكي عضو مجلس السوفيات الأعلى، أكاديمي أرباتوف رئيس معهد الدراسات الأميركية في الاتحاد الذي كان روسياً ثم أوجد لنفسه أصولاً يهودية، الكسندر ياكوفلير أقرب المستشارين لغورباتشوف ويلتسين، وأرملة أكاديمي سخاروف (عضو سابق في مجلس السوفيات الأعلى)، نائب سابق في مجلس السوفيات الأعلى)، نائب مدير وكالة «نوفوستي» الحالي إلياهو بن يوسف برانيكاس.

وكما أن كتاباً صدر منذ العامين (بكمية محدودة جداً) لوزير الخارجية الروسي أندريه كوزريف، والذي ورد فيه بعض الصفحات الخاصة بسياسة روسيا الفدرالية في الشرق الأوسط، حيث يبدو فيها ميّالاً لليهود، ومزايداً على الخارجية السوفياتية بالانفتاح على اليهود.

حتى أن يلتسين ومؤيدوه، أنـذروا غورباتشوف بـأنه إذا تلكأ بإعـادة العلاقـات الدبلوماسية مع اسرائيل فإن جمهورية روسيا ستبادر إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها وتبادل السفارات، الأمر الذي سرّع في الخطوة التي اتخذها غورباتشوف في إعادة العلاقات مـع اسرائيل.

ويشار إلى أن القنصلية الاسرائيلية استمرت قائمة في الاتحـاد تحت علم هولنـدا التي كلفت برعاية المصالح اليهودية في الاتحاد.

مؤتمـــر ١٩٩٠

وفي العام ١٩٩٠ ومع تزايد النفوذ الصهيوني في الاتحاد انعقد «المؤتمـر التأسيسي للاتحاد الصهيوني للمنظمات اليهودية في الاتحاد السوفيـاتي» في موسكـو من ٢٧ إلى ٢٩ تشرين الثاني، وقد كان سبق انعقاد هذا المؤتمر بقليل، انضمام خمس منظمات كبيرة إلى اللجنة التنظيمية الصهيونيـة (اليهود السـوفيات)، وهي: المنـظمة الصهيـونية (اليهـود السوفيات)، و«جمعية الأطفال اليهودية»، والمنظمة العسكـرية، ونـادي «آليف» وجمعية «خاتيكفا».

وشارك في هذا المؤتمر ١٠٠ منظمة يهودية وضيوف من ٥٠ دولـة أجنبية بمـا فيها الـولايات المتحـدة واسرائيل. وكتبت صحيفـة «البرافـدا» يومهـا تعليقاً تحت عنـوان: شالوم علناً، لفتت فيه انتباه قرائها إلى ثلاث نقاط:

الأولى: «إضـافة إلى المنـظمات الصهيـونيـة الـدوليـة والاسرائيليـة التي حضرت المؤتمـر، سمي «ممثلو الـبرلمـان الاتحـادي، والـ «كي . جي . بي .»، واللجنـة المـركـزيـة للحزب الشيوعي السوفياتي، ضيوفاً على المؤتمر».

الثانية: ذكر كاتب التعليق أن «عدد اليهود الذين يعيشون في الاتحـاد السوفيـاتي يبلغ مليوناً و٣٧٨ ألف نسمة حسب الإحصاءات الرسمية السوفياتيـة. ولكن لا أحد يعرف حتى الآن ما هو عدد الصهاينة منهم».

الثالثة: يستشهد التعليق بمقاطع من بيان الاحتجـاج باسم ايـلي ليفشيتس عضو المجلس السياسي لمنظمة «ريرغوف تسيوني»، على بيان «لجنـة الرأي العـام السوفيـاتي» المعادية للسامية: «كل شيء يتوقف، على ما يبدو، على مـوقف اليهود السـوفيات، أي هل هم إلى جانب اللجنة المعادية للسامية، أم إلى جانب المنظمة الصهيونية».

جدول أعمال لم يكشف

وتسلط هذه النقاط الثلاث الضوء على جدول أعمال مؤتمر موسكو الصهيوني. إذ لم تشر ولا صحيفة واحدة من كل الصحف شبه الرسمية وغير الرسمية على اختلاف اتجاهاتها وتقلباتها التي تصدر بالألوف في الاتحاد السوفياتي، إلى جدول أعمال المؤتمر التأسيسي للاتحاد الصهيوني لمنظمات اليهود السوفيات. ولكن علم لاحقاً أن مضمون جدول الأعمال، تضمن:

١ ـ صياغة واتخاذ وثيقة تحليلية حول وضع اليهود في الاتحاد السوفياتي.
٢ ـ مناقشة ووضع ميثاق الاتحاد الصهيوني.
٣ ـ صياغة برنامج نشاطات، وتشكيل جهاز عملي للجنة اليهودية العامة لشؤون الهجرة.
٤ ـ الإعلان عن انضمام الاتحاد الصهيوني في الاتحاد السوفياتي إلى المنظمة الصهيونية العالمية.

وقد سمي هذا المؤتمر «المؤتمر التأسيسي» مع أنه المؤتمر الثالث. فقد عقد المؤتمر الأول للمنظمات والجاليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي من ١٨ إلى ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٨٩ في موسكو.

وأرسلت ١٩٨ منظمة يهودية سوفياتية نالت صفة شرعية خلال سنوات البيريسترويكا الحالية ٤١٤ مندوباً عنها إلى هذا المؤتمر. كما شارك فيه ١٠٦ ضيوف أجانب صفقوا لاختراق الصهيونية الاتحاد السوفياتي بشكل لم يسبق له مثيل.

ومع كل ذلك، ورغم تفاقم انتشار الأفكار والمبادىء الصهيونية بين الجالية اليهودية السوفياتية وتأثيرها المتزايد في الواقع السوفياتي، فإن صفوف الجالية اليهودية السوفياتية ما عادت تشكل كتلة واحدة متراصة، وهذا ما يؤكده دعاة الدعاية الصهيونية أنفسهم «إن الخلافات والتناقضات كانت موجودة ولا تزال، وستبقى على الأرجح في المستقبل المنظور». وفي عودة إلى التاريخ فإن: باروخ سبينوزا، ياكوف برافمان، كارل ماركس... ويمكن ضم العشرات لا بل المئات إلى هذه القائمة، فيظهر بينهم حاخامات وتلموديون ورجال دين كبار أصدروا الحرم بحق بعضهم البعض أو لجأوا إلى تصفية منافسيهم جسدياً.

ومن المعروف أنه برزت بوضوح خلال الثمانينات، خاصة مع بداية الانتفاضة الفلسطينية، اختلافات في مواقف الجاليات اليهودية في دول الغرب والمنظمات اليهودية الرئيسية، من التسوية في الشرق الأوسط. لكن الغزو العراقي للكويت عرقل كثيراً تصاعد هذه العملية

الهجـــرة

إن المؤتمرات الثلاثة التي عقدها اليهود الصهاينة في موسكو في العامين الأخيرين، إن ركزت على شيء فهو «دعوة اليهود السوفيات إلى التوجه بأعداد كبيرة إلى اسرائيل»، فضلاً عن الأهداف الأخرى التي تهمّ المنظمات الصهيونية كـ«الحصول على التمثيل السياسي وعلى مقاعد لهم في مؤتمر نواب الشعب السوفياتي».

أما الأساس والأهم، بالنسبة إليهم، فقد كان إبراز التأييد الكامل والتشجيع على «هجرة» اليهود السوفيات إلى «اسرائيل» وكما أعلن رئيس «الاتحاد اليهودي في الاتحاد السوفياتي» م. تشلانف وبكل وضوح وصراحة: «إن هدفنا الوحيد والأساسي هو إخراج كل اليهود من هنا، وانتقالهم إلى حضنهم الشرعي اسرائيل».

وبسرعة مذهلة قامت المنظمات الصهيونية بوضع برامج تثقيفية لليهود السوفيات ودعتهم لـ«تعلم اللغة العبرية»، مستفيدة من أجواء الديمقراطية المستجدة في الاتحاد السوفياتي، بحيث أن نسبة اليهود الذي يهاجرون من الاتحاد حالياً في الشهر الواحد (بين ٢٥ و ٣٥ ألفاً) توازي نسبة المغادرة في عام كامل قبل البيريسترويكا، أو أكثر بكثير في بعض الأحيان.

وعلى سبيل المثال، ففي العام ١٩٧٣ هاجر ٣٤ ألف يهودياً.

العام ١٩٧٧ هاجر ١٧ ألفاً.

وفي العام ١٩٧٨ هاجر ٣٠ ألفاً.

وفي ١٩٧٩ حدّدت السلطات السوفياتية هجرة اليهود بمعدل ٤٠٠٠ شخص شهرياً معطية مجموعة مقرراً للعام نفسه يصل إلى ٤٨ ألف نسمة.

أما في العام ١٩٩٠ فقد وصل عدد المهاجرين اليهود إلى ٢٠٠ ألف.

ويشار إلى أن هجرة اليهود السوفيات أوقفت في العامين ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ولكن موسكو أجبرت على إعادة النظر بهذه الخطوة نتيجة ضغوط خارجية وخصوصاً أميركية (أميركا طالبت بهجرة اليهود كشرط لمناقشة قضايا «الوفاق» مع الاتحاد السوفياتي)، وضغوط داخلية يهودية على رغم خوف السلطات السوفياتية من احتمال مطالبة جماعات عرقية ودينية أخرى بـ«حق الهجرة».

أما اليوم فإن الأمور أصبحت تختلف إلى حدّ كبير، حيث أن أكثر من ٣٠ ألف يهودي ينتقل شهرياً إلى «اسرائيل» باعتبار أن السلطات السوفياتية لم تعد تقطع الطريق أمام ذلك، من جهة، ولأن ممثلي المؤسسات اليهودية والصهيونية، من جهة ثانية، يقومون بأعمال تنظيمية ـ عن طريق توزّعهم في حوالي ٥٠ مدينة سوفياتية ـ لجمع اليهود ونقلهم إلى موسكو ومنها إلى اسرائيل.

شركة طيران وهمية: آيروليشت

وعُلم أن هذه المؤسسات، التابعة لـ «الوكالة اليهودية»، أنشأت شركة طيران وهمية أطلقت عليها اسم «آيروليشت» (شركة مختلطة سوفياتية ـ اسرائيلية) وبدأت القيام برحلات مباشرة إلى تل أبيب بعد أن كانت غير مباشرة.

كما أن هناك خط طيران آخر من القوقاز إلى اسرائيل ولكنه لا يعمل بشكل يومي، ويؤمن رحلتين فقط شهرياً.

ولا يزال هناك الكثير من اليهود الذين يسافرون في طائرات «الآير فلوت» إلى لارنكا ومنها إلى اسرائيل، ولكنهم يدفعون قيمة بطاقة السفر بالدولار.

يتجنّبون الهبوط في لارنكا

وأكد مسؤولون في مطار موسكو أن اليهود السوفيات يتجنّبون كثيراً السفر في الطائرات التي تحطّ في لارنكا أو تمر فوق الدول العربية خوفاً من اضطرار الطائرة (بسبب العواصف) من أن تحطّ في مطار عربي، أما الخوف من مطار لارنكا فسببه

وجود عرب بنسبة كبيرة في قبرص. وروى هؤلاء المسؤولون أن عاصفة هبّت، منذ فترة صغيرة، وكانت إحدى طائرات «الآير فلوت» (تقل يهوداً سوفيات) في طريقها إلى لارنكا. فأشار أحد المسؤولين في الطائرة إلى احتمال الهبوط في مطار دمشق بسبب أوضاع الطقس، فارتجفت أعصاب اليهود المسافرين وسعوا بكل ما أوتيوا من قدرة على إقناع «كابتن» الطائرة بالهبوط في مطار أثينا.

وتابع المسؤولون في المطار، أن كثيراً من اليهود السوفيات حاولوا السفر إلى القاهرة عبر «الآير فلوت» (بالروبل) على أن ينتقلوا من العاصمة المصرية إلى اسرائيل بالباصات، لكن المخابرات المصرية اكتشفت هذه الخدعة ومنعت عنهم تأشيرات الدخول من الاتحاد السوفياتي إلى القاهرة، وتشير معلومات المسؤولين في المطار إلى أن يهوداً سوفيات اشتروا ٤٠ بالمئة من أسهم شركة «الآير فلوت» في الآونة الأخيرة.

ويلاحظون أن نسبة هجرة اليهود انخفضت في الصيف الفائت لجملة أسباب، حسب رأيهم، أبرزها:

- «عجز اسرائيل عن الاستيعاب وعدم وجود مساكن ولا عمل.
- خوفاً من صواريخ «السكود» العراقية.
- رفض الرئيس الأميركي جورج بوش الموافقة على العشرة مليارات لاسرائيل في الكونغرس «الأميركي».

أما اليهود أنفسهم فينقسمون فيما بينهم في تفسير أسباب الهجرة من الاتحاد؛ فالبعض منهم يعزو هذه الهجرة إلى «المحاكمات السياسية ضد اليهود السوفيات والحملة الرسمية ضد الصهيونية، والأصوات المرتفعة المعادية للسامية، وبروز حركات مناهضة لليهود كـ(الذاكرة)».

أما البعض الآخر فلا يوافق من يقول أن سبب الهجرة اليهودية الرئيسي هو العداء للسامية، ويعتبر «أن اليهود في دولة قومية غريبة مشكلة جديدة، وفي الوقت ذاته هو السبب الرئيسي للهجرة».

المؤتمر الثاني

كيف يروّج الصهاينة للهجرة؟

كشف النقاب مؤخراً عن وثيقة سريّة تتضمّن الكلمات والنقاشات التي دارت في

المؤتمر الثاني للمنظمات والجاليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي «وعد» الذي انعقد في موسكو العام ١٩٩١. وفيه يعرض رؤساء المؤتمر مخاوفهم من أحداث البلطيق، والموقف من سقوط الصواريخ العراقية «سكود» على اسرائيل، فضلاً عن المستجدات على الساحة السوفياتية وخصوصاً على صعيد نشوء قوميات جديدة. ويركزون على عنصر أساسي، وهو الهجرة، حيث يؤكدون أن هذه الهجرة «ليست صدفة بل قانوناً طبيعياً، وأنه «لن يفيدنا حكم ذاتي قومي ثقافي، ذلك أن استقلالنا ممكن فقط في دولتنا المستقلة».

وهذا النص الحرفي للوثيقة:

«المؤتمر الثاني للمنظمات والجاليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي (وعد) موسكو ١٩٩١».
«قرار حول نهج الاتحاد السوفياتي السياسي الجديد والأحداث المأساوية المرتبطة به».

«تؤكد أحداث الأسابيع الأخيرة تحذير ادوارد شيفاردنادزه من الدكتاتورية الداهمة تأكيداً مقنعاً».

إن إرسال وحدات إنزال تابعة للجيش السوفياتي إلى جمهوريات البلطيق المستقلة، والأحداث الدموية غير المبرّرة في كل من فيلنوس وريغا، تشهد بكل وضوح على انحسار العمليات الديمقراطية وعلى هجوم الرجعية.

ولا شك في أن ممارسات الجيش، نزولاً عند رغبة «لجان انقاذ» وهمية ومزعومة، خلافاً لقرارات البرلمانات المنتخبة بصورة شرعية وديمقراطية، تعتبر محاولة انقلاب عسكري. وتقع مسؤولية ما حدث على عاتق وزير الدفاع السوفياتي يازوف، ووزير الداخلية السوفياتي بوغو، ورئيس جهاز الـ«كي. جي. بي.» كريوتشكوف، والرئيس السوفياتي شخصياً.

إن المؤتمر الثاني للمنظمات والجاليات اليهودية يدين بحزم استخدام القوة العسكرية ضد الجمهوريات المستقلة التي تحل قضاياها السياسية الداخلية بنفسها.

ويطالب المؤتمر بما يلي:

١ - «بدء مفاوضات فورية مع البرلمانات والحكومات الشرعية لجمهوريات البلطيق.

٢ ـ إجراء تحقيقات دقيقة في مأساتي ١٣ كانون الثاني في فيلنوس و ٢٠ كانون الثاني في ريغا.

٣ ـ العمل فوراً على وقف دعم مختلف «لجان الانقاذ» المزعومة التي تطبق أحكام القانون الجنائي على بياناتها.

٤ ـ وقف حملة التحريف والتضليل الإعلامي تجاه سكان البلاد اللذين يستخدمان بهدف إخفاء الأسباب الحقيقية والمسؤولين عن الأحداث الدموية.

كلمة الافتتاح

انعقد المؤتمر في ٢١ كانون الثاني ١٩٩١، وفي مستهل المؤتمر ألقى م. تشلينوف كلمة قال فيها: «جئنا إلى هذا المؤتمر بشعور يخامره قلق شديد. لقد وضعت الحرب أوزارها في الشرق الأوسط. ويقف شعبنا بصلابة في وجه عدوان مجنون جديد. ومصدر هذه الصلابة هو أننا نتغلّب على الصعاب والمحن كافة. والتعسف في البلطيق يطاول أو يكاد يطاول أجزاء أخرى من البلاد نعيش وإياكم فيها. إن الدماء تراق في شوارع فيلنوس وريغا. لقد علمت اليوم عند الساعة الثانية صباحاً بمقتل صديقي القريب المصور السينمائي الليتواني اندريس لابينش. ويحاول متآمرون مزعومون وعسكريون متمردون قلب هيئات السلطة المنتخبة في ظل تغاضي السلطات المركزية إن لم يكن بدعم مباشر منها. وإننا نتفهم شعور أشقائنا وشقيقاتنا الذين جاؤوا إلى هنا من بلدان البلطيق ونتحسس معهم. ومجيئهم إلى هنا شهادة على وحدتنا اليهودية . . .».

وهنا نقل «ممثلون اسرائيليون رسميون» إلى المؤتمر معلومات عن الوضع في اسرائيل أفادت «إن الحياة في اسرائيل تعود إلى مجراها الطبيعي. ويستأنف النشاط في كافة المؤسسات والمرافق، باستثناء منطقتي حيفا وتل أبيب، وحدائق الأطفال والمدارس والمعاهد والجامعات. يوم البارحة وصلت منصّات الصواريخ الأميركية من طراز «باتريوت» ونصبت فوراً وهي جاهزة للعمل. ويتواصل الإعراب عن التضامن مع اسرائيل في العالم بأسره. فقد وجّه أكثر من ٣٠ رئيس دولة رسائل شخصية إلى رئيس وزراء اسرائيل أعربوا فيها عن شجبهم الشديد للاعتداءات العراقية، وأعلنوا تضامنهم مع دولة اسرائيل في هذه اللحظة العصيبة».

الهجرة إلى أرض الميعاد!

ـ المصلحة السوفياتية أولاً! . . .

كانت السياسة السوفياتية إزاء مسألة قيام دولة يهودية في فلسطين، وإزاء الدول العربية، محفوفة دائماً بالغموض والتقلب الناجمين عن حيرة الاتحاد السوفياتي في أين تقع مصالحه في المنطقة. فبعد الحرب العالمية الثانية، كانت وزارة الخارجية السوفياتية تميل إلى الاعتقاد أن المستوطنين اليهود في فلسطين يمثلون أكثر القوى «تقدمية» في المنطقة، وأن من مصلحة الاتحاد السوفياتي أن يدعمهم هم لا الحكومات العربية «الرجعية». وكان الاتحاد السوفياتي أول دولة اعترفت بإسرائيل في ١٩٤٨، فقال ف.ب. لوتسكي المؤرخ السوفياتي المشهور في كتابه الأمبريالية البريطانية والأميركية في الشرق الأدنى» (موسكو ١٩٤٨)، إن الاعتراف السوفياتي بإسرائيل هو اعتراف «حقوقي»، في حين أن الاعترافين البريطاني والأميركي ليسا سوى اعتراف «واقعي». وقال إن الاتحاد السوفياتي كان يدعم إسرائيل دعماً حقيقياً ومخلصاً، بينما كانت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية تعملان في الخفاء على تقويض دعائم الدولة اليهودية الجديدة.

وفي الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى كانت تعليقات «برافدا» و«أزفيستيا» مؤيدة لإسرائيل وضد الدول العربية، على أساس أن هذه الدول، في نظرها، أداة للدول الغربية في «عمل عدواني» يستهدف الدولة اليهودية. بل إن المعلقين السوفيات لم يتورعوا عن وصف بعثة الأمم المتحدة إلى فلسطين برئاسة الكونت برنادوت بأنها خطة مدبرة للقضاء على استقلال إسرائيل.

وقدر الإسرائيليون هذا الموقف السوفياتي حق التقدير. من ذلك أن عصابة ستيرن الإرهابية زعمت في مقال لها نشرته مجلة الإيكونومست اللندنية، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، أن صداقة الاتحاد السوفياتي «تجلب لنا النصر»، وعارضت انتخاب وايزمن رئيساً للدولة الجديدة لأنه قد يؤدي إلى خسارة الدعم السوفياتي. وبما أن الاتحاد السوفياتي كان ينظر إلى الدولة الاسرائيلية على أنها «تقدمية» في أساسها، فإنه علق آمالاً كبيرة على النفوذ الشيوعي في البلاد. بل لعله علل النفس بانتصار الشيوعيين في الانتخابات التي اعقبت قيام إسرائيل.

ومع أن هذا الموقف السوفياتي إزاء إسرائيل تبدل في الخمسينات، إلا أن

التمثيل الدبلوماسي بين البلدين ارتفع إلى مستوى سفارة في أيار (مايو) ١٩٥٤، برغم انقطاع قصير الأمد في العلاقات الديبلوماسية في السنة السابقة. وهكذا يتضح أن الاتحاد السوفياتي، مع كل علاقته الحميمة المتزايدة بمصر وسائر الدول العربية في الخمسينات والستينات، كان مستعداً لاحترام وجود إسرائيل، وراجياً أن تسمح الظروف في يوم ما بتحسين العلاقات بينهما.

وعلى رغم التنديد المسرحي الصارخ بالحركة الصهيونية والإيديولوجية الصهيونية، ظل الاتحاد السوفيات يضع سياسته الخارجية على أساس ما تمليه الظروف والأحوال. فهو ينظر إلى الشرق الأوسط وإلى الصراع القائم فيه، على أنه جزء بسيط من نزاعه الشامل مع الغرب.

وهو مستعد دائماً للعمل، في أي ظرف من الظروف، على اتخاذ الإجراء الذي يرى أنه يخدم السياسة الخارجية السوفياتية في حينه. وهذه الحقيقة تعرفها إسرائيل. وهناك بين حكامها من يدركون أن الاتحاد السوفياتي، برغم تنديده بإسرائيل لدوافع دعائية أو سياسية، لم يرفض رفضاً باتاً إمكان العودة إلى التعاون والاتفاق. وفي ذلك ما كتبه يهوشع تاديمور في صحيفة «معاريف» الاسرائيلية، في ٣١ أيار (مايو) ١٩٦٠، عقب رفض السوفيات اقتراح بين غوريون عقد اجتماع بينه وبين خروتشوف، فقال إن الاتحاد السوفياتي، مع رفضه هذا الاقتراح، «يرغب في قيام علاقات ودية بين جميع دول الشرق الأوسط، شرط أن تتوافر الرغبة المتبادلة والمصلحة المتبادلة لقيام مثل هذه العلاقات». وبعدما حث الكاتب إسرائيل على تحسين صلتها بالاتحاد السوفياتي، قال: «إن الحجة الأساسية في كلامنا على مجمل العلاقات الاسرائيلية ـ السوفياتية هي أن الاتحاد السوفياتي لا مصلحة مباشرة له في إيقاع الأذى بإسرائيل أو العمل، بأية وسيلة ما، على إضعاف وجود إسرائيل رغبة في القضاء عليها. . وعلينا أن لا ننسى تلك الأوقات التي كان فيها الاتحاد السوفياتي إلى جانبنا، كتلك الأيام الأولى من حياة الدولة أو التي جاءت قبلها بقليل». وأضاف الكاتب على ذلك قوله، إن السوفيات في حربنا عام ١٩٤٨ مع العرب كانوا «أشد الصارخين عنفاً» في وجه العرب في الأمم المتحدة. وأنهى كلامه بالقول، إن الذين يظنون أن لا شيء يمكن القيام به لتحسين علاقات إسرائيل بالاتحاد السوفياتي إنما «يسيئون إلى المصالح الحيوية لدولة إسرائيل».

ومما يثير الاهتمام بهذا المقال في صحيفة «معاريف» اليهودية هو نشره في وقت جرت فيه سابقة هجرة اليهود السوفيات. ذلك أنه في آذار (مارس) ١٩٦٠، سمحت

السلطات الرومانية لألفين وثلاثمئة يهودي من رعاياها بالهجرة إلى إسرائيل. وبالنظر إلى أن السياسة الخارجية الرومانية كانت منسجمة تمام الانسجام مع السياسة الخارجية السوفياتية، فإن هذا الإجراء يجب اعتباره، مبادرة ودية نحو إسرائيل ومحاولة للضغط على الرئيس عبد الناصر، عقب تصاريحه المناوئة للشيوعية. وكانت هجرة اليهود من رومانيا توقفت بعد الاحتجاجات المصرية.

الإنزعاج الإسرائيلي رغم الاعتراف الرسمي

من هذا، يتضح أن إسرائيل تنزعج من مواقف العداء السوفياتية، وتدرك الأثر العميق الذي يتركه على مصالحها أي تبديل فيها. وكان الاتحاد السوفياتي يعترف دائماً بوجود إسرائيل، ولطالما حاول إرساء قواعد المصالحة مع إسرائيل على رغم علاقاته الواسعة بالأقطار العربية. وذلك لاعتقاده أن مثل هذه المصالحة تخدم سياسته الخارجية الشاملة، وتفيد في التأثير على سياسة الحكومات العربية. وعندما جرى في السنوات الأخيرة عدد من التقلبات المفاجئة في العلاقات الخارجية بين الاتحاد السوفياتي وأميركا، أدرك العرب، أكثر من قبل، أن هاتين الدولتين الجبارتين تحرصان أولاً وقبل كل شيء على حماية مصالحهما، ولو بالتقرب إلى خصم عقائدي سابقاً. لذلك نجد أن العرب أخذوا يعيرون أشد الاهتمام كل ما يدل على إمكان وقوع تبدل في السياسة السوفياتية إزاء الشرق الأوسط.

في ٢٤ نيسان ١٩٧٣ أذاع راديو تونس نبأ الزيارة التي قام بها وزير الخارجية التونسية آنذاك السيد محمد المصمودي للاتحاد السوفياتي، وقال أن وزير الخارجية السوفياتي السيد أندريه غروميكو أجاب، رداً على إعراب الوزير التونسي عن قلقه بخصوص هجرة اليهود السوفيات، بأن هذه المسألة أعطيت أكثر مما تستوجبه من الأهمية. وكان بيلاييف، لشهر مضى، أدلى بهذا التصريح ذاته أمام طلبة الجامعة الأميركية في بيروت. ومع أن الحجة السوفياتية تستند إلى أن الذين هاجروا من الغرب ومن البلدان العربية إلى أسرائيل كانوا أكثر بكثير ممن هاجروا من الاتحاد السوفياتي، فإن المسؤولين السوفيات لا يحاولون تقديم أي تفسير للزيادة المفاجئة في عدد تأشيرات الخروج من الاتحاد السوفياتي، منذ مطلع ١٩٧١. مع العلم أن هذه الزيادة وما تعكسه من تبدل في السياسة السوفياتية منذ آذار (مارس) ١٩٧١، أي في إبان انعقاد

دورة للمؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، هي التي تثير القلق الشديد عند العرب.

آلاف المهاجرين اليهود

استناداً إلى أقوال المسؤولين السوفيات، كانت هجرة اليهود حتى ١٩٧٠ بمعدل ألف مهاجر في العام. أما في ١٩٧١، فتقول المصادر الموثوق بها أن عدد المهاجرين بلغ ١٤,٠٠٠ مهاجر، وأن العام ١٩٧٣ شهد هجرة أكثر من ضعف هذا العدد، أي ٣٢,٠٠٠ مهاجر. وفي الربع الأول من العام ١٩٧٣، هاجر ما يقارب العشرة آلاف، مع أن مصادر أجنبية قالت أن عدد اليهود السوفيات الذين وصلوا إلى إسرائيل في الأربعة أشهر الأولى من السنة بلغ ٤١,٨٩٨ مهاجراً، معظمهم من الشباب، وفي جملتهم ٥,٤٠٧ متخرجين جامعيين. وقد أنكر المسؤولون السوفيات بعض هذه الأرقام. وذكرت نفس هذه المصادر في ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٢ بياناً لنائب وزير داخلية الاتحاد السوفياتي وقالت: «سواء عن خطأ أو عن رغبة في التقليل من ضخامة سيل الهجرة»، فإن صاحب البيان خفض عدد المهاجرين في العام ١٩٧١ الفائت بأربعة آلاف. فالرقم الذي صرح به، وهو ١٠,٠٠٠ مهاجر، إنما يشير إلى عدد التأشيرات التي أعطيت، لا إلى عدد المهاجرين أنفسهم. ذلك أن أفراد عائلة واحدة في وسعهم أن يهاجروا بتأشيرة واحدة.

ويرد الاتحاد السوفياتي على الاحتجاجات العربية بالقول، إن القوانين السوفياتية تسمح بهجرة المواطنين السوفيات، شرط أن يتمموا الشروط المطلوبة أو لا يكونوا مرتبطين بعمل ذي أهمية استراتيجية.

والواقع أن الأقليات السوفياتية، وفي جملتها الأقلية اليهودية، لم يكن يسمح لها بالهجرة. فيبقى على السلطات السوفياتية أن تفسر لماذا قفز عدد المهاجرين اليهود في ١٩٧١ إلى عشرة أضعاف عددهم في السابق، إذا كانت الهجرة مسموحاً بها دائماً؟ ولماذا هي على ازدياد منذ ذلك العام؟

وجاء في «صوت السلام والتقدم» من محطة الإذاعة السوفياتية، في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٧٣، أنه «من الواضح أن سيل الهجرة من الاتحاد السوفياتي إلى إسرائيل، لا ينطوي على شيء يذكر ولا يمكن اعتباره ذا أهمية استراتيجية».

وهذا القول لا ينطبق على الواقع. فهل أن هجرة خمسين ألف يهودي سوفياتي في سنتي ١٩٧١ و١٩٧٢ لا أهمية لها تذكر؟ ألم يكن الاتحاد السوفياتي في ١٩٧٢ المورد الأول للمهاجرين اليهود إلى إسرائيل في تلك السنة؟ ثم أن الذين طلبوا من هؤلاء المهاجرين العودة إلى الاتحاد السوفياتي لا يزيد عددهم عن واحد في المئة، في مقابل عشرين في المئة من المهاجرين الذين جاؤوا من الولايات المتحدة الأميركية. وإلى ذلك، فهناك خلاف حول عدد طلبات الحصول على تأشيرة خروج من الاتحاد السوفياتي. ففي حين زعم بيلاييف في آذار (مارس) أن العدد لا يزيد على ستة آلاف، تؤكد مصادر أخرى أنه لا يقل عن ١١٠ آلاف.

الغموض والتناقض...

وإذا كان المعلقون السوفيات يدعون أن الهجرة اليهودية لا أهمية استراتيجية لها، فلماذا اعترفوا من قبل بأهمية هذه الهجرة للدولة اليهودية؟ من ذلك، أن راديو موسكو أعلن في آذار (مارس) ١٩٧٠ أن بطء الهجرة هو من أخطر الصعوبات التي يواجهها القادة الإسرائيليون، ثم قال: «لا تخفي تل أبيب أن إسرائيل تحتاج في السنوات القليلة المقبلة إلى ثلاثمئة أو أربعمئة ألف مهاجر للسكن في أورشليم وحدها وإخراج من بقي من العرب فيها وعددهم ستون ألفاً. وهي تحتاج أيضاً إلى مئات الألوف من المهاجرين لتعزيز عدد القاطنين في مرتفعات الجولان، ووادي الأردن، وشبه جزيرة سيناء». في ١٤ أيار (مايو) ١٩٧٣ أخبر الرئيس حافظ الأسد الزعماء السوفيات في أثناء زيارته لموسكو في ذلك الشهر، أن اليهود عمدوا إلى توطين المهاجرين السوفيات في مرتفعات الجولان، وأن من المتوقع أن يكون عدد هؤلاء نحو عشرة آلاف مهاجر في غضون السنتين المقبلتين. وتقول الصحيفة أن الزعماء الروس اكتفوا بالرد على ذلك أنهم لا يتحملون مسؤولية الأعمال التي يقوم بها هؤلاء اليهود الذين خسروا جنسيتهم السوفياتية بالذهاب إلى إسرائيل.

وعمد المهاجرون السوفيات في إسرائيل إلى إنشاء رابطة خاصة بهم. وفي دورة الانتخاب الثانية، في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٧٣، انتخبوا أربعمئة ممثل من أصل ثمانمئة لهذه الرابطة. ومن المتوقع أن يدلي ٢٥ ألف مهاجر سوفياتي بأصواتهم في هذا الانتخاب. كما أعلن قادة الرابطة أنهم سجلوا في عضوية الرابطة ٢٠ ألف مهاجر سوفياتي جديد، خلال الأشهر الستة الأخيرة من ١٩٧٢. والمعروف أن من حق كل مهاجر سوفياتي بلغ سن الثانية عشرة أن ينتمي إلى الرابطة.

ويحيط الغموض بموقف السوفيات من مسألة تصنيف المهاجرين، وذلك لحاجتهم إلى إرضاء العرب وتطمين الرأي العام الغربي في وقت معاً. ففي حين يصرح أحد الديبلوماسيين السوفيات في واشنطن، في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢، لمندوب صحيفة يهودية، بأن السلطات السوفياتية ستسمح لكل اليهود الراغبين في الهجرة، باستثناء الذين قد يعززون قدرة إسرائيل الحربية أو الذين في مناصب حكومية حساسة، يعلن راديو موسكو أن لا قيود في القوانين السوفياتية على الهجرة من البلاد.

والقول بأن السماح بالهجرة لا تعطى للذين «قد يعززون قدرة إسرائيل الحربية» طالما ردده المسؤولون السوفيات على مسامع العرب، على أن دقة تفسير هذه العبارة من الصعوبة بمكان. فقد يخيل لقارئها أن كل مهاجر يهودي سليم الجسم في سن الجندية أو ما دونها، أو كل مهاجر يساهم في البناء الاقتصادي الإسرائيلي، يعزز إلى حد ما «قدرة إسرائيل الحربية»، حتى لو لم يدع للانضمام إلى القوات المسلحة. لكن الأمر في نظر السوفيات غير ذلك. ففي آذار (مارس) ١٩٧٢ زعم ب. ت. شوميلين أن ثلثي اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي في ١٩٧١ كانوا من «الشيوخ والنساء». وردد مسؤولون آخرون هذا الزعم. على أن شوميلين نفسه، في تصريح أدلى به في ما بعد، قال إن السلطات السوفياتية سمحت في ١٩٧٢ لأكثر من ٩٥ في المئة من طلاب الهجرة بالذهاب إلى إسرائيل، أما الباقون فهم قيد النظر. (نوفوستي، في ٢٩ كانون الأول ١٩٧٢). ولما كانت هناك دعاية ضخمة في الغرب عن مدى الاستياء الشديد بين اليهود الشباب، فمن العسير الاعتقاد أن معظم طلاب الهجرة هم من النساء والشيوخ.

الإدعاء والحقيقة...

إن الأرقام ومشهد المهاجرين السوفيات عند وصولهم إلى إسرائيل تنقض نقضاً صارخاً ادعاء السوفيات بأن معظم المهاجرين هم من الشيوخ والنساء والذين لا يفيدون قدرة إسرائيل الحربية. فالوقائع تدل على أن ٤٥٪ من المهاجرين السوفيات الجدد في ١٩٧٢ كانو من مهرة الصناع أو من ذوي المهن الحرة، كما كان ٨٠٪ منهم تحت سن الثامنة والأربعين من العمر، أي في مرحلة من الحياة يسهل التكيف وفق البيئة الإسرائيلية، والعمل على دعم الاقتصاد الإسرائيلي، فضلاً عن حمل السلاح. وأيدت صحة هذا الكلام تلك الصورة التي ظهرت لهؤلاء المهاجرين، في حينه، فإذا

معظمهم دون الأربعين من العمر. واسترعت هذه الصور انتباه الصحف العربية، مما حمل إحداها على القول في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٧٣ أن أغلبية المهاجرين اليهود السوفيات يتمتعون بكفاءات عالية، وهم من الذين أنهوا تدريبهم العسكري. وهذا القول تؤيده صحيفة «فوكستايم» النمساوية الشيوعية في مقال لها، في أول شباط (فبراير) ١٩٧٢، جاء فيه أن «ما من طلب قدمه يهودي سوفياتي راغب في الهجرة كان نصيبه الرفض، باستثناء بعض الأشخاص الذين في مراكز حساسة». وأضافت هذه الصحيفة قولها: «على إن في وسع هؤلاء الأشخاص، إذا أرادوا الهجرة إلى أسرائيل، أن يعتزلوا مراكزهم، شرط أن ينتظروا إلى أن تصبح كفاءاتهم الخاصة عديمة النفع في أي مكان».

وهذه العبارة الأخيرة من العسير فهمها. ذلك أن الكفاءة العلمية التي يتمتع بها الخبير المدرب هي دائماً ذات نفع، كما أن في الوسع إعادة تدريبه على عمل يتولاه أينما كان. والحقيقة أن هذه العبارة لا يمكن أن تعني غير شيء واحد، وهو أن الاتحاد السوفياتي على استعداد للسماح بالهجرة لأولئك الذين «في مراكز حساسة»، شرط أن تكون معلوماتهم العسكرية السرية قد فات أوانها، فلا توقع أي أذى بمصالح الاتحاد السوفياتي. وبكلمة أخرى، فإن هذا الحرص الذي تبديه السلطات السوفياتية على استثناء ذوي الكفاءات العلمية والعسكرية من الهجرة إلا بقيد وشرط، إنما يهدف إلى خدمة المصالح السوفياتية لا إلى حرمان إسرائيل من الإفادة منهم دفاعاً عن مصلحة العرب.

وهذا ما لم يكتمه وزير الخارجية السوفياتية في أثناء محادثاته مع وزير الخارجية التونسية السيد محمد المصمودي، في نيسان (إبريل) ١٩٧٣، حين قال للوزير المصمودي، كما روى راديو تونس في ٢٤ نيسان، أن الاتحاد السوفياتي «لا يسمح بالهجرة إلا للذين لا تؤدي هجرتهم إلى إيقاع الضرر بمصالح الاتحاد السوفياتي الاقتصادية والعسكرية».

وهكذا شدد السيد غروميكو على أن اهتمام الاتحاد السوفياتي الأول والأخير هو حماية مصالحه الاقتصادية والعسكرية، بصرف النظر عن مصالح الدول العربية.

التهديد الأميركي والرضوخ السوفياتي

كان من نتائج الامتناع عن فرض ضريبة الهجرة على المتعلمين في أوائل هذا العام، تحت ضغط الكونغرس الأميركي الذي هدد بعدم إبرام المعاهدات التجارية الأميركية ـ السوفياتية، أثرها البعيد في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفياتي. لكن هذا الدليل الصارخ على ضعف السوفيات أمام ضغط الولايات المتحدة، وعلى استعدادهم لتضحية مصالح العالم العربي في سبيل الحفاظ على العلاقات التجارية مع أميركا، أثار موجة غيظ ونقمة. من ذلك، أن مصادر أجنبية نشرت في ١٤ أيار (مايو) ١٩٧٣ ما جاء في صحيفة يهودية من أن الزعماء السوفيات وعدوا مستشار الرئيس الأميركي، الدكتور كيسينجر، بتسهيل هجرة اليهود وبالسماح لآلاف العلماء بالنزوح إلى إسرائيل، على رغم القيود التي فرضت عليهم من قبل. ومن ذلك أيضاً ما ورد بنفس المصادر في ١٠ نيسان (إبريل) ١٩٧٣ وهو أن القرار الذي اتخذته الجامعة العربية في نيسان، والذي يدعو إلى وقف الهجرة اليهودية، سيستعمله السوفيات في محادثاتهم مع الولايات المتحدة حجة على أنهم لا يستطيعون في الوقت الحاضر، الذهاب إلى أبعد من رفع الضريبة عن المهاجرين المتعلمين، وهي الضريبة التي تجبرهم على دفع النفقات التي أنفقتها السلطات السوفياتية على تعليمهم. وكان للزيارة التي قام بها للاتحاد السوفياتي المستر جورج شولتز، وزير المالية الأميركية، في منتصف آذار (مارس) الفائت، أثره الحاسم في رفع هذه الضريبة.

والواقع أن بريجنيف، في أثناء زيارته الأخيرة للولايات المتحدة، كان يتطلع بشوق إلى التأكد من أن مسألة الهجرة اليهودية لن تعيق إبرام الاتفاقيات التجارية بين البلدين، حتى أنه تكبد مشقة توزيع مذكرة إحصائية على أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي في هذا الخصوص. وفي مأدبة الغداء التي أقامتها على شرفه لجنة الشؤون الخارجية في هذا المجلس، أدلى بريجنيف بالمعلومات الآتية: تدل إحصاءات الاتحاد السوفيات على أن ٦٨ ألف يهودي هاجروا قبل كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢، وأن ٦٠ ألف تأشيرة خروج أعطيت في غضون الأشهر الخمسة الأولى من ١٩٧٣. وأكد بريجنيف لمستمعيه الشيوخ الأميركيين أن الضريبة على المهاجرين المتعلمين لن يعاد فرضها، وقال: «نحن لن نخادع ولن نغير رأينا». وكانت الضمانات التي أعطاها بريجنيف من الاقناع، بحيث تراجع عدد من الشيوخ عن معارضتهم إبرام الاتفاقات التجارية بين بلادهم والاتحاد السوفياتي.

وهذه الأرقام التي أدلى بها بريجنيف تفوق بكثير أية أرقام أخرى أعلنتها المصادر الإسرائيلية أو السوفياتية. ذلك أن المصادر الإسرائيلية لم تعلن إلا عن ٣٢ ألف مهاجر وصلوا إلى إسرائيل في ١٩٧٢. وقيل أن بيلاييف جعل الرقم ٤٤ ألفاً، في حين ذكر راديو موسكو في ١٣ آذار (مارس) أن إحصاءات وزارة الداخلية السوفياتية تشير إلى الرقم ٢١ ألفاً.

على أن الأرقام السوفياتية الأخيرة تنسجم مع التصريح الذي أدلى به كوسيغين، في أثناء زيارته كندا، خلال شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧١، وقال فيه أن كل يهودي يريد الهجرة من الاتحاد السوفياتي يحظى بما يريد.

أما المصادر الإسرائيلية(*) فتؤكد أن عدد المهاجرين السوفيات الذين وصلوا فقط في عامي ٨٩ و ١٩٩٠ قد وصل إلى ٣٠٠ ألف مهاجر أمكن استيعابهم في كانتونات ومستعمرات خاصة بهم رغم التضخم الاقتصادي اللذي أحدثوه وتتوقع المصادر ذاتها أن يصل عدد المهاجرين الذين وصلوا أو سيصلوا خلال العام السابق والحالي إلى ٢٠٠ ألف مهاجر والهدف الواضح من كل هذا الاستيعاب لليهود السوفيات وللفلاشا ومن البلدان الأخرى هو إحداث انقلاب ديموغرافي تهديدي داخل فلسطين يسفر بالنهاية عن تحقيق هدفين:

الأول: جعل المناطق المحتلة منذ العام ٦٧ تتمتع بأكثرية يهودية وذلك في مدى زمني أقصاه العام ٢٠٠٠.

الثاني: استقدام أكبر كم ممكن من المهاجرين اليهود في العالم لتهيئة المادة البشرية لحدود وإمكانات مشروع «إسرائيل الكبرى».

ردة الفعل العربية:

كانت ردة الفعل العربية على الموقف السوفياتي من الهجرة اليهودية شديدة النقمة، برغم المحاولات التي قام بها أنصار الاتحاد السوفياتي لتبرير هذا الموقف.

أما الآن بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وتحويله إلى جمهوريات ذات سيادة تحرص روسيا بزعامة يلتسين ومعظم الجمهوريات الأخرى على كسب الود الإسرائيلي لأنه المفتاح لتعزيز العلاقات مع الغرب ومع أميركا بوجه خاص.

* المصدر: المكتب الاسرائيلي المركزي للإحصاء.

وقد حاولت الحكومات العربية عبر قرارات الجامعة العربية وعبر مواقفها الفردية والجماعية لفت نظر السوفيات مراراً إلى مخاطر استمرار هذه الهجرة على حساب الأرض والحق العربيين لكن كل هذه النداءات والمطالب لم تلق أذن صاغية لدى السوفيات الذين ما برحوا حتى الآن يودعون آلاف المهاجرين اليهود ليستقبلوا في إسرائيل وينشئوا مستعمراتهم فوق الأراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية وسيناء والجولان. والواضح أن السوفيات لا يبالون بردة الفعل العربية ذلك أن حسن العلاقات مع الدول العربية يجب أن يحتل المرتبة الثانية بعد المهادنة مع الغرب وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية.

الفصل الثامن

مذكرات كيربيشنكو
«الجواسيس السوفيات والعرب»

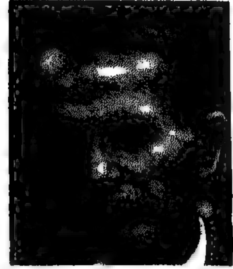


(الجنرال كيربيشكنو)(*)

(*) الجنرال فاديم اليكسييفتش كيربيشنكو هو «كبير الجواسيس السوفيات» الذين عملوا في الشرق الأوسط ومصر تحديداً، وكان من خلال مهمته هذه مسؤول المحطة الرئيسي للكي. جي. بي. في المنطقة. ويشغل حالياً منصب «كبير مستشاري» بريماكوف مدير جهاز المخابرات الخارجية في روسيا.



جمال عبد الناصر



حافظ الأسد



أنور السادات



بريماكوف

للمـرة الأولى يتحدث «كبـير الجـواسيس السـوفيـات» كيربيشنكو عن مهمات جهازه خلال فترة عمله بمنـطقة الشرق الأوسط ومصر تحديداً، ولولا الزلزال السوفياتي الذي حدث لما كان بإمكانه قطعاً وإمكان غيره إفشاء الكثير من المعلومات والتي تعتبر للأمس القريب ستاراً حديدياً بالغ السرية كالنظام الحاكم الذي انهار دفعة واحدة.

خص الجنرال السوفياتي إحدى الصحف العالمية(*) بسرد مذكراته هذه ولأهميتها البالغة نركز على ما له علاقة بالموضوع الأساسي: «السوفيات والعرب ـ العلاقة المخابراتية».

(*) مجلة الوسط / لندن، أيار ١٩٩٢

مقدمة :

ارتبط كيريبيشنكو بالعالم العربي وأقام علاقات وثيقة مع العرب، تماماً كما فعل تي. اي. لورنس (لورنس العرب) أو الرحالة الشهير ويلفرد تيسيجر أو سواهما من الذين خدموا في المنطقة العربية وأحبوها.

ويعترف كيريبيشنكو بأن العالم العربي كان «حياته». والتأثير العربي امتد إلى عائلته نفسها، فابنه سيرجي يشغل حالياً منصب الوزير المفوض (الرجل الثاني) في السفارة الروسية في الرياض، لكنه ليس ضابط مخابرات لأنه ليس مسموحاً للأب والابن بالعمل معاً في المخابرات الروسية. أما زوجته فهي التي ترجمت إلى الروسية أعمال الروائي نجيب محفوظ. كما أن ابنتيه التوأم من مواليد القاهرة واحداهما تقوم بتدريس اللغة العربية في الأكاديمية العسكرية في موسكو.

وهو معجب بعدد من القادة العرب. مدينته المفضلة هي القاهرة. وحين تسأله عن الأطباق المفضلة والمأكولات العربية التي يفضلها يكاد لعابه يسيل.

الجنرال كيريبيشنكو رجل مليء الجسم، يعاني من قصر النظر وانحسار في شعر الرأس، وهو في السبعين من عمره. وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة فاترة حين يعترف بأنه يشعر بارتعاش من فكرة جلوسه عدة أيام لإجراء مقابلات معه للمرة الأولى في حياته. ومن المرجح أن تكون هناك أسئلة سيحجم عن الإجابة عنها لأسباب أمنية كما يقول. ولكنه يعد بأن تكون إجاباته عن جميع الأسئلة الأخرى صادقة وصحيحة.

«أنا من كيرسك التي تقع على بعد حوالي ٨٠٠ كيلومتر عن موسكو قرب الحدود مع أوكرانيا. واسم عائلتي أوكراني في لفظه ولكنني روسي. خلال الحرب كنت أريد أن أصبح طياراً، ولكن لم يكن لدينا العدد الكافي من الطائرات لجميع أولئك الذين أكملوا تدريبهم، وتأهلوا للطيران. ولهذا أصبحت مظلياً. وأثناء التحاقي بالجيش بدأت بتنظيم نفسي لفترة ما بعد الحرب، فأدركت أنه يجب علي أن أدرس. كان والدي ووالدتي يعملان في السكك الحديد، ولكنني أردت أن أنجز ما هو أفضل من ذلك لكي يفخرا بي. ولم أكن متأكداً مما سأدرس: الأدب الروسي أم الشؤون الدولية؟ وبعد الانتصار في الحرب استفسرت من جامعة موسكو عن الدراسة، فأشار علي أحدهم بالاتصال بمعهد الدراسات الشرقية. وذهبت إلى المعهد للاستفسار

فالتقيت بمدير المعهد. رحب بي بحرارة وقال: «إننا بحاجة إلى أناس من أمثالك ـ من الضباط الشباب الـذين يهتمون بـالأدب وبالنـاس». فقلت له انني لم أستعـد لامتحان الدخول، ولكنه طمأنني وقال إنه واثق من أنني سأجتاز الامتحان. وهذا ما حصل.

قبل ذلك لم تكن لـدي أية فكـرة عن العالم العـربي. وقدمت طلبـاً للدراسة في قسم الدراسات التركية مع أن هذا لم يكن فيه الكثير من الإثارة بالنسبة إلى روسي، إذ أننا طالما حاربنا في عهد القياصرة ضد تركيا. ولكن كان هناك الكثيرون من المواطنـين السوفيات الذين يتكلمون الـتركية ـ فهنـاك خمس جمهوريـات سوفيـاتية لغتهـا تركيـة. وحـين نصحني بعضهم بمحاولـة تعلم اللغة العـربية قـررت الأخـذ بهـذه النصيحـة. وهكذا كان الأمر صدفة.

وفي المعهد التقيت زوجتي فالري نيكولايفنا. إذ بدأت الـدراسة العـربية في سن الخامسة والعشرين بينما كانت هي بدأتها في سن السـابعة عشرة. وسرعـان ما تفـوقت علي. وهي تحمل الآن شهادة دكتوراه في فقه اللغة. وفي وسعي القول إنها الاخصائية الرائدة في الأدب العربي في بلادنا.

وهكذا كان اختيار الشرق الأوسط بالنسبة إلي اختياراً عشـوائياً، ولكنني سعيـد لذلك الاختيار، وأنا مدين بالعرفان لأولئك الذين نصحوني بدراسة العربية.

البداية في تونس واليمن

لقد مضى علي الآن أربعـون عامـاً في المخابـرات. بدأت في تـونس خلال فـترة المشكلة الجزائرية، حين كانت جبهة التحرير الوطني الجزائري تتخذ مقرها في تونس، ثم أقمت في مصر مـرتين من عـام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٠ ومن عام ١٩٧٠ إلى ١٩٧٤ أي عشر سنوات. وشهدت كـل الحروب. ومن ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ كنت في أنحـاء أخرى من أفـريقيـا السـوداء. وبـين ١٩٧٤ و ١٩٩١ كنت نـائب رئيس المـديـريـة العـامـة للمخابرات الأجنبية في الاتحاد السوفياتي. وتوليت مسؤولية الضباط والعملاء الذين لا يتمتعون بالحصـانة الـدبلوماسيـة. والآن ها أنـا كبير مستشـاري المديـر الجديـد لجهاز المخابرات الأجنبية يفغيني بريماكوف الذي كان رئيس مكتب الشرق الأوسط لصحيفـة «برافدا».

وأعتقد أن أول نجاح لي كان في اليمن. كان ذلك عام ١٩٥٧ حين كنت سكرتيراً ثانياً في سفارتنا في القاهرة وكان سفيرنا فيها معتمداً أيضاً في اليمن. إذ كانت مسؤوليتي إقامة علاقات مع اليمن ومرافقة السفير حين قدم أوراق اعتماده إلى الامام. ولهذا التقيت ولي العهد اليمني الأمير محمد سيف الإسلام البدر. وكان صديقاً للاتحاد السوفياتي. وكانت الملكة اليزابيت الثانية دعته إلى القيام بزيارة رسمية إلى لندن وقضاء أسبوعين هناك. وطلب مني أن أرافقه كحارس شخصي. وحين وصلنا إلى لندن ذهل سفيرنا هناك يعقوب مالك عندما شاهدني بين حاشية الأمير، فقال لي «كيربيشنكو، لماذا لا يستخدم الأمير حرساً من أبناء شعبه؟» قلت له: «إنه يقول إنهم جميعاً جواسيس للانكليز».

علاقتي بالمخابرات المصرية

ويمسك كيربيشنكو بكتاب صدر في الغرب منذ سنوات عن «الكي. جي. بي.» أي المخابرات السوفياتية لمؤلفه جون بارون، ويقول لي ان بارون يتحدث عنه في هذا الكتاب لكنه يخطىء في اسم عائلته. ويضيف: «بارون يزعم في كتابه إنني كنت، خلال وجودي في القاهرة، أتحكم بالمعلومات الاستخباراتية التي كانت تصل إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وإنني كنت مسيطراً على سامي شرف الذي شغل لفترة من الفترات منصب وزير شؤون الرئاسة المصرية، وتولى مسؤولية التنسيق بين جميع أجهزة المخابرات المصرية. لكن ما يقوله بارون هو تضليل ذكي. لقد نشر كتاب بارون عام ١٩٧٤، وجاء فيه انني جندت جميع وزراء عبد الناصر واستخدمتهم لأغراضي وأهدافي الخاصة ضمن مسؤولياتي في المخابرات السوفياتية. وهذا ليس صحيحاً، فلم تكن لي علاقة مع سامي شرف على رغم أنني رأيته مرة في حفل استقبال. لكننا لم نتحدث معاً أبداً. وقد اعتقله السادات في شهر أيار (مايو) عام ١٩٧١ مع عدد من الآخرين الذين كانوا على صلة وثيقة بعبد الناصر وبموسكو. والصحيح انني كنت على اتصال مع المخابرات المصرية. وقد حصلوا على بعض الحقائق ثم بنوا عليها قصة. لكنني لم ألتق إطلاقاً بسامي شرف». ويعرب كيربيشنكو عن اعتقاده بأن نشر كتاب بارون هذا عام ١٩٧٤ «جاء لتبرير ما فعله السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ حين طرد الخبراء السوفيات من مصر». وكان كيربيشنكو المسؤول الأول عن المخابرات السوفياتية في مصر خلال فترة عمله في القاهرة.

ويتناول بعد ذلك كتاباً للمؤلف البريطاني فريدريك فورسايت يحمل عنوان «البروتوكول الرابع» ويقول فيه فورسايت أن كيريشنكو قتل في حادث سيارة عام ١٩٨٥، ويتطرق إلى علاقاته مع سامي شرف. ويعلق الجنرال على ذلك فيقول: «حسب فورسايت فأنا ميت منذ ٧ سنوات. كتابه يتضمن معلومات خاطئة عني، لكنه كان مصيباً في شيء واحد وهو أنه تمكن من تحديد رتبتي وموقعي في جهاز المخابرات السوفياتية».

نحن وعرفات وحبش

كانت سياستنا هي مساعدة جميع الحركات الوطنية على تحقيق الاستقلال في بلادها، في أفريقيا وفي الشرق الأوسط. كنا نحارب النظام الاستعماري ولم يكن لدينا حافز محدد. إذ لم يكن في الوسع الحصول على مكسب من المنطقة في ذلك الحين. كنا نريد تكوين أصدقاء لنا، تولينا بناء سد أسوان في مصر حين تراجعت الولايات المتحدة عنه. كانت أوامرنا تقضي بمساعدة الآخرين، إذ أن بناء الصداقات في العالم العربي كان مهماً من الناحية السياسية بالنسبة إلينا في صراعنا الرامي إلى وقف نفوذ الولايات المتحدة وحلفائها في الشرق الأوسط.

كان الشرق الأوسط من وجهة نظرنا الباب الخلفي لحلف شمال الأطلسي. لقد اعتبرنا الشرق الأوسط نقطة الضعف للحلف الأطلسي. وكنا نشعر بصداقة طبيعية تجاه الدول العربية. كانت قضايا هذه الدول تمثل تعقيدات للدول الغربية. وفي البداية كانت أوثق اتصالات لي مع الحركة الوطنية الجزائرية ـ مع الحكومة الجزائرية الموقتة في تونس. كنت ضابط الاتصال السوفياتي معها. وكانت أوامري تقضي بأن أفعل كل شيء ممكن لمساعدة الثورة الجزائرية. وهذا هو الدور الذي كان في وسعنا أن نلعبه مع فلسطين، لكن لم تكن لنا علاقات موثوقة بالفعل مع ياسر عرفات. كانت علاقاتنا ودية فعلاً، ولكنها لم تكن موثوقة. وقد التقيت عرفات للمرة الأولى حين زار سفارتنا في القاهرة، وهو زارها مرات عدة بين عام ١٩٧٠ و ١٩٧٤. ومن الطبيعي أننا قمنا بدراسة شاملة للقيادة الفلسطينية. صحيح أن جورج حبش كان قريباً منا

أيديولوجياً، لكن منظمة التحرير الفلسطينية كانت هي القيادة للحركة الفلسطينية، ولا يزال لنا معها علاقات طبيعية. إن الكثيرين من الناس قالوا أن عرفات انتهى. ولكن هذا الحكم كان نتيجة سطحية دراساتهم وعدم عمقها، فعرفات سياسي عريق وله وزنه. وقد أثبت ذلك بقائه وصموده كل هذه السنوات، وبالمحافظة على تركيبة منظمته عبر كل المحن. ولا يزال هناك دور مهم لمنظمة التحرير. إذ أن ١١٤ دولة تعترف بها، أي أكثر من الدول التي تعترف باسرائيل. وأنا أعتقد أن اسرائيل ستصمد. ولكننا نعرف يقيناً أن فلسطين ستبقى. لقد واجه أبو عمار طوال حياته الخير والشر. وهو مضطر للمناورة، لذا فهو يخطىء من حين إلى آخر. وهكذا فإن تأييده صدام حسين بعد احتلال الكويت كان خطأً جسيماً. ياسر عرفات يسعى إلى تحقيق توافق عام في إطار الحركة الفلسطينية. وقد ينجح أحياناً أو يفشل. لكن عرفات في نظري هو أكثر الزعماء الفلسطينيين واقعية. «في تقاريري إلى مركز موسبكو للمخابرات السوفياتية قلت ان سلوك عرفات أمام الناس قد يعطي الانطباع بأنه رجل غير جدي، فهو لا يحلق مثلاً، وربما يبدأ الحلاقة الآن بعد أن أصبح له زوجة شابة. ولا يعرف أحد أين سينام عرفات كل ليلة. وقد تكون الأمور تغيرت قليلاً الآن بعد أن تزوج. ولكن لا بد له من اتخاذ احتياطات. وربما كان صحيحاً أنه إذا ما اغتيل عرفات على أيدي شخص اشتراه الاسرائيليون، فإن رئيس وزراء اسرائيل، أياً كان، لن يظل في الحكم. ومعنى هذا الكلام أنه ربما كانت هناك قوى داخل اسرائيل يمكن أن تتآمر على قتل عرفات لكي تضمن موت رئيس وزرائها وتنهي عملية السلام».

«الممثل الممتاز»

ويتابع كيربيشنكو حديثه عن عرفات فيقول: «أبو عمار ممثل ممتاز. فهو يستخدم دائماً أي مناسبة لكي يبين أن له شعبية واسعة واتصالات واسعة أيضاً. وهو ينتهز كل مناسبات التصوير الفوتوغرافية، كما أنه يستخدم اتصالاته ومعارفه. ولهذا فهو لا يزال قوة لها وزنها، إن الفلسطينيين سيحصلون على حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة. فالرأي العام بدأ يميل إلى جانبهم. إن كل أوروبا تقريباً، من بروكسيل حتى موسكو، تقف إلى جانبهم. وكان الاعتدال الذي أظهره عرفات خلال السنوات الأخيرة عاملاً مساعداً على هذه النزعة، مثلما كان الاعتدال الذي أظهرته كل الدول العربية تقريباً. إذ ليس هناك أي زعيم عربي يريد إلقاء اسرائيل في البحر. وكل شيء

يشير إلى قرب اتخاذ قرار واقعي مقبول للجميع - ربما لا يتحقق الحكم الذاتي هذا العام أو العام المقبل، ولكنه سيتحقق قريباً»

عن أبو نضال وجورج حبش والارهاب

«أنا لا أعرف إذا كان أبو نضال عمل لحساب اسرائيل. ولكن من الواضح أن الاسرائيليين يرحبون بعناصر مثله لأن تطرفه يغذي تطرفهم. ونحن لا نقيم أية صلة معه إطلاقاً».

«أنا شخصياً لم يسبق لي إطلاقاً أن التقيت بجورج حبش. لكن وكالات سوفياتية مختلفة كان لها صلات مع حبش لتنظيم المساعدات له. وكانت هناك اتصالات دبلوماسية واستخبارية سوفياتية معه. وحبش رجل على قدر كبير من الثقافة. وكان في الوسع اتهامه قبل عشرين عاماً بالارهاب واختطاف الطائرات. إلا أن وضعه في فئة الارهاب نفسها مثل مناحيم بيغن هو في منتهى السخافة والحماقة. ومع ذلك، لا بد من القول أنه في كل مرة كان يلتقي فيهاممثلونا بالقادة الفلسطينيين، كنا نقول لهم دائماً أنه لا علاقة لنا بالارهاب. ومن الطبيعي أن الطرف الآخر نشر معلومات مضللة ومغايرة في الصحف. ولكن هذا أمر طبيعي أيضاً لأن جميع أجهزة المخابرات تلجأ إلى التضليل. ومن السهل تزويد الصحافة الحرة بالمعلومات المضللة، مثلما يسهل تزويد الصحافة الخاضعة للإشراف الحكومي. ولو أننا ارتبطنا بالارهاب بأي شكل لخسرنا الشيء الكثير».

ويتابع الجنرال سرد مذكراته فيقول: «لقد اتهم الغرب السوفيات بأنهم شجعوا عبد الناصر عام ١٩٦٧ والسادات عام ١٩٧٣ على شن الحرب ضد اسرائيل. وهذا ليس صحيحاً. تذكر أن السادات طرد الخبراء السوفيات عام ١٩٧٢. الاتهام الثاني الذي وجهه الغرب إلينا هو أننا أيدنا الإرهاب العربي ودعمنا ومولنا تنظيمات إرهابية فلسطينية وعربية. وهذا غير صحيح.

إننا كنا دائماً نحذر القادة العرب من مخاطر الحرب، لقد عززنا قواتهم المسلحة،

ولكننا أوصيناهم بعدم استخدام تلك الأسلحة إلا إذا تعرضوا للهجوم. وكنا نخشى الحرب ـ دائماً لأن العلاقات السوفياتية ـ العربية كانت تمر في فترة حرجة ومعقدة وصعبة بعد كل حرب. كذلك لم يكن بيننا وبين أبو نضال أي اتصال أبداً. وحين كنا نكتشف أن هذا الشخص أو ذاك ممن كانوا يزورون سفاراتنا، هم من العاملين فعلاً مع أبو نضال، كنا نحذر بعثاتنا لكي تتجنبهم. فقد كنا نخشى دائماً أن يكون هذا الشخص عميلاً يوجهه الطرف الآخر لاستفزازنا، لأن تطرفه كان يخدم اسرائيل على خير وجه. هل يعني ذلك أن سياستنا تجاه الشرق الأوسط لم تتغير طوال السنوات؟ نعم، ولا. إن السياسة الخارجية لروسيا الآن تبحث عن منهج جديد بعد أن انتهى العداء بيننا وبين الولايات المتحدة. فالسياسة الخارجية السوفياتية كانت تقوم على أساس الانتشار على نطاق عالمي شامل. وهو أمر يفوق طاقاتنا ومواردنا، أما اليوم فنحن بحاجة إلى نهج جديد يتلاءم مع وسائلنا ومواردنا. إذ لم يعد في وسعنا مثلاً منح أية تسهيلات ائتمانية. ونحن لا نريد أن نخسر علاقاتنا الجيدة في الشرق الأوسط، ولكننا نريد علاقات اقتصادية تعود علينا بقدر أكبر من النفع. وباختصار، في ما يتعلق بفلسطين، يمكن القول أن مبادلة الأرض بالسلام، والحكم الذاتي عملية لا يمكن وقفها. فهذا الأمر سيرضي جميع الدول: الدول الغربية وغيرها، وفلسطين نفسها، وإلى درجة كبيرة اسرائيل. لقد قال ديفيد بن غوريون ذات مرة، إن اسرائيل ستبدأ في الشعور بالخوف من العرب عندما يتعلمون الوقوف في صف واحد أمام الباص. وهذه ملاحظة دقيقة جداً ومهمة جداً. فإذا كانت تعني أن عدم الانضباط والتفرق بين العرب من الأمور التي أعاقت تحرير فلسطين، فهذه مسألة معقدة ومن الصعب الإجابة عنها. ولكنها تتطرق إلى الأسباب التي جرّت إلى الهزائم المختلفة التي مني بها العرب. فالعرب شجعان ولكنهم يفتقرون إلى التنظيم الجيد والانضباط. وقد كان لهذا الافتقار دور في هزائمهم».

سرّ كبير من حرب ١٩٧٣

وهنا يكشف كيريشنكو سراً كبيراً عن حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ فيقول:

«كانت بداية حرب عام ١٩٧٣ ناجحة. لكن النصر لم يتحقق لأنه لم يكن هناك

تنسيق حقيقي بين الرئيسين أنور السادات وحافظ الأسد. إذ أن السادات لم يستخدم قواته لمساندة السوريين مثلما نصحناه أن يفعل، ولهذا تحولت الحرب إلى مأساة بالنسبة إلى السوريين. أما المصريون فقد تفادوا الهزيمة نتيجة التدخل الأميركي. وهكذا فإن حرب أكتوبر أظهرت انعدام التنسيق. وأذكر أن وزير الدفاع المصري أبلغ أحد المستشارين العسكريين السوفيات في حرب عام ١٩٦٧: «أن استراتيجيتكم معقدة جداً. إننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من شيء واحد في وقت معين». وكمثال على الافتقار إلى التنظيم، سلاح الجو السوري إذ لم يكن هناك حتى مرافق لاطعام الطيارين ولم يكن هناك مطعم للضباط. وهكذا كان الطيارون يغادرون القاعدة لشراء شيء رخيص لا قيمة غذائية له. حتى في الحرب العالمية كان لدى طيارينا حلويات كجزء من الوجبات. أنت تسأل عن المهارات النسبية للطائرات، وما إذا كانت إجراءاتنا الالكترونية المضادة والإجراءات المضادة للإجراءات المضادة في الطائرات السورية جيدة مثل المعدات الأميركية في الطائرات الاسرائيلية. الواقع أن جميع الطيارين في كل مكان متطوعون، ولهذا فإن كل الطيارين شجعان. ولقد كان الطيارون السوريون بمستوى القدرة كالطيارين الاسرائيليين. والمعدات؟ في أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٣ كان لدى السوريين طائرات ميغ - ٢١ ومشتقاتها الأخرى. وكانت طائرة ممتازة جداً آنذاك، ومعادلة لطائرة فانتوم - ٤. وكان الطيارون على درجة عالية من التدريب والتأهيل. إذن لماذا حلت بهم الهزيمة؟

هناك ثلاثة أسباب. نقطة الضعف السورية الأولى هي أن عملية صنع القرارات كانت تستغرق أكثر مما ينبغي من الوقت. إذا كانت الحاجة تدعو إلى قرار من السلطات لكل حركة صغيرة. ولم يكن للطيارين أي حرية في اتخاذ القرارات. قد تقول إن هذا ينطبق أيضاً على الطيارين السوفيات، وأن الطيار لا يستطيع حتى أن يشغل طائرته من دون تعليمات من الأرض. ربما كان هذا صحيحاً. لكن السوريين بالغوا جداً في تطبيق هذا المبدأ.

النقطة الثانية هي أن الاسرائيليين كانوا يطيرون على ارتفاعات منخفضة، ولهذا تجنبوا الرادار ودمروا المطارات السورية. وقد تقول أنكم كنتم - كالأميركيين - تطيرون في الحرب العالمية الثانية على مستوى رؤوس الأشجار من أجل تجنب شبكات الرادار والنيران المضادة للطائرات، صحيح. ولكن سلاح الجو السوفياتي لم يغفل ذلك. وآخر

الأسباب الثلاثة هو أن الإجراءات الالكترونية المضادة، والإجراءات المضادة لها كانت مجال قوة لدى الاسرائيليين ونقطة ضعف عند السوريين. إلا أن المشكلة تكمن في المخابرات، ذلك أن المخابرات الاسرائيلية كانت على غاية الكفاءة في سورية. كما أن اعتراضاتها الرسائل السورية كانت ممتازة. وكان للاسرائيليين «الموساد» أو «أمان» (المخابرات العسكرية) جواسيس داخل سورية يرسلون تقارير إلى الأجهزة الاسرائيلية المختصة. لكن أهم العوامل إطلاقاً التي أضعفت السوريين في المواجهة مع الاسرائيليين رجل اسمه الكسندر غريغوريفتش تولكاشييف. هذا الرجل كان عالماً سوفياتياً رائداً في مجال الالكترونيات، لكنه كان أيضاً جاسوساً يعمل لمصلحة المخابرات المركزية الأميركية (السي. أي. اي) لقد اكتشفنا لاحقاً أن الكسندر هذا زود المخابرات الأميركية بجميع المعلومات المتعلقة بما لدينا من الكترونيات ورادار ومعدات طيران وقياسات جوية، بما في ذلك حتى إجراءاتنا المضادة والإجراءات المضادة لإجراءاتهم المضادة. قامت المخابرات الأميركية بدورها بتزويد اسرائيل بكل ما حصلت عليه من الكسندر، الأمر الذي يعني أنه كان يستحيل على سورية أن تنتصر في الحرب الجوية ضد اسرائيل عام ١٩٧٣ ومع أنه كانت هناك عدة عوامل ضد اسرائيل عام ١٩٧٣ ساهمت في الهزيمة الجوية السورية فإن أهم تلك العوامل على الإطلاق هو الكسندر غريغوريفتش تولكاشييف. وقد تسأل إذا كنا استطعنا اكتشافه من خلال جواسيسنا في المخابرات الاسرائيلية. وهنا أقول أن هناك أموراً لا أستطيع حتى الآن التحدث فيها. ولكنك تعرف أن لنا مثل أولئك الجواسيس. فنحن نرسل آلاف اليهود إلى اسرائيل كل شهر. فهل ما يثير الدهشة إذن أن يكون بينهم بعض الناس الطيبين؟ وها أنت تسألني إذا كنا أمسكنا به وأعدمناه. نعم، بالطبع. لكن هذا كان بعد فوات الأوان، إذ ضبطناه عام ١٩٨٥ مع أميركي يعمل تحت ستار دبلوماسي اسمه بول ستومبوش. ويبدو أن غريغوريفتش فعل ما فعله من أجل النقود. وبعد اكتشافنا له قمنا بإعدامه. وهذه هي المرة الأولى التي نكشف فيها هذا السر».

سنوات العز في مصر

عاش الجنرال فاديم اليكسييفيتش كريبشنكو، سيد الجواسيس السوفيات، أكثر سنوات حياته المهنية ازدهاراً في مصر، حيث أقام علاقات شخصية وثيقة مع الرئيس

(الراحل) جمال عبد الناصر وارتقى إلى رتبة «المندوب المقيم» للمخابرات السوفياتية في القاهرة (أي «سفير» المخابرات) في الفترة بين ١٩٧٠ و ١٩٧٤ بعدما خدم المرة الأولى في القاهرة بين ١٩٥٤ و ١٩٦٠. وعاد إلى موسكو بعد عام ١٩٧٤ ليتم تعيينه كنائب أول للمدير العام للمخابرات السوفياتية الخارجية، وهي أعلى رتبة متاحة لأي ضابط مخابرات محترف إذ يتم اختيار المدير من مجالات أخرى. ومن موقعه هذا كان الجنرال يشرف على نشاط وعمليات المخابرات السوفياتية في الشرق الأوسط خلال عهود الرؤساء عبد الناصر وأنور السادات والرئيس الحالي حسني مبارك. وقد جاء في الكتاب الذي صدر العام الماضي عن قصة المخابرات السوفياتية (كي.جي.بي.) من تأليف المؤرخ البريطاني كريستوفر اندرو وضابط المخابرات السوفياتية «اللاجىء» إلى الغرب اوليغ غورديفيسكي، جاء في هذا الكتاب أن نجاح الجنرال كيربيشنكو في مهمته في مصر هو الذي أدى إلى تعيينه في هذا المنصب الرفيع في موسكو. ووفقاً لهذا الكتاب فقد كان كيربيشنكو «يدغدغ مشاعر» سامي شرف أحد أقرب «المستشارين الأمنيين» إلى عبد الناصر، ويمتدحه ويقول له إن الزعماء السوفيات أنفسهم ـ بمن فيهم ليونيد بريجنيف ـ يعلقون أهمية على معلوماته وتقاريره ونشاطه في مجال المخابرات.

«كان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر بعد تأميم عبد الناصر قناة السويس غلطة حمقاء من جانب أعدائنا. إذ أننا لم نكد نصدق ما كان يحدث. وظلت موسكو تطلب معلومات منا. كان علينا أن نرفع تقارير إليها كل ساعة. ولأيام عدة لم يكن في مقدورنا مغادرة السفارة السوفياتية. إذ كنا نصعد إلى سطح البناية لمشاهدة عمليات القصف ثم ننزل مهرعين إلى الأسفل لنرفع تقريراً عن عدد الطائرات ونوعها ومكان سقوط قنابلها. ومنذ اليوم الأول كان المسؤولون يصرخون: «أين هي مساعدتكم؟» وفي الخارج كانت الجماهير تلوح قبضاتها نحونا. وقد نقلنا الأسلحة على جناح السرعة كما أننا أخذنا زمام المبادرة في الأمم المتحدة لوقف العدوان، فتغير كل شيء. وفي ذلك اليوم ركبت سيارتي وقلت لسائقي أن يتوجه إلى مكان ما. وفجأة أحاط الناس بالسيارة ورفعوها إلى الأعلى. وكان عبد الناصر أخبر سفيرنا أنه ينبغي علينا أن نضع علمنا في النافذة الأمامية والخلفية من سياراتنا لكي لا نتعرض للهجوم من الجماهير ظناً منهم بأننا أوروبيون آخرون. وكنت أترجم للسفير آنذاك. وأذكر أن عبد الناصر قال لنا: «لقد ضربنا الانكليز والفرنسيين واليهود علقة جيدة» العدوان كان غلطة جسيمة من الدول الثلاث وهو ما أدركه الرئيس ايزنهاور، ولكننا استفدنا من ذلك. وبعد

العدوان التقيت بعبد الناصر مرات كثيرة. وفي شهري نيسان (ابريل) وأيار (مايو) ١٩٥٨ قضيت أسبوعين برفقة عبد الناصر وذهبت معه إلى كل مكان في زيارته الأولى إلى الاتحاد السوفياتي. وفعلاً أصبحنا نعرف بعضنا على الصعيد الشخصي. وكانت تلك السنوات في القاهرة من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٠ أفضل سنوات حياتي كما أنها كانت سنوات مثمرة جداً لبلادي ولمصر. وكان نظيري لدى الأميركيين هو مايلز كوبلاند الذي كلفته وكالة المخابرات المركزية الأميركية (سي. آي. اي.) الاهتمام بعبد الناصر، وهو مؤلف كتاب «لعبة الأمم».

أحضرت السلاح سراً إلى مصر

غادرت القاهرة بعد ذلك وأمضيت سنوات عدة في أفريقيا ثم عدت إلى مصر عام ١٩٧٠ وبقيت فيها إلى العام ١٩٧٤ بصفة المندوب المقيم للمخابرات السوفياتية. لكن القاهرة كانت مختلفة سياسياً هذه المرة.

كانت ذروة الفترة الأولى من نشاطي هي توجيهنا الدعوة إلى عبد الناصر لزيارة الاتحاد السوفياتي. وفي تلك الفترة كنت مجرد ضابط عادي في كي. جي. بي. أما من الناحية الرسمية فقد كنت سكرتيراً ثانياً وملحقاً ثقافياً بمسؤوليات خاصة عن اليمن التي كان سفيرنا في القاهرة معتمداً لديها أيضاً. ولا بد من أن نتذكر أن مصر لم تكن بلداً صديقاً لنا حين ذهبت إلى هناك. وهكذا بدأت، كضابط مخابرات، في جمع المعلومات ووضع صورة كاملة عن نظام عبد الناصر الذي كان عمره آنذاك عامين. ولكن خير ما كنا نأمل فيه في البداية هو حدوث تحسن بطيء في العلاقات. وهكذا كان عام ١٩٥٦ عاماً عظيماً بالنسبة إلينا. إذ أن ايزنهاور انقذ ماء وجه أميركا بالانضمام إلينا ضد فرنسا وبريطانيا واسرائيل. ولكن اللوبي الاسرائيلي بدأ في الضغط عليه ولهذا تردد في تأييد مصر بصورة كاملة. وانتهزنا فرصتنا لنجعل من عبد الناصر صديقاً حقيقياً. إذ أننا كنا أرسلنا إليه أسلحة على جناح السرعة خلال القتال عام ١٩٥٦، ولكنه احتاج في ما بعد إلى امدادات كبيرة. وكنت أنا شخصياً أول من أحضر الأسلحة السوفياتية سراً لأول مرة إلى مصر. وتظاهرنا أنها كانت أسلحة تشيكية. كما أن المجموعة الأولى من الخبراء السوفيات جاؤوا بجوازات سفر تشيكوسلوفاكية. وأنت تسألني إذا كان السفير المصري في موسكو يجهل فعلاً العلاقة

العسكرية التي كان عبد الناصر يبنيها مع الاتحاد السوفياتي آنـذاك. من الممكن جداً. إذ أن السفير كان قد عين في عهد الملك فاروق. وكان عبد النـاصر يريـد الإبقاء عـلى علاقتنا في مجال الأسلحة سراً لا يعرف به الغرب. ولكن لا بـد لي من القول أن هـذا النهج كان ساذجاً لأن السر كان شائعاً، مما يعني أن الذي أشار على عبد الناصر بإبقاء الأمر سراً كان ساذجاً حقاً. وبعدئذ تراجع جون فوستر دالس وزير الخارجية الأميركي عن الوعد ببناء سد أسـوان العالي فتـولينا نحن الأمـر وبذا أصبحنـا أفضل صـديق لا منازع له بالنسبة إلى مصر. وكان السد العالي نفسه فكرة رائعة وفي منتهى الـذكاء، إذ أنه سيزود البلاد بالكهرباء ويزيد من طـاقتها عـلى صيد الأسـماك، بل وحتى سيحسن الطقس بالمساعدة على سقوط المزيد من الأمطار. أما العيب الوحيد له فهو أنـه سيقلل من كمية الطمي بعد موسم الفيضان السنوي».

علاقات مع المخابرات المصرية

وانتقل كيربيشنكو إلى الحديث عن فترة إقامتـه الثانيـة في القاهـرة كمعتمد مقيم للمخـابرات السـوفياتيـة بعد عقـد من الزمـان أي في عهد الـرئيس أنـور السـادات. ويتطرق في هذا المجال إلى الحملة التي شنها الأميركيون والغربيون عليه وعلى نشاطه في مصر والتي ركـزت على أن كـيربيشنكو وأعـوانـه «استغلوا ثقـة عبـد النـاصر وأسـاؤوا استخدامها بوضع عـدد من كبار المسؤولـين والمقربـين منه ـ أمثال سامي شرف وعـلي صبري ـ على جدول الموظفين الذين يتقاضون رواتب من المخابرات السـوفياتيـة وأحد الـذين حـركـوا هـذه الحملة هـو الكـاتب جـون بـارون الـذي ألف كتـابـه الشهـير «كي.جي.بي.» بمسـاعدة المخـابرات الأمـيركية عـلى حد قـول كيربيشنكـو. ويقـول كيربيشنكو في هـذا الصدد، «أعتقـد أن بارون وقـع ضحية للتضليـل، إذ أن الكتاب وضـع بسذاجـة وعفويـة. وكان من الـواضح أنـه مضـطر إلى إعـداده بسرعـة بسبب التوترات الدولية آنـذاك. وكان من الضروري تـزويد السـادات بذخـيرة ضد أولئـك الذين انتقدوا تودده لاسرائيل ورأوا فيه خلفاً بعيداً عن خط عبد النـاصر. كذلـك تم تأليف الكتاب بهدف ترهيب أميركا اللاتينية من «الخطر السوفياتي». إذ أن المكسيكيين طردوا بعض ضباط مخابراتنا من السفارة في مدينة مكسيكو. وقيل آنـذاك أنهم تغلغلوا في صفوف الطبقـة المثقفة في المكسيـك. ولكن بعض الاتهامـات كانت مضحكـة مثل اتهامنا بمحاولة الإطاحة بالحكومة المكسيكية وبأننا اشترينا الحركة العمالية وبـأننا نظمنا

إضراب الصحافيين، وأنه كان لنا بالطبع ضلع ودور في الارهاب. إننا مستعدون لتأييد المقاومة العسكرية للاحتلال مثلما تفعل منظمة التحرير الفلسطينية، لكننا كنا نخضع دائماً لقيود مشددة وتحت أوامر صارمة بعدم التورط إطلاقاً مع الارهابيين أو رجال العصابات في المدن. وحين جاء الرئيس المكسيكي اتشيفيريا إلى موسكو قال لنا صراحة أنه كان ضحية حملة من التضليل. أما أوضح الإجراءات النشطة التي كانت موجهة ضدي في كتاب بارون فهي في الفصل الثاني بعنوان: «أسرار من الصحراء» هذا الفصل كان موجهاً بصفة أساسية للتأثير في السادات، ولمحاولة وقف تقاربه مع الاتحاد السوفياتي. إذ أن السادات بدأ فعلاً في تحسين علاقاته مع الاتحاد السوفياتي عام ١٩٧٤، مع استخدامه واشنطن لكي تبلغ اسرائيل بأن نياته سليمة تجاهها. ولا بد من الاعتراف هنا بأنه كانت لنا بالفعل علاقات طيبة مع رجال المخابرات المصرية، وأستطيع القول أن الولايات المتحدة كانت تعرف ذلك».

ويتناول كيربيشنكو قضية أخرى وتتعلق بالإشاعات التي نشرتها بعض الصحف الأميركية عن الملك حسين وعلاقاته بالإدارة الأميركية. ويقول ان البعض اعتقد أن المخابرات السوفياتية لعبت دوراً في تسريب هذه الإشاعات لكنه يضيف: «لقد كان بيننا وبين الملك حسين ـ ولا تزال ـ علاقات ودية فعلاً، وهو رجل يفهم التطورات والأوضاع. وإنني أحتفظ في منزلي بصورة للملك حسين مع يوري أندروبوف مدير المخابرات السوفياتية الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً للحزب الشيوعي وزعيماً للبلاد. أما الشخص الذي يقف بينهما في الصورة فهو ابني سيرجي الذي كان مترجماً. لكن من المستحيل أن ننشر معلومات مضللة عن الملك حسين، إذ أن مثل هذه المعلومات لا تخدم أي هدف إطلاقاً. ولو نشرنا مثل تلك المعلومات عنه لكان ذلك بمثابة انتحار منا. «وبالطبع حققنا في القصة وخرجنا بنتيجة واضحة وهي أن المعلومات المضللة كانت من عمل بعض الجماعات العربية المعارضة له ومن اختلاقها. ودعني أقول لك بصراحة: نحن في كي.جي.بي. لم نصدق هذه الإشاعات إطلاقاً».

يوم في حياة جاسوس

وطلبت من كيربيشنكو أن يصف لنا يوماً عادياً من أيام عمله في القاهرة حين كان مسؤولاً عن أكبر محطة للمخابرات السوفياتية في العالم العربي. ويتضح مما قاله لنا أنه استمتع إلى درجة أكبر كثيراً بأيامه حين كان ضابطاً في المخابرات و«ملحقاً ثقافياً»

قبـل أن يتولى مسؤولية المحـطة كلهـا. ويقـول: «كنت أستمـع إلى محـطات الإذاعـة العربية أثناء تناولي طعام الفطور وأثناء ادائي تمرينـاتي الريـاضية. إذ كـان مطلوبـاً من جميع ضباط كي. جي. بي. أن يقوموا بتمارين رياضية. وكنت دائماً أستيقظ مبكراً، أي قبل أن تشتد درجة الحرارة. وبحلول السـاعة الثـامنة صبـاحاً كنت أجلس في مكتبي لأقـرأ الصحف وبـرقيـات كي. جي. بي. إلى المحـطة، ثم اتحـدث إلى زمـلائي. وفي السفارة كان يعقد مؤتمراً لرؤساء الأقسام يومياً حوالي الساعة الحادية عشرة. وكنـا نقيّم التطورات. وفي حوالي السـاعة الحـادية عشرة والنصف أو السـاعة الثـانية عشرة كنت أغادر المبنى أحياناً لأنني كنت أسعى دائماً إلى الالتقاء بالنـاس الذين يثـيرون الاهتمام. وبعدئذ أتناول طعام الغداء ثم آوي لفترة القيلولة قبل أن أعود إلى متابعة العمل حتى وقت متأخر من الليل. وحين كانت الوفود الحكومية تأتي كنت أخرج على هذا الروتين لأنه كان علينا أن نرافقهم كمترجمين في كل مكان. ولما كان ستاري في السبعينات هـو أنني كنت قنصلاً في السفارة فإن واجباتي في هذا الإطار كانت ثقيلة. فقبل عـودتي إلى السفارة في المساء كنت أستمـع بالـطبع إلى محـطات الإذاعة مـرة ثانيـة وأشاهـد أخبار التلفزيون. أما محطة كي. جي. بي. فكانت ترصد الإذاعات العالمية.

نجوم السادات

وحـين كنـا في مصر لأول مـرة كـان لـدينـا الكثير من الـوقت كـما انني التقيت بالكثيرين من المصريين: من صحافيـين ودبلوماسيـين وكتّاب وفنـانين وممثلين وغـيرهم من المثقفين. وكنت بحاجة إلى هذه الاتصـالات لكي أحصل عـلى صورة أفضـل عن الوضع في البلاد، ولكي أحسن بالطبع لهجتي العربية المصرية. وكنا نستقبل الضيوف في منزلنا مـرة أو مرتـين كل أسبـوع. وكانت زوجتي تـرعى الكتّاب المصريـين بشكل خـاص. ويمكن القول أنها هي التي اكتشفت بشكـل أو آخر يـوسف ادريس الكـاتب المصري الكبير. كان يوسف ادريس متعاطفاً مع الشيـوعية، وكـان أرسل إلى معسكـر اعتقال في عهد الملك فاروق وبقي فيه لفـترة من الزمن بعـد قيام الثـورة المصرية عـام ١٩٥٢. وبعد إطلاق سراحه كان يتردد كثيراً على بيتنا. وكـانت زوجتي ترى أن لـديه إمكانات كبيرة. وقد أحضر لنا أول مجموعة من قصصه. وبعد أربع أو خمس سنـوات أصبح أحد أشهر الكتّاب في العالم العربي. وقد استخدمت زوجتي أعماله في أطروحتها للدكتوراه، كما انها ألّفت كتاباً عنه. لكنه كان دائماً في حـالة صحيـة سيئة ولهـذا توفي

عن عمر صغير نسبياً. ومن الطبيعي أن كل هذا ساعدني في عملي الاستخباري. إذ أن جميع الناس الذي التقيت بهم في تلك الجولة الأولى أصبحوا مشهورين وشخصيات مرموقة سفراء ومؤلفين وصحافيين وما إلى ذلك. وحين اختلف السادات مع البعثة العسكرية السوفياتية عام ١٩٧٢ كانت تلك لحظة حزينة، ولكنها لم تضعف إطلاقاً من تعاطفي مع مصر. وأنا أحتفظ باحترامي والشخصي لعبد الناصر لأنه كان الرجل المناسب في اللحظة المناسبة من التاريخ. كان عبد الناصر رجلاً متواضعاً. وكان هناك قدر كبير من الدعاية ضده وعن الفساد وحسابات البنوك السويسرية، لكننا حققنا في كل ذلك ولم يكن فيه أية صحة. وعندما توفي لم يكن في حسابه الخاص إلا حوالي ستة آلاف جنيه مصري.

«أما الذين جاؤوا فقد أرادوا نجوماً على أكتافهم وزياً خاصاً وأشرطة ذهبية. وحين قتل السادات كان التصويب عليه سهلاً لأنه كان مغطى بالأشرطة والأوسمة الذهبية، وبدا وكأنه واجهة لسينما. أما عبد الناصر فقد كان برتبة بكباشي حين وصل إلى السلطة وظل كذلك ولم يرفع نفسه إطلاقاً. كذلك ظل يسكن في البيت نفسه. وكان يتمتع بصفات وخصائل تنتزع الاحترام. السادات كان على عكسه تماماً أما الرئيس حسني مبارك متواضع كثيراً، وشخصيته متعاطفة وملفتة للنظر، كما إنه يحاول عدم تكرار أخطاء السادات. ما الذي أفتقده من سنواتي في القاهرة؟ أفتقد جو العمل. إذ أن آخر ١٨ عاماً لي في موسكو كانت إدارية. لكن العمل اليومي لضابط المخابرات الميداني مختلف. فأنت تلتقي أناساً مختلفين. تلتقي بشخص مثلاً يفتح آفاقاً جديدة فترى المستقبل. وكنت أشعر بمتعة حين أحلّل المعلومات، كما أن عملي كان أشبه بعمل المراسل الصحافي. وماذا عن الطعام؟ إنني أشتاق إلى جميع أنواع الأكل المصري. فقد كان اللحم طازجاً دائماً ولم يكن مثلجاً كما هو هنا. وأنا أحببت الكباب والكفتة والشاورما والحمام الذي لم يسبق لي أن أكلته. والمصريون يربون الحمام ويصدرونه إلى فرنسا وغيرها من الدول. إن كل بلد عربي له طعامه. فهناك مأكولات رائعة في الجزائر والمغرب. هل أكلت البوريك في تونس؟ إنني أعشق الكسكس. وهل الأتراك هم الذين جاؤوا بالأطباق والمأكولات العربية واليونانية؟ أم هل حدث العكس؟ أعتقد أن كل طرف أغنى مأكولات الطرف الآخر».

وسألت كيربيشنكو ما إذا كان ابنه سيرجي الذي يعمل حالياً في السفارة في

الرياض ضابطاً في المخابرات فقال: «لا. هناك قاعدة متبعة في موسكو وهي أنه لا يجوز للأب والابن معاً أن يعملا في أجهزة المخابرات. صحيح أنه كانت هناك حالات استثنائية قليلة في الماضي، ولكن ليس الآن. أما ابنتاي فمن مواليد القاهرة وهما توأم. وتدرس إحداهما العربية في الأكاديمية العسكرية بينما الأخرى ربة بيت الآن. أما زوجة ابني في الرياض فهي تتكلم الفارسية ولدينا أربعة أحفاد يقلبون البيت رأساً على عقب. كذلك يتحدث أحد أصهاري اليابانية. وهكذا في وسعنا أن نفتح مدرسة للغات الشرقية من العائلة!».

هكذا خسرنا مصر

وانتقل الحوار مع الجنرال إلى مرحلة «القطيعة» بين مصر والاتحاد السوفياتي اثر قرار السادات طرد الخبراء السوفيات في صيف ١٩٧٢. فسألته عما جرى آنذاك وما طبيعة التقارير التي كان يرسلها إلى موسكو بشأن هذه القضية. أجاب كيربيشنكو: «بدأنا نخسر مصر قبل طرد البعثة العسكرية السوفياتية عام ١٩٧٢. وأنت محق، العامل الأساسي كانت شخصية الرئيس السادات نفسه. ودعني أعود قليلاً إلى الوراء.

اللواء محمد نجيب هو الذي قاد الثورة، لكنه كان مجرد رئيس رمزي. ثم جاء عبد الناصر فالسادات فمبارك. وجميعهم من أصول واحدة لأنهم جميعاً من عائلات الفلاحين الموسرة، وكانوا عسكريين. فالقوات المسلحة هي أفضل مكان لصبي ذكي ليست له خلفية عائلية مرموقة لتحقيق شيء مهم. ولهذا فهم جميعاً يتعاطفون مع الفلاحين ومع العسكريين. وكانوا جميعاً يؤمنون بمبدأ وهو أن حكم مصر يعني وجوب وجود دولة جيدة التنظيم تعطي المزارعين دوراً مهماً. وقلت في تقاريري إلى موسكو أن عبد الناصر والسادات ومبارك كانوا مختلفين عن بعضهم البعض مع أن خلفياتهم كعسكريين وكأبناء عائلات فلاحين موسرة واحدة. لقد بدأوا بالطريقة نفسها لكن النتائج كانت مختلفة لكل منهم. ولمعرفة نقطة التحول التاريخية في العلاقات المصرية ـ السوفياتية لا بد لك وأن تعود إلى عهد عبد الناصر. كان عبد الناصر يعتقد أن عليه من أجل حل مشكلات مصر والانتصار على اسرائيل، أن يبدأ أولاً بتطبيق إصلاحات داخلية. فقد أبلغ سفيرنا، حين كنت مترجماً بينهما، أنه يجب أن يكون لمصر جيش

قوي لأنه لا يمكن لبلد أن يكون قوياً إلا إذا كان جيشه قوياً. كما أنه أولى اهتماماً كبيراً بالتعليم العالي والتنمية الزراعية والصناعية. وفي الوقت نفسه أبلغنا اعتقاده أن توحيد العرب كافة سيقود إلى تحقيق النصر لهم على اسرائيل. ولهذا لجأ إلى الوحدة مع سورية عام ١٩٥٨ وقد دعم اليمن الجمهوري ولكن هذا أدى إلى نشوب صراع بينه وبين الدول العربية الأخرى.

كان عبد الناصر مثل نهرو ومثل تيتو. فالثلاثة أسسوا حركة عدم الانحياز. لكن عبد الناصر لم يستطع تحقيق النصر على اسرائيل أو حل المشكلة الفلسطينية. وعندما توفي عام ١٩٧٠ كانت الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ترزح كلها تحت الاحتلال الاسرائيلي. أما السادات فقد بدأ البحث عن الأسباب الجذرية لفشل عبد الناصر. كان في وسعه أن يقوي جيشه من خلال استمرار العمل مع المستشارين العسكريين السوفيات، لكنه لم يكن يؤمن بأن الجانب العسكري وحده سيحل المشكلة مع اسرائيل، بل رأى أن العوامل السياسية أهم. كذلك كانت سياسته الداخلية مختلفة. فعبد الناصر بنى قطاعاً عاماً قوياً من الصناعة في البلاد لكن القطاع كان يعاني من مشكلات كثيرة حين توفي. ولهذا بدأ السادات يفكر في أفضل الطرق لاجتذاب رأس المال من الدول العربية الغنية. ورأى في البورجوازية المصرية قاعدة سياسية جديدة. وباختصار خرج بنتيجة مفادها أن المهم هو حل مشكلات الشرق الأوسط بالسبل السياسية لا العسكرية، مع الحفاظ على القوة العسكرية لانجاح العمل السياسي.

وقرر السادات أن المفتاح لحل المشكلة مع اسرائيل يمكن في أيدي الولايات المتحدة، وليس في أيدي السوفيات أو الاسرائيليين أو العرب. وهكذا بدأ اتصالاته مع هنري كيسينجر وريتشارد نيكسون. ورغم ماضيه الثوري ضد بريطانيا فإنه كان حريصاً على أن يكون مقبولاً لدى الغرب. كذلك لم يكن لديه أي تعاطف خاص مع الاتحاد السوفياتي».

الأولوية لسيناء

ويتابع كيربيشنكو كلامه فيقول: «لقد كتبت كل هذا الكلام في التقارير التي بعثت بها إلى موسكو. ولم يكن السفير السوفياتي في القاهرة آنذاك فلاديمير

فينوغرادوف يتفق معي في الرأي دائماً، لكن ذلك لم يبدل موقفي. ومما ذكرته في تقاريري أن السادات اتخذ قراراً، في ضوء دراساته لمختلف الأوضاع الاقليمية والدولية، أنه يجب أن يركز جهوده على تحرير سيناء وإخراج الاسرائيليين منها على أساس أن تحرير سيناء أسهل من حل أية مشكلة أخرى من مشاكل أزمة الشرق الأوسط، وعلى أساس، أيضاً، أن سيناء هي الأهم بالنسبة إلى مصر. وعلى هذا الأساس رفض السادات السعي إلى حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي ككل وبشكل شامل، وأعطى الأولوية في سياسته لتأمين وضمان مصالح مصر قبل غيرها.

ومن هذا المنطلق، أيضاً، رأى السادات أن الحل السياسي للنزاع مع اسرائيل يجب أن يبدأ بعمل عسكري، فبدأ يخطط لشن حرب محدودة ضد اسرائيل. إذ قرر أنه ينبغي عليه إظهار قوته وتلقين الاسرائيليين درساً لكي يدركوا قوته ويقتنعوا بالتالي بالتفاوض معه. وهكذا كانت حرب ١٩٧٣. إن العالم أجمع شاهد كيف قطع الجيشان السوري والمصري مراحل بعيدة في التطور وقد أبلى الجيشان بلاء ممتازاً في حرب ١٩٧٣ بفضل المساعدة التي كانا حصلا عليها من المستشارين السوفيات. كما أن الجيشين حققا في بداية الحرب انتصارات مهمة. وفي الوقت نفسه بعث السادات من يجسّ نبض الغرب ويبلغه أنه مستعد لبدء حوار مع اسرائيل. وأدى إغلاقه بعثتنا العسكرية إلى اكتساب هذا المسعى مصداقية لدى الغرب. كما أن كتاب بارون جعل انعدام ثقة السادات في السوفيات أمراً يلغي الاحترام في الغرب لأنّه صوّر البعثة السوفياتية على أنها وكر للجواسيس وخيانة للثقة المصرية فيها. وكان الكتاب تضليلاً ناجحاً. ولا بد لي من الاعتراف بأننا لم ننجح إطلاقاً في اتقان فن التضليل مثلما نجح خصومنا فيه. صحيح أننا لجأنا إلى التضليل لكننا لم ننجح مثلهم، وقد وجهوا تهماً خطيرة ضدنا لكنها كانت مختلقة. إننا رعينا ودعمنا القوات المسلحة المصرية وغيرها من القوات ولكننا لم نساعد الارهاب أبداً. ومن أعنف كتب التضليل التي وضعت ضدنا رواية فريدريك فورسايت. حبكة الرواية تقول إن «مهاجرين غير قانونيين» من السوفيات الذي كانوا يعملون معي هربوا سلاحاً نووياً إلى بريطانيا، وفجروه قرب قاعدة أميركية. ويقود هذا الحادث إلى موجة من السخط ضد الأميركيين وإلى تولي الحزب الشيوعي البريطاني السلطة في البلاد. ولكن الحقيقة هي أن هذه الرواية لا صلة لها على الإطلاق بما تقوم به المخابرات السوفياتية في بريطانيا.

ولا شك أن فورسايت استشار أحد الذين انشقوا علينا مثل اوليغ غورديفسكي

أو فلاديمير كوزيتشكن. وفي تقديري أن غورديفسكي هو الذي كتب كتاب «كي. جي. بي.: القصة من الداخل» بالتعاون مع كريستوفر اندرو. وأنا أعتقد ذلك لأن غورديفسكي أقل دقة من كوزيتشكن، مع أنني لم التق شخصياً أبداً مع غورديفسكي. ومن الواضح أن الذي ساعد فورسايت على وضع كتابه لم يكن يعرفني شخصياً».

تدريب رجال المخابرات العربية

وقلت لكيربيشنكو أن كتباً عدة عن المخابرات السوفياتية ذكرت أن الرؤساء عبد الناصر وحافظ الأسد لم يكونوا يعلمان بأن المخابرات السوفياتية كانت تدرب ضباط المخابرات المصرية والسورية فهل هذا أمر ممكن؟ أجاب: «في الثاني من أيار (مايو) ١٩٥٨، حين كان عبد الناصر في موسكو، عرضنا عليه خبراتنا في مجال المخابرات، فأعرب عن رغبته في تدريب بعض موظفي مخابراته في هذه البلاد. وبعد ذلك كان يطلب تقارير بصورة منتظمة عن تقدم تدريبهم.

وبالنسبة إلى الرئيس الأسد كان الأمر مشابهاً، إذ لم يسبق لنا أن عملنا مع أحد إطلاقاً من دون موافقة حكومته. وكانت كل الشروط تبحث على أعلى المستويات مع جميع البلدان. كما أننا لم نكن البادئين بهذه الاتصالات في معظم الأحوال».

قلت له بغض النظر عن عدم التقائه مع سامي شرف، فقد كان شرف عاملاً ايجابياً في العلاقات المصرية ـ السوفياتية. وسألته كيف استطاع كيربيشنكو تنظيم شبكة في مصر من دون الالتقاء مع سامي شرف؟ رد بقوله: «كان شرف يعرف بوجودي لكنه لم يكن بيننا اتصال. فهل كان عاملاً ايجابياً من وجهة نظرنا؟ إن الأشخاص الذين اعتقلهم السادات في ١٥ أيار (مايو) ١٩٧١ كانوا أناساً أسندت اليهم الصلاحية للإبقاء على جودة العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. وكانوا جميعاً زاروا موسكو مرات عدة في مهمات حكومية. والشخصيات الرئيسية بينهم هي: نائب الرئيس علي صبري، وشعراوي جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي، وسامي شرف الذي كان المنسق العام لجميع الأجهزة الخاصة. وكان لدي اتصال مع رؤساء الأجهزة المصرية الخاصة ولكن لم يكن هناك

شبكة بالمعنى الحقيقي للكلمة. إذ كنت مسؤولاً عن أمن جميع المؤسسات والمرافق السوفياتية في مصر. وكنت ضابط الاتصال مع أجهزة الأمن لجميع أجهزتنا الرئاسية والحكومية بما في ذلك أمن كبار المسؤولين السوفيات حين يزورون مصر. وبالطبع كانت لنا علاقات سرية مع بعض المصريين وكنا نحصل على بعض المعلومات من خلال تلك القنوات. كما أن الكثيرين من مواطنينا كانت لهم صلات وعلاقات مع مصريين. وكان الدبلوماسيين السوفيات ينقلون إلي معلوماتهم. وكنا نحصل على قدر كبير من المعلومات من وسائل الإعلام. وكان عبد الناصر يعرف عن نشاطنا الاستخباري. إذ كان علينا أن نتصرف بتستر لكي نتجنب إعطاء أي أساس للتذمر والشكوى لا سيما بعد أن أصبحت العلاقات السوفياتية ـ المصرية ودية جداً ولم نكن نرغب في إفسادها.

وكانت الجالية السوفياتية في مصر ضخمة، ولذا كانت تصلنا المعلومات حتى من أدنى المستويات. وكان مستشارونا العسكريون لهم وجود في مختلف أسلحة الجيش وعلى كل المستويات. ولهذا كان لدينا مصادر كافية للحصول على المعلومات هناك من دون استخدام مصادر المخابرات المدنية. لكن المشكلة كانت تتمثل في تحليل كل ما يتجمع لدينا. والآن وقد بدأت في كتابة مذكراتي أخذت أدرك أن جمع المعلومات أسهل كثيراً من تحليلها. وهكذا كان وجودنا راسخاً وقوياً في مصر. ومن الطبيعي أن تكون هناك استفزازات. فمثلاً اعتقل المصريون أميركياً يونانياً وطردوه، ولكن الأميركيين هم الذين خططوا لذلك. وإثر ذلك أعلنت مصر أن ثلاثة مستشارين عسكريين سوفيات غير مرغوب فيهم لأنه كان لهم كما قيل صلات مع اليوناني الذي كان يعمل في الإنشاءات العسكرية ولديه اتصالات مع عسكريينا. وقيل أيضاً أن الثلاثة أعطوا اليوناني معلومات نقلها بدوره إلى اسرائيل ـ عن تحديد أهداف مصرية للقصف وما إلى ذلك ـ وكان ذلك استفزازاً ذكياً وماهراً. إذ أن رجالنا لم يفعلوا شيئاً، كما أن اليوناني لم يفعل شيئاً أيضاً. ولكن لما كان أميركياً فإن القصة بدت مقنعة. ولما كان الأميركيون أنفسهم هم الذين كشفوا أحد مواطنيهم للمصريين فإن هذا كان شيئاً جيداً من جانبهم، كما أنه يشير إلى أن مستشارينا من ذوي الرتب الدنيا والرواتب المنخفضة يمكن لاسرائيل أن تغريهم، وبالتالي فإن من الخطر وجود المستشارين السوفيات على أي مستوى. كذلك نشر الطرف الآخر تقارير مفادها أن الروس كانوا يهربون الذهب إلى خارج مصر فبدأت عمليات تفتيش دقيقة لأمتعة المستشارين العسكريين السوفيات في المطار. وكل ما كان معهم هو مجرد مجوهرات عادية. وهكذا

فإن الجانب الآخر كان قلقاً من «شبكتنا». لكن الصحيح هو أن شبكتنا كانت تتألف في معظمها من أنفسنا، ومن أبنائنا».

ماذا قلت لأندروبوف؟

وعدت بالجنرال كيريشنكو إلى السبعينات. إذ أن المنسق فلاديمير كوزيتشكن الذي يعيش بهوية جديدة في بريطانيا قال عام ۱۹۹۰ أن السفير السوفياتي في مصر عام ۱۹۷۲ فلاديمير فينوغرادوف كان يرفع تقارير باستمرار إلى موسكو يقول فيها أن العلاقات السوفياتية مع السادات ستظل جيدة، بينما كان كيريشنكو يتوقع أن يقطع السادات العلاقات العسكرية مع موسكو. وحين ثبتت صحة ما توقعه كيريشنكو نقل فينوغرادوف الذي كان عضو اللجنة المركزية للحزب ليشغل منصب نائب وزير الخارجية دون تكليفه بأي واجبات. وتبعاً لما يقوله كوزيتشكن فإن رئيس الوزراء اليكسي كوسيغن قال: «رفعوا المسؤول المعتمد في القاهرة إلى رتبة جنرال وأعيدوه إلى موسكو ليتولى منصباً رفيعاً». وأدى ذلك كما يقول كوزيتشكن إلى أن يصبح كيريشنكو سيد الجواسيس السوفيات عام ١٩٧٤. فهل هذه القصة صحيحة إذن؟

يقول كيريشنكو: «نعم إلى درجة ما. إذ أن السفير فينوغرادوف ودبلوماسيين آخرين، وليس السوفيات وحدهم، توصلوا إلى نتيجة مفادها أن مصر لا يمكنها الاستغناء عن مساعدة السوفيات لها. وكان فينوغرادوف يعتقد أن السادات يناور لإرضاء الولايات المتحدة لكنه يريد الاحتفاظ في الوقت نفسه بالمساعدات السوفياتية. لكنني أرسلت تقارير مناقضة في مضمونها لتقارير فينوغرادوف قلت فيها أن السادات بدأ يبتعد عن موسكو وأنه يضع في رأس اهتماماته استعادة سيناء وأنه سيحتاج إلى المساعدة الأميركية للضغط على اسرائيل في هذه المسألة. وقلت لأندروبوف أن هذا هو تحليلي للوضع. وفعلاً كنت مصيباً وإثر ذلك تمت ترقيتي إلى رتبة جنرال.

وأنت تسألني ما إذا كان تحليلي قد استند إلى معلومات من أشخاص مصريين. كلا، إذ أن الأشخاص الذين يذكرهم بارون مثل سامي شرف كانوا معتقلين أصلاً. لكنني درست القيادة المصرية بدقة ـ وكما قلت لك، كان لدينا طبعاً بعض العملاء في مصر قبل أن تنشأ العلاقات الودية الجيدة معها. لكن ما توصلت إليه كان نتيجة تحليل. إذ إنني مثلاً فسرت طرد أصدقائنا المصريين من مراكزهم على أنه جزء من

خطة أوسع ـ لأن اعتقالهم لم يكن له أي أساس أو مبرر. فقد اعتقل السادات الناس الذين كانوا على اتصال بالقيادة السوفياتية وكانوا يعارضون «إعادة النظر في العلاقات» مع الاتحاد السوفياتي. صحيح إنني أعاني من قصر النظر ولكنني أستطيع أن أرى إلى أبعد من أنفي. وبدا لي أن كل ذلك يعني شيئاً واحداً. قلت لأندروبوف رئيس المخابرات آنذاك: كان عبد الناصر سياسياً من الوسط ويضع مصر أولاً ولكن برنامجه أشمل وأوسع. أما السادات فهو ينتمي إلى اليمين المتطرف. فهو معجب بهتلر وكتب عنه بإعجاب في مذكراته. وهو يشير إلى أن ما يعجبه في تشرشل وستالين صفاتهما الاستبدادية. وكان يحاول فعلاً تقليدهما. كان السادات معجباً بالخداع. وأوضحت لأندروبوف مثلاً أن محادثات عبد الناصر مع القادة السوريين كانت تختلف كلياً عن محادثات السادات معهم. إذ أن السادت كان دائماً يلف ويدور ويراوغ. دعني أقول لك شيئاً: حين كان السادات يتحدث من الإذاعة كنت أطفىء كل شيء آخر في الغرفة وأسكت كل ضجة أخرى فيها مثل الهاتف وجهاز التكييف وأي جهاز أو آلة أخرى، وأنصت ليس لما يقوله فحسب، بل ولصوته. إذ أنني كنت أستطيع دائماً أن أعرف متى سيكذب. وكان في الوسع أن يكون السادات ممثلاً جيداً أو ممثلاً في الميلودراما. وحين يبدأ التمثيل كنت أقول لنفسي: إنه سيكذب الآن. ودعني أقول لك أن نسبة العمل التحليلي في المخابرات في ازدياد مضطرد. إذ أن المعلومات لا قيمة لها عادة من دون تحليل».

الأسد حكيم . . وصدام متهور

يتابع كيربيشنكو سرد مذكراته فيبدأ بالحديث عن الرئيسين حافظ الأسد وصدام حسين. ويقول كيربيشنكو عن الرئيس السوري «التقيت الرئيس الأسد مرات كثيرة. أحياناً لبحث قضايا المخابرات وأحياناً في مناسبات رسمية. أما بالنسبة إلى شؤون المخابرات فقد كنا نتعامل بشكل أساسي مع خبرائه الذين دربنا بعضهم. وكانت سورية ومصر على الدرجة نفسها من الأهمية بالنسبة إلينا في تلك المنطقة. وبدأ الأسد بقيادة سلاح الطيران، مما يعني أنه بدأ وهو يفتقر إلى الخبرة السياسية. إلا أنه اكتسب هذه الخبرة السياسية بسرعة كبيرة. وأنا من المعجبين على الدوام بالطريقة التي يتحدث بها الأسد. فهو لا يمكن أن يتعجل إطلاقاً. كما أنه يخلق بشكل أو آخر جواً

يشجع على المحادثة بتأمل وعمق. والصحافة الغربية تتحدث عن الأسد أحياناً أنه يستطيع أن يكون عديم الرحمة ولا يعرف الهوادة، ولكنه رجل حكيم وعلى درجة هائلة من الصبر. فسورية فيها فئات ومذاهب دينية مختلفة من مسيحية وإسلامية. ولكنه استطاع إدارة كل النزعات والاتجاهات فيها بشكل تفادى معه التمييز بين المجتمعات المختلفة. وسعى دائماً إلى تحقيق التفاهم والوفاق. وقد رفعت تقريراً إلى المركز قلت فيه أن لدى الأسد روح نكتة ذكية جداً وله طبيعة سخية كريمة، وهو متفهم ويخلق جواً من الاحترام. ونظراً إلى أن لبنان، يجاور سورية، فإن سورية محظوظة بشكل خاص لأنها تنعم بزعيم سياسي حكيم. والأسد حذر جداً، ويستخلص النتائج والعبر من كل خبرة. وليس من طبيعته أن يتصرف بشكل متهور أو أن يتخذ إجراءات لا يمكن توقعها. كما أنه ليس في سياسته أي شيء نابع عن إساءة التفكير أو التقدير. ونحن ليس لدينا أية مشكلات في علاقاتنا مع سورية. فمستويات المعيشة في سورية عالية، ليس بالمقارنة مع السعودية أو الكويت، وإنما بالمقارنة مع دول ذات اقتصاد شبيه بالاقتصاد السوري. وهناك قدر كبير من العمران. وأنا لا أقارن هنا دمشق بالقاهرة وإنما أقارن بلداناً بأكملها. وحتى المدن الصغيرة تثير الإعجاب. وفي هذا ما يوضح أسباب شعبية الأسد. فالفضل يعود إليه. والبلد أشبه بموقع إنشاءات ضخم. وإذا كان ما أقوله دليلاً على أننا نريد الاحتفاظ بعلاقات ممتازة مع سورية، فإن هذا صحيح. إذ ليس هناك أي بلد في المنطقة أقرب إلينا من سورية.

أما صدام حسين فهو مختلف تماماً. وأنا لم أذهب إلى بغداد إطلاقاً. ولكن أصبح لدي من التقارير التي تلقيتها على مر السنين صورة واضحة جداً عن الرئيس صدام حسين ونظامه. فهو والأسد مختلفان عن بعضهما البعض كلياً. فالأسد رجل صبور وحذر ويهتم بأدق التفصيلات ويشعر بحساسية مرهفة تجاه الثقافات. أما صدام فهو رجل عمل ولكنه مندفع ومتهور. والحديث عن أشخاص لا يزالون في السلطة أمر فيه إحراج. ولكن دعني أقول ما يأتي: إن صدام حسين هو الذي تسبب بحرب الخليج الثانية بعد احتلاله الكويت. ونحن أيدنا ما قررته الأمم المتحدة ولا نزال نؤيد قرارات المنظمة الدولية بشأن العراق».

الزعماء الاسرائيليون كلهم روس

كل زعماء اسرائيل من بن غوريون إلى شامير جميعاً روس! لقد كان بيغن يقول عن نفسه إنه بولوني ولكنه ينتمي في الحقيقة إلى منطقة على الحدود كانت روسية قبل الثورة. ولهذا فهم يعرفون واقعنا. إذ أن جميع الاسرائيليين من الجيل الأقدم وصلوا إلى فلسطين ولديهم معرفة جيدة عن روسيا. جاؤوا إلى فلسطين لإقامة دولة اشتراكية كدولتنا. وبفضل المساعدات الأميركية صمدت إلى درجة كبيرة: إذ أن ٧٨ في المئة من الأراضي تملكها الدولة. وهي دولة مثل دولتنا فيها درجة عالية من الأمن والمخابرات. ويمكن أن تسمي اسرائيل دولة بوليسية.

وفي عهد بن غوريون كانوا يستخدمون اللغة الروسية في اجتماعات مجلس الوزراء. وأنا أعرف ذلك لأنني استمعت إلى تسجيلات بعض تلك الاجتماعات. وهكذا كانت اسرائيل مقاطعة من روسيا. وكان بيغن أقلهم جميعاً أهلية للاعتماد عليه، إذ بدأ حياته السياسية في وقت مبكر كان يرأس حركة الشبيبة اليهودية في بولونيا. وفي عام ١٩٣٩ التجأ إلى روسيا بعد أن عبر الحدود بصورة غير قانونية ليهرب من بولونيا التي طلب إليها الألمان اعتقال اليهود. ونظراً إلى أنه عبر الحدود بصفة غير مشروعة فقد أثار شكوكنا فاعتقلناه ونفيناه في الداخل. وبعد أن أنهى مدة الحكم انضم إلى الجيش البولوني بقيادة الجنرال اندريش الذي كان يقاتل ضد ألمانيا وإلى جانب روسيا منذ أواسط عام ١٩٤١ . وبعدئذ هرب من الجيش وذهب إلى فلسطين. وهناك انضم إلى الكتيبة اليهودية في الجيش البريطاني لمقاتلة النازيين. ومرة أخرى هرب من الجيش وبعث باسحق شامير إلى دمشق لكي يعقد صفقة أسلحة مع النازيين ضد الحلفاء. إلا أنه علينا أن نكون منصفين أيضاً. فبيغن استطاع تحييد مصر بتحقيق السلام مع السادات، وعلينا أن نعترف أن ذلك كان إنجازاً لاسرائيل، إذ لم يسبق لأي زعيم اسرائيلي آخر أن أظهر هذا القدر من بعد النظر. فقد خدع السادات وكارتر وأقنعهما بالتخلي عن الفلسطينيين.

المخابرات الاسرائيلية

أما عن وضع المخابرات الاسرائيلية، «إننا نكن احتراماً كبيراً جداً لكفاءة الموساد وغيرها من أجهزة المخابرات الاسرائيلية. والموساد جهاز مخابرات غير عادي. ولكن وكالات المخابرات الاسرائيلية الأخرى هي بالجودة نفسها أيضاً. فالموساد من أقوى أجهزة المخابرات في العالم أجمع. وهي في مكانة فريدة لأن اليهود يعيشون تقريباً في كل مكان من العالم وهم لا يضعون ولاءهم للوطن الذي يعيشون فيه في المرتبة الأولى دائماً. كما أن جميع اليهود تقريبابً يتلقون تعليماً صهيونياً. فهم يتعلمون أن «فلسطين هي وطنهم ووطن كل اليهود». والأمر أشبه ما يكون بالماركسية ـ اللينينية في عهد ستالين: تلقين يشترط الولاء الكامل المطلق، وهو تلقين لا يعتبر أحداً آخر على المستوى الإنساني نفسه. واسرائيل مجتمع يقوم على أسس الاتحاد نفسه في عهد ستالين. إلا أن أجهزة المخابرات اليهودية كانت موجودة في فلسطين قبل قيام اسرائيل. وهناك نص أساسي تدرسه وكالة المخابرات المركزية الأميركية (سي. آي. ايه.) وهو أن المخابرات هي ثاني أقدم مهنة في التاريخ بعد الدعارة، وأن أول ضابط مخابرات في التاريخ كان يهودياً. وهكذا كان اليهود أول شعب يقوم بنشاط تجسسي».

اسرائيل فيها سبع وكالات مخابرات:

● أولاً، «الموساد». وهي لا تعطي حتى أسماء القادة. إن الناس في الغرب يقولون إن «كي. جي. بي.» كانت دولة داخل دولة وإنه ليس هناك أية وكالات مخابرات بحجمها. لكنك إذا قارنت «كي. جي. بي.» مع شبكة مخابرات اسرائيل لوجدت «كي. جي. بي.» مجرد هيكل شكلي.

● ثانياً، جهاز الأمن العام، «شاباك»، الذي يطلق عليه خطأ في العادة اسم «شين بيت».

● ثالثاً، دائرة مخابرات الأركان العامة ـ «أمان».

● رابعاً، «نطيف بار». وهذا الجهاز الخاص ليس له معادل في أي مكان آخر من العالم. وهو مسؤول عن أعمال المخابرات داخل الجاليات اليهودية في الاتحاد السوفياتي السابق وأوروبا الشرقية (سابقاً).

● خامساً، مركز الدراسات والتخطيط السياسي في وزارة الخارجية. وهو يقوم بالتحليل، كما إنه على درجة عالية جداً من الاحتراف والكفاءة.

● سادساً، قوة خاصة من العسكريين والشرطة لاعتقال الناس نيابة عن أجهزة المخابرات، وفيها أوجه شبه من جزء مخابراتنا الداخلية في «كي. جي. بي.».

● سابعاً، لجنة التنسيق لجمع المعلومات العلمية والفنية. وهذه هي المجموعة التي جندت الجاسوس الأميركي جوناثان بولارد. لكنها لا تجند مباشرة أبداً. فهي تجذب المتطوعين خطوة خطوة وتجعلهم يعملون أكثر فأكثر. وهي مثل وعاء سرطان البحر: من الأسهل الزحف إلى داخله بدلاً من الخروج منه.

وكل هذا تنسّقه لجنة خاصة يرأسها رجل له من سخريات الأقدار لقب «مستشار رئيس الوزراء في شؤون الإرهاب»! وأظن أن هذا الاسم يدل على روح النكتة اليهودية، إذ لا يمكن لأحد أن يفكر في مثل هذا المنصب إلا روسي ترعرع في عهد ستالين.

وخلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية كانت استنتاجاتنا أن أجهزة المخابرات الاسرائيلية كانت أنشط داخل الاتحاد السوفياتي من «سي. آي. ايه.» ـ المخابرات الأميركية فهي تستخدم شبكة من اليهود الروس والأوكرانيين وغيرهم. وفي هذا ما يعرض بالتالي وضع اليهود في الاتحاد السوفياتي إلى الخطر ويجعلهم موضع ارتياب وكراهية، كما يشجعهم على الهجرة إلى اسرائيل. ولكن كل هذا يمكن وكالات المخابرات الاسرائيلية من تزويد «سي. آي. ايه.» بالمعلومات، وفي المقابل تدعم الولايات المتحدة اسرائيل».

عميل عراقي وايلي كوهين

... «اسرائيل لا تملك حتى الآن أقماراً صناعية. ولما كانت محاطة بالدول العربية وبحاجة إلى معلومات بصرية فإن هذا أعطى أحد الأسس الواضحة للتعاون المتبادل بين المخابرات الاسرائيلية والأميركية. وفي المقابل ساعدت اسرائيل الولايات المتحدة في الدول التي لم يكن فيها نشاط للمخابرات الأميركية لأن هذه المخابرات تستطيع الاعتماد على الاسرائيليين. والمخابرات الاسرائيلية على أقصى درجة من الاحتراف. مثلاً قصف المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١. لقد كان هناك تحضير لفترة طويلة جداً في مجال المخابرات. إذ اكتشفت اسرائيل أن الهدف العراقي البعيد المدى من المفاعل هو صنع قنابل نووية، مما سيشكل خطراً حقيقياً على الاحتكار الاسرائيلي للأسلحة النووية في الشرق الأوسط. وهكذا كانت هناك حملة متعددة الأوجه والمراحل من الجهد الاستخباري الاسرائيلي. إذ أن اسرائيل جندت بعض العاملين في أحد المراكز النووية الفرنسية المتعاونة مع العراق، واستخدمت في ذلك اساليب مختلفة. ودعني أكشف سراً مهماً: هل تعلم أن المخابرات الاسرائيلية جندت لحسابها مواطناً عراقياً خلال عملية إعداد خطة ضرب المفاعل النووي العراقي؟ حدث ذلك على الشكل الآتي: انتحل اسرائيلي يعمل في المخابرات شخصية رجل أعمال بريطاني وجاء إلى فرنسا واتصل بعراقي له علاقة بالتعاون النووي بين فرنسا والعراق. وقد خدع الاسرائيلي هذا العراقي وجنده للعمل لحساب المخابرات الاسرائيلية من دون أن يعلم، إذ اعتقد هذا العراقي أنه يتعامل مع رجل أعمال بريطاني وظن أنه سيرتب عقوداً لإحدى الشركات البريطانية.

كذلك خرّب الاسرائيليون منشأة نووية في فرنسا كانت تنتج الأجهزة النووية للعراق. وإذا ما نظرنا إلى حالات مثل تعقب النازيين ايخمان ومنديل وباربي، أو إلى الغارة على عينتبي (في أوغندا) لوجدنا أنها جميعها تافهة في سياق الأحداث التاريخية، ولكنها تكشف عن فن واحتراف ومهارة متميزة في عالم الجاسوسية. ولاسرائيل الكثيرون من العاملين الذين ينتحلون شخصيات معينة أو يتنكرون بأثواب غير قانونية. ولعل أشهر هذه الحالات هي قصة ايلي كوهين، وهو يهودي سوري من مدينة حلب. إذ أن الاسرائيليين جندوه ثم أرسلوه إلى الأرجنتين حيث سجل أصله على أساس أنه سوري، من دون ذكر شيء عن كونه يهودياً. وبعدئذ نقلوه إلى سورية

فبدأ في بناء علاقات مع الضباط السوريين. وكانت عنده اتصالات أخرى جيدة. كان ذكياً وماكراً.

إلا أن نقاط ضعفه كانت يهودية مثلما كانت نقاط قوته. فقبل كل شيء هناك الفسق والفجور. إذ أن علاقاته مع عدد من النساء خلت من أي حصافة أو تكتم، كما أنها كانت ضد كل قواعد المخابرات المحترفة. فمثل هذا الأسلوب يقتصر على عميلات المخابرات اللواتي يستطعن القيام بالمهمة عن طريق الإغواء والإغراء من دون الإمعان في الشهوات. كما أن انكشاف سر العملية لا يؤذي المسؤول عنها. وبعدئذ أصبح كوهين واثقاً بنفسه إلى درجة مفرطة جعلته يهمل حتى احتياطاته الأمنية الشخصية. وكان يتبجح مثل الجاسوس الأميركي بولارد. فبولارد ذهب إلى حد أنه أبلغ أصدقاءه أنه جاسوس. ولذا يجب على الشخص المزروع، مثل كوهين، أن يكون أكثر حرصاً حتى من ضابط أو عميل المخابرات العادي، وكان كوهين وضع هوائياً للاستماع والتنصت فوق سطح بيته الذي كان مجاوراً لإحدى القيادات العسكرية السورية.

ونحن حين نرسل شخصاً بهذه الطرق غير المشروعة أو نزرع شخصاً عند الطرف الآخر نقول له دائماً أن الهوائي الذي يستخدمه يجب أن يكون مخفيّاً. كذلك كان كوهين ينفق الأموال ببذخ، مثل بولارد، مما يعني أنه كسر أولى القواعد وهي: إياك أن تلفت الانتباه. وهكذا تم اعتقال كوهين وإعدامه.

لكن الاسرائيليين في منتهى الجرأة. إذ سرقوا محطات رادار من مصر في وضح النهار، وهم يتكلمون جميع اللغات واللهجات، وهم يختفون بسهولة في أي مجتمع بفضل اتقانهم لغته. فقبل أن يغزو الاسرائيليون لبنان مثلاً غمروه بالعملاء الذين يصعب عليك التمييز بينهم وبين أهالي البلاد.

ويتطرق كيربيشنكو في حديثه إلى الكتاب الذي أصدره الاسرائيلي فيكتور أوستروفسكي عن «الموساد» بعنوان «عن طريق الخداع». ويقول كيربيشنكو: «إن كتاب أوستروفسكي هو أفضل كتاب عن «الموساد». كلنا نذكر كيف أن المخابرات علمتهم كيف يبنون صداقات وأصدقاء أجانب لاسرائيل، ولكنها علمتهم

أيضاً أن يتذكروا دائماً أنهم حين يجلسون مع هؤلاء «الأصدقاء» الأجانب إنما يجلسون مع عملاء ضللوهم. وفي هذا الصدد لا بد لي من القول أن الاسرائيليين ما كانوا ليكسبوا ولاء شخص مثل كيم فيلبي (الجاسوس البريطاني الذي عمل لمصلحة السوفيات) لأنهم لا يمكن أن يخلصوا له.

وحين ظهر كتاب أوستروفسكي، سألت الخبراء والمحللين عندنا لماذا صدر الكتاب؟ هل كان طُعماً؟ لكنهم توصلوا إلى خلاصة مفادها أنه كان نتيجة للجو العدائي في المخابرات الاسرائيلية ـ مثل جو «سي. آي. ايه.» في بعض العهود. والجواسيس الاسرائيليون يقومون بمجازفات لا ضرورة لها. كما أن هناك روحاً من اللاأخلاقية في أوساط التجسس الاسرائيلية. فهم يسيرون على قوانين الغاب. ولا يزالون يقتلون الناس ويخطفونهم حتى اليوم، أي بعد أن تخلّينا نحن و«سي. آي. ايه.» عن ذلك كله منذ عقدين من الزمن وهذا هو الذي دفع إلى وضع كتاب أوستروفسكي».

جواسيس روس في اسرائيل

نحن نرسل الآن الروس إلى اسرائيل، والحقيقة أننا نغمر اسرائيل بهم. وعلى اسرائيل أن تدقق في وثائق جميع المهاجرين من الاتحاد السوفياتي السابق، مما يعني أننا زدنا من العبء على مخابراتها. وهذه هي أنشط عملية تقوم بها «كي. جي. بي.» ضد اسرائيل. وعليهم أن يتذكروا أن المستوطنات التي تقام لهم الآن سوف تعاد ذات يوم إلى الفلسطينيين. أما إذا كان هناك جواسيس أو عملاء لوكالة «كي. جي. بي.» مزروعين في «الموساد» أو غيرها من وكالات المخابرات الاسرائيلية؟ بالطبع نحن نهتم بوكالة «الموساد» وغيرها من المنظمات إلى درجة كبيرة. ونحن نستخدم مختلف الإمكانات فلماذا لا نستخدم طريقة زرع العملاء؟ والواقع أن أصدقاءنا العرب يطلبون منا معلومات عن اسرائيل، بل وهذا هو أول ما يطلبونه عادة لأنهم لا يحصلون على شيء من هذا القبيل من الولايات المتحدة. أما إلى أي مدى نجحت عملياتنا في اسرائيل؟

فإنني أستطيع القول أن المخابرات السوفياتية (والروسية) تعمل بنجاح في اسرائيل. ونحن نسعى كغيرنا إلى تحقيق النجاح الكامل في كل مكان، ولكنني واقعي

بطبعي، ولهذا فإن تحقيق النجاح بنسبة تسعين في المئة يكفي. إذ أن عملياتنا كانت أنجح ما يمكن في أوقات الأزمات والحرب».

الفاتيكان والتجسس

. . . إن الفاتيكان دولة، وكل دولة لها مخابرات ومخابرات مضادة وأجهزة لمكافحة المخابرات. ففي سنواتي الأولى في مصر حاول ايطالي هناك أن يجندني للعمل لحساب الفاتيكان. إذ كان يبحث السياسة معي وكنت أرى أنه يحاول أن يسبر غوري لكي يرى إذا كان لدي أي خيبة أمل في النظام السوفياتي. وكنت أعرف أنه في المخابرات. وكان أسلوبه غير عادي وكأنه من الهواة. لكن من الممكن أن يعمل الكاثوليك في كل مكان، وحتى أكثر من اليهود. فهل سبق لك أن سمعت مثلاً بوجود يهودي ياباني أو يهودي فيتنامي؟

أما عن موضوع جيمس أنغلتون(*) فلقد كان شخصية مثيرة جداً للاهتمام. وكان على علاقة وثيقة جداً مع فيلبي، كما إننا حصلنا على معلومات كثيرة عنه من فيلبي. كذلك كان كتاب توم مانغولد «المحارب البارد» عن أنغلتون مثيراً للاهتمام، لكن مانغولد لم يستطع أن يعرف إطلاقاً لماذا كان أنغلتون موالياً إلى تلك الدرجة لاسرائيل. إلا أن أنغلتون أخبر فيلبي ذات ليلة بعد أن أخذ السكر منه مأخذاً السبب: لقد كان والده يهودياً مع أنه لم يذكر ذلك إطلاقاً لأي شخص في سي. آي. ايه. وكان يشعر بالخجل من اسمه الأوسط «جيسس» الذي أعطته له والدته الإسبانية وهو تقليد لا يفعله إلا الإسبان. ولهذا كان يشعر بالحرج من أصدقائه البريطانيين والأميركيين بسبب اسمه. ولكن إذا كان أنغلتون يشعر بالخجل لكونه

(*) الرجل الثالث في «سي. آي. ايه.» الذي طرده مديرها وليام كيسي. وكان أنغلتون جاسوساً زرعته «الموساد» وخلدت خدماته بإقامة تمثال له في القدس. إلا أن قسم التحقيقات الداخلية في «سي. آي. ايه.» توصل إلى نتيجة مفادها أن أنغلتون كان أيضاً جاسوساً زرعته المخابرات السوفياتية بهدف تحييد جميع عملاء «كي. جي. بي.» وضباطها الذين انشقوا عنها، وللترويج لجاسوس مزيف هو أناتولي غوليتسن. لكن مدراء «سي. آي. ايه.» لم يقبلوا إطلاقاً هذا الاستنتاج مما يعيد إلى ذاكرة المراقبين كيف رفضت المخابرات البريطانية النتيجة التي ذكرت أن كيم فيلبي كان جاسوساً زرعته المخابرات السوفياتية، لأن قبول ذلك سيضر بعلاقات المخابرات البريطانية مع مخابرات الحلفاء.

نصف إسباني فإنه كان يشعر بالذنب لنكرانه نصفه اليهودي. وقد أبلغ فيلبي أنه بدأ يشعر بذلك الذنب حين كان ضابطاً صغيراً خلال الحرب العالمية الثانية، ولهذا ساعد على إنقاذ اليهود الايطاليين بإرسالهم إلى أوروبا الغربية أو إلى فلسطين. وكان بعض ما فعله في مجال مكافحة التجسس في البداية جيداً حقاً. وأنا أذكر التقارير التي أعطاها إلى فيلبي الذي نقلها بدوره إلينا وهي عن التناقضات الأساسية بين موسكو وبلغراد. ولكن لسوء الحظ، لم يكن جاسوساً لنا. كما أن غوليتسن هرب منا وانحاز فعلاً إلى الطرف الآخر. وكان أنغلتون الضابط المسؤول عنه حين كان جاسوساً لوكالة سي. آي. ايه. كذلك كان أنغلتون المسؤول عن يوري نوشينكو الذي انشق علينا وعذبه أنغلتون بناء على مشورة من غوليتسن أيضاً. والواقع أن المسألة كانت مجرد منافسة بين منشقين لنيل ثقة أنغلتون، لاسيما أن الاثنين لم يكونا يطيقان بعضهما البعض. وكما ترى من اسميهما فإن غوليتسن كان روسياً بينما كان نوشينكو أوكرانياً».

. . . إن مكافحة التجسس داخل نظام للتجسس أمر من أشق الأمور وأخطرها. وإذا كانت طبيعتك تنزع إلى الشك والارتياب بدلاً من أن تكون طبيعة تميل إلى الاستقصاء والاستفسار فإنك قد تخضع لظروف تقودك فعلاً إلى الجنون. إذ أن العاملين معنا في مكافحة التجسس يواجهون المخاطر والمجازفات نفسها. ونحن نعرف أن أنغلتون كان مصاباً بمسّ من الجنون إلى درجة أنه كان يشك حتى في مديره الذي كان يتولى الإشراف على المخابرات المركزية. لكنني أؤكد أنه لم يكن جاسوساً لنا. وكل ما حصلنا عليه من معلومات عن طريقه هي تلك المعلومات التي نقلها إلينا عملاؤنا في أجهزة المخابرات الاسرائيلية. هل كان غوليتسن مجنوناً؟ أنا لست طبيباً نفسياً؟ ولكن الكثير من حالات الانشقاق والانحياز إلى الطرف الآخر يمكن أن تعزى إلى خلل نفسي. وهذا أمر قد لا يظهر في وقت الانشقاق ولكنه يتضح فيما بعد. ولا بد من أن يكون هناك شذوذ ما. والمحققون مع الذين يهربون من جهاز مخابرات وينحازون إلى جهاز آخر يسألون عادة أكثر مما ينبغي. إذ أن المنشق يخبرهم كل ما يعرف ولكن المحقق يريد الحصول دائماً على المزيد. ولهذا فإن أناساً من أمثال غوليتسن يخترعون ويلفقون الأشياء. إذ أنه اخترع مثلاً وجود مؤامرة دبرتها كي. جي. بي. لاغتيال نيكسون. كذلك اخترع دوراً لنا في محاولة اغتيال البابا. كما إنه اخترع الفكرة القائلة أن انشقاقنا مع بكين كان مؤامرة من تدبير موسكو وبكين لتضليل العالم. والواقع أن مجرد تصديق أنغلتون ما قاله غوليتسن يكشف لك كل ما نريد أن نعرفه

عن اضطراب انغلتون العقلي. ومرة أخرى أقول أن أنغلتون لم يكن جاسوساً لنا. ولو كـان جاسـوساً زرعنـاه نحن لقلنا لـه إن عليه أن لا يفـرط في ما يفعله لكي يـظل في منصبه. لكن غوليتسن خاننا وانحاز فعلاً إلى الطرف الآخر».

المخابرات العربية

. . . وكالات المخابرات العربيـة لديهـا بعض النقاط القـوية والكثير من نقاط الضعف. فهـذه الأجهزة تعمـل من دون أية قـاعدة قضـائية، وليس هنـاك الكثير من القوانين التي تنـظم نشاطهـا. ففي أميركـا مثلاً هنـاك لجان مجلسي النـواب والشيوخ. كـذلك سيكـون لدينـا نحن، بموجب الـدستور الجـديد الـذي نعده، قيـود ووسائـل للتدقيق والمراقبة والموازنة هنا. ولدينا الآن مثـلاً مكتب إعلامي ومؤتمـرات صحافيـة، كما أن سي. آي. ايه. تحاول تقليدنا وبسرعة. لكن الدول العربية لا يوجـد فيها مثـل هذه الضوابط، مثلما هي معـدومة أيضـاً في اسرائيل. ولـذا فهي بحاجـة إلى قدر من الانفتـاح. وأنا أرى أن نقـاط الضعف التقليديـة في المجتمعات العـربية تنعكس عـلى أجهزة مخابراتها. وللمخابرات العربية شبكـة قويـة من العملاء. فـالعرب، كـما يقول المثل عندنا، يعيشون في الشارع وفي المقاهي وهم يحـدقون في المـارة. ودعني أعطيـك مثـلاً عـلى مـدى فـائـدة ذلـك، إذ أن بحـاراً قفـز ذات مـرة من أحـدى سفننـا في الاسكندرية، وكان هذا البحار عامل لاسلكي يعرف إشـاراتنا وغـيرها من المعلومـات السرية. وطلب قبطان السفينة منا في السفارة السوفياتية في القـاهرة المسـاعدة. ولهـذا أرسلنا بعض العاملين معنا إلى الاسكندرية لمساعدة الشرطة المصريـة، ولكننا اكتشفنـا أنها كـانت عـثرت عليـه وتعقبت خـطواتـه منـذ أن قفـز من السفينـة حتى وصـل إلى القنصلية الأميركية. كيف؟ لقد وجدوا شهوداً على كل خـطوة خطاهـا: سيارة الأجـرة التي استقلها، والمقهى الذي توقف فيه وهكذا. إذ كانـوا حققوا مـع سائقي سيـارات الأجرة والعاملين في المقهى وغيرهم. وأثبت الجميع أنهم ملاحظون ومراقبون ممتـازون لاسيـما حين يتعلق الأمـر بشخص أوروبي أو أجنبي، ولهذا فـإن المخابـرات العـربيـة بشكل عام تحتاج إلى وقت أقل كثيراً من المخابرات الأوروبية أو الأميركية للعثـور على شخص ما.

. . . اهتمامنا بايران كبير، سواء في السابق ـ حين كان هناك اتحاد سوفياتي ـ أو الآن. وقد بلغ اهتمامنا بها ذروته في إطار القضية الأفغانية وتورط القوات السوفياتية في أفغانستان.

زرت أفغانستان مرات عدة، لكنني لم أزر ايران أبداً إلا أنني تلقيت أطناناً من التقارير عن تلك البلاد. وأعتقد أنك تعرف عن المشكلات التي واجهت المخابرات السوفياتية ومحطة «كي. جي. بي.» في طهران، وهي مشكلات استمرت بعد أن أبقى النظام الجديد على جهاز المخابرات الايراني (سافاك). ومن الطبيعي أن تكون شخصية آية الله الخميني مثيرة جداً للاهتمام. إذ أن شخصيته في حد ذاتها حدث، كان على درجة استثنائية من القوة، كما أن ظهوره على المسرح كان حدثاً تاريخياً. كان التذمر الشعبي من نظام الشاه في تعاظم والبلاد تزداد فقراً. وسأكشف سراً هاماً. لقد كان مركز المخابرات السوفياتية في طهران هو الذي أبلغ القيادة السوفياتية، قبل الدبلوماسيين العاملين في سفارتنا في العاصمة الايرانية، بأن نظام الشاه سينهار.

حين عاد الخميني إلى طهران بعد سقوط الشاه، أيقظ المشاعر والأحاسيس الوطنية لدى الجماهير، كما دمر الطبقات المحظية، لاسيّما طبقة الضباط واستخدم المال الذي توفر له من موازنة الشاه العسكرية القديمة لشراء المواد الغذائية مما ساعد على تقوية سلطة الحكومة الإسلامية في تلك المرحلة. كان للخميني نوع من السلطة الغيبيّة.

وكان بدء العراق الحرب مع ايران عام ١٩٨٠ أشبه بهدية للنظام الايراني لأن هذه الخطوة مكنت الخميني من ايقاظ المشاعر الوطنية وتحويل الاهتمام عن الظروف الاقتصادية الصعبة داخل البلاد. والخميني كاقتصادي لم يكن يعرف شيئاً، إذ كانت لديه بعض الأفكار المبهمة الغامضة، التي لم يكن وراءها شيء. وكان تدخله في الاقتصاد كارثة. إذ طبق مثلاً مجانية المواصلات العامة مما أدى إلى انهيار نظام المواصلات. وواضح من التقارير التي تصلني من طهران أن هاشمي رفسنجاني الرئيس الايراني الحالي رجل مختلف كلياً عن الخميني فهو يفهم الاقتصاديات ويفهم العلم. وقد عادت علاقاتنا منع طهران إلى طبيعتها وهي علاقات جيدة. لم يعد هناك

تـطرف. ولكن من الصعب جـداً عـلى نـظام أصـولي أن ينسجم ويتـلاءم مـع العـالم الحديث.

ذكريات يمنية

. . . زرت اليمن الشمالي مرات كثيرة قبل الوحدة بـين شطري اليمن. وكـانت أولى زياراتي في العهد الملكي. كما زرت اليمن الجنوبي مرتين. وقـد عدت إلى صنعـاء أخيراً بعد الوحدة، في عام ١٩٩١ على رأس بعثـة لمقابلة زعـماء البلاد وبحث قضـايا تهم البلدين وقبل ثلاثة وثلاثـين عامـاً زرت القصر الملكي السابق عـلى التلال في تعـز حيث قدمت مع سفيرنا أوراق اعتمادنا إلى الملك وهـو الآن متحف. وفي أول زيارة لي كنت سكرتيراً وملحقاً ثانياً ثقافياً في سفارتنا في القاهرة، لكن سفيرنـا كان معتمـداً في اليمن أيضـاً وكانت مهـامي تشمل تـطوير عـلاقاتنـا مع اليمن. ولهـذا رافقت السفير لتقـديم أوراق اعتـمادنـا. وكنت آنـذاك ضـابـطاً عـادياً في المخـابـرات السـوفيـاتية (كي. جي. بي.) وقد مكثنا في البلاد حوالي أسبوعين لكي نرفع تقاريرنا إلى موسكـو. كان اليمن أكثر الـدول تخلفاً في العـالم العربي. إذ كـان يعيش في العصور الـوسطى. وكان كل شيء محظوراً وكانت الصلة الوحيدة مع العالم الخارجي هي طائرة يتيمة تـأتي في رحلات غير منتظمة من أثيوبيا. أما في الجنوب فكـانت عدن مستعمـرة بريـطانية. وكانت ميناءً مهماً لبريطانيا. إلا أنها كانت أكثر تطوراً وتقدماً، وكان فيها حركة نقابيـة وحـركة وطنيـة تطالب بـالاستقـلال. وحـين استقلت عـدن وأصبحت اليمن الجنـوبي ساعدناها على بناء جهاز للمخابـرات ولكنه كـان دائماً جهـازاً ضعيفاً. وحـافظنـا على علاقات وثيقة مع اليمن الجنوبي ومع جهاز مخابـراته. وفي كـانون الأول(ديسمـبر) عام ١٩٨٢ عدت إلى هناك حيث قلّدنا الرئيس علي ناصر محمد (أنا والقائم بأعمالنا) وسام الـوفاء. وكـان الرئيس عـلي ناصر محمـد يشغل آنـذاك منصب رئيس الـوزراء والأمن العام للحزب الاشتراكي اليمني. كان عـلي ناصر محمـد رجلاً ذكيـاً يدرك الحـاجة إلى تحسين علاقاته مع جيرانه. وكنت أقول له دائماً أن عبد الناصر كان مصيباً حـين أعلن أن قوة العرب تكمن في وحدتهم. وفي كانون الثاني (ينـاير) ١٩٨٦ انفجـرت أحداث عدن الدامية. ووفقاً للتقاير التي تلقيتها من عدن فإن ما حدث هو أن علي ناصر محمد هو الذي فجر الصدام بينه وبين التيار الآخر في القيادة الحاكمـة والحزب الاشـتراكي. ويقال عن التيار الآخر أنه تيـار التشدد وكـان بقيادة عبـد الفتاح اسـماعيل وعـلي عنتر

وصالح مصلح قاسم. لقد استفز علي ناصر محمد التيار الآخر وقام بخطوة وقائية فوجه الضربة الأولى إلى هذا التيار. ودخل رجال الحرس الجمهوري قاعة الاجتماعات حيث كانوا مجتمعين. وبدأوا إطلاق النار على خصوم علي ناصر محمد. وكان السياسيون تركوا أسلحتهم في بهو الاستقبال، فهرعوا إلى التقاطها، واتسع نطاق القتال ووقعت حرب شوارع في اليمن الجنوبي ومواجهات مع الجيش. وقتل في هذه العملية زعماء التيار المتشدد وعلى رأسهم عبد الفتاح اسماعيل، كما سقط آلاف عدة من القتلى والجرحى. وفر علي ناصر محمد من عدن إلى اليمن الشمالي فأقام فترة ثم انتقل إلى دمشق قبل إعلان الوحدة اليمنية وهو لايزال في دمشق[1].

القذافي ولوكربي

. . . كنت في ليبيا قبل أن يصل العقيد معمر القذافي إلى الحكم عام ١٩٦٩. كانت أول زيارة لي إلى ليبيا عام ١٩٦٣ ثم تلتها زيارات عديدة بعد ذلك. بصراحة هناك أشياء كثيرة تعجبني في القذافي. إذ أنه كان طفلاً لعائلة بدوية كبيرة وكان أمياً حتى سن متأخرة نسبياً. لكنه سرعان ما تعلم ولحق بغيره من زملائه ثم تفوق عليهم. وقد احببت فيه بساطته والطريقة التي يستقبل بها الزوار في خيمة من دون أثاث ـ مجرد طاولة صغيرة.

كان يحذو حذو عبد الناصر ويعتبره والده الروحي. والحصيلة الأساسية التي تميز القذافي هي أن أمة ولدت خلال فترة حكمه. فقبله لم يكن أحد يتحدث عن ليبيا كدولة. ولهذا كان دوره في تأسيسها كبيراً وهذا إنجاز مهم لا يمكن لأحد أن ينتزعه منه، إذ لم يكن في ليبيا أي صناعة وحتى كانت من دون زراعة تذكر. أما الآن ففيها صناعة مهمة. والواقع أن بعض المشاريع مثل النهر (الصناعي) العظيم تثير الإعجاب حقاً. والقذافي لم يكن سوى عقيد عندما جاء إلى السلطة. كان حديث العهد بالسياسة. كان يريد تحرير ليبيا من النفوذ الأجنبي. والخبرة لا تأتي بين عشية وضحاها ولهذا تعلم مع مرور الأيام. وكتابة الأخضر فيه نظرية جديدة، لا هي شيوعية ولا هي رأسمالية. نظرية مبتكرة إلا وهي حكم اللجان. ولهذا كانت إنتاجاً

(١) صدر عفو رئاسي عنه وعن رفاقه في نيسان ١٩٩٢. الناشر

ليبياً بحتاً. وقد سبق لي أن تحدثت معه في مناسبات ديلوماسية عدة فترك لدي انطباعاً جيداً. فهو يتحدث بهدوء ودون انفعال. كذلك لم يكن يتهرب من الأسئلة الحادّة أو المحرجة. كان يتعلم طوال الوقت. وكان قادراً على تغيير آرائه. مثلاً تدخله في تشاد: قال لي «أن هذا التدخل كان غلطة». وهكذا أصبحت سياساته أكثر واقعية وأخذ يولي اهتماماً واعتباراً لآراء جيرانه. ولم يعد يصدر البيانات من دون اكتراث أو يتخذ إجراءات غير متوفعة. وفي العام الماضي قال لي أنه يشعر بالقلق من التطورات في الاتحاد السوفياتي، ولذا رتبت له زيارة إلى موسكو. ولكن ما شهده الاتحاد السوفياتي من أحداث حال دون قيامه بتلك الزيارة. ولربما كانت علاقتنا معه تسمح لنا بالقيام بدور الوسيط أن القذافي من صنع الشعب الليبي ومن الحماقة أن نتوقع من الليبي أن يتصرف مثل الاميركي أو الروسي. وقد زاد سوء الوضع الاقتصادي هناك الآن. إذ أن طرابلس مثلاً بنايات ضخمة غير مأهولة كما أن التنمية في البلاد لم تكن متوازنة في جميع القطاعات. والبعض يسأل ما إذا كان ينخرط في مغامرات أجنبية وخارجية لتحويل الاهتمام عن مشكلاته الداخلية. لهؤلاء أقول ما يلي: هل هذه هي الصورة أو صورة المرآة؟ أن بعض الدول الغربية أيضاً تهاجم القذافي دائماً».

وأضاف كيربيشنكو: «وربما يقول البعض أن القذافي يثير حيرة الكثيرين نظراً لأنه رجل غامض. ولكنني أقول أن نظام سلطة الشعب كان نتاجاً لمجتمع لم تكتمل تنميته أو تطوره. فمثلاً لم يكن هناك نظام رأسمالي متطور كامل. ولهذا من الصعب الحكم على نظام سلطة الشعب الذي جاءت به ليبيا ومعرفة ما إذا كان ناجحاً أم لا في هذه المرحلة. وبصراحة من الصعب أن نتصور وجود نظام من دون هيكلية إدارية. وليبيا مثل السفينة التي فيها أشرعة ولكنها من دون سارية، إلا أن هذه المشكلات موجودة أيضاً في الدول الأخرى كذلك. والسؤال هو: هل أن القذافي متورط في عملية تفجير طائرة لوكربي[1]؟ بصراحة اعترف لك بأن المخابرات الروسية لا تعرف الجواب عن هذا السؤال.

أما الجزائر جارة ليبيا فهي مختلفة عنها اختلافاً كبيراً. إذ أن القيادة الجزائرية أكثر ابتكاراً وإبداعاً. فقد احتفظت الجزائر بنظام سوق غربي طوال الفترة التي تلت

(١) طائرة ركاب أميركية انفجرت في كانون الأول ١٩٨٨ الناشر

حصولها على استقلالها. وإذا ما أخذ المرء في الاعتبار التوترات الرهيبة بين الجزائر والفرنسيين والحرب فإن من المثير للدهشة أن الجزائريين لم يقطعوا الصلات الاقتصادية مع فرنسا ومع الشركات الفرنسية إطلاقاً. وكانت الولايات المتحدة تعتزم تطوير علاقة لها في مجال النفط والغاز ولكنها أضاعت الفرصة. ولهذا طورت الجزائر شركة نفط وطنية وصناعات وطنية أخرى متصلة بالنفط والغاز. إلا أن المشاكل بدأت حين انخفضت أسعار النفط. كذلك شهدت الجزائر زيادة هائلة في السكان ـ ففيها واحد من أعلى معدلات الولادة في العالم. وهناك أيضاً بطالة واسعة الانتشارات إلى مشاعر الاستياء والتذمر مما أدى بالتالي إلى نمو الحركة الاسلامية الأصولية».

أفغانستان: الخطأ والفشل

. . . افغانستان أشبه بشوكة في حلوقنا. فخلال العهد السابق وحتى بعد قيام الجمهورية، لم تكن افغانستان دولة موحدة أو دولة منظمة. إذ كانت كل قبيلة تتبع قوانينها الخاصة، وكانت سلطة الحاكم رمزية إلى درجة كبيرة، مما جعل الإطاحة به أمراً سهلاً. ومع أنني لم أزر افغانستان سوى مرة واحدة فإنني اهتم بها منذ عودتي إلى موسكو عام ١٩٧٤. وقد التقيت الرئيس السابق نجيب الله مرات كثيرة. وإذا ما عدنا قليلاً إلى الوراء لوجدنا أنه كانت هناك حملة من الاضطهاد الشديد حين كان حفيظ الله أمين في السلطة. وكان أمين يتعاطف مع الشيوعية مع أنه درس في الولايات المتحدة. إذ أراد حكم البلاد عن طريق تدمير أعدائه. وكانت أجهزة الاعلام ترى في نظامه نظاماً فاشياً. وحين تولى بإبراك كارمل السلطة بعده ازداد قلق الغرب، ليس لأن الوضع لم يتحسن ولكن لأن السوفيات كان لهم ضلع في تغيير النظام في كابول. وبعدئذ رأى الغرب في دخول قواتنا إلى افغانستان إخلالاً بتوازن القوى في المنطقة. ودعني أقول بصراحة أن إرسال قواتنا إلى افغانستان كان خطأ. إلا أن هدفنا الأساسي كان المساعدة على إحلال الاستقرار في هذه البلاد وفي المنطقة. إلا أننا لم نحقق في واقع الأمر شيئاً. كما أن ثلاثة عشر ألفاً من رجالنا قتلوا خلال عشر سنوات. وكان يجري داخل القيادة السوفياتية نقاش لأفضل الطرق الممكنة لخروجنا من البلاد. وما أن تولى غورباتشوف السلطة حتى كنا اتخذنا قراراً بالانسحاب وقبول فقدان ماء وجهنا. وكان المحللون الغربيون وغيرهم من المراقبين، بل وحتى بعض الشخصيات في قيادتنا، يتوقعون سقوط نظام نجيب الله على الفور، لكن هذا لم

يحدث، مما يعني أن وجود قواتنا هناك أو عدم وجودها ما كان ليغير الوضع فعلاً(*).

وحين دخلت قواتنا افغانستان قال الأميركيون أنها ستكون فيتنام الاتحاد السوفياتي، ولكنهم اكتشفوا خطأ حكمهم. لكننا لم نحسب حساب كل شيء حين أرسلنا تلك القوات مثال مشابه فإن الاميركيين لم يحسبوا حساب كل شيء حين ذهبوا إلى فيتنام ووجدوا بدورهم أنهم ارتكبوا خطأ أيضاً.

والواقع أن خبرتنا هناك لم تكن تختلف كثيراً عن خبرة البريطانيين حين غزوا افغانستان في القرن الماضي. إذ أننا مثلهم، فشلنا ولم نحقق أي نجاح، مع السلطات الدينية والقبلية، ومثلما فشلنا في تغيير موقف الافغانيين وآرائهم فإن الاميركيين فشلوا في فيتنام. إذ أن المواطنين اعتبرونا، مثل الاميركيين في فيتنام قوة احتلال أخرى تغزو بلادهم».

مستقبل روسيا في الشرق الأوسط

التوقع صعب. فقد اعتدت في الماضي أن أكتب توقعاتي للدول الأخرى. أما الآن فإنني لا أستطيع أن أفعل هذا حتى بالنسبة إلى بلادي. إذ أن دورنا في المستقبل سيعتمد على مستقبل بلادنا. ففي الاتحاد السوفياتي السابق، كما هو الحال في الشرق الأوسط، يريد الكل أن يتحرر من أية سيطرة مركزية، إلا أن الأمر ليس بتلك السهولة. مثلاً كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق، فيها منشآت صناعية لخدمة بقية البلاد وليس الجمهورية وحدها. فبعض الجمهوريات فيها مصانع للسيارات ولكنها تفتقر إلى مصانع الإطارات. وأعتقد أن هذه الجمهوريات التي تعتمد على بعضها البعض ستبدأ عملية جديدة من التوحيد الاقتصادي، ولكن على أساس أسلم من السابق بحيث تتحقق الفوائد المشتركة والمنافع المتبادلة في إطار اقتصاد السوق. لكن المسألة تحتاج إلى وقت. وسوف تشكل رابطة دول الكومونولث المستقلة، كلها أو بعضها، كتلة اقتصادية مستقرة. وعلى المواطنين فيها أن يواجهوا الواقع والحقائق بموضوعية. فالذين يتولون السلطة ليس لديهم خبرات في إدارة الدول. وليس هناك ما يكفي من الاقتصاديين. ولما كنا نعتمد نظام السيطرة المركزية في الماضي فإننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء. والوضع مشابه في الشرق الأوسط. وباختصار فإن ما أقوله هو أننا بلد كبير مهم وسيكون لنا دور وسنقوم بهذا الدور. ولكن علينا أن نعيد تعريف أنفسنا وأن نحل مشكلاتنا أولاً».

(*) في النصف الأول من عام ١٩٩٢ سقط نظام نجيب الله الشيوعي وسيطر المجاهدون على العاصمة كابول (الناشر).

. . . ويمكن القول أن المشكلة الرئيسية في الشرق الأوسط، أي قيام اسرائيل، نابعة من مشكلاتنا نحن في عهد القياصرة، إذ أن اليهود عندنا لم يندمجوا ولم ينصهروا إطلاقاً في المجتمع مثلما انصهروا في مجتمعات أوروبا الوسطى والغربية. وفي هذا ما يفسر لماذا أسأل: كم من اليهود الأوروبيين الغربيين أرادوا، حتى بعد هتلر، أن يهاجروا إلى فلسطين؟ ثم كم من اليهود الأميركيين هاجروا إلى فلسطين أيضاً؟ أما اليهود والعرب فقد أجبروا بشكل أو آخر على الهجرة ضد إرادتهم ورغبتهم بسبب التهاب المشاعر إثر حرب عام ١٩٤٨ . ولهذا فأنا أقول أن المشكلة الأساسية في الشرق الأوسط نجمت من ناحية عن مجموعة من الروس والأوكرانيين الذين أسيئت معاملتهم في عهد القياصرة ولم يكن عددهم أكثر من واحد في المئة من سكاننا . ولهذا لا أظن أننا نستطيع أن نعطي بلادنا كنموذج للآخرين، أي لجيراننا العرب في الجنوب . ولكنني فخور بالدور الذي قمنا به للمساعدة على ضرب الاستعمار في الشرق الأوسط وفي أفريقيا وأماكن أخرى. فنحن نؤمن بالحرية للجميع».

الفصل التاسع

النهاية : الزلزال
تحليل لما جرى

الانهيار السوفياتي... والعرب

محمود رياض(*)

لم يكن انهيار الأمبراطورية الروسية التي أطلق عليها اسم الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الأولى من المواضيع التي أفكر في الحديث عنها، فلا يوجد مراقب سياسي لم يتحدث عن الانهيار إضافة إلى صدور الكثير من الدراسات عن المراكز المتخصصة في الأوضاع الروسية إزاء التطورات.

ولكن ما يلفت النظر، هو الخلاف الشديد على دور الرئيس السابق ميخائيل غورباتشوف، الذي يصفه البعض بأنه «أعظم شخصية سياسية في القرن الحالي»، لأنه أنهى الحرب الباردة مع الغرب وحرر دول الكتلة الشرقية من السيطرة السوفياتية، وساعد على وحدة ألمانيا، وفتح أبواب الديمقراطية لشعوب الاتحاد السوفياتي. ويصفه البعض الآخر بأنه «إنسان فاشل» فقد رفع شعارات لم يعرف كيف يطبقها، وركز على الأفكار السياسية ولم يستطع مواجهة التحديات الاقتصادية. وقارنه آخرون بما يجري في الصين التي بدأ قادتها بالتحرير الاقتصادي تدريجياً، إلى درجة وجود الكثير من السلع في السوق العالمية مصنوعة في الصين وبرؤوس أموال أميركية وغربية. والصين لا تواجه مجاعة أو نقصاً في المواد الغذائية، كما يحدث في روسيا، بل هي في طريقها إلى نمو اقتصادي مضطرد، فعملية التحرير بدأت بالاقتصاد الأمر الذي سهّل على القادة الصينيين إعادة ترتيب منزلهم الضخم الذي يسكنه نحو ربع سكان الأرض.

وعندما سألني البعض رأيي في أحداث الاتحاد السوفياتي ذكرت أن ما يجري هو من شأن شعوب هذه المنطقة من العالم، وهو على أي حال في مصلحة البشرية، فلم يعد العالم ينقسم إلى كتلتين عسكريتين تواجهان بعضهما بعض وتملكان أسلحة نووية قد تؤدي إلى تدمير العالم، كما أن انهيار الشيوعية بعدما ثبت فشل تطبيق الأسس التي قامت عليها أنهى الصراع الذي كان يدور في مختلف القارات بسبب الأيديولوجيات

(*) وزير خارجية مصر سابقاً وأمين عام جامعة الدول العربية السابق.

المختلفة. إلا أنني أشرت إلى أن ما يجب أن نهتم به هو تأثير هذا الانهيار على الأمة العربية وقضاياها والتعرف على دور النظام الجديد في ما يتعلق بعلاقاته مع العالم العربي.

الاتحاد السوفياتي، وهو الاسم الذي أطلق على الأمبراطورية الروسية، مثله مثل بقية الأمبراطوريات التي قامت على استعمار شعوب أخرى، ويشير التاريخ بوضوح إلى أن هذه الأمبراطوريات لها دورات زمنية قد تطول أو تقصر ولكنها تنتهي إلى الانهيار الحتمي، وآخر هذه الأمبراطوريات هي الأمبراطورية البريطانية التي كانت توصف بأن الشمس لا تغيب عن أراضيها.

وقد يختلف البعض على بداية انهيار الأمبراطورية البريطانية، إلا أن بداية الانهيار السريع بدأت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وجاءت خاتمته في العالم العربي عندما تم إعلان استقلال مستعمرة عدن واليمن الجنوبي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧.

والأمبراطورية الروسية، مثل غيرها من الأمبراطوريات توسعت عن طريق احتلال الشعوب المجاورة، ففي الشمال احتلت فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا، كما احتلت في الجنوب الممالك الإسلامية ومناطق شاسعة من أراضي منغوليا. وعلى أثر الحرب العالمية الأولى، نجحت شعوب عدة في نيل استقلالها، ومنها فنلندا وأستونيا وليتوانيا ولاتفيا.

وقام الاتحاد السوفياتي على أنقاض الأمبراطورية الروسية الاستعمارية في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢، وحتى يضمن استمرار احتلاله للدولة الإسلامية في الجنوب قرر عام ١٩٢٤ تقسيم تركستان، ذات الحكم الذاتي، إلى خمس جمهوريات على أن تنضم إلى الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي استغرق ١٢ عاماً، كما تم حل اتحاد القوقاز إلى ثلاث جمهوريات هي: جورجيا وأرمينا وأذربيجان، وتم ضمها إلى الاتحاد السوفياتي.

ثم عاد الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية إلى التوسع من جديد واحتل أستونيا ولاتفيا وليتوانيا ومولدافيا وكاريليا. وبذلك أصبح عدد الجمهوريات التي تشكل الاتحاد السوفياتي ١٦ جمهورية معظمها تضم شعوباً ليس لها علاقة عرقية أو

لغوية بروسيا بل يختلف بعضها عنها في العقيدة كالشعوب الإسلامية في الجنوب. ومن دون الدخول في تفاصيل التاريخ الروسي وحروبه في الشمال أو الجنوب، وخصوصاً حروبه مع الدولة العثمانية وايران واقتطاعه أراض شاسعة من الدول الإسلامية فإن الاتحاد السوفياتي هو في النهاية إحدى الأمبراطوريات الاستعمارية، التي تحتم الدورة التاريخية لمثيلاتها من الأمبراطوريات بالانهيار.

وقد يكون الأمر الشديد الغرابة أن شعوب العالم كانت ترى أمامها دولة سبقت الولايات المتحدة علمياً عندما أطلقت أول قمر اصطناعي في العالم، كذلك عندما أرسلت إلى الفضاء يوري غاغارين في خطوة هي الأولى في العالم، فتيقنت شعوب الكرة الأرضية أن الاتحاد السوفياتي هو الدولة الأولى في التقدم العلمي، إلى جانب امتلاكه أكبر قوة عسكرية، إلا أنه لم يكن يستطيع اتخاذ المزيد من الخطوات للتوسع بسبب خوفه من الردع النووي الذي تملكه الولايات المتحدة، وأحداث كوبا عام ١٩٦٣ ماثلة في الأذهان.

وجاءت المفاجأة الكبرى أن دولة بمثل هذه الإمكانات الهائلة تنهار في أسابيع قلائل وتختفي السلطة المركزية، ويتبين أنه لم يكن يجمع هذه الشعوب سوى عقيدة ثبت فشلها ولفظتها شعوب الاتحاد السوفياتي وفي مقدمتها الشعب الروسي نفسه صاحب السيطرة الحقيقية داخل الاتحاد السوفياتي.

والانهيار الذي حدث أضخم بكثير مما يتصوره البعض، إذ يتردد حالياً أن الكومنولث المحدث سيكون أشبه بنظام له أسس دولية متعارف عليها تمكنه من مواجهة المشاكل الاقتصادية والأمنية التي تعاني منها حالياً الجمهوريات المستقلة.

وتعبير الكومنولث هو تعبير بريطاني تطلقه حالياً انكلترا على مجموعة الدول التي كانت تحت الاستعمار البريطاني وحصلت على استقلالها كالهند وباكستان وكندا والدول الأفريقية وجزر البحر الكاريبي، وهي دول لا يوجد بينها أي ارتباط سياسي أو اقتصادي أو أمني، وإن كانت هناك سكرتارية تنظم اجتماعات هذه المجموعة من الدول التي قد تتعارض مصالحها الاقتصادية والأمنية. وقد تحدثت منذ بضع سنوات مع سكرتير الكومنولث ولم أخرج من هذا الحديث سوى أنه يعمل على عقد الاجتماعات في المواعيد التي يتفق عليها، وهي اجتماعات لا يصدر عنها قرارات تلزم أعضاء الكومنولث في أي أمر من الأمور لشدة التناقض بينهم. أي أن الكومنولث

البريطاني لا يزيد على كونه مجرد ذكرى تاريخية للأمبراطورية البريطانية ومستعمراتها السابقة.

ويبدو أن الرئيس الروسي بوريس يلتسن، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، سارع في البحث عن تسمية تتردد في المجال الدولي فوجد كلمة الكومنولث، وهو يعلم أنها من دون محتوى علمي.

والذي يجري حالياً أن هذه الجمهوريات المستقلة تحاول تأكيد استقلالها بعيداً من السيطرة الروسية، وقرار هذه الجمهوريات الاحتفاظ بالروبل كعملة للجميع، هو إجراء مؤقت لم يتسع الوقت ليحدد له البديل ولا يمكن أن يستمر ما لم يتم اتفاق اقتصادي بين هذه الجمهوريات، ومثل هذا الاتفاق يحتاج إلى جهود ضخمة لتحقيقه، فهناك جمهوريات كأوكرانيا وروسيا تملك موارد اقتصادية ضخمة وترغب في الاحتفاظ بمواردها والحصول على عملات صعبة في مقابلها وليس للانفاق منها على الجمهوريات الفقيرة وبالذات الجمهوريات الإسلامية في الجنوب.

أما مشكلة السيطرة العسكرية، وإصرار بعض الجمهوريات أن يكون لها قوات دفاع خاصة بها، فذلك لرغبتها في التخلص من سيطرة موسكو، وقد برز أخيراً الخلاف بين روسيا وأوكرانيا على ملكية الأسطول الروسي في البحر الأسود وهو بداية الخلاف على التركة العسكرية للاتحاد السوفياتي وستتعدد الخلافات وتزداد مع الزمن وقد يكون أخطرها حالياً قرار رفع أسعار السلع في الجمهورية الروسية مما سيؤدي إلى انتقال السلع نفسها من الجمهوريات الأخرى إلى روسيا بحثاً عن الربح مما يخلق مشاكل اقتصادية لهذه الجمهوريات.

وأحاول في هذه العجالة القول بأن ما حدث هو انهيار أمبراطورية استعمارية وإعلان الشعوب التي كانت تحت الاستعمار الروسي استقلالها.

وبصرف النظر عن الاضطراب المتوقع الذي قد يصل إلى نزاع مسلح على الحدود بين الجمهوريات المختلفة أو بين الأقليات في هذه الجمهوريات إلا أن أعظم أثر لانهيار الاتحاد السوفياتي في المجال الدولي هو زوال التهديد الروسي لدول أوروبا الغربية، ولم تعد المجموعة الأوروبية في حاجة إلى غطاء عسكري أميركي لحمايتها بل ستصبح أميركا في حاجة إلى تعاون اقتصادي مع المجموعة الأوروبية بعد أن نجحت

في وضع الأسس لإقامة أكبر تجمع اقتصادي في العالم يضمن حوالي ٣٥٠ مليون نسمة وهي من أكثر مناطق العالم تقدماً اقتصادياً وتكنولوجيا، الأمر الذي يؤدي إلى زوال التبعية الأوروبية للولايات المتحدة التي أصبحت بين المطرقة والسندان اقتصادياً. ففي الغرب تكتل أوروبي لم يعد في حاجة إلى مساندة أميركية عسكرياً أو اقتصادياً. وفي الشرق اليابان التي تدين الولايات المتحدة سنوياً بمبلغ يتراوح بين ٤٠ أو ٥٠ بليون دولار، وهي قيمة العجز السنوي في ميزان المدفوعات لمصلحة اليابان. ولم تعد الولايات المتحدة أكبر دولة مصنعة للسيارات في العالم، فقد تفوقت عليها اليابان التي تصنع ٢,٥ مليون سيارة يابانية داخل الولايات المتحدة نفسها للتخفيف من آثار البطالة فيها.

وانهيار الاتحاد السوفياتي يرفع عن كاهل الولايات المتحدة سباق التسلح إلا أنه في الوقت نفسه يضفي قوة على المجموعة الأوروبية سياسياً واقتصادياً. علماً أن دول شرق أوروبا ومن بينها الجمهوريات التي أعلنت استقلالها تتجه بأنظارها نحو المجموعة الأوروبية للتعاون معها بل ويحاول البعض أن يؤهل نفسه للانضمام إليها.

ولا يمكن للدول العربية الابتعاد عن الأحداث العالمية، فنحن في قلب الأحداث، وستبقى أنظار العالم تتجه إلى الشرق الأوسط كأكبر منطقة منتجة للطاقة، كما أن النزاع الاسرائيلي ـ العربي يلقي بظلاله على الأوضاع الدولية، ولا يستطيع أن ينسى العالم تأثير حرب ١٩٧٣ على الأوضاع الاقتصادية العالمية.

ولذلك فإن التتبع العربي للهزات الدولية الضخمة ضرورة للتعرف على سياستنا المقبلة لحماية أمننا واقتصادنا. فجميع الأطراف يبحثون عن مصالحهم وهذا من حقهم، فأين المصلحة العربية؟ وأي طريق تسلك وقد تغيرت السياسات وتعددت الطرق؟

عندما جرى التصويت على قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ كان من بين الدول التي أيدت المشروع روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء، وهي من جمهوريات الاتحاد السوفياتي التي لها ممثلون في الأمم المتحدة، كما أيد المشروع دول الكتلة الشرقية الممثلة في الأمم المتحدة، في ذلك الحين، وهي بولندا وتشيكوسلوفاكيا. ولم يتوقف تأييد الاتحاد السوفياتي للعدوان الصهيوني على الدول العربية عند حد التصويت بل تجاوزه إلى ما هو أهم، فكان أساس نجاح قيام اسرائيل بعدما زود الحركة الصهيونية القوة

البشرية، فكانت الغالبية العظمى من المهاجرين اليهود من الكتلة الشرقية، كما كان أحد المصادر الأساسية لتزويد الحركة السلاح، الأمر الذي مكّن اسرائيل من تشكيل قوة بلغ تعدادها نحو ٧٠ ألف مقاتل في مواجهة قوات عربية لم يتجاوز عددها ١٤ ألف جندي، وما لا يزيد على عشرة آلاف من المتطوعين العرب. وكان الاتحاد السوفياتي يأمل في أن يصبح لاسرائيل موطىء قدم في منطقة عربية تقع تحت السيطرة الغربية.

وتحول الموقف السوفياتي عام ١٩٥٥ عندما رفضت مصر والسعودية بوضوح كامل في اجتماع رؤساء الحكومات العربية في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ الانضمام إلى الأحلاف الغربية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي، ثم انضمت إليهما لاحقاً بقية الدول العربية، ولم ينضم إلى الحلف الغربي سوى العراق في ذلك العام.

وتلا ذلك قيام الاتحاد السوفياتي بتزويد مصر صفقة السلاح التي أدخلت تغييراً جذرياً على الموقف الدولي في المنطقة، ثم تلته صفقة أسلحة لسورية، وكان ذلك بداية تحول لسياسة الاتحاد السوفياتي في المنطقة تأكد في الإنذار الذي وجهه بولغانين باسم الاتحاد السوفياتي لبريطانيا أثناء العدوان الثلاثي على مصر باستخدام الصواريخ ضد الدول المعتدية، مع العلم أن إنهاء العدوان عملياً جاء نتيجة موقف ايزنهاور الحازم وإرغامه الدول الثلاث على سحب قواتها من الأراضي العربية في كل مراحل النزاع العربي ـ الاسرائيلي عملاً وقولاً. إلى أن توقف عملياً في عهد غورباتشوف الذي كان يسعى إلى التقارب مع الولايات المتحدة بأي ثمن، وكان أخطر موقف هو السماح لليهود الروس بالهجرة إلى اسرائيل وتهديد الأمن العربي، وحرمان الشعب الفلسطيني من الاحتفاظ بأرضه، كما تراجع قولاً عن مواقفه السابقة في تحديد معنى السلام وذلك بإنهاء حال الحرب (فقط) وانسحاب اسرائيل من كل الأراضي العربية والقدس الشرقية، وقيام الدولة الفلسطينية، وأصبح موقفه يتطابق مع الموقف الشديد الغموض. وعاد موقف الاتحاد السوفياتي ثم الدول التي حلت محله إلى ما كان عليه الوضع عام ١٩٤٧ أي التوافق الروسي ـ الأميركي بالنسبة إلى النزاع العربي ـ الاسرائيلي، ولم يكن السبب في التغيير الحالي هو انهيار الاتحاد السوفياتي فقط وإنما عاون على ذلك تفكك الموقف العربي وتشتته.

سقوط الماركسية والثورة؟

نعم، لكن بأي معنى؟

حازم صاغيه(*)

عاجل بعض الكتاب، عرباً وغير عرب، باستخلاص حقيقة سقوط الماركسية والثورة (واللينينية طبعاً، ناهيك عن الستالينية) من سقوط أنظمة الاشتراكية البيروقراطية والقمع الحديدي في أوروبا الوسطى والشرقية، ومن ثم الاتحاد السوفياتي نفسه.

وفي ما يخص العرب تحديداً، أسقط عتاة المحافظين أكثر من شيء دفعة واحدة، بذريعة أن الثورة و«نظريتها» سقطتا، معتبرين أن كل تجرؤ على السائد والمألوف بات بدوره ساقطاً ملفوظاً. ذلك أن ضعف التقليد الليبرالي العربي جعل العتاة المذكورين يعتقدون أن كل نزعة رفض وتغيير شيوعية بالضرورة. وفي هذه الخانة وضع المذهب الأممي والميل الالحادي ورفض العائلة البطريركية وتنظيم الملكية الخاصة وتغيير وضع المرأة ورفض التراكيب السياسية غير الحديثة والدعوات إلى العلمنة.

وكان لهذا الاعتقاد الخاطىء، حسن النوايا مرة سيئها مرات، إن شاع وانتشر شعبياً على أوسع نطاق، حتى في البيئة «الجماهيرية» التي كان يفترض أنها «حليفة استراتيجية» للاتحاد السوفياتي واشتراكيته، وإذا بنا نفاجأ(؟) بعد أن تهاوت صروح الديكتاتوريات الشيوعية، بإجماع واسع على أن الأمل الوحيد هو في اللوذ بـ. . . الماضي المقدس!

(*) مفكر وباحث وكاتب.

صحيح أن الماركسية سقطت، لكن هذا ما لم ينتجه مصير البلدان الاشتراكية وتجاربها البائسة، لسبب بسيط لا يخطئه كل ذي إلمام عارض بالموضوع. وهذا السبب هو أن أفكار كارل ماركس وفريدريك انغلز هي أفكار في نقد النظام الرأسمالي أساساً، أي نقد علاقات الإنتاج الصناعي في أوروبا في القرن التاسع عشر وما «ينهض عليها» من بنية سياسية وقانونية وأخلاقية، تعارف الماركسيون على تسميتها «البنية الفوقية».

أما ما يتصل ببناء الاشتراكية فبالغ القلة والتعميم في أفكار ماركس وانغلز، يطغى عليه الطابع التكهني الذي لا يعول عليه كثيراً، والمتضارب أحياناً. والواقع أن معظم هذه الأفكار الأخيرة جاء في شكل تأملات إما لتجربة كوميونة باريس في ١٨٧١ حيث استولى العمال والرعاع على السلطة، وإما للمشاعة الزراعية الروسية القديمة. فقد تم استلهام التجربة الأولى لبلورة فكرة ذواء الدولة التي عمل لينين لاحقاً على تطويرها في كتابه «الدولة والثورة» كما تم استلهام الثاني لبلورة فكرة «ديكتاتورية البيروليتاريا» التي أرادها صاحباها ناهضة على تقدم اقتصادي وتقني بعكس المشاعة الروسية.

والحق أن الكتابة عن الاشتراكية في بنائها والانتقال إليها، لم تزدهر إلا مع لينين مؤسس الدولة الاشتراكية، وخصوصاً بعده مع ستالين، وهي المهمة التي تولاها عدد صغير نسبياً من الكتاب والمثقفين والسياسيين وجيش لجب من الموظفين هم الذين سقطت أفكارهم ودعاواتهم بسقوط الأنظمة المعنية.

هذا الأمر، وكما سبق القول، لا يعني أن الماركسية لم تسقط لكنه يعني أن سقوطها جاء سابقاً على سقوط الأنظمة الاشتراكية، وأن الذي أنجز هذا الإسقاط هو المجتمعات الرأسمالية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية، أي المجتمعات التي صدرت الماركسية لتعارضها وتنقدها وتنقضها في آن. وعملية إسقاط الماركسية لم تبدأ، بالتالي، مع ميخائيل غورباتشوف أو ليش فاليسا أو فاتسلاف هافيل، بل بدأت في مطالع القرن مع أحزاب الأممية الشيوعية الثانية، وزعيمها كارل كاوتسكي، وهي الأحزاب التي استوعبت مستجدات الرأسمالية الصناعية وضمور مفهوم

«البروليتاريا» بالمعنى الذي تحدث عنه كارل ماركس في القرن الماضي، لتقدم، من ثم، على الانخراط في دورة الحياة السياسية والبرلمانية لبلدانها.

بهذا راحت الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، والتي تضرب جذرها في تجربة «التحريفي» برنشتين، ومن ثم «المرتد» كاوتسكي، تنحو نحواً مغايراً عن ذاك الذي أثمر الثورة البلشفية في روسيا. ولئن تمثلت حشرجة موت الراديكالية الأوروبية الغربية في ذبح «حركة سبارتاكوس» الألمانية بقيادة روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت، وانهيار جمهورية بيلاكون الديكتاتورية في هنغاريا المشدودة إلى الغرب بأكثر من رابط ووثاق، فإن الماركسية الروسية، في اتجاهها نحو الشرق الآسيوي لم تعد تلك الحركة المضادة للرأسمالية، نظراً لضعف الرأسمالية في بلدان آسيا، بقدر ما أصبحت نزعات قومية فلاحية في صورة أو أخرى.

لقد عبر عن هذه الانعطاف كراس لينين الشهير «أوروبا المتخلفة وآسيا المتقدمة» الذي اشتق التخلف والتقدم لا من المقدمات الاقتصادية ـ كما ترى الأرثوذكسية الماركسية ـ بل من القابليات الثورية.

فأوروبا التي عزفت عن الثورة وخذلت الثوري الروسي وصحبه، باتت، بحسب هذا العرف، متخلفة، والعكس يصح في آسيا حيث كانت تلوح تململات وتمردات عن الصينيين والتتار والعرب والأتراك وغيرهم استحقت تهليل القيصر البلشفي الجديد.

إلى ذلك أفادت الماركسية قبيل انتصار الثورة الروسية من المناخ السلمي الذي شاع بعد الحرب العالمية الأولى وحنين الشبيبة الأوروبية إلى بعد كوني يخرجها من ضيقها ونسبيتها القوميين اللذين ارتبطا بتلك الحرب. وفي هذا الجو حصل التبادل الفكري المحدود بين الماركسية والسوريالية وتضخمت الحركات الشيوعية بالأنتلجنسيا اليهودية التي كانت في طليعة المتضررين من الانحصار في الاسار القومي.

شبيبة ثم ارتكابات

والحق أن هذا التيار لم يتراجع مرة واحدة، حيث تأخرت التحولات السياسية والثقافية عن مثيلتها الاقتصادية. بل ظل الاتجاه الماركسي يجد ما يعززه، برغم كل بشاعات الستالينية المحجوبة عن الأنظار حتى ذلك الحين. فمن مشاركة الشيوعيين

الفعالة في مقاومة الفاشية الاسبانية خلال الحرب الأهلية للأعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وتطوير سياسات «الجبهة الشعبية» إلى الصدام مع الفاشيتين الايطالية والألمانية، في الحرب العالمية الثانية، ظل في الإمكان، تبعاً لتحليل ما، اكتشاف عناصر سلمية وديمقراطية إن لم يكن ففي الماركسية نفسها. بهذه العين يمكن أن نرى إلى تجارب كتجربة بيكاسو الذي انتسب إلى الحزب الشيوعي في ١٩٤٤ ورسم شعار «حملة السلام» الشهير في ١٩٤٩، وميل عدد لا بأس به من كبار المثقفين والفنانين الفرنسيين (والأميركان) إلى التعاطف مع الاتحاد السوفياتي والحوار الايجابي مع الماركسية، أوحتى الانخراط في الحزب الشيوعي.

مع حرب كوريا وتوطد الماوية في الصين كأبرز ماركسيات العالم الثالث، بدأ المسار المضاد الذي يقوم على توكيد الانفصال بين الاشتراكية من جهة، والديمقراطية من جهة أخرى، لتجيء الفضائح التي كشفها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي في ١٩٥٦ فتترك آثاراً صاعقة لم تمنع خروتشوف في السنة نفسها من غزو هنغاريا.

ولم يكد يمر عقد من الزمن حتى كانت ارتكابات «الثورة الثقافية البروليتارية العظمى» في الصين تكرس القطيعة النهائية بين الماركسية والأفكار الأوروبية في منحاها الإنساني والشمولي، بينما كانت دبابات «مبدأ بريجنيف» تتهيأ لسحق «ربيع براغ» في تشيكوسلوفاكيا. وربما كان الايذان المبكر بهذه القطيعة ما مثلته معضلة ليون تروتسكي، الرجل الثاني في الثورة الأكتوبرية الذي أراد الاحتفاظ بروح الماركسية كحركة أوروبية مضادة للرأسمالية في مناخ زراعي لا صلة له بالموضوع، أو أن صلته أوهن من أن تترتب عليها خطة سلطوية، بل تاريخية، كاملة ناجزة.

قصارى القول أن الرأسمالية، بمجتمعها واقتصادها وسلطتها، هي التي أسقطت الماركسية، وقد فعلت ما فعلته بوسائط وإنجازات محددة، منها التنظيم الاجتماعي الجديد، والمدلولات الناشئة التي راح مفهوم «الطبقة الاجتماعية» ينطوي عليها، والتحولات التي جعلت تتعرض لها الصناعة الحديثة ومصانعها. ومع الحرب العالمية الثانية وقيام دولة الرعاية واقتصاد الرفاه والاتساع المتعاظم الذي سجلته البورجوازية الصغيرة غير التقليدية وظهور مدراء المشاريع، اختلف القضاء الاجتماعي الأوروبي اختلافاً كاملاً. وفيما باتت الطبقات العاملة تحرز قدرات متفاوتة على مراكمة رأس المال وتوريث الملكية، فلم تعد تلك الطبقات التي «لا تملك إلا قيودها» بحسب

وصف ماركس الذي حكمها بـ«قانون الافقار المتعاظم» أضحى توطد الحياة السياسية والآليات الديمقراطية كفيلاً بامتصاص النزاعات المجتمعية وقادراً على التحكيم والتسوية من دون الاضطرار إلى العنف كحل وحيد أوحد.

فالفارق بين منتصف القرن التاسع عشر، زمن صدور «البيان الشيوعي» ومنتصف القرن العشرين، زمن مشروع مارشال، غني الدلالة لجهة الإطار الكوني والتاريخي لأوروبا. فالزمن الأول زمن قوميات أنجزت للتو بلورت نفسها وشرعت تتهيأ للانطلاق إلى العالم، تاركة بقعاً أوروبية كثيرة في الشرق والجنوب والوسط تتخبط بمهمتها القومية وولوجها الرأسمالي، أي بطورها العثماني إذا صح التعبير. فيما الزمن الثاني أطلسي كوني عابر للقارات، ناهيك عن الأمم، دامج للرساميل على النحو الذي لا تنفع معه «حماية» فكر الرجعيون كثيراً بتجريبها. فما بدأ مع مارشال استكمل في أوائل الستينات حين امتدت رساميل ومصانع الرأسمالية المتقدمة إلى بلدان الجنوب (اليونان، اسبانيا، البرتغال) فزرعت البذور التي أثمرت لاحقاً تصدع الديكتاتوريات الاستبدادية لتلك البلدان. وما لبثت نتائج تجربة «نمور آسيا» في سنغافورة وتايوان وهونغ كونغ وكوريا الجنوبية أن دلت على المدى الذي يمكن أن يبلغه اتساع أوروبا، أي توسع الرأسمالية.

وليس من غير دلالة أن الفئات والشرائح العمالية التي هي الأوثق صلة بقاعدة اقتصادية قومية، والأقرب إلى النموذج العمالي للقرن الماضي، أي إلى التصور الماركسي تاليا، تبدو اليوم شديدة التخلف عن المجتمعات المتقدمة التي تعيش وتعمل فيها. وإذا وفّر عمال الزراعة المأجورون مثلاً بسيطاً وسهلاً، فإن الوصف ينطبق خصوصاً على عمال المناجم ممن لا يعادل تردي وسائل إنتاجهم وأدواته إلا تردي أفكارهم السياسية والاجتماعية وقيمهم الأخلاقية.

قد يقال إن الماركسية تركت أثراً مختلفاً في «العالم الثالث» مؤداه احتضان الرغبات التحررية والتغييرية على الأصعدة السياسية والأخلاقية. لكن هذا ينبغي أن لا ينسينا حقيقتين، أولاهما أن هذا الاحتضان حصل بنتيجة غياب أو ضعف التقليد الليبرالي عند العرب وفي «العالم الثالث» عموماً، الأمر الذي جعل الخرافة المحافظة عن الشيوعية تبدو صحيحة، إذ بات من يجرؤ على المطالبة بأبسط حقوق المرأة أو التدخين في حضرة الأب، لا يجد غير الأحزاب متنفساً ومنفذاً. وفي الإطار نفسه

عملت حركة الترجمة الكثيفة للكلاسيكيات الماركسية، وما تتطرق إليه من أعمال أوروبية على إشباع بعض النقص (المكابر) عند أبناء «العالم لثالث» حيال الثقافة الأوروبية، فبات الماركسي البدوي الذي ظل حتى الأمس القريب يقبل يد الوالدة والوالد ويطلب الرضى، يصدح كالبلبل بأسماء هيغل وفيورباخ ونيرودا وماياكوفسكي وغوركي.

أما الحقيقة الأخرى الأبعد أثراً في هذا المجال فهي أن ماركسية هذا القطاع في «العالم الثالث» أعادت إنتاج سائر الخرافات الأهلية المعادية للغريب والآيلة إلى «القطع» مع الغرب، بحيث كانت ارتكابات هائلة أفدحها حقول القتل الكمبودية الشهيرة. ذلك أن حلول الماركسية محل الليبرالية الغائبة لم يؤسس ليبرالية يسارية بديلة، إذا جاز التعبير، بل أعطى «الأساس النظري المتماسك» للعن الليبرالية، ممهداً للتصالح مع السلف الصالح الأهلي والقومي والتراثي، وبما يستجيب لمصالح الاتحاد السوفياتي في مكافحة النفوذ الغربي.

لكن حين يقال أن الرأسمالية الأوروبية هي التي أسقطت الماركسية[1]، يقال أيضاً، واستتباعاً، أن الرأسمالية أسقطت ذاتها التي طرحت الماركسية نفسها نقيضاً لها. فرأسمالية القرن التاسع عشر ونقيضها الماركسي انتهيا إلى غير رجعة. إلا أنه لئن بقي الكثير من الرأسمالية القديمة حيا في الرأسمالية الحالية، ومن هذا الكثير روح الربح ومبدؤه، فإن القليل من الماركسية يبقى أيضاً حياً، لأن السقوط الكامل الكلي أقرب إلى الأساطير الرؤيوية منه إلى الواقع الفعلي وحركته. ومن هذا القليل الباقي ما يمكن للعلوم الاجتماعية أن تضمه إليها وتحتفظ به[2]. فالبعد الاجتماعي الطبقي في تحليل ظاهرة من الظاهرات أصبح مما لا تستطيع تلك العلوم التخلي عنه ونبذه، بعد

---

(١) بالمعنى نفسه فإن الثورة التقنية والمعلوماتية وما بعد الصناعية، هي التي لعبت الدور الأكبر في إسقاط الأنظمة الاشتراكية البيروقراطية.

(٢) ولا بأس بالتمييز بين معرفية، وبالتالي ايجابية، ما بقي من الماركسية بفعل طبيعتها الفكرية، وما بقي من الأنظمة التي سمت نفسها ماركسية، وهو ما سيترك آثاره السلبية، على حقبة زمنية كاملة. يكفي القول أن الأنظمة المذكورة تركت اقتصادات مفلسة وثقافات واهنة وربت أجيالاً على جهل السياسة وضيق الأفق المحلي والعداء للغريب، بحيث لا يمكن القطع إطلاقاً بأن تجارب أوروبا الشرقية استقرت ونجحت كلها في التغلب على المخزون الرديء لمجتمعاتها.

قرنه بعوامل أخرى تقل أهميتها أو تزيد، ومن ثم رؤية العمل الذي يسم حركة هذه الأبعاد مجتمعة ومتفاعلة في ما بينها، وطبعاً بعد تحرير ذاك العامل مما سماه الكثيرون بالحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية التي ينتجها صراع علاقات الإنتاج وقواه الصاعدة بحسب التأويل الماركسي.

أما مبدأ الصراع الطبقي نفسه، والذي رأت إليه الماركسية بوصفه «محرك التاريخ» الآيل إلى ولادة «ديكتاتورية البروليتاريا» في آخر المطاف، فيبقى منه، بعد تشذيب واحديته وحديته وحدته، رسوخ عبرة التنويه بالحد الأدنى من تدخل الدولة لضبط التفاوتات الكبيرة في توزيع الثروة ووضع نظام ضريبي كفوء يحمي ضئيلي القدرة والحيلة من جبروت رأس المال واندفاعه[1].

وما يصح في الماركسية يصح في مبدأ الثورة الاجتماعية التي سقطت هي أيضاً على يد الرأسمالية المتقدمة في بلدانها، لكنها لم تسقط في البلدان الساعية إلى الرأسمالية. والدليل على ذلك، كما لاحظ كثيرون، أن «ثورات» هي التي أسقطت الأنظمة الشيوعية في أوروبا الوسطى والشرقية وفي الاتحاد السوفياتي أيضاً.

النمطان «الثوريان»

بيد أن الفوارق بين نمطي «الثورات» التوتاليتاري السابق والديمقراطي الحالي، هي أكثر من أن تحظى بعدم الانتباه إليها، حتى ليصير من الجائز إطلاق تسميتين مختلفتين على هذين النمطين. ذلك أن التمسك بكلمة «الثورة» تعريفاً لهما، يقف من الكلمة عند شكلها الذي هو تدخل الناس لأحداث تغيير ما في المسارات الموضوعية. فإذا جازت هذه الشكلية (وهي لا تجوز) جاز وضع الثورات الفرنسية والروسية وقبلهما الأميركية، وبعدهما الايرانية وثورات أوروبا الوسطى، في سلة واحدة، فنكون عدنا أدراجنا إلى طريقة سلامة موسى، صاحب كتاب «الثورات»، في التاريخ والنظر. . . هذا إذا لم يجز الكلام عن «ثورة فاشية ونازية برغم اعتمادها الشكل البرلماني في ايطاليا وألمانيا.

---

(١) طبعاً لن نقول، كما يذهب البعض، إن مفهوم «الطبقة» هو ما يبقى حياً من الماركسية، لسبب بسيط هو أن هذا المفهوم سابق عليها باعتراف ماركس نفسه الذي قال أنه اكتشف أموراً ثلاثة هي صلة الطبقات وصراعها بعملية الإنتاج، وأساسية هذا الصراع حيال ما عداه من عوامل، وإفضاؤه إلى مجتمع بلا طبقات.

ولا بأس بايراد أبرز الفوارق بين نمطي «الثورات» هذين، النمط التوتاليتاري والنمط الديمقراطي الليبرالي:

● إذا كانت تجربة أوروبا الغربية وتجاوز الرأسمالية ذاتها سلماً قد برهنت الخروج من المآزق التاريخية لا يكون بالعنف، وهذا تقويض كامل لنظرية الثورة، فإن النمط الثوري التوتاليتاري جاء لمعاكسة حركة الحياة، وآل من ثم إلى تجميد التاريخ وعزل البلد المعني عن العالم. في المقابل ينظر النمط الآخر إلى العمل الثوري بوصفه الاضطرار التدخلي لإعادة الأمور إلى نصابها التطوري وليس بذاته العمل الأنجد المطلوب. ولنا هنا أن نلاحظ كيف اقترنت جميع جوانب الحياة في بلدان النمط التوتاليتاري بتمجيد ثورات هذه البلدان، ومبدأ الثورة استطراداً، فيما اقتصر تمجيد الثورة في بلدان النمط الليبرالي على يوم عيد أو ذكرى لا يتعداه الاحتفال إلى جوانب الحياة الأخرى.

● من قبيل تجميد التاريخ، وبموجبه، يوقف النمط التوتاليتاري الحياة السياسية ويعمل على تعطيلها، فيحل الأحزاب ويضع يده على المؤسسات ويصادر المجتمع المدني فيما هو يبني دولته المركزية. في الآن نفسه يتجه النمط الآخر، الليبرالي، إلى إطلاق الحياة السياسية، بل يكون هذا الإطلاق الغرض الأول لثورته. بهذا المعنى فإذا صح أن الثورة الروسية التي ابتلعت سوفياتاتها وأحزابها لمصلحة حزبها الواحد هي مصدر استلهام النمط الأول، علناً أو ضمناً، فإن الثورة الدستورية الأميركية هي مصدر الاستلهام العلني أو الضمني للنمط الثاني[1].

● يؤكد النمط التوتاليتاري أن الثورة هي لأجل نصرة مصلحة ما (اجتماعية، طبقية)، أو حق ما (قومي، ديني)، أما النمط الثاني، فمن دون أن يغفل عن المصالح والحقوق، يميل إلى ربط الثورة بحق الناس في أن تختار «حقها» و«مصلحتها»، أي في أن تستعيد حرياتها وعقلها العام. لهذا، فيما يؤول النمط الأول إلى إنابة الحزب أو «الطليعة» أو «النخبة» أو سلك رجال الدين عن الناس، يتجه النمط الثاني إلى نزع

---

(١) فيما جمعت الثورة الفرنسية الملمحين، شرعة حقوق الإنسان إلى مقصلة روبسبير، فحملت، وبصورة انتقائية، مصادر استلهام من الطرفين، لوحظ غالباً كيف أن الثورة الأميركية لم تترك أي أثر أو تأثير على الفكر السياسي العربي.

هـذه الإنابـة التمثيلية المـزعومـة، والتي لا يملك أصلاً عـدتها وأدواتهـا، عـامـلاً عـلى استنطاق المجتمع المدني وتفعيل مؤسساته وقواه.

● يقوم النمط الأول على العنف الذي غالباً ما يكون التنظير الثوري قد برره، وهـو تبريـز يتراوح بـين التمجيد واعتبـار العنف تفصيلاً عـارضاً لا يستـأهل التـوقف عنده. أما النمط الثاني الذي يغلب الأشكال السلمية والاحتجاجية في عمله، وأعلاها العصيان المدني، فيتعامل مع العنف في حال حصوله بوصفه كارثة عامة، على المجتمع كله أن يعمـل على تـداركها. ويعكس هـذا الفـارق نفسـه في طـريقتي التعـامـل مـع الشهداء والشهادة والطقوس الاحتفـالية التي تـرافق ذلك. فـالنمط الهادف إلى العـزل عن التـاريخ والعـالم يستهويـه التوغـل في الموت، عـلى عكس النمط المسكون بـالحياة والعالم واستئناف ما انقطع.

والـواقع أن هـذا الفارق حيـال العنف يتعدى الصـدور عن نظرتـين فكـريتـين مختلفتين، على أهمية هذا الصدور. إذ تبعاً لقسريته وتغليبه العناصر الذاتية والإرادية، يتـطلب النمط الأول، وبالضرورة، كميـة من العنف والدم تجعـل الثورة وانتصـارهـا ممكنين. وفي المقابل فإن النمط الثاني الذي يكون ثمرة حالة شعبية عامـة وناضجـة لا يتطلب، من حيث المبدأ، عنفاً ودماً، كـما لا يتطلب أيـة مبالغـة في «تنظيم» الجـماهير و«تأطيرها» لـ«حماية الثورة».

● تتسم ثـورات النمط الأول بتغليب الضـديـة، حيث أنها تعـبر عن مصلحـة اجتماعية معينة في وجه مصلحة أخرى، أو رغبة أمة في مصارعة أمة أخرى. ومن دون أن تختفي الضدية عن ثـورات النمط الثاني، وهي تعـريفاً «ضـد» جماعـة أو سلطة أو دولة أو اليغارشيا معينة، فإن الغلبة تبقى للطابع الفكري الإنساني الجامع، فيما يلعب المثقفون والطلاب الدور السياسي الاضطراري الأبرز في أحداثها وقيادتها.

ولئن كان وصف كهذا ينـطبق نموذجياً على تشيكـوسلوفاكيـا، فإن بـولندا التي انطوت ثورتها على جرعات كبرى من القومية والكاثـوليكية والعـمالية، في آن، لم تشـذ كثيراً عن الوجهة المذكورة. فالقيادات البولندية مثل سائر القيادات في أوروبا الوسطى والشرقية، لم تتعامل ثأرياً مع الشيوعيين وإن أظهرت المجتمعات المكبوتة خصـوصاً في ألمانيا الشرقية ورومانيا مثل هذه الاستعدادات. أماالعداء البولندي الشهير للروس فلم ينفجر على النحو الذي نعهده في الثورات القومية للنمط الأول، فيـما قدمت الكنيسـة

الكاثوليكية دورها متصالحاً مع القيم الليبرالية الغربية بما ينم عن خشيتها الظهور بمظهر صاف (ايراني) على الحلبة الفكرية، وخصوصاً السياسية.

ما من شك في أن هذه الفوارق وغيرها تملي إعادة تفكير في اللغة ومصطلحاتها بما يوجد وعاء للتمييز بين نمطي «الثورات» إلا أن الحق في السائد على الرفض والاعتراض والتدخل للتغيير هي ما يبقى ويرسخ من النمط الأول الذي أفضى عملياً، ومن خلال استحواذ السلطة، إلى كبت كل حق وكل اعتراض وكل تدخل. والمسألة هنا، وفي ما يخص الأوضاع العربية، هي كيف نجعل هذا الحق حق الجميع، وكيف نعيد إدراجه في تقليد تدرجي ليبرالي، وأين يقع ذلك كله من الثقافات الأهلية لمجتمعاتنا.

في هذا، يقال أن ظروفنا مختلفة، ونظراً لهذا الاختلاف لا ينبغي علينا أن نقلد الآخرين، بل أن نعاود اكتشاف النار، برغم اكتشافه، كيما يصير صالحاً للاستعمال. ما تغفل عنه هذه الحجة أننا برفضنا تقليد النمط الذي برهن نجاحه وكفاءته، لا نفعل غير تقليد النمط الثوري الآخر الذي يستهوينا برغم حصاد العفن ورائحة الموت.

ويبقى أن سقوط الماركسية من دون ظهور تقليد ليبرالي عربي قوي، شاغل يستحق الكثير من الاهتمام، وربما بعض القلق... علماً أن الماركسيين لم يفوتوا فرصة لإضعاف التقليد المذكور.

الزلزال واحتمالات المستقبل

محمد سيد أحمد(*)

انتهى الاتحاد السوفياتي مع نهاية عام ١٩٩١، أثر استقالة غورباتشوف، ولا تنتهي الشعوب مع زوال الدول التي تنشئها، ولكن الاتحاد السوفياتي كان تجربة فريدة من حيث أنه ربما الدولة الوحيدة في العالم التي لم تكن تنسب نفسها إلى هوية شعب بعينه، ولا إلى موقع جغرافي محدد. ذلك أن الاتحاد السوفياتي دولة أريد بها أن تصبح النواة لنظام اشتراكي فشيوعي يتسع للكوكب كله.

لقد تميز الاتحاد السوفياتي عن دول العالم جميعاً في أنه قد قصد به أن يكون ثورة قبل أن يكون دولة، وأن يكون فكرة، فكرة شمولية خليقة بالانتشار لتصبح عقيدة عالم جيد، وحمل انتهاء الاتحاد السوفياتي، على نحو ما، معنى فشل هذه الفكرة. وطبعاً سوف يطرح سؤال لا بد أن يصبح موضوع جدل محتدم في الآونة المقبلة، وبخاصة في عالمنا الثالث: هل انتهاء الاتحاد السوفياتي يؤذن بانتهاء فكرة الاشتراكية أصلاً؟ هل زوال الاتحاد السوفياتي من على خريطة العالم السياسية يشهر إفلاس البناء الفكري الذي شيده كارل ماركس ابتداء من منتصف القرن الماضي، أم أن الفشل قد نال فقط من تجربة بعينها؟ وأن هذا الفشل لا يعني انتصاراً نهائياً للذين ناصبوا العداء للاتحاد السوفياتي منذ مولده ولا يعني بالذات انتصار الرأسمالية؟

ثمة حجة لا تحتمل الإغفال هي أن عالم ما بعد عام ١٩٩١ لا يمكن أن يكون مجرد صورة مكررة لعالم ما قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧، وأنه لا بد أن يكون لتجربة الاتحاد السوفياتي بصمات باقية. لقد عاش معظم أبناء قرننا في مختلف أرجاء كوكبنا وأمام أبصارهم ما بدا لهم بديهة هي أن وجود الاتحاد السوفياتي تحكمه «حتمية» وربما نوع من «القدرية» لا فكاك منه! وقد انسحبت هذه العقيدة الراسخة على المتحمسين للتجربة السوفياتية والرافضين لها على حد سواء. كان الاتحاد السوفياتي في نظر المتحمسين له، المؤمنين به، التجسيد الحي لـ«حركة التاريخ»، وحركة تحرر الشعوب، وبدا انتصار الاتحاد السوفياتي انتصاراً لقضايا التحرير وبالتالي فلا رجوع عنه، لأن المزيد من التحرر سنّة الحياة. أما خصوم الاتحاد السوفياتي، فقد رأوا فيه حقيقة مؤلمة، لا مهرب منها، عليهم التسليم بها، ولا يرون ما ينبىء بزوالها تلقائياً، خاصة في عصر أسلحة الدمار الشامل، التي قد تصلح لـ«ردع العدو» ومحاولة احتواء

(*) باحث وكاتب وصحافي مصري.

توسعه، وبالتالي تأسيس «النظام» الدولي على «معادلة الرعب النووي» ولكن يكون الإقدام على «إزالة هذا العدو» مخاطرة غير مؤتمنة العواقب، لأنها تحمل خطر الإفناء المتبادل! ولذلك نظر خصوم الاتحاد السوفياتي الآلداء في الغرب إلى بقائه على أنه في النهاية شر أهون مفروض على المجتمع الدولي بما هو أشبه بـ«قدرية تاريخية»!.

هذا الإحساس بـ«القدرية» انتهى مع انهيار الاتحاد السوفياتي، وفجأة بدا أن مسار هذا القرن لم يكن محكوماً بتصور «نظري» عن مجرى مقرر سلفاً للتاريخ، وبدا فجأة أن المستقبل كله مفتوح للتكشف وربما أيضاً للاختراع! وأن للإنسان قدرة متجددة على أن يقرر محددات مصيره، وسقط بالتالي التصور أن هناك من يملك أن يدّعي أنه يمثل «حركة التاريخ»، بل لا بد في هذا الصدد من أن يتنافس المتنافسون. ومن هنا كان لا بد أن يكون للرأي الآخر مكانة ومكانية، وكان لا بد أن يكون هناك تسليم بمبدأ التعددية، وبالتالي الديمقراطية.

بيد أن القول بأنه ليست هناك «قدرية تاريخية» أعاد طرح أسئلة جوهرية ليس فقط في ما يتعلق بالمستقبل، بل أيضاً في ما يتعلق بالماضي. فهل كانت هناك «حتمية» أن يقوم الاتحاد السوفياتي أصلاً؟ وأن يقوم على النحو الذي قام به؟ هل كانت هناك «حتمية تاريخية» لتجربة اشتراكية وفق تلك التي عاصرناها في هذا القرن؟ وماذا لو لم يكن قد وجد لينين؟ وماذا لو أن الألمان قد قبضوا عليه وقت أن استقل من منفاه في سويسرا قطاراً اخترق به ألمانيا ليلحق ببؤرة الثورة في سان بطرسبورغ عام ١٩١٧؟ وماذا لو امتدت الثورة إلى قلب أوروبا؟ وماذا لو لم يكن اغتيل زعيما حزب سبارتكوس ـ روزا لوكسمبورغ وكارل لايبنخت ـ وقد مثلا التيار الراديكالي داخل الحركة الثورية الألمانية، وكان مثل هذا كفيلاً وقتذاك بنقل بؤرة الثورة إلى دول أوروبا الرأسمالية الأكثر تقدماً، بدلاً من أن تستقر في روسيا فقط، وأن ترتد عن بقية القارة الأوروبية، مما شجع البلاشفة على تبني فكرة إقامة الاشتراكية في بلد واحد، حتى لو كان هذا البلد متخلفاً وغير مهيىء لثورة اشتراكية.

إلى أي حد كانت هذه العوامل نتاج الصدفة، أم نتاج «حتمية تاريخية»؟

الحقيقة أن تصور ماركس لم ينجزه لينين ولم ينجزه ستالين، على رغم انتسابهما إليه. لقد انطلق ماركس من أن الاشتراكية ليست فقط نقيض الرأسمالية، وأن لا اشتراكية من دون تطور رأسمالي يسبقها وينضج الظروف الضرورية لتخطي المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي، ولذلك تصور ماركس أن أكثر الدول ترشيحاً لتدشين الثورة الاشتراكية هي الدول الممثلة لأكثر حلقات التطور الرأسمالي تقدماً مثل ألمانيا

والولايات المتحدة وبريطانيا. بيد أن لينين انطلق من فكرة أن الثورة وقد نشبت فعلاً في روسيا لا يجوز التخلي عنها، وبرر دعواه من منطلق أنه من الممكن إطلاق الثورة من أضعف حلقة في الامبريالية العالمية حيثما تجمعت التناقضات الاجتماعية في أكثر صورها حدة (الناجمة، في حال روسيا تحديداً، عن قسوة قمع الفلاحين، وشدة اضطهاد القوميات، وويلات الحرب التي بلغت الذروة، فضلاً عن الاستغلال الرأسمالي).

بيد أن أضعف حلقة في الامبريالية لم تكن أقوى حلقة في الرأسمالية، ولم تكن تشترط تطوراً رأسمالياً بلغ حداً يهيىء المجتمع للتحول إلى الاشتراكية، ومن هنا انطلقت الثورة مختلفة لتعاليم كارل ماركس. وتجارب هذا القرن واضحة الدلالة في تأكيد أن التخلف لا ينتج الاشتراكية، بل صوراً مشوهة لها. وكثيرون يرجعون الانهيارات التي حدثت إلى تراكمات نجمت عن نقطة البداية هذه تحديداً.

تأليه القائد وعبادة الفرد

قرر لينين أن يتراجع عن إقامة اقتصاد الدول السوفياتية الوليدة على مبادىء اشتراكية صارمة، ليطبق ما عرف بـ «النيب» (NEP) وهي سياسة اقتصادية تركت مكاناً فسيحاً للقطاع الرأسمالي في الاقتصاد الاشتراكي، على أن يكون سندها تحالف وثيق بين العمال والفلاحين، ولكن ستالين اعتقد أنه كان من الممكن الإسراع بالتحول إلى الاشتراكية، وذلك بإعمال العنصر الإرادي الذاتي تعويضاً عن عدم توافر الظروف الموضوعية المواتية، وكانت نتيجة ذلك في النهاية إطلاق آلية أوجدت ديكتاتورية لم تكن الجرائم التي ارتكبتها تختلف نوعياً عن تلك التي ارتكبها هتلر.

إن التحالف بين العمال والفلاحين أصبح شعاراً لتغطية ممارسات أسفرت في الحقيقة عن تجويع الفلاحين من أجل التصنيع! أي تم استخلاص التراكم الرأسمالي البدائي الضروري لإنجاز أهداف التصنيع من عمليات «تقشف» بلغت حد تجويع الفلاحين جماعة، فضلاً عن التصفية الجسدية للذين لم يكونوا من المعدمين ووصفوا بمستغلي الريف، وقد راح ضحية التحولات التي أجريت في الأرياف طوال الثلاثينات مواطنون سوفيات لم يقل عددهم عن عدد ضحايا الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية! ثم إن الحزب الشيوعي الذي نسب إلى نفسه صفة قيادة جموع الكادحين إلى التحرر والرفاهية، أصبح هو ذاته أداة تنفيذ القمع الذي اقتضاه إلزام الفلاحين بالرضوخ لحال «تقشف» بلغت حد التجويع على نطاق واسع. وأعضاء الحزب الذين

أبدوا معارضة لهذه السياسة الجهنمية، أو حتى مجرد تحفظات، تعرضوا هم أيضاً للقمع نفسه بدعوى أنهم كشفوا بتقاعسهم عن تنفيذ تعليمات قيادة الحزب عن هويتهم كـ !! «عملاء لقوى الرجعية» و«وكلاء للامبريالية» و«أعداء للشعب»! وحلت آلية القمع محل الإقناع، واختفى بذلك كيان الحزب وإرادته في وجه القيادة وإرادة القيادة في وجه الأمين العام، أي تجاه ستالين شخصياً، واسفرت «المركزية الديموقراطية» عن ديكتاتورية مطلقة. وأسفرت أجهزة القمع عن قوة تفوق قوة الحزب، وأصبحت النظرية الماركسية هي قراءة ستالين لها، ذلك أنه هو النظرية، وهو الصواب، وهو التاريخ، وكانت هذه الآلية مبعث عبادة الفرد، وتأليه القائد على نحو لا سابق له عبر التاريخ.

إن إقامة الاشتراكية من موقع دولة انتمت إلى القطاع المتخلف من العالم ترتبت عليها مآسي قرننا، كذلك ترتبت عليها مواجهة عنيفة من قطاع العالم الرأسمالي المتقدم، إذ كان بمقدور الاتحاد السوفياتي أن يبلغ من القوة ما أشعر النظام الرأسمالي العالمي بأنه معرض لتهديد يمس صميم كيانه، ولكن لم يبلغ المعسكر الاشتراكي من القوة ما سمح به بوضع حد نهائي لوجود النظام الرأسمالي. وترتبت على ذلك نشأة الفاشية أولاً ثم انقسام العالم معسكرين متضادين. وهكذا، بدلاً من ممارسة التحولات الاجتماعية بطريقة حضارية، جرت ممارستها وعلى جانبي خط المواجهة، بعنف لم ير التاريخ مثيلاً له، إن لم يكن بطريق الحرب، فبطريق الحرب الباردة، ومن خلال استقطاب عالمي حاد استوعب عبقرية العصر في إطلاق سباق التسلح النووي وأسلحة الدمار الشامل، ونشأ تناقض غريب، فالاشتراكية طرحت هدفاً لها إسعاد البشرية، لكن الوسائل التي اتبعتها لبلوغ هذه الغاية حملت في طياتها تعريض البشرية للهلاك، وهكذا تعارضت الوسائل مع الغاية، وقد يكون ذلك مقبولاً في مجتمع برجوازي لا يهيمن على مقدراته لأن القانون الذي يحكمه هو الجري وراء الربح، ولكن كيف تبريره في مجتمع ينسب لنفسه خاصية خلوه من التناقضات، والسيطرة على المصير؟

إذا صح في المجتمع الرأسمالي أن الجري وراء الربح هو الذي يحكمه وأن ذلك قيد على حريته، فإن المجتمع الاشتراكي ـ كما طبق في هذا القرن ـ حكمه اللحاق بالعالم الرأسمالي الأكثر تفوقاً، بأمل بلوغ ندية معه، وهذا أيضاً جرده من الحرية والسيطرة على المصير، بل بوسعنا الادعاء أن الاشتراكية التي دشنها الاتحاد السوفياتي

أسهمت في تطوير الرأسمالية أكثر مما أسهمت في القضاء عليها! كانت تحدياً للرأسمالية ألزمها تجديد نفسها، لكن لم يصل التهديد إلى حد المساس بصميم كيانها، فكانت الرأسمالية هي الرابحة في النهاية، وكان ذلك مؤشراً آخر على أن إقامة اشتراكية تنطلق من مواقع التخلف هي اشتراكية لا تسيطر على المصير ولا تتحقق لها مبررات الوجود. هذا يطرح علينا أسئلة مهمة: ماذا لو أن الاشتراكية انطلقت في الأصل من أكثر مواقع الرأسمالية نضجاً، لا من أضعف حلقات الامبريالية؟ ماذا لو أقيمت الاشتراكية في إعقاب الحرب العالمية الأولى، في بلدان تنتمي إلى قلب القارة الأوروبية، مثل ألمانيا؟ هل كان معنى ذلك أن يكون لمسار هذا القرن ملامح مختلفة نوعياً؟ وهل تصور ماركس عن الاشتراكية كان يصلح لمجتمعات الرفاهية في قرننا؟ ثم هل كان ذلك سوف يجنبنا العنف؟ هل كان من الممكن إقامة الاشتراكية بالأسلوب الحضاري لا بالعنف؟ هل كان من الممكن تجنب أن تصبح للمواجهة العسكرية الأسبقية على المواجهة الحضارية؟ بعبارة موجزة، هل كان الاتحاد السوفياتي ضرورة تاريخية، أم كان على العكس تشويهاً لمجرى التاريخ محكوماً عليه بالزوال، آجلاً أو عاجلاً؟

تطرح هذه الأسئلة بدورها أسئلة أخرى لا تقل أهمية: هل كان من الممكن إحياء التجربة السوفياتية من خلال عملية «البيريسترويكا» أم كانت العملية مجرد «معبر» جنب العالم هزة عنيفة بانتقال مجتمعات كانت طوال ٧٠ عاماً موطن الاشتراكية إلى مواقع الرأسمالية؟ ألم تكن «البيريسترويكا» في النهاية مجرد بناء فكري لتبرير تحويل المجتمع السوفياتي من مجتمع يؤمن بالتخطيط المركزي إلى مجتمع يؤمن باقتصاديات السوق، ومن مجتمع يقوم على أيديولوجية تتسم بالشمولية إلى مجتمع يسلم بالحاجة إلى الديموقراطية والتعددية؟

أذكر بأن كتاباً صدر منذ عدد من السنوات تضمن حواراً حول الاشتراكية والرأسمالية بين اقتصادي سوفياتي مرموق هو ستانسلاف منشيكوف والاقتصادي الأميركي الكبير جون كينيث غالبرايث، وقد ورد على لسان منشيكوف في هذا الكتاب أننا إذا ما استعرنا لغة الفيلسوف هيغل، فإنه قد يثبت مستقبلاً أن الرأسمالية كانت بمثابة الدعوى THESIS والاشتراكية بمثابة الدعوى المضادة ANTI-THESIS وأن مجتمع المستقبل سوف يكون نوعاً من المجتمع التركيبي الجامع لصفات استمدها من المجتمعين معاً SYNTHESIS، وقد بدا لي هذا المنطق غريباً وقتذاك، ذلك أن تعاليم الماركسية كانت تنادي بإقامة الاشتراكية، فالشيوعية على أنقاض الرأسمالية لا في عملية

تركيبية معها، والسؤال بالفعل مطروح: إلى أي حد يمكن اعتبار ما يجري الآن عملية تركيبية بين الاشتراكية والرأسمالية، أم مجرد تسليم من قبل الدولة الاشتراكية الأولى بأن التجربة الاشتراكية برمتها فشلت، وأن الخيار الوحيد الوارد هو الرجوع إلى آليات الرأسمالية، ومعنى ذلك في التحليل الأخير الأخذ بآليات اقتصاد السوق، وبفلسفة ترى أن مجرى التاريخ يصحح نفسه بنفسه، وأنه يتعين التخلي عن فكرة أن المجتمع كفيل بأن يسيطر على مصيره، وفق تصور جرى التخطيط له سلفاً؟

سمعنا كثيراً في السنوات الأخيرة على لسان مفكرين سوفيات، أنهم لن يقبلوا مرة أخرى بأن يكون مجتمعهم «معمل اختبار» لنظريات مستوردة من الخارج. معنى ذلك أنهم كفروا بالماركسية من فرط الاختناقات التي تتعرض لها حياتهم اليومية! إنهم اضحوا يرفضون فكرة أن النظرية خليقة بأن تهيمن على التطبيق، وأن التطبيق ينبغي تطويعه للنظرية، ورده إليها، وايجاد تفسير نظري له، وأن تأليه النظرية على هذا النحو سقط وفقد قدسيته نهائياً.

إن الاستراتيجية القائمة على إحلال الاشتراكية محل الرأسمالية عن طريق مواجهة عسكرية بين معسكرين أشهرت إفلاسها نهائياً، ولا يبدو أنه كان وارداً أصلاً أن يلحق المعسكر الاشتراكي ـ في عقود ـ بما أنجزه النظام الرأسمالي العالمي طوال قرون، وأن تتحقق ندية بين المعسكرين في عصر كانت الرأسمالية العالمية أكثر تهيؤا من الاشتراكية العالمية في استثمار وتوظيف مكتشفات الثورة التكنولوجية العصرية.

هناك من يدعون أن الاتحاد السوفياتي لم يختف، بل أعيد بناؤه في صورة «كومنولث» ضم في نهاية الأمر جل، إن لم يكن كل، الجمهوريات السوفياتية السابقة باستثناء جمهوريات البلطيق، وقد ألحقت بالاتحاد السوفياتي في ظروف شابتها شوائب لم تعد خافية، . وهناك من يقولون أن الذي جرى مجرد «إعادة بناء» على نحو ما، وامتداد في النهاية للـ«بيريسترويكا» ولكن من دون غورباتشوف، وبتعبير أدق: صيغة جديدة من الـ«بيريسترويكا» تنطلق من أن غورباتشوف أصبح عقبة في وجه السير بها إلى نهاية المطاف بعد أن كان الحافز الرئيسي في ابتداعها ابتداء!

إن الاتحاد السوفياتي حسب هذا التصور يكون قد حافظ على كيانه مع تحقيق قدر من التحديث، مسايرة لمتطلبات عصر مختلف، غير أنه تصور يعيبه أنه يغفل كلية البعدالأيديولوجي في بناء الاتحاد السوفياتي ـ مبرر كيانة أصلاً ـ ثم ينطلق من أن «الكومنولث» الجديد كفيل بأن يحقق انسجاماً يتسم بصفة الدوام بين الجمهوريات

التي ضمهاالاتحاد السوفياتي وهذا أمر مشكوك فيه، فقد كان للأيديولوجية الشيوعية، وللمؤسسة التي التزمت هذه الأيديولوجية وجسدتها ونسبت لنفسها صفة تمثيلها، أعني الحزب الشيوعي، كان لهذه المؤسسة التي هيمنت على الدولة وعلى أجهزتها القمعية الدور الحاسم في ضمان تماسك الاتحاد السوفياتي والحيلولة دون تفككه، بيد أن الحزب الشيوعي لم يعد له وجود، والـ «الكومنولث» الذي أقيم على أنقاض الشيوعية، فهل هناك عناصر ربط بديلة تتسم بصفة الدوام؟

هل من الوارد في ضوء غياب الأيديولوجية التي تبرر عملية التوحيد، وبعد إلغاء المركز المكلف السهر على هذا التوحيد، وفي ضوء ما جرى في يوغوسلافيا، الاحتفاظ بكيان يقوم على وحدات قومية وعرقية ودينية متنابذة؟ لقد أعلنت الجمهوريات السوفياتية الإسلامية في آسيا الوسطى موافقتها على الانضمام إلى رابطة الكومنولث، ولكن يصعب تصور انضواء هذه الجمهوريات بصورة مستقرة تحت لواء تجمع ضم في الأصل جمهوريات سلافية في غياب مؤسسات تقوم على أيديولوجية «اممية» موحدة، وإذا صح أن الجمهوريات الإسلامية لم يعد يربطها مع هذا الكومنولث إلا المصلحة الاقتصادية من منطلق أنها - خلافاً لجمهوريات البلطيق - المستفيدة اقتصادياً من استمرار هذه الرابطة، فإن المصلحة الاقتصادية بعد زوال الأيديولوجية تتحقق لها على نحو أفضل عن طريق روابط مع تجمعات خارج الاتحاد السوفياتي تلبي على نحو أفضل تطلعاتها، بعد طول غياب، إلى تأكيد هويتها الدينية والقومية. لذلك لا ينبغي استبعاد محاولات إقامة كتلة تركمانية تجتذب جمهوريات الكومنولث الإسلامية السنية مع دول إسلامية أخرى سنية مثلها ويكون لتركيا دور بارز في استقطابها، وقد تتشكل أيضاً كتلة شيعية يكون لإيران دور في بلورتها، ومن المتصور أن تنشط واشنطن لمحاولة احتواء الكتلة الشيعية بتشجيع قيام الكتلة التركمانية وبخاصة أن تركيا في نظر الغرب دولة إسلامية «مؤتمنة»!

إن الأسباب الداعية إلى ترابط الكومنولث في الحاضر المباشر عوامل ذات أهمية مؤقتة فقط، هي الحصول على إقرار من قبل الغرب باستبعاد غورباتشوف وإلغاء «المركز» وما يرمز له بالكرملين، الذي حملت اضفاء صفة الشرعية الدولية عليه معنى أن الماضي الشيوعي لم يتم اجتثاثه بعد! وهي أيضاً لطمأنة الغرب أن ترسانة الاتحاد السوفياتي من أسلحة الفتك بالجملة، وهي ثاني أكبر ترسانة من هذه الأسلحة في

العالم، لن تفلت من السيطرة ولن تغفل الاتفاقات الدولية التي وقع عليها الاتحاد السوفياتي بشأن تفكيك جزء منها ولن تهرب بعض أسلحتها إلى دول في العالم الثالث! ولكن هذه عوامل قصد بها إزالة هموم تشغل الغرب آنياً فقط، ولا تكفي لإرساء الكومنولث على أسس وطيدة.

ولو كان لي أن أبدي رأياً في ما يتعلق بالبعد الأيديولوجي فاني لا أعتقد أن رأسمالية الغد خليقة بإنهاء التاريخ، وبإشباع تطلع الشعوب إلى مجتمعات أعدل تكفل للمواطنين فرصاً أكثر تكافؤاً، ومع ذلك لا أعتقد أن هناك احتمال أن ينشأ مشروع اشتراكي جديد من موقع الدول التي تبنت هذه الأيديولوجية في الماضي، وأن الاشتراكية ان كان لها مستقبل، فانها سوف تنبع من مواقع جديدة تماماً كصيغة تعبر عن قفزة نوعية في المجتمعات الرأسمالية البالغة الرقي أو على نقيض ذلك تماماً، كتعبير في البلدان شديدة التخلف عن الصراع المستعصي الحل حتى الآن، لا بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، والأرجح أن العملية لن تكون هذا ولا ذاك، بمعنى أن الإقامة الجزئية للاشتراكية على قطاع من كوكبنا دون غيره وفي مواجهة مع قطاع آخر منه يتبنى الرأسمالية، سيناريو لم يعد له مستقبل، وأن الوارد الآن تحول جذري في المجتمع العالمي دفعة واحدة، ومن خلال عالم واحد، مترابط ومتداخل.

إن كلمة الاشتراكية إذا ما كان هناك حرص على الابقاء عليها إنما سوف ترمز مستقبلاً لمعنى تخطي آفاق الرأسمالية أكثر من أن تعني الرجوع مرة أخرى إلى تجارب شبيهة بتلك التي نسبت إلى الاشتراكية في القرن العشرين، ومع ظواهر التدويل التي أضحت تتسع لكل أوجه الحياة العسكرية فإن اشتراكية الغد سوف تكون عالمية أو لا تكون أصلاً.

اخر أيام «القيصر الثامن» في الكرملين!

سليم نصار(*)

مع إخراج ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشوف من قصر الكرملين، انتهت سياسة «بيريسترويكا» و«غلاسنوست» وراء مرحلة تاريخية خطيرة دامت ست سنوات وخمسة أشهر وثمانية أيام. وبخلاف مظاهر العنف التي ميزت حقب التصفيات الدموية منذ إعدام قيصر نيكولاي الثاني واغتيال تروتسكي وخنق بيريا، فإن عملية تسلم «القيصر الثامن» بوريس نيكولايفيتش يلتسن مقاليد الحكم، تمت من دون إراقة دماء. ولقد حسم موضوع ازدواجية السلطة بطريقة سلمية، وخرج غورباتشوف إلى المجهول منذ تشكيل «أسرة الدول المستقلة» في قمة مينسك وإعلان روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا إنهاء الكيان السوفياتي وإلغاء الدستور والقوانين والهياكل والمناصب الاتحادية.

آخر اجتماع مفاجىء بين غورباتشوف ويلتسن جرى يوم الثلاثاء ١٧ كانون الأول (ديسمبر ٩٢) بهدف ايجاد صيغة عملية للتعاون بينهما. واستغل الرئيس السوفياتي ترحيب واشنطن الحذر بقيام الاتحاد الثلاثي، ليتحدث عن أهمية استمراره رئيساً للثالوث السلافي، وإمكان استغلال صداقاته وعلاقاته بزعماء الدول الغربية للحصول على المساعدات الاقتصادية الملحة. ولما شعر أن يلتسين لم يتقبل اقتراحه بحماسة وتشجيع، طرح اسم الوزير شيفاردنادزه كشخصية قادرة على تمثيل «أسرة الدول المستقلة» في الشؤون الدولية. وتظاهر الرئيس الروسي بالاقتناع لكي يتدارس مع مستشاريه فوائد هذه الخطوة وأثرها السياسي على مستقبله. وبعد يوم واحد، أصدر يلتسين بلاغه الانقلابي الأول (الخميس ١٩ كانون الأول/ ديسمبر) القاضي

(*) صحافي وكاتب وباحث.

بسيطرة روسيا على قصر الكرملين، مركز السلطة في الاتحاد السوفياتي خلال العقود السبعة الماضية من الحكم الشيوعي. كما أعلن تولي الحكومة الروسية إدارة كل المباني والممتلكات والموجودات ومن ضمنها الأرصدة بالعملة الصعبة التابعة للرئيس السوفياتي والوزارة الاتحادية سابقاً. عندئذ فقط أدرك غورباتشوف أن صيغة الحكم الازدواجي المستمرة منذ آب (أغسطس) قد انتهت.. وأن منافسه حسم إشكالية العلاقة بعد إعلان استقلال كيان الدولة الروسية، خصوصاً أن الأشهر الأربعة الماضية إثبتت استحالة تعايش الرئيسين في إطار اتحاد لم يعد موجوداً.

ويجمع المراقبون الدبلوماسيون في موسكو على القول أن متاعب غورباتشوف الأولى بدأت بعد الانفتاح الواسع في السياستين المالية والاقتصادية بتوسيع إطار النهج الليبيرالي في الاتحاد السوفياتي. ولقد قادت هذه الخطوة المتسرعة إلى زيادة النزعات الانفصالية والحركات الاستقلالية بطريقة أدت إلى تفكيك وحدة الجمهوريات وإضعاف السلطة المركزية. وأعرب غورباتشوف عن مخاوفه من نتائج تصديع النظام السياسي والاقتصادي القديم قبل استكمال بناء أسس النظام الجديد. وشكا أمره للوزيرين الاسرائيليين اسحق موداعي وييغال نثمان أثناء زيارتهما لموسكو في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠. ونقلت صحيفة «معاريف» نص الحديث الذي دار خلال اللقاء، وذكرت أن الزعيم السوفياتي كشف أمامهما مخاطر الإلحاح الأميركي، وتمنى عليهما استنفار «اللوبي اليهودي» لتأمين الحاجات الضرورية مثل المعونات الاقتصادية والأغذية والأدوية. ونقلت الجريدة عن الوزيرين أن غورباتشووف طلب من الحكومة الاسرائيلية استخدام نفوذها في أميركا وأوروبا، متعهداً رد الجميل على صعيد تسهيل ظروف الاستثمارات الخارجية وضمان استمرار الهجرة اليهودية ورفع مستوى التمثيل الدبلوماسي مع الدولة العبرية.

الإدارة الأميركية تبلغت نداء النجدة عبر القنوات الرسمية الاسرائيلية، لكنها أحجمت عن القيام بأي مسعى انقاذي لأن العبء الاقتصادي أضخم من إمكانات الدول الصناعية مجتمعة.. ولأن غورباتشوف فقد زمام السلطة وبدأ نجمه يأفل. وطلب البيت الأبيض من البروفسور ألن لينش، مساعد مدير «مؤسسة أفريل هاريمان للدراسات المتقدمة عن الاتحاد السوفياتي» إجراء تقويم سياسي يتعلق باحتمالات سقوط غورباتشوف وأثر هذا الحدث على مستقبل العلاقات مع واشنطن. ووضع

لينش دراسة نشرتها مجلة «شؤون خارجية» يقول فيها إن خروج الرئيس السوفياتي من الكرملين لن يغير مجرى الأحداث.. وإن سقوطه لن يعيق اندفاع الثورة المضادة باتجاه تفكيك الاحتكار السياسي للحزب الواحد.

بعد استقالة وزير الخارجية شيفاردنادزه ووزير الاقتصاد الروسي فيودوروف، شعر غورباتشوف بالعزلة الداخلية المهينة. كما شعر بأن العالم الخارجي بدأ يميل عنه ويتعامل مع يلتسن بكثير من الفضول والاهتمام. وحاول انقاذ وضعه المتردي باستمالة المال الأجنبي إلى الاستثمار. لكن التقارير المحاذرة التي صدرت عن صندوق النقد الدولي ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولي والمصرف الأوروبي للإعمار والتنمية... هذه كلها أشارت إلى انخفاض الناتج القومي وازدياد نسبة التضخم وارتفاع الأسعار وعجز ميزان المدفوعات.

وهذه الانتكاسات شكلت علامة انعطاف في السياسة العالمية إزاء غورباتشوف ظهر أثرها السلبي في قمة الدول الصناعية السبع. كما ظهر في مؤتمر مدريد أيضاً أن الرئيس جورج بوش يعامل الرئيس السوفياتي كرمز سياسي مؤقت، لا كزعيم مستمر لدولة عظمى تستطيع التأثير على مجرى الأحداث في أزمة الشرق الأوسط. ولقد أعطى غورباتشوف شخصياً هذا الانطباع عندما لجأ إلى تقرير رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ليؤكد أن بلاده دخلت مرحلة الاختضار وأن عملية انقاذها تستدعي استنفار الدول الكبرى واهتمامها الجدي. وبدلاً من أن يبحث مع بوش وبيكر في السبل الآيلة إلى صوغ معاهدة سلام بين العرب واسرائيل، راح يسوّق مشروعه الاصلاحي ويحذر من مخاطر تفكيك النظام العالمي إذا ترك الاتحاد السوفياتي لمصير مجهول. ويستنتج من طبيعة المحادثات التي أجراها في مدريد، أن غورباتشوف كان يدافع عن آخر مواقعه السياسية.. وأن مسافة التراجع أصبحت محدودة بالأمتار والأيام. لذلك استعجل قبول دعوة شامير لزيارة اسرائيل. واقترح أن تتم خلال الأيام الأخيرة من عام ١٩٩١. ولما تدخل وزير خارجيته بوريس بانكين ليتمنى عليه تأجيلها إلى منتصف ١٩٩٢ لعل محادثات السلام تكون بلغت مرحلة مرضية للعرب، أجابه بحدة وانفعال قائلاً: «عندئذ... لن أكون في الكرملين!».

وكما توقع الرئيس السوفياتي لمصيره السياسي، جاءت الأحداث لتشهد على انهيار نفوذه المركزي في كل مكان، وتؤكد انتهاء التجربة الاشتراكية التي بدأها لينين عام

١٩١٧. وبما أن السلطة الاتحادية تفقد قيمتها ومعناها الحقيقي عندما تفقد السيطرة على الحكومة الروسية، فإن سلطة غورباتشوف فقدت قاعدتها الأساسية بانتخاب يلتسن رئيساً لروسيا.

وهكذا انتهت تجربة «بيريسترويكا» بعد ست سنوات ونصف السنة تقريباً، خرج بعدها مطلقها وراعيها إلى المجهول، وخرجت معه الأمبراطورية السوفياتية من الأمم المتحدة لتعود إليها في صيغة جديدة لخمس عشرة جمهورية مستقلة. ومع أنه لا يوجد إجماع على تفسير الأسباب التي قادت إلى نهاية الشيوعية - الماركسية - اللينينية، إلا أن هناك قناعة عامة في موسكو بأن غورباتشوف لعب في كل هذه الأزمة دور المهندس الذي يصمم منزلاً لكي يسكن فيه بوريس يلتسن!

في ضوء هذه المتغيرات التاريخية، ظهرت أعراض خطيرة على كومنولث الجمهوريات الجديدة فرضت على الدول الغربية إعلان خطة دفاعية لمواجهة الانهيار الاقتصادي واحتواء مضاعفاته الصعبة. ولقد سارعت أميركا وحليفاتها الأوروبيين لعقد مؤتمر طارىء لتدارس نتائج هذه المرحلة الحاسمة، وتقويم انعكاساتها على الاستقرار العالمي. وكما دفعت نزاعات الأقليات خلال الصيف الماضي أكثر من أربعة ملايين إلى الهرب من لاتفيا وأستونيا ومولدافيا وأرمينيا وليتوانيا وأذربيجان وجورجيا، فإن زعماء أوروبا الغربية يتوقعون لجوء عشرة ملايين إلى البلدان المتاخمة إذ اشتدت المجاعة، وعمت الفوضى، وانهار تشكيل أسرة الدول المستقلة.

ويتخوف خبراء الخارجية في موسكو من خروج جمهوريات آسيا الإسلامية نهائياً عن صيغة المشاركة بحيث يولد واقع جيو- سياسي جديد يؤثر على منطقة الخليج وتركيا مباشرة. كما يؤثر بالتالي على التوازنات الاستراتيجية إذا عقد حلف الدول الإسلامية معاهدة دفاعية مع ايران. ويبدو من تحركات طهران الأخيرة أنها تصب في اتجاه تحسين علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع هذه الجمهوريات، وأنها في صدد توسيع نفوذها التجاري بطريقة تستميلها وتبعدها عن موسكو.

والملاحظ أن أنقرة سارعت هي أيضاً لجني بعض المكاسب من ميراث الأمبراطورية المنهارة، فاعترفت بأذربيجان وفتحت قنصلية في «باكو» وفتحت خطاً جوياً مع جمهوريات أسيا الوسطى. كل هذا بانتظار تردي الأوضاع، واستباق الأحداث في الجمهوريات الخمس ذات الغالبية المسلمة والأقلية من أصل تركي. وبما

أن التنوع القومي والعرقي والديني واللغوي هو الظاهرة الأكثر بروزاً في الدولة السوفياتية السابقة، فإن سيطرة موسكو على القرارات السياسية والاقتصادية والعسكرية في الجمهوريات الخمس عشرة، يبدو أمراً مستحيلاً، خصوصاً بعد إعلان حل الحزب الشيوعي، وظهور أحزاب وطنية ترفض تطبيق القوانين المركزية.

في آخر حديث لـه مع الصحيفة الايطالية «لاستامبا» قال غورباتشوف، إنه خائف من أن تؤدي عملية تشكيل دول مستقلة إلى تفكيك البلاد. ووصف هذا الأمر بالكارثة التي قد تؤدي إلى بعث الوحش التوتاليتاري الشمولي الذي عمل جاهداً لإخضاعه والتغلب عليه. وقال إنه اتصل بجورج بوش قبل تقديم استقالته، وطلب منه الاعتراف بهذه الجمهوريات لابقائها ضمن إطار الديموقراطية. وفي تقديره أن انحراف الأحداث عن الخط المرسوم لها، سيزيح عن المسرح السياسي كل اللذين في السلطة. وهو بهذه «المرافعة» كان يحذر الغرب من الطوفان... ومن زلزال آخر يحطم النظام الذي قام عليه الاستقرار العالمي!

البكاء على الاتحاد السوفياتي

كامران قره داغي(*)

لا جدال في أن الحدث التاريخي الأهم الذي يختتم به العام ١٩٩١ هو نهاية الاتحاد السوفياتي الذي لم يقدر له الاستمرار ولو عاماً آخر ليمكنه الاحتفال بمرور ٧٥ عاماً على قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ التي غيرت مسار التاريخ العالمي وصارت المحور الرئيس في علاقات دولية حددتها حرب باردة دامت كل هذه العقود.

ويدخل كثيرون العام الجديد بمشاعر مختلطة. فالبعض يتطلع بأمل إلى عالم جديد ممثل بدول مستقلة تشيد نفسها على أنقاض الأمبراطورية الماركسية التي أصدر سقوطها دوياً ربما لا يوازيه إلا الدوي الذي تركه سقوط الأمبراطورية العثمانية عشية انتصار «الثورة الاشتراكية الكبرى» في روسيا. بينما يدخل البعض الآخر العام الجديد وهو يذرف الدموع غزيرة على العالم السوفياتي القديم الزائل الذي اعتبر بزوغ شمسه البلشفية إيذاناً بقيام عالم جديد يبشر بالسعادة الأبدية في أول جنة أرضية، فخاب ظنهم.

هل يستحق الاتحاد السوفياتي أن تذرف عليه الدموع أم ينبغي أن تنحر القرابين تيمناً بزواله الأدبي؟ وربما الأصح طرح السؤال بصيغة أخرى: هل ينفع ذرف الدموع على الأمبراطورية السوفياتية أم الأجدى بالمنتحبين عليها أن يتعظوا بهذا الدرس البليغ في التاريخ ويخرجوا بالاستنتاج الصحيح المتمثل في عجز الأيديولوجيات التوتاليتارية عن البقاء ولو استمرت حيناً؟

لقد أدى نشوء الأمبراطورية الماركسية في روسيا مطلع هذا القرن إلى إن تظهر على هامشها سلسلة من الأنظمة التوتاليتارية بعضها مما عرف بالمنظومة الاشتراكية العالمية دار مباشرة في فلكها وبعضها الآخر، مما أبتلي به العالم الثالث وخصوصاً دول عربية، وصف تارة بالأنظمة السائرة في طريق غير رأسمالي وتارة أخرى بالأنظمة الديمقراطية الثورية. ولا حاجة للتذكير بالمصير المحتوم غير المشرف الذي آلت إليه هذه الأنظمة إثر الانهيار التاريخي لما سمي «المعسكر الاشتراكي».

(*) صحافي وكاتب وباحث.

ومشكلة المنتحبين على الاتحاد السوفياتي تكمن في عجزهم عن إدراك حركة التاريخ واستيعاب معنى ما حدث وأدى إلى زوال هذه الأمبراطورية. فهم غير قادرين على فهم أن هذا الزوال جاء نتيجة منطقية لحالة مصطنعة وشاذة. وليس أدل على هذا العجز من أنهم ينحون باللوم على غورباتشوف «صنيعة» الاستخبارات الأميركية ويحملونه مسؤولية تفكيك الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي. كأن الأمبراطوريات يمكن تأسيسها أو تفكيكها بمشيئة فرد. ولعل الحسنة التي لا يمكن نكرانها على الماركسية هي أنها حددت بدقة دور الفرد في التاريخ ووضعته في الإطار الصحيح. فالافراد يلعبون دوراً معيناً في التاريخ وقد يعجلون في مساره أو يؤخرون إلى حين. وفي هذا الإطار أيضاً ينبغي تقويم دور غورباتشوف.

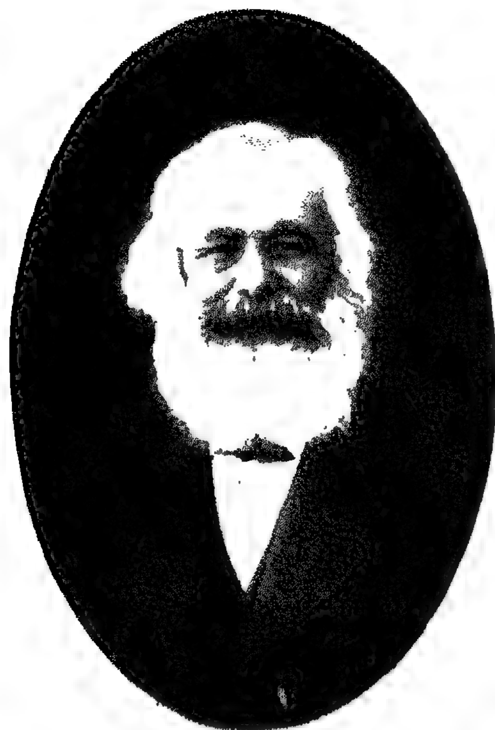
أما المسار النهائي للتاريخ فتقرره قوانين الطبيعة الثابتة والمحتومة. والثابت والمحتوم هو أن ما ينفع الناس يمكث في الأرض وأما الزبد فيذهب جفاء.



ملحق مصوّر

الاتحاد السوفياتي

(١٩١٧ ـ ١٩٩٢)



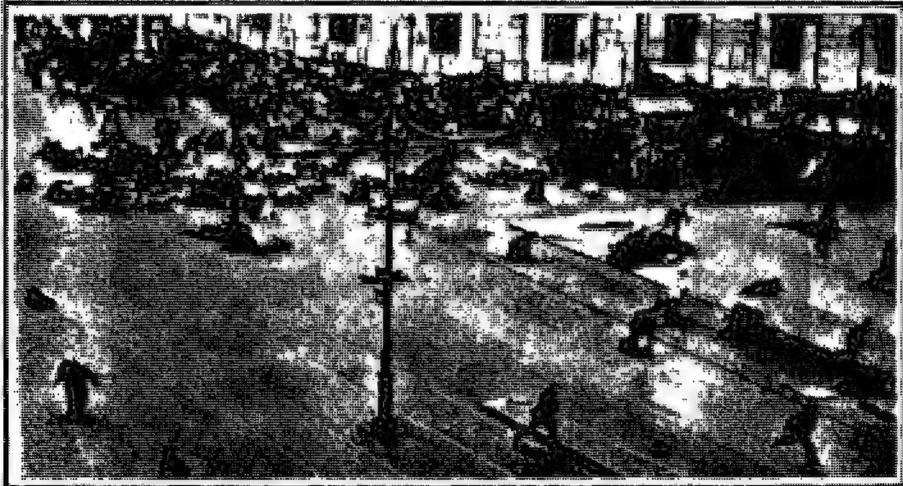
ـ كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)
فيلسوف الشيوعية



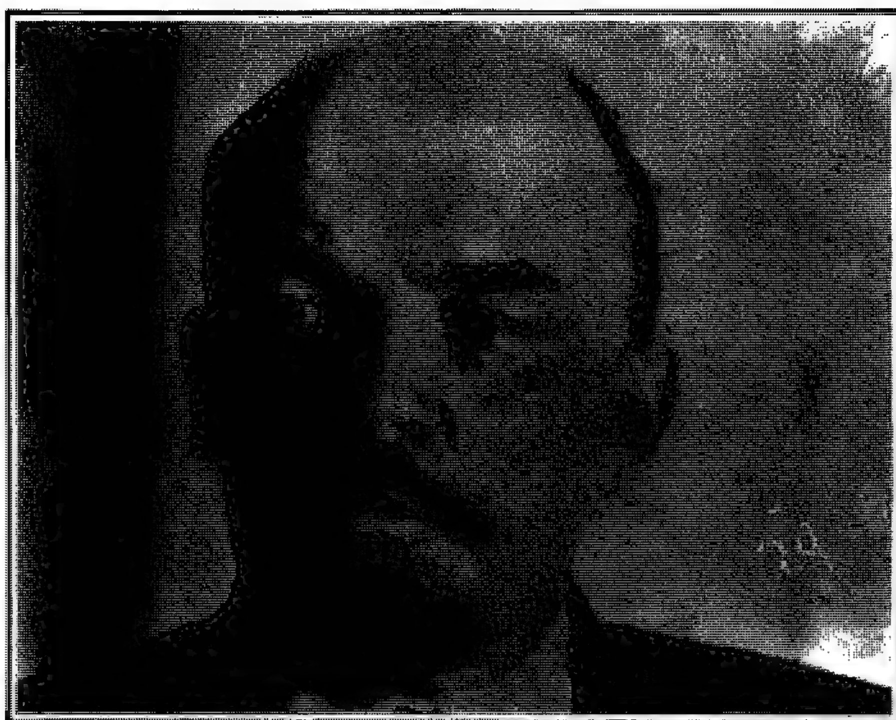
ـ ضريح ماركس في بريطانيا



نيقولا الثاني: آخر القياصرة الروس



ثورة البولشفيك في بتروغراد ـ تموز ١٩١٧ التي أطاحت بالقيصر



لينين... قائد الثورة الشيوعية



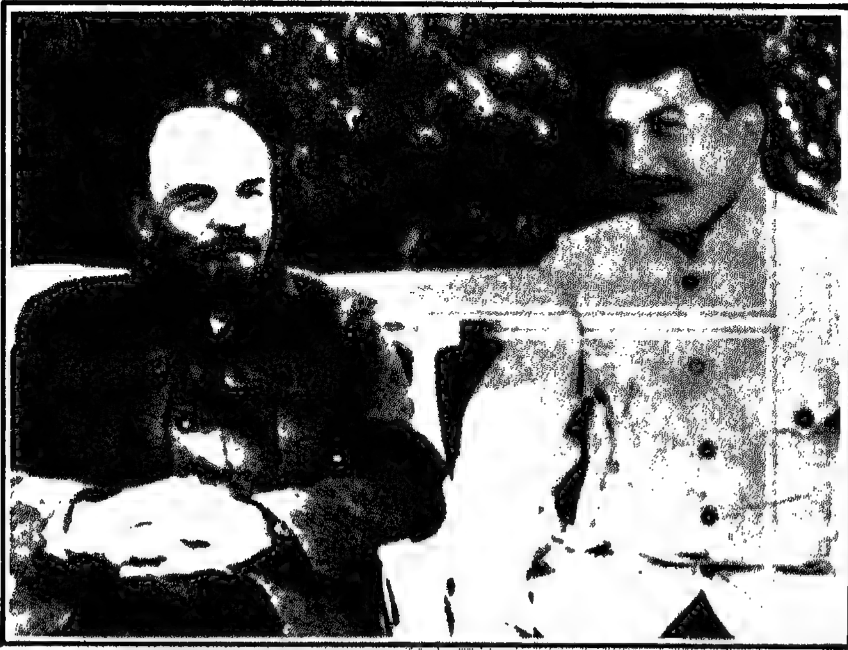
... وفي أول خطاب له بالساحة الحمراء



الثورة... للرسام سافيتسكي



ستالين وأركان حكمه: (في المقابل): بيريا، (في الوسط، أعلى يميناً) مولوتوف وخروتشوف، (أسفل يميناً) ميكويان وكاغونوفيتش



لينين وستالين... السلف الشيوعي والخلف الديكتاتوري (١٩٢٢)



تروتسكي مع بعض ضباط الجيش الأحمر







الجنرال جوكوف بطل صمود ستالينغراد

ستالينغراد: أشرس معارك الحرب العالمية الثانية

أكثر من مليون قتيل و١٤ شهراً من الحصار (أيلول ١٩٤٢ ـ تشرين الثاني ١٩٤٣)



مؤتمر طهران: تشرين الثاني ١٩٤٣ ـ تشرشل وروزفلت وستالين
الهدف: مواجهة ألمانيا النازية



مؤتمر يالطا: شباط ١٩٤٥ ـ أقطاب مؤتمر طهران مع مساعديهم
الهدف: اقتسام أوروبا



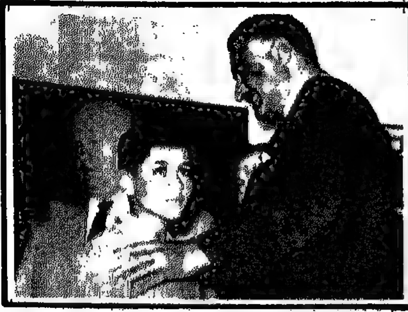
الدبابات الروسية في برلين الشرقية بعد هزيمة هتلر



المقاومة الشعبية للسوفيات في برلين الشرقية (١٩٤٥)



حول نعش ستالين (يساراً): خروتشوف، بيريا، مالينكوف، بولغانين، فوروشيلوف، كاغانوفيتش.



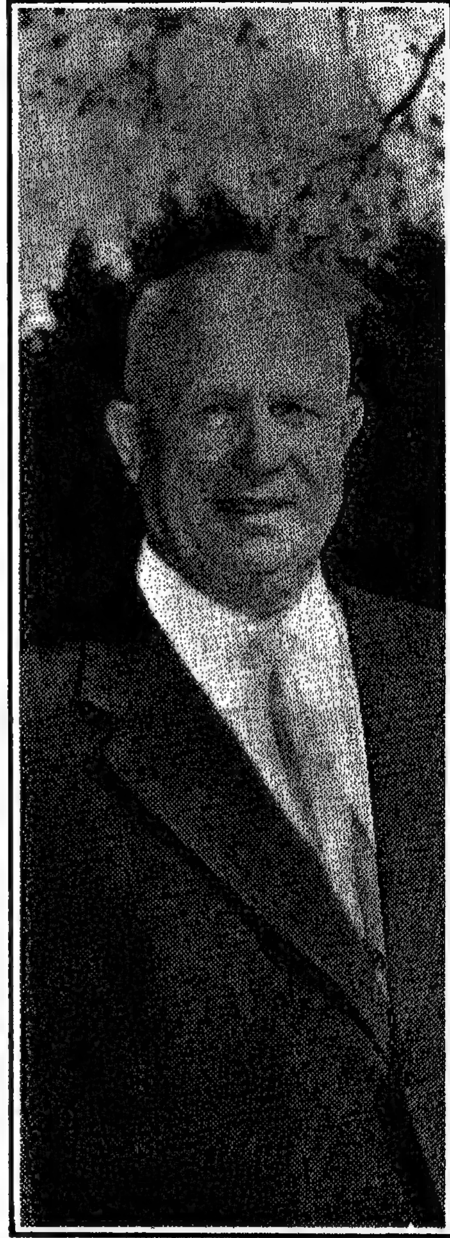
... مع الرئيس جمال عبد الناصر
(القاهرة ١٩٦٤)



... مع الرئيس الأميركي جون كنيدي
وعقيلتيهما - فيينا (حزيران ١٩٦١)



... مع الرئيس الصيني ماوتسي تونغ
(موسكو ١٩٥٧)



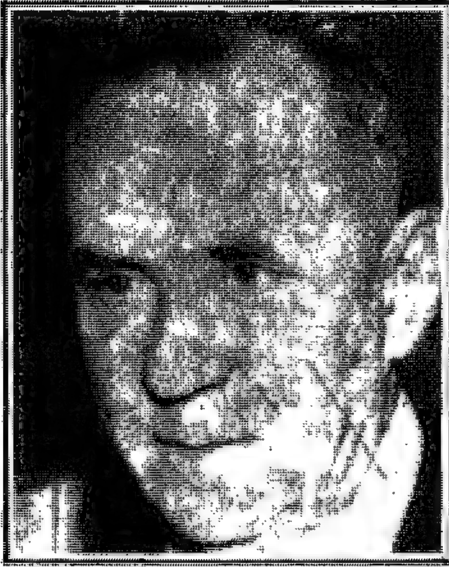
نيكيتا خروتشوف (١٩٥٣ - ١٩٦٤)
زعامة الحزب والحكومة



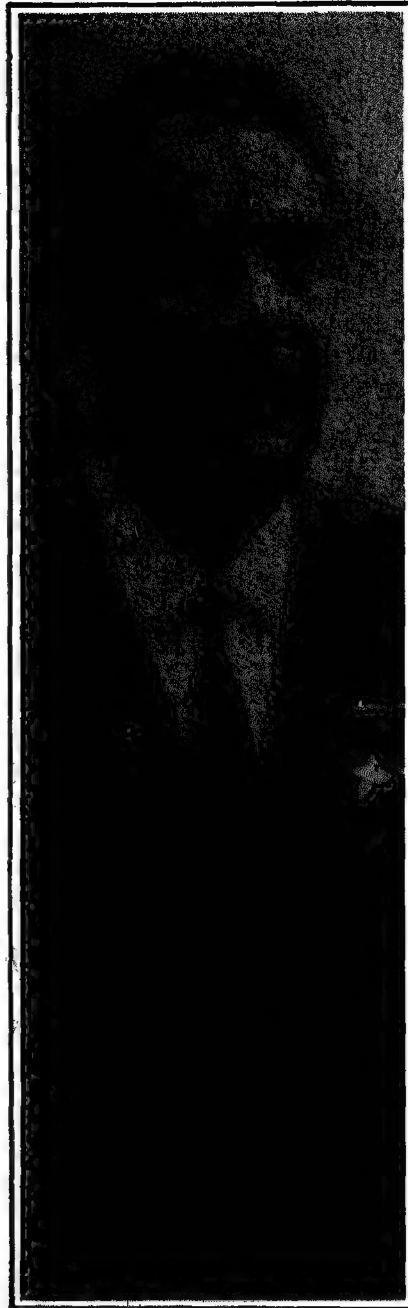
جدار برلين... (١٩٦١ - ١٩٩٠)



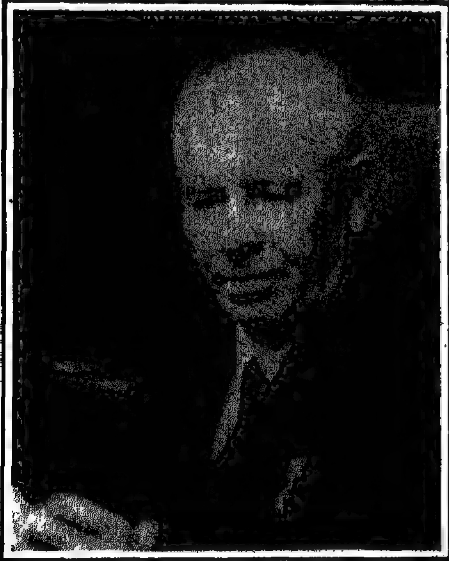
الصور الجوية للصواريخ في كوبا والتي كادت أن تشعل حرب عالمية (أكتوبر ١٩٦٢)



ألكسي كوسيغين: رئيساً للحكومة
(١٩٦٤ - ١٩٨٠)



ليونيد بريجنيف (١٩٦٤ - ١٩٨٢)
زعيم الحزب



نيكولاي بودغورني رئيس مجلس
السوفيات الأعلى (١٩٦٥ - ١٩٧٧)

(ترويكا الحكم بعد إزاحة خروتشوف)



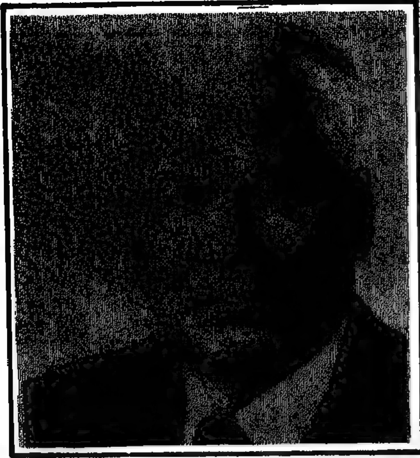
الغزو السوفياتي لأفغانستان (١٩٧٩)



مقاومة المجاهدين للغزو وإجبار السوفيات على الانسحاب



يوري أندروبوف حكم المخابرات للدولة:
(١٩٨٢ ـ ١٩٨٤)



قسطنطين تشيرننكو الأكبر سناً
والأقصر حكماً (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥)



أندريه غروميكو
من دبلوماسية الربع قرن (١٩٥٧ ـ ١٩٨٥)
إلى رئاسة الدولة (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)



جينادي ياناييف:
الرئاسة بانقلاب دام
ستين ساعة فقط (١٩ ـ ٢١ آب ١٩٩١)



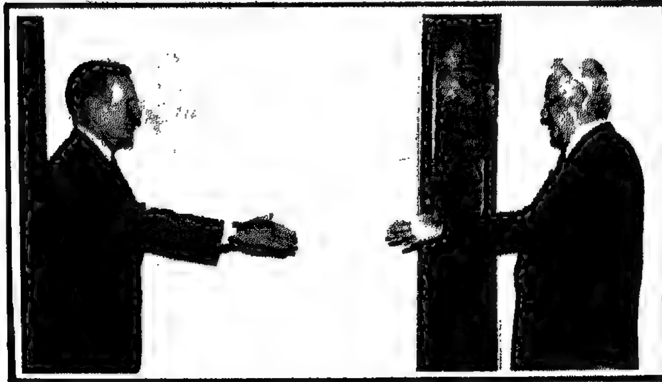
ميخائيل غورباتشوف...
أشعل النار فاحترق مع الاتحاد السوفياتي
الأمين والرئيس (١٩٨٨ - ١٩٩١)

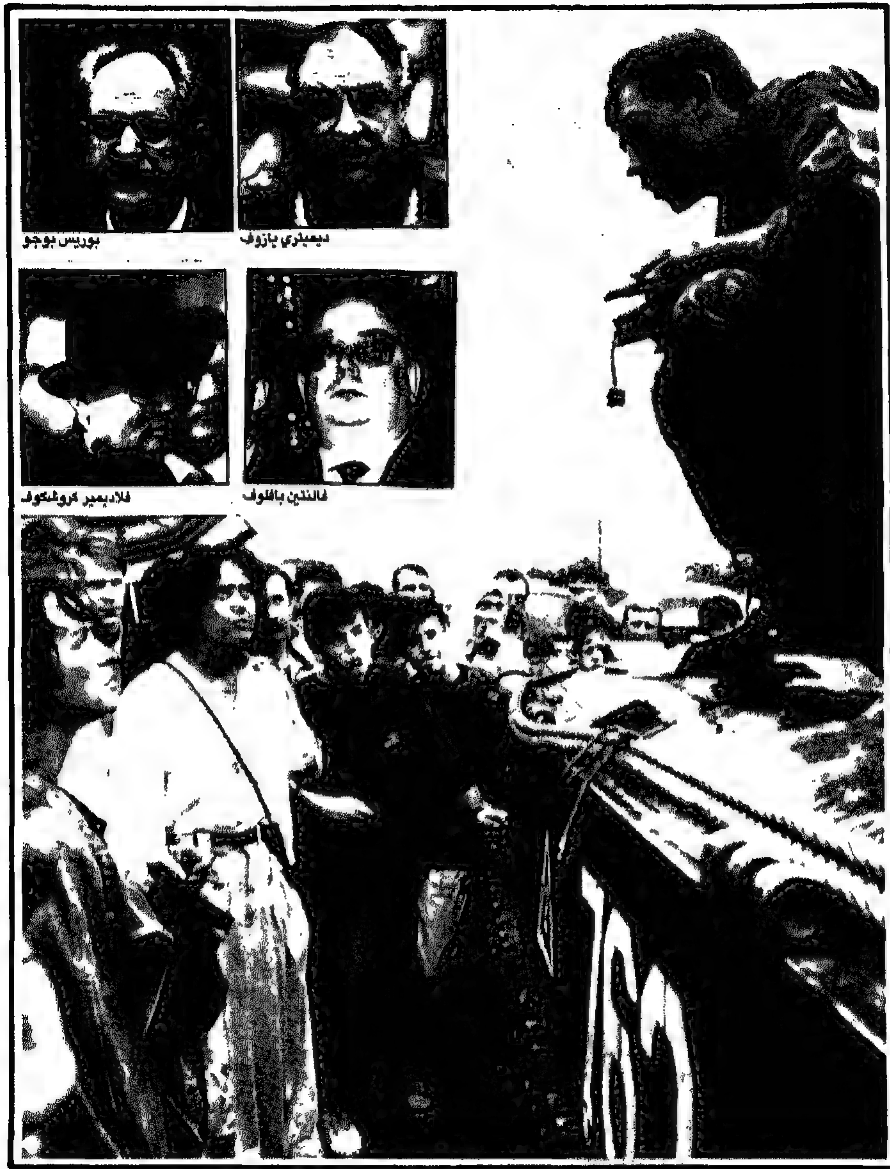


بوريس يلتسين...
قيادة حركة استقلال الجمهوريات
رئيس جمهورية روسيا المستقلة (١٩٩١)



... مع الرئيس الأميركي جورج بوش





انقلاب الثلاثة أيام (آب ١٩٩١)

الصور أعلى: قادة الانقلاب





الهجرة اليهودية السوفياتية إلى (أرض الميعاد)



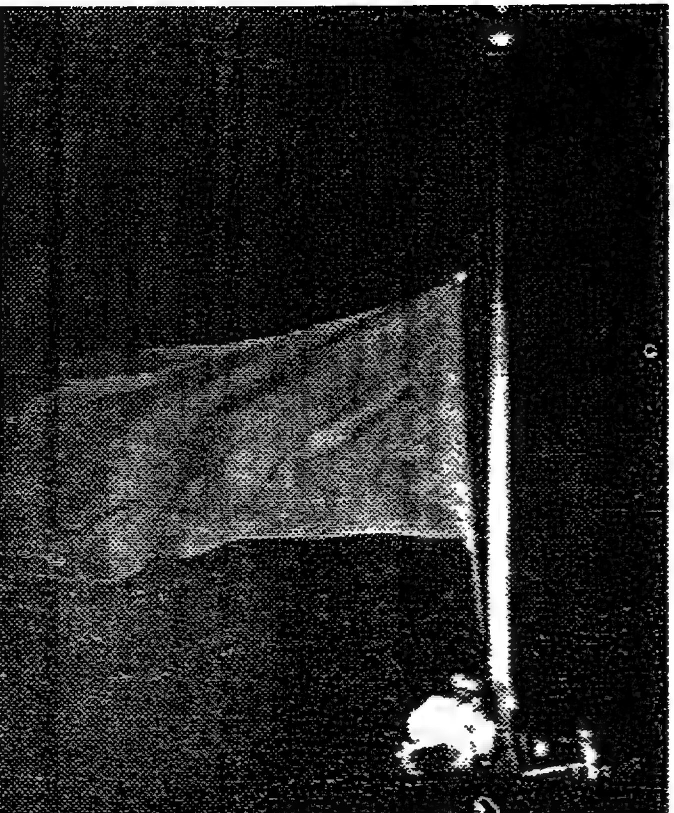
مهاجر يهودي . . . بالاقتراع والسلاح يحدد مصير اسرائيل



بعد إعدام لينين. . . صحيفة البرافدا تحت الأقدام



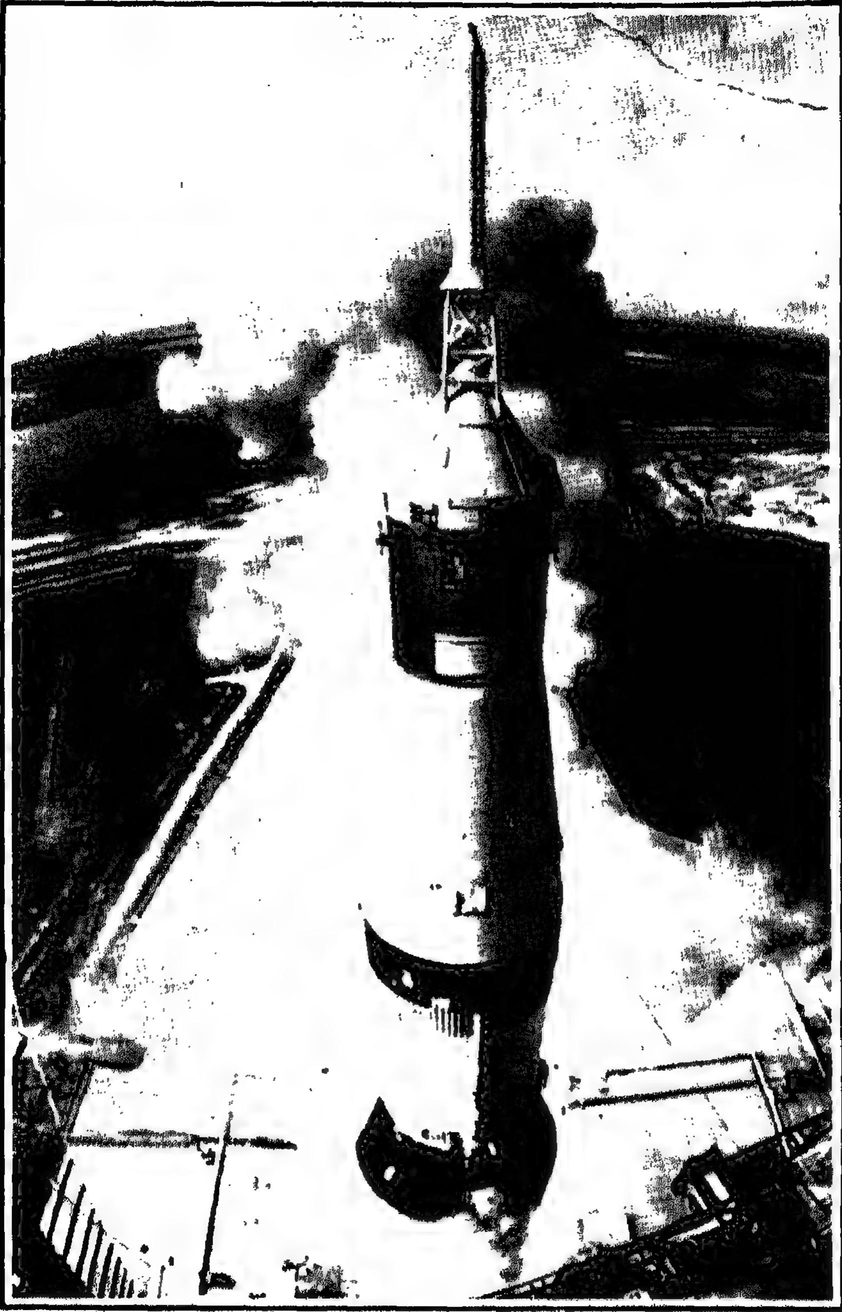




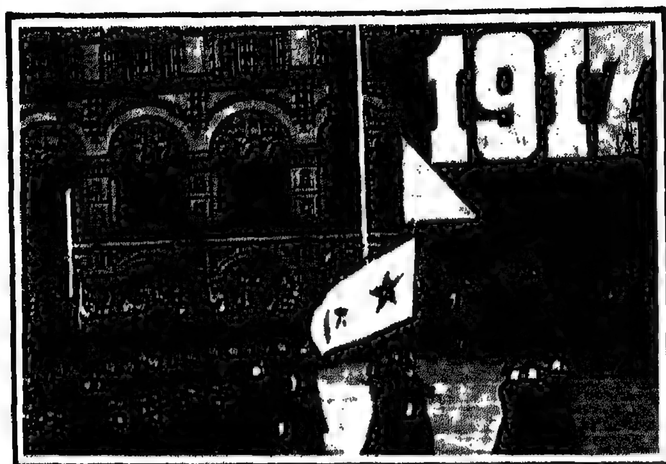
وداعاً...

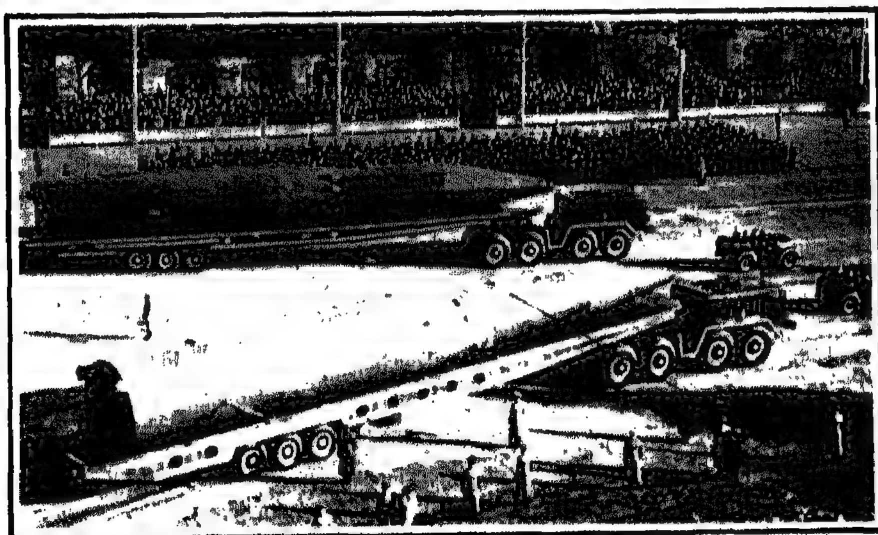
انتهاء دولة لينين

رفع العلم الروسي وإنزال العلم السوفياتي فوق الكرملين ـ ٢٦/ ١٢/ ٩١



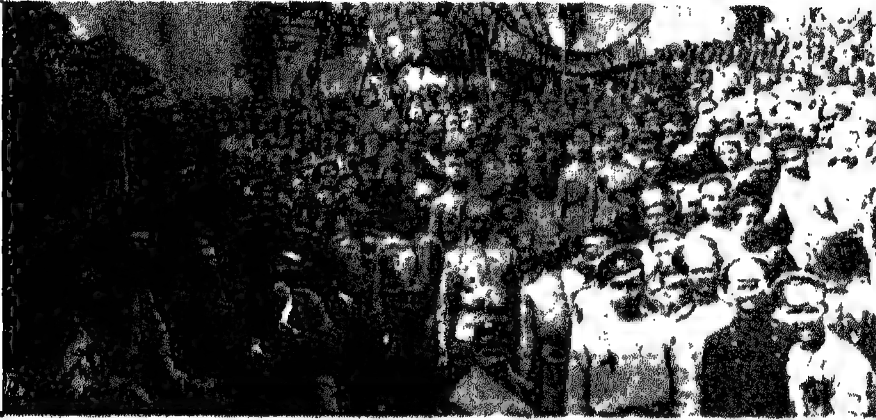
رائدة في الفضاء الخارجي





القوة العسكرية العملاقة







الثورة الروسية . . البداية : (أكتوبر ١٩١٧)





بداية النهاية... الانقلاب على الثورة (١٩٩١)

المحيط المتجمد الشمالي

اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية

كازاكستان

منغوليا

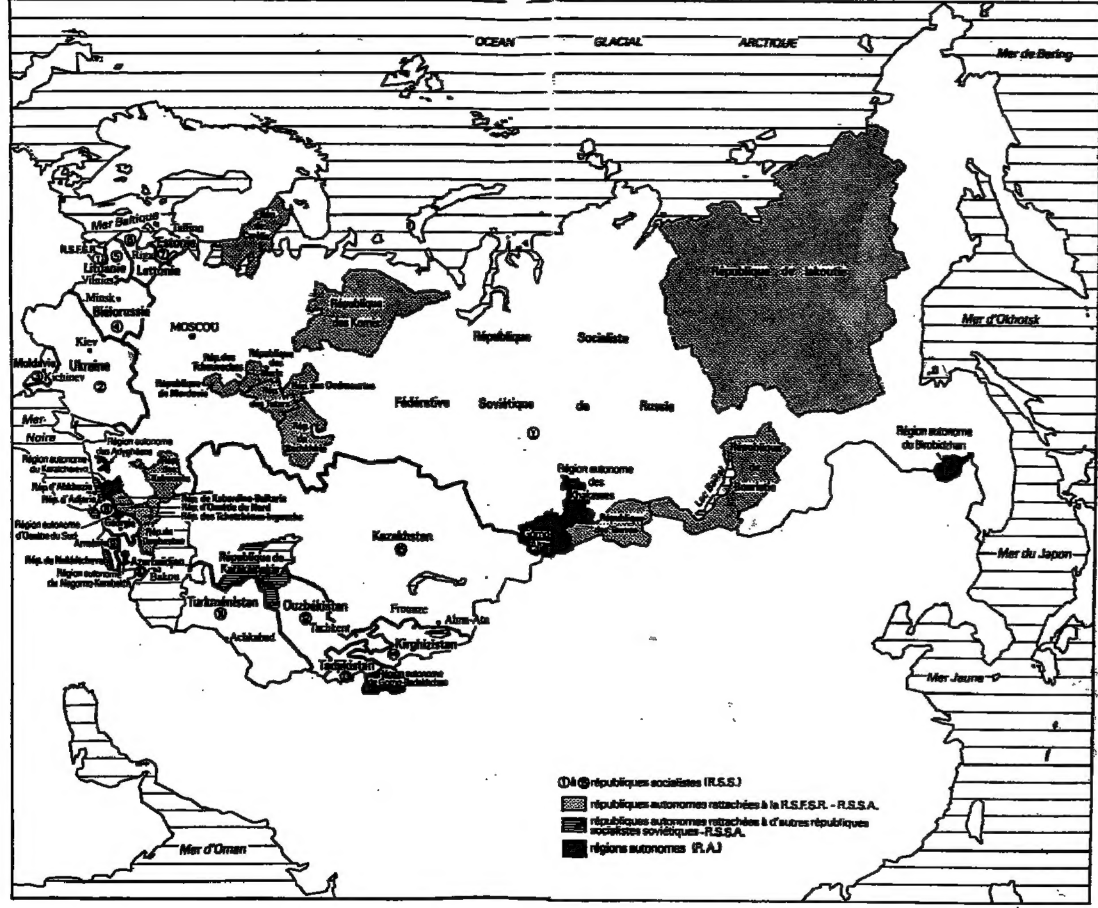
منشوريا

اليابان

الصين

إيران

الاتحاد السوفياتي (١٩٢٢ ـ ١٩٩١)



بعد الانهيار ـ الجمهوريات المستقلة ذات السيادة (١٩٩٢)





الواقع الحالي: حروب داخلية . . . وصرعات عرقية

مراجع الكتاب

- الموسوعة السياسية
- جريدة الحياة اللندنية
- جريدة الديار اللبنانية
- كتاب «العرب والسوفيات» - محمد حسنين هيكل
- مجلات ودوريات وتقارير أجنبية وعربية
- تاريخ العالم المعاصر
- كتاب «جواسيس للبيع» - دار الحسام - بيروت
- كتاب أشهر القادة السياسيين - دار الحسام - بيروت
- مجلة الوسط - لندن
- جريدة البرافدا - موسكو
- المختارات - دار التقدم : موسكو
- Historia
- كتاب «اليهود صناع الجريمة» - وليم كار - ترجمة

- The Soviet Union Adrift Richard Pipes.
- Soviet Power in Europe coit D.Blacker.
- Gorbachev: Triumph and Failure Robert G. Kaiser.